أدهم شرقاوي
"قس بن ساعدة"

السيرة

واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ!

kalemat

ART_OF_BOOK

ART_OF_BOOK

@ART_OF_BOOK

السِّيرة

واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ!

أدهم شرقاوي
«قِس بن ساعِدة»

دار كلمات للنشر والتوزيع
البريد الإلكتروني:
Dar_Kalemat@hotmail.com
الموقع الإلكتروني:
www. kalemat.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

* All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

ردمك: 978-9921-809-95-4

الإهداء!

إلى المرأةِ التي أحبّتِ النّبيّ ﷺ كما لَم يُحِبّه أحدٌ، على كثرةِ مُحبّيه!

إلى التي آمَنَت بِهِ حينَ كَفَرَ بِهِ النّاس!

وصدّقته حينَ كذّبَهُ النّاس!

وأعطتْهُ حينَ حرَمَهُ النّاس!

إلى التي كانَت حبيبَتَهُ وصديقَتَه، وجهتَهُ الآمِنةَ!

إلى التي كانَت كتفَهُ، وعكّازَهُ، وجَيشَهُ حينَ عزّ الجُنود!

إلى المرأةِ الّتي لَم يَملأ مَكانَها في قَلبِهِ أحد،

فَبَقِيَت بعدَ مَوتِها كما كانَت في حياتِها: تلكَ الفَريدةُ التي لا تَتَكرّر.

إلى أمّي خَديجةَ بِنتِ خُوَيلِدٍ، رَضِيَ اللهُ عَنها، أُهدِي هذا الكتابَ!

نِيابةً عن الأُمّةِ، عِرفانًا بفضلِها، واعترافًا بِمكانَتِها!

المقدمة:

الحمدُ للهِ الذي بنعمتِهِ تَتِمُّ الصَّالحاتُ، أحمَدُه سبحانَهُ حمدًا يليقُ بجلالِهِ وكمالِهِ، وأستعينُه على طاعتِه، وأستغفرُه من الزَّللِ والخطايا، وأشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ؛ شهادةً تُنيرُ لنا الدَّربَ وتثبِّتُ لنا القدمَ. وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ؛ أرسلَهُ اللهُ رحمةً للعالمينَ، فبلَّغَ الرِّسالةَ وأدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأمَّةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ حتى أتاهُ اليقينُ. فصلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ عددَ ما تعاقبَ الليلُ والنهارُ.

هذا كتابٌ عنوانُه: السِّيرةُ، واقعٌ يُعاشُ لا تاريخٌ يُقرأُ!

قصدتُ فيهِ أن أقرِّبَ السِّيرةَ من حياتِنا قُربَ النَّفسِ من الجسدِ. فإنَّ سيرةَ النبيِّ ﷺ ليست ماضياً نتفرَّجُ عليه؛ بل مستقبلًا نَعبُرُ إليه، ومنهجًا يصلُحُ لكلِّ عصرٍ ومِصرٍ وحالٍ. وهو عملٌ لا يلغي جهدَ من سبقَ ولا يدَّعي الإحاطةَ بما سيأتي؛ بل هو حلقةٌ في سلسلةِ الخيرِ الممتدَّةِ منذُ كُتبتِ السِّيرةُ أوَّلَ مرَّةٍ في الصُّدورِ قبلَ السُّطورِ، وهو تمهيدٌ لِمَن سيكتبُ بعدي، ودعوةٌ لتتواصلَ الرِّحلةُ دونَ توقُّفٍ.

وقفتُ في صفحاتِهِ عندَ محطاتِ حياتِهِ ﷺ منذُ لحظةِ الفجرِ الأوَّلِ لِمولدِهِ المباركِ، حيثُ انقشعتْ أولى غيومِ الجاهليةِ، وحتى لحظةِ انتقالِهِ إلى الرفيقِ الأعلى، حينَ بكتِ السَّماءُ والأرضُ لفقدِهِ. رافقتُ سيرتَهُ في مكَّةَ طفلًا، ثم صادقًا أمينًا، ثم نبيًّا مُبلِّغًا، وفي المدينةِ قائدًا وحاكمًا ومعلِّمًا ومربِّيًا.

وسِرتُ معهُ ﷺ في دعوتِهِ، حيثُ بَذَلَ الرُّوحَ قبلَ الجسدِ، وفي جهادِهِ حيثُ كانَ السَّبيلُ محفوفًا بالمكارهِ، وفي صبرِهِ على الأذى حتى ضاقتْ به الطُّرقُ إلَّا طريقَ اللهِ، وفي هجرتِهِ الَّتي خطَّتْ على رمالِ التَّاريخِ بدايةَ أمَّةٍ. كما عرجتُ على غزواتِهِ ومواقفِهِ مع أوليائِهِ وأعدائِهِ، وعلى عدالتِهِ ورحمتِهِ وحكمتِهِ وتعاملِهِ مع الناسِ كافَّةً؛ فكانَ ﷺ قرآنًا يمشي على الأرضِ.

وفي كلِّ موقفٍ من مواقفِ حياتِهِ، اجتهدتُ أن أستنبطَ دروساً، وأن

أستخلص عبراً، لأنَّ غاية هذا الكتاب أن يربط القارئ بالواقع أكثر مما يشغلهُ بتفاصيلِ الماضي، وأن يجعلَ السّيرةَ منهج حياةٍ نحياهُ ونجاهدُ به أنفسنا، لا مجرّد صفحاتٍ نطويها ثم نُهملُها.

وأدينُ بالشكرِ لِكلِّ مَن استفدتُ من علمِهِ وفهمِهِ وجهدِهِ، ممَن أفادني ولم يتّسع هذا الكتابُ لذكرِ أسمائهم، فالعلمُ ميراثُ الأنبياء، ولا يبلغُ أحدٌ فيه شيئًا إلّا بفضلِ اللهِ ثم بميراثِ مَن سبقوه.

وأسألُ اللهَ العظيمَ أن يجعلَ هذا العملَ خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفعَ به كاتِبَهُ وقارئَهُ، فما كان فيه من صوابٍ فمن فضلِ اللهِ وتوفيقِهِ، وما كان من خطإٍ أو تقصيرٍ فمن نفسي وضعفي، واللهُ غفورٌ رحيمٌ.

واللهَ أسألُ أن يجعلَ لنا في سيرةِ نبيّنا ﷺ زادًا لا ينقصُ، وأن يجمعنا به عندَ الحوضِ، وتحتَ لِوائِهِ، وفي ظلِّ رحمةِ ربِّ العالمينَ.

والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسّلامُ على خاتمِ أنبيائه وسيّدِ خلقِهِ محمّدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ!

البشريّة قبل البعثة الشّريفة!

كوكبٌ مميزٌ للشّفقة!

إنّ أفظعَ مأساةٍ قرأتُ عنها يوماً هي تاريخُ هذه البشريّة على ظهرِ هذا الكوكب!

ليلٌ دامسٌ طويلٌ كليلِ القُطبِ الشّماليّ الذي يستمرُّ أشهراً، ثمّ تأتي عليه الشّمسُ بضعةَ أيّامٍ، ثمّ ما يلبثُ أن يعودَ سيرته الأولى، أيّامُ الشّمس هذه هي فتراتُ النّبوّةِ التي كانت تُعيدُ وضعَ أقدامِ النّاسِ على الطّريق المؤدية إلى الله، بعد أن ابتعدوا كثيراً!

أو كسِكّيرٍ مخمورٍ على الدّوام، لا يَصحو إلّا قليلاً، لحظاتُ الصّحو هذه كانت وقتَ الرّسالاتِ السّماويّة التي كانت تُعيدُ ضبطَ الإنسانِ، بعد أن فقدَ بوصلتَهُ، وتاهت خُطاه!

مئةٌ وأربعةٌ وعشرونَ ألفَ نبيٍّ أرسلهمُ اللهُ تعالى، هذا العددُ المَهولُ يُريكَ مدى رحمةِ اللهِ بالنّاسِ، ويُريكَ أيضاً مدى ظلمِ النّاسِ لأنفسهم!

مئةٌ وأربعةٌ وعشرونَ ألفَ مرّةٍ تاهتِ الخُطى فاحتاجتْ إلى تصحيحٍ!

فإن قيل: ألَمْ تقُمْ للبشريّةِ حضاراتٌ؟!

ألَمْ تكن هناك إمبراطوريّاتٌ، ودُوَلٌ، ومُدُنٌ، وحكوماتٌ؟!

ألم تكن هناك مُخترعاتٌ، وصناعاتٌ، وزراعةٌ، وتجارةٌ؟!

ألم تكن هناك معارفُ، وآدابٌ، وفلسفاتٌ، وأشعارٌ؟!

فالجوابُ: بلى، قد كان كلُّ هذا!

ولكنّ السّؤالَ الذي يطرحُ نفسه: كيف كان الإنسانُ؟ وكيف كانت علاقتُهُ مع اللهِ؟!

بأيّ ثمنٍ قامتْ هذه الإمبراطوريّاتُ؟ وبأيّ قانونٍ حكمتْ، وأيّ لواءٍ

حملتْ؟!

فيمَ استُخدِمتِ المخترعاتُ؟ ولأيّ غرضٍ كانت الصّناعاتُ؟!

مِن أيّ قِيمٍ انبثقتِ المعارفُ والآدابُ؟ وأيّ قيمٍ حملتْها الفلسفاتُ والأشعارُ؟!

الأهراماتُ يا لها من صُروحٍ عظيمةٍ، بناها مئاتُ آلافِ العبيدِ تحت جِلْدِ السّياطِ!

وقد وُجِدَ فيها حِكَمٌ، وأشعارٌ، وتجاربُ مكتوبةٌ بخطٍّ أنيقٍ على ورقِ البرديّ، في عهدِ فراعنةٍ كان الواحدُ منهم يتزوّجُ أختَهُ، حفاظاً على نقاوةِ الدّمِ الملكيّ المقدّسِ!

نصفُ إنسانٍ، ونصفُ إلهٍ، هكذا كان الفرعونُ يرى نفسَهُ، وهكذا كان يراهُ النّاسُ!

واحدٌ من هؤلاءِ الفراعنةِ، رأى ذاتَ ليلةٍ في منامِهِ ناراً تجتاحُ قصرَهُ، فأوّلها المعبّرون بغلامٍ يولدُ في بني إسرائيلَ يكونُ زوالُ ملكِهِ على يديه! فقام بذبحِ كلِّ مولودٍ ذكرٍ يُولدُ فيهم، على مدى عشرينَ عاماً كان ذبحُ الأطفالِ جارياً على قدمٍ وساقٍ، ثمّ جاءه قومُهُ يستشفعونَهُ برحمتِهِ وعدلِهِ. ثمّةَ معضلةٌ اقتصاديّةٌ: من أين يحصلونَ على الأيدي العاملةِ إذا استمرّ بذبحِ هؤلاءِ العبيدِ، الذين لم يكونوا كذلك، ولكنّهم استعبدوهم بعد أن عادوا إلى شركِهم الذي توقّفوا عنه زمنَ يوسفَ عليه السلام !

لم يتردّد فرعونُ في إظهارِ رحمتِهِ وعدلِهِ! قال لهم: اذبحوا أطفالَ بني إسرائيلَ عاماً، وذَرُوهُم عاماً!

هذه صفحةٌ واحدةٌ مِن كتابٍ كبيرٍ يسمُّونَهُ حضارةَ الفراعنةِ!

في بلادِ ما بين النّهرين قامتْ ممالكُ تُوصَفُ بأنّها كانت عظيمةً، حكَمَها ملوكٌ أشدّاءُ، وكان فيها قوانينُ وشرائعُ، ويُقالُ إنّ أوّلَ حرفٍ خُطّ في تاريخِ البشريّةِ كان هناك، خطّوه بالمساميرِ على ألواحِ الطّينِ!

مشهدٌ مهيبٌ، أليس كذلك؟!

بلى، ولكنّه قِشرةٌ جميلةٌ لِحَبّةِ فاكهةٍ يأكلُها العفنُ من الدّاخلِ!

جاء إبراهيمُ عليه السلام إلى النّمرود، أحدِ ملوكِ تلك البلادِ، يدعوهُ إلى اللهِ تعالى، وجعل يُعدِّدُ عليه صفاتِ الخالقِ القديرِ، الواحدِ الأحدِ، الجديرِ وحدَهُ بالعبوديّةِ، وأنّهُ الذي يُحيي ويميتُ!

أخذتِ النّمرودَ العزّةُ بالإثمِ، كان النّاس يعبدونهُ، فأراد أن يُظهِرَ قدراتِه، أخبرَ إبراهيمَ عليه السلام أنّهُ أيضاً يُحيي ويُميتُ، فأحضر سجينَينِ محكومَينِ بالإعدامِ: قتلَ واحداً، وعفا عن الآخرِ، وقال لإبراهيم عليه السلام : أنا أيضاً أحيي وأميتُ!

يا لِضحالةِ الفكرِ، ومرضِ المنطقِ!

فأخبرهُ إبراهيمُ عليه السلام أنّ اللهَ يأتي بالشّمسِ مِن المشرقِ فَأْتِ بها مِن المغربِ إن كنتَ صادقاً! فَبُهِتَ الذي كَفَرَ!

فلا النّمرود تراجعَ، ولا النّاس عزفوا عن توليفةِ الشِّركِ العجيبةِ التي كانوا عليها، عبادةُ النّمرود ومعهُ الأصنامُ، كانوا مشركين في شركِهم، لا هم عبدوا النّمرود وحده، ولا هم عبدوا الأصنامَ وحدها!

والذي أرسلَهُ اللهُ تعالى إليهم ليهديَهم سواءَ السّبيلِ، ألقوهُ في النّارِ!

أيَصِحُّ بعد هذا أن نقولَ: أنظُروا إلى الفلكِ الذي أقاموهُ، والحرفِ الذي كتبُوهُ؟!

أم أنّه لا يصحُّ مع هذا كلِّهِ إلّا الأسى على الذي كان عليه النّاسُ؟

في رُوما المدينةِ الدّولةِ، وإن شئتَ فَقُلْ: واحدةٌ مِن أعظمِ الإمبراطوريّاتِ في تاريخِ البشريّةِ!

تماثيلُ منحوتةٌ بإتقانٍ، وطُرُقٌ مرصوفةٌ ببهاءٍ، وأبنيةٌ مُشيّدةٌ بأناقةٍ، ورخامٌ ساحرٌ أنّى ولّيتَ وجهَكَ!

فلاسفةً وسجالاتٌ فكريّةٌ، أشعارٌ وموسيقى، وأباطرةٌ وسّعوا حدودهم حتّى غدت أكبرَ مِن قدرتِهم على بلوغِ آخرِها!

وكان هناك أيضاً برلمانٌ، ومجلسُ شعبٍ منتخبٌ!

كلُّ شيءٍ من الخارجِ كان أنيقاً، ولكنّك إذا غُصتَ في أعماقِها، بدت لك كتفّاحةٍ شهيّةٍ نخرتِ الدودةُ أحشاءَها فلا تصلحُ إلّا للفُرجةِ!

حضارةٌ مِن رُخامٍ لامعٍ قامتْ على أشلاءِ المضطهدين، وزينةٌ برّاقةٌ ظاهرُها المجدُ وباطنُها القسوةُ والعارُ!

بريقٌ زائفٌ يُخفي وراءَهُ ليلاً مِن الاستبدادِ الطويلِ، وصرحٌ مُشيّدٌ لكنّه قائمٌ على الدّماءِ والدُّموعِ!

كان المُجتمعُ الرّومانيُّ صرحاً للظُّلمِ الصّارخِ، تُساقُ فيه الأرواحُ كما تُساقُ الأنعامُ إلى حدِّ السّكينِ! وتُزهقُ فيه النّفوسُ على مذابحِ الشُّهرةِ والدّماءِ!

هناك في ساحاتِ المُجالدةِ، حيث الجميعُ يهتفُ كالرّعدِ، يُلقى بالعبيدِ والأسرى في صراعٍ لا رحمةَ فيه، صراعٌ بين إنسانٍ أعزلَ ووحشٍ كاسرٍ، أو بين جسدَيْنِ بشريَّيْنِ يتناحرانِ حتّى يسيلَ الدّمُ أنهاراً، فتتصاعدُ صيحاتُ الفرحِ من أفواهٍ اعتادتْ التلذُّذَ بمشهدِ الموتِ!

لقد غدا الإنسانُ عندهم أُلعوبةً لِلَهوٍ عابرٍ، ولقمةً سائغةً لمخالبِ السِّباعِ، لا قيمةَ لكرامتِه، ولا اعتبارَ لإنسانيّتِهِ!

وفي ظلِّ هذا الطغيانِ الأرضيِّ، كانتِ السّماءُ عندهم محجوبةً بالأصنامِ والأوثانِ، يعبدونَ حجارةً صاغوها بأيديهم، فيُقرّبون لها القرابينَ الحيّةَ، إلى آلهةٍ لا تُجيبُ دعاءً ولا تدفعُ بلاءً!

فاجتمعَ عليهم ظلامانِ: ظلامُ الاستعبادِ في الأرضِ، وظلامُ الضّلالِ في الإيمانِ، فلا عدلٌ يردعُ الجبابرةَ، ولا نورٌ يهدي الحَيارى!

أمّا بلادُ فارسَ فلم تكن بِدعاً بين البلادِ القديمةِ، كانت على شاكلتِها في جوهرِها، وإن تمايزتْ عنها في الشّكلِ تمايزاً لا يُسمِنُ ولا يُغني من جوعٍ!

تسلّط الأكاسرةُ على النّاسِ تسلُّطَ السّيفِ على الرِّقابِ، وجعلوا النّاس درجاتٍ، منهم السّادةُ الذين يملكونَ مصائرَ الخلقِ، ومنهم العبيدُ الذين قتلُ الآلافِ منهم كقتلِ الواحدِ!

وفي ظلِّ هذا الظُّلمِ، أُهينت إنسانيّةُ الإنسانِ، فاستُعبدت المرأةُ حتّى غدتْ متاعاً يُورَثُ، وزُوِّجت بغيرِ إرادتِها كما تُزوَّجُ البهائمُ لأجلِ النّسلِ، وبيعَ العبيدُ في الأسواقِ كالسّلعِ، وأُلقيَ بالضُّعفاءِ في خدمةِ الثّرواتِ والأهواءِ!

أمّا دينُهم فقد كان عبادةً للنّارِ! عقيدةٌ انعقدتْ على لهبٍ لا يُنيرُ طريقاً ولا يهدي قلباً!

أشعلوا النّيرانَ في المعابدِ، وسجدوا لها سجودَ الخاشعينَ، وطافوا حولها طوافَ المُخلِصينَ!

تلك باختصارٍ كانت بلادُ فارس: قصورٌ عاليةٌ تلمعُ بالذّهبِ، لكنَّ جدرانَها مُشيّدةٌ على جراحِ المظلومينَ! حضارةٌ ظاهرُها البذخُ والعظمةُ، وباطنُها سوادٌ مِن الطغيانِ والضلالِ!

فإن كانت هذه هي حالُ أعظمِ الممالكِ والإمبراطوريّاتِ في تاريخِ البشريّةِ، فكيف كان حالُ غيرِهم؟!

وإن كانت هذه البلادُ التي أثرتْ تاريخَ البشريّةِ بعلومِها وفنونِها وفلسفتِها وتشريعاتِها، فكيف كانت تلك الأممُ التي عاشت على هامشِ الحضارةِ!

مأساةُ تاريخِ البشرِ على هذه الأرضِ، يُلخّصُهُ لك حديثُ النّبيِّ ﷺ في صحيحِ مسلمٍ: «إنَّ اللهَ نظرَ إلى أهلِ الأرضِ فمقتَهم، عربَهم وعجمَهم، إلّا بقايا مِن أهلِ الكتابِ»!

أمّا عن العربِ في الجاهليّةِ، فيا لَبُؤسِ العربِ!

كانتِ الجاهليّةُ بحراً متلاطماً من الظُّلمِ والضلالِ، تغرقُ فيه القلوبُ كما تغرقُ السّفينةُ في بحرٍ هائجٍ!

حياتُهم موحِشةٌ كصحرائِهم، لا ظلَّ فيها لعدلٍ، ولا ماء فيها لرحمةٍ، القويُّ يفتكُ بالضَّعيفِ، والغنيُّ يزدري الفقيرَ، والنَّاسُ مقاماتٌ، والعبدُ يُباعُ كالمتاعِ، ويُورَّثُ كما تُورَّثُ الإبلُ!

عبدوا الأصنامَ، وحنَوا لها الرؤوسَ، وقدَّموا لها القرابينَ، بل إنَّ بعضهم كان يصنعُها مِن تمرٍ، يعبدُها ثمَّ إذا جاع أكلها!

أمَّا المرأةُ فقد كانت أشدَّ الخلقِ بؤساً، تُورثُ كما يُورثُ المالُ، وتُهانُ كما يُهانُ العبيدُ، بل كان بعضُهم يئِدُها وهي طفلةٌ، فتُدفنُ في التُّرابِ خشيةَ العارِ، وما العارُ إلَّا الغزوُ الذي جرَّهُ بعضُهم على بعضٍ!

وكانت العصبيَّةُ الجاهليَّةُ ناراً تأكلُ القلوبَ، فالثأرُ عندهم دمٌ لا ينطفئُ، تُزهقُ لأجلِهِ الأرواحُ جيلاً بعد جيلٍ، ولربَّما بدأ الثأرُ على سباقِ نوقٍ، فأشعلَ حرباً دارتْ رحاها أربعينَ عاماً، فطحنتِ الأخضرَ واليابسَ!

نعم، كانَ في القومِ بعضُ أخلاقٍ حسنةٍ، هي بقيةُ الفطرةِ، والجذوةُ الأخيرةُ المشتعلةُ من قبسِ النبوَّاتِ، ولكنَّ المحصِّلةَ أنَّها كانت جاهلةً عمياءَ!

وما أشبهَ اليومَ بالبارحةِ، وما هذه ببعيدةٍ عن تلك!

في العالمِ اليومَ دُوَلٌ وحضاراتٌ، تقدُّمٌ علميٌّ ومخترعاتٌ، صعدتِ البشريَّةُ ظهرَ القمرِ، ولكن في الأرضِ ما زالتِ الدِّماءُ تُسفكُ، والأرواحُ تُزهقُ، والحروبُ مشتعلةٌ لأجلِ النفطِ والنُّفوذِ، ولا يهمُّ ما هو الثَّمنُ، أو مَن هو الثَّمنُ!

نحن نعيشُ اليومَ صورةً طبقَ الأصلِ عمَّا عاشه النَّاسُ في ظلِّ الممالكِ والإمبراطوريَّاتِ، ثمَّةَ بهرجٌ برَّاقٌ لا أحدَ يُنكِرُه، ولكنَّ العفنَ في الدَّاخلِ!

حين كانت تتوهُ خطواتُ البشرِ كانت النُّبوَّةُ تُعيدُها إلى رشدِها، أمَّا الآن فقد خُتِمتِ الرِّسالاتُ برسالةٍ كفيلةٍ أن تُصلحَ خُطى البشرِ كلَّما طاشتْ، ولأنَّه لا يمكنُ انتظارُ رسولٍ جديدٍ، فمن البديهيِّ أن نتفرَّسَ في الرِّسالةِ، وأن نُلزِمَ بها النَّاسَ، إلزامَ المُشفِقِ عليهم، الذي يريدُ الخيرَ لهم، لا إلزامَ الذي جاء

ليستعلي عليهم بالحقّ الذي عنده!

إنّ سيرةَ النّبيّ ﷺ ليست حوادث ميتةً، ولا تاريخاً جامداً. إنّها أسلوبُ حياةٍ، ودستورُ أمّةٍ، وقانونُ عملٍ، نحتاجُ أن نقرأها بعيونِ هذا العصرِ، ونُنزّلَها على الأحداثِ والمواقفِ. فاللهمّ بِكَ أصولُ، وبِكَ أجولُ، وبِكَ أحاولُ!

قبلَ أنْ تبدأ الحكاية!

من الميلادِ إلى البعثة

نبيٌ بعد نبيٍّ كانوا يُبشّرون بمجيئه، وبتعاقب النُّبوّات تعاقبتِ البِشارات، وبمرور السّنوات الطّوال أخذت الهُوّة بين البشارة وتحقُّقِها تضيق، كلّما تقدّمنا في الزّمن صِرنا أقرب، إلى أن حطّتِ النُّبوّةُ رِحالها عند عيسى ابن مريم عليه السلام ، كان الحلقة ما قبل الأخيرة في سلسلة المرسلين، هذه الصّفوة المصطفاة التي أنارتْ ظُلمات القلوب بإذن ربّها لقرونٍ طوالٍ، آن أن يكون لها ختام، القافلة التي بدأت سيرها ببعثة آدم عليه السلام ، صارت الآن قاب قوسين أو أدنى من بلوغ وجهتها الأخيرة، لهذا لم تعد البشارة فضفاضة كما كانت من قبل، ولا حظّ للكِناية بعد الآن!

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾!

هكذا يُذكر الاسم صريحاً، ما عاد في الزّمن متّسع، هذا زمان نبيٍّ قد أزِف، هَكذا قال قسّ بن ساعدة للعرب يوم خطب بهم في سوق عكاظ، كان النّبيُّ ﷺ شاهداً يومها، ولم يكن قد تجاوز الثّانية عشرة من عمره، ولم يخطر على باله ولو للحظة أنّه سيكون الحكاية كلّها!

كان من الممكن أن أبدأ في السّيرة الشّريفة من لحظة نزول الوحي، هذا أنّ أعمار الرّجال الحقيقيّة لا تبدأ من لحظة الميلاد، وإنّما من اللّحظة التي يبدؤون فيها بترك بصمتهم على هذا الكوكب! غير أنّ أربعين عاماً طوالاً، هي الفاصلة بين ميلاد الشّخص وميلاد الرّسالة، كانت زاخرةً بالأحداث المتعلّقة بما سيأتي!

ثمّة مواقف في سيرة النّبيّ ﷺ قبل البعثة الشّريفة لا يمكن ولا بأيّ حالٍ من الأحوال القفزُ عنها!

نعم بدأ الوحيُ بلحظة، ولكنّ هذه اللحظة كان لها ما قبلها. كان يُعدّ بإتقانٍ ليصيرَ هذا العظيم الذي كان. كان يُهيّأ بطريقة مذهلة، لا يقدر عليها إلّا ربٌّ عليمٌ، ليُغيّر هذا الكوكب إلى الأبد!

أ. الميلاد: السّطرُ الأوّلُ من الحكاية!

يمرّ الزّمان بالمكان على تقدير أراده الله تعالى، فتولد الأحداث العظام التي لا تعود الدّنيا بعدها كما كانت قبلها!

أمّا المكان: شِعْبُ أبي طالب في مكّة.

وأمّا الزّمان: يومُ الإثنين، التّاسع من شهر ربيع الأول، عام الفيل!

عامُ الفيلِ صفحةٌ فريدةٌ في دفترِ التّاريخِ؛ عامٌ تلاقى فيه كبرياءُ الطغيانِ مع قداسةِ المكانِ، فكان أنِ انتصرتْ قداسةُ البيتِ على صَلَفِ القوّةِ!

خرجَ أبرهةُ الحَبشيُّ من اليمنِ يحملُ مشروعًا مُتغطرسًا: أن يُحوّلَ وِجهةَ القلوبِ عن مكّةَ إلى كنيسةٍ بناها في صنعاءَ، فجهّزَ جيشًا جرّارًا يتقدّمه فيلٌ عظيمٌ، ومضى حتّى بلغَ مشارفَ مكّةَ. هنا تتجلّى لحظةُ الإيمانِ الكبرى؛ فلم يكنْ في يدِ العربِ يومها سيفٌ يصدُّ الجيوشَ، لكنْ كان في قلوبِهم يقينٌ بأنّ للكعبةِ ربًّا يحميها. قال عبدُ المُطّلبِ لأبرهةَ كلماتٍ صارتْ مثلًا في التّاريخِ: «إنّ للبيتِ ربًّا سيحميهِ»، ثم انصرفَ مُطمئنًا وأسلمَ الأمرَ لصاحبِ البيتِ.

وعند حدودِ الحرمِ وقفتِ القوّةُ العمياءُ عاجزةً؛ أبى الفيلُ أن يتقدّم نحو الكعبةِ، فإذا وُجّه بعيدًا عنها مشى، وإذا وُجّه إليها بركَ في الأرضِ! ثم كانتِ الضربةُ السّماويّةُ التي خلّدها القرآنُ: إرسالُ طيرٍ أبابيلَ تحملُ حِجارةً صغيرةً تُهلكُ بها الجيشَ، فينهارُ مشروعُ الاستكبارِ عند أبوابِ مكّةَ، ويبقى البيتُ آمنًا كما أرادَ اللهُ.

كان عامُ الفيلِ إعلانًا صارخًا أنّ للأماكنِ المُقدّسةِ حُرمةً يحرسُها القَدَرُ، وأنّ القوّةَ ليستْ في عددِ الجنودِ ولا ضخامةِ الفيلِ، بل في الحقِّ الذي يصمدُ حين تسقطُ كلُّ مظاهرِ القوّةِ. هكذا زالَ أبرهةُ خائبًا، وبقيتْ مكّةُ

شامخةً، تُمهّد لميلادٍ عظيم سيغيّر وجه التاريخ كلّه.

يومُ الإثنين، التّاسع من شهر ربيع الأول، عام الفيل!

هكذا تقول أرجحُ الرّوايات، على اتفاقٍ بينها على المكان، واختلاف على الزّمان!

ولكن كُلّ هذا لا يهمُّ، إنّ تتبّع الحدث أهمُّ بكثيرٍ من تتبّع تاريخ حدوثه! والعبرة كثيراً ما تكون في الواقعة، ونادراً ما تكون في التّوقيت!

سيّدُ النّاس ﷺ حلّ ضيفاً على كوكبٍ قُدِّر له أن يعيد تشكيله! هذا هو الحدث، أمّا ما تبقّى فهوامش لا تستحقُّ أن يُخاض فيها السّجالات، وتنتفخ لأجلها الأوداج، والعاقل من يشغله لُبّ الثّمرة عن قشرتها!

قبل هذه اللّحظة التي بدأت فيها الحكاية بأشهر، خرج عبد الله بن عبد المطّلب في رحلةِ الصّيف تاجراً إلى الشّام، تاركاً خلفه زوجته آمنة بنت وهبٍ في أشهر حملها الأولى، وفي طريق عودته من الشّام مرِض ومات!

اقتضت حكمة الله تعالى أن يولد يتيماً، ذلك الطّفل الذي سيكون على عاتِقيه غداً، تربية آباء هذا الكوكب وأمهاته!

وفي مَكّة كانت آمنة بنت وهب تعدُّ الأيام لتستقبلَ عزاءً ينمو في أحشائها، علّها تتسلّى به عن فقدِ زوجٍ وحبيبٍ!

لا شيءَ خارقٌ كما ترى! أحداثٌ عاديّةٌ حدثت من قَبل، ومن بعد، وما زالت تحدُث، وستبقى تحدث، وهنا تكمن المعجزة!

لا يُقلّلُ من مقام النّبيّ ﷺ أن يولد ولادةً طبيعيّةً لم تصحبها كراماتٌ ومعجزات!

روى البيهقيّ أنّ إرهاصاتٍ بالبعثة وقعت يوم ميلاد النّبيّ ﷺ:

فسقطتْ أربع عشرة شُرفة من إيوان كسرى، وخمدت النّار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت!

ولستُ من أصحاب تقديم العقل على الرّواية، فما صحّ يقيناً تلقّيناه بالقبول والتّسليم، ولكن ما كان فيه كلامٌ عند أصل الصّنعة فيُعمل فيه العقل!

سيرة النّبيّ ﷺ دعوةٌ إلى تحرير العقل من القوالب الجاهزة، والأحكام المسبقة، وهل كانت البعثة كلُها إلّا لهدم السّائد الظالم من الجاهلية والعادات والتّقاليد؟!

نعم سقط إيوان كسرى ولكن بيد جحافل الفاتحين الذين ربّاهم النّبيّ ﷺ، وهو يُعلّمنا أنّ تغيير العالم يحتاج إلى عملٍ وسعيٍ!

وانطفأتْ نارُ المجوسِ بعد ألف عامٍ من إيقادها، ولكن بدماء شهداء المسلمين في القادسيّة، الذين حملوا لواء الجهاد الذي عقده النّبيّ ﷺ يوم بدر، وهو يُعلّمنا سُنّة التّدافع، وأن البلاد تفتح بالدّماء لا بالكرامات!

إنّ أجمل ما في هذا الدّين هو واقعيّته، وقابليته للتّطبيق في حياة النّاس العمليّة، وقدرته على رفعهم فوق مصافي الأمم إن هم التزموا هديه! فلا تقتلوا أجمل ما في هذا الدّين!

ب. عند حليمة في ديارِ بني سعد!

كان من عادة أهل الحَضَر من العربِ، أن يدفعوا بأولادهم إلى المرضعات الآتياتِ من البادية، حتّى يشبُّوا صِحاح الأجسام، فصاح الألسنة! وهذه من أجمل عادات العرب في الجاهليّة، يشتدُّ أحدهم على قلبه، ويغالبُ الحنينَ لابنه وهو لم يشبع منه بعد، لا لشيءٍ غير أن هذا في مصلحته، كانوا يُربّون أولادهم للدُّنيا لا لأنفسهم!

عرفَ العربُ باكراً كيف يضعون شيئاً من عقولهم على قلوبهم لتشتدَّ!

وقلّما فرّطَ أحدٌ من أهل الحَضَرِ بهذه العادة، ومن فرّط ما لبثَ أن ندِمَ!

كان عبد الملكِ بن مروان يقول: أضرَّ بالوليدِ حُبُّنا له!

فمن شدّةِ تعلُّقِه به، لم يرسله إلى البادية، ولم يستودعه عند مرضعات

العرب في الصحراء، فنشأ الوليد لا فصاحة له، وكان كثير اللّحن!

أنجبُوا للدُّنيا لا لأنفسكم، وأحبُّوا ولا تتملَّكوا!

وكان من عادة المُرضِعات أن يتخيَّرن الرُّضَّع، فيبحثن عن أبناء الأثرياء طمعاً بالمكرُمات! وقد عزفت مُرضعات بني سعدٍ جميعُهنَّ عن النبيِّ ﷺ، ما ترجوه مرضعةٌ من يتيم لا أب له ليُكرمها!

وقد عثرتْ كلُّ مرضعةٍ على غايتِها إلّا حليمة، فقرَّرتْ أن تأخذ النبيَّ ﷺ كيلا ترجع خاوية اليدين، لتكتشف لاحقاً أنّها كانت الأكثر ثراءً به، حلَّت البركة في بيت حليمة يومَ حلَّ عندها!

ولنستمع إلى قصّة حليمة من حليمة نفسها، لا أحد أبلغ من المرء في رواية حكايته!

تقولُ حليمة كما في سيرة ابن هشام: قدِمنا مكّةَ نلتمسُ الرُّضعاء، فما منّا من امرأةٍ إلّا وعُرض عليها رسول الله ﷺ، فتأباه إذا قيل لها: إنّه يتيم!

وذلك أنّا كنّا نرجو المعروف من أبي الصّبيّ، فكنّا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنعَ أمُّه وجدُّه؟!

فكنّا نكرهُهُ لذلك، فما بقيت امرأةٌ قدِمتْ معي إلّا أخذت رضيعاً غيري، فلمّا أجمعنا الانطلاق قلتُ لزوجي: واللهِ إنّي لأكره أن أرجعَ من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، واللهِ لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه.

فقال: لا عليكِ أن تفعلي، عسى الله أن يجعلَ لنا فيه بركةً!

فذهبتُ إليه، فأخذتُه، وما حملني على أخذه إلّا أنّي لم أجد غيره!

فلمّا أخذتُه رجعتُ به إلى رحلي، فلمّا وضعتُه في حِجري أقبلَ عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشربَ حتّى روِيَ، وشربَ معه أخوه حتّى روِيَ، ثمّ ناما، وما كنّا ننامُ معه قبل ذلك.

وقام زوجي إلى ناقتنا تلك، فإذا هي حافلٌ، فحلبَ منها ما شربَ وشربتُ

معه حتى انتهينا ريّاً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة!

فقال لي زوجي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة، لقد أخذت نسمةً مباركة!

فقلت: والله إنّي لأرجو ذلك.

ثمّ خرجنا، وركبتُ أنا أتاني، وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالرَّكب ما لا يقدرُ عليه شيءٌ من حميرهم، حتى إنّ صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحكِ! اربعي علينا، أليست هذه أتانكِ التي خرجت عليها؟

فأقولُ لهنّ: بلى واللهِ، إنّها لهي هي!

فيقُلنَ: واللهِ إنّ لها شأناً!

ثمّ قدمنا منازلنا في بلاد بني سعدٍ وما أعلم أرضاً من أرضِ اللهِ أجدبَ منها! فكانت غنمي تروحُ عليّ حين قدِمنا به معنا شباعاً لُبناً، فنحلبُ ونشربُ، وما يحلبُ إنسانٌ قطرة لبنٍ، ولا يجدها في ضرعٍ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبضُّ بقطرة لبن!

فلم نَزَل نتعرَّف من الله الزيادة والخير حتّى مضت سنتاه، وفصَلْته، وكان يشبُّ شباباً لا يُشبه الغلمان، فقدمنا به على أمّه ونحن أحرص على مُكثه فينا، لِما كنّا نرى من بركته، فكلّمنا أمّه، وقلت لها: لو تركتِ ابني عندي حتى يغلظ، فإنّي أخشى عليه وباءَ مَكّة!

فلم نَزَل بها حتى ردّته معنا!

ولأنّ السِّيرة واقعٌ لا تاريخ، قِفْ هُنيهةً مع حادثة النّبيّ ﷺ في ديار بني سعد:

1. فإن لم يعرفِ النّاس قدرك، أو يُنزلوك منزلتك فلا تبتئس، ها هو النّبيّ ﷺ قد زهدت به المرضعات، كلُّ واحدةٍ منهنّ تريدُ غير يتيم، النّاس تنظرُ دوماً إلى الأمور بمعايير الدُّنيا!

2. عجيبٌ جداً قول حليمة: بِتنا بخير ليلة! قومٌ أهلُ جاهلية، ومع هذا يستشعرون النّعم، وما أصابهم منها غير أن جرى ثدياها فأرضعت ولداها فناما، وحلبت شاتها فشربتْ وشبعتْ هي وزوجها!

أليس حريّاً بنا نحن أهل الإسلام أن نكون أكثر استشعاراً لنعم الله تعالى علينا؟!

نحن واللهِ لا ينقصنا المزيد من النّعم، وإنمّا المزيد من شكر النّعم التي بين أيدينا، ولكن للأسف إنّ مصائبنا أننا نشيحُ النّظر عمّا نملك وننظرُ إلى ما لا نملك فلا نعود نرى النّعمة نعمة!

3. عجيبٌ أيضاً قول زوج حليمة لها، لقد أخذتِ نَسمةً مباركة!

العارفون باللهِ لا يسألونه المزيد من الرّزق، فقد فرغَ من قسمته، وكتب مقداره، وهو آتٍ بلا زيادة ولا نقصان! ولكنّهم يسألونه البركة فيما رزقهم، فإنّ البركة إذا وُضعت في شيءٍ كفى ووفى ولو كان قليلاً، وإذا نُزعت من شيءٍ ما كفى ولا وفى ولا أشبع ولو كان كثيراً!

4. نبيٌ مبارك، حيثما حلّ حلّت البركة! جرى ثديا حليمة باللّبن لأجله، وحلّ النّشاط بالأتان لأنّه ركبها وهو في حجر حليمة، وامتلأت ضروع شِياه حليمة حين أقام في بيتها!

وكلّما كان العبد قريباً من النّبيّ ﷺ اتّباعاً وامتثالاً وعبادةً كلّما حلّ فيه من البركة بمقدار قربه!

5. قدمنا به على أمّه ونحن أحرص على مكثه فينا!

أخذته أوّل مرّة فقط كي لا ترجع صفر اليدين، وها هي بعد عامين لا تُطيق فراقه! عجيبٌ عالم القلوب والأرواح، واللهِ عجيب. في هذه الدّنيا يلتقي الغريبُ بالغريبِ ثمّ ما يلبث أن يصبح أحدها للآخر عالماً ووطناً، فاللهمّ ارزقنا رِفقة الصّالحين، وحُبّ الصّالحين، وزواج الصّالحين!

6. فلم نزل بها حتّى ردّته معنا!

مرّة أخرى تُثبتُ آمنة بنت وهبٍ كيف أنّ العربَ كان يُربّون أولادهم للحياة لا لأنفسهم! على شوقها له، وقد كانت تعدُّ اللّيالي طوال عامين حتّى يصير في حِجرها، ولكنّها قبلت فراقه بعد أن خوّفتها حليمة عليه من وباء مكّة!

على المرء أن يُرخي يده قليلاً، إمساك الأولاد بقوّة كإمساك العصافير قد يخنقها!

والحماية الزائدة قلّما تنتج جيلاً قادراً على التّغيير، هذه الحياة مُعترك، فأعدّوهم للحياة!

وفي ديار بني سعدٍ، وقعت حادثةٌ عجيبة، كانت سبباً في إعادة حليمة النّبيّ ﷺ إلى أمّه إعادةً نهائيّة، لم يحدث بعدها لقاء إلى أن جاءته في المدينة معلنةً إسلامها، ويا لروعة الأقدار!

روى مسلمٌ في صحيحه، من حديث أنس بن مالك: أنّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعبُ مع الغلمان، فأخذه وصرعه، وشقّ عن قلبه، واستخرجَ القلبَ، فاستخرج منه علقةً، وقال: هذا حظُّ الشّيطان منك!

ثمّ غسله في طِستٍ من ذهبٍ بماء زمزم، ثمّ لأمه، ثمّ أعاده في مكانه!

وجاء الغِلمان يَسعَون إلى أمّه، وقالوا: إنّ مُحمّداً قد قُتِلَ! فاستقبلوه وهو منتقعُ اللّون!

قال أنس: وقد كنتُ أرى أثرَ ذلك المَخيط في صدره!

قَلبٌ خالصٌ للهِ لا حظّ للشّيطان فيه! هذه هي المعادلة الجديدة، ثمّة رحلة نُورانيّة كاملة كانت تُصنع على عين اللهِ، ثمّة طفلٌ يُهيّأ جسمانيّاً وروحانيّاً ليستلم قيادة البشريّة، ويخرجها من ظلمات الجهل والشّرك، إلى نور الإسلام والفِطرة!

في قلبِ كلّ واحدٍ منّا حظٌّ للشّيطان، علَقةٌ صغيرةٌ في ثنايا القلب، جاثمةٌ ولا خَلاص منها أبداً، مِبضَع جبريل عليه السلام لم يعمل إلّا مرّةً واحدة!

أمّا القرآن الذي نزل به جبريل عليه السلام على النبيّ ﷺ فباقٍ حتى يرث الله تعالى الأرض وما عليها!

وكلّما زاد الإنسان في الطاعة، واقترب من نور الوحي، كلّما خفّ أثرُ هذه العَلَقة عليه، وضاقت مداخل الشيطان إليه، ولكنّها باقية!

وكلّما غرق الإنسان في وحلِ الشهوات، وابتعد عن نور الوحي، كلّما قويت هذه المضغة، واستشاط أثرها، وتوسّعت مداخل الشيطان إليه!

ولستُ أرجمُ بالغيب، ولا أتقوّل على اللهِ ودينه من عندي، وإنّما من يتأمّل حادثة شقّ الصّدر، ويقرأ أشباهها فيما صحّ من الحديث النّبويّ الشّريف، يعرف!

روى مسلمٌ في صحيحه، من حديث حُذيفة بن اليمان، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: تُعرضُ الفِتن على القلوب كالحصير عوداً، عوداً، فأيّ قلبٍ أشرِبها نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداء، وأيّ قلبٍ أنكرها، نُكِت فيه نُكتةٌ بيضاء، حتّى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصّفا، فلا تضرّه فِتنة ما دامت السّماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرفُ معروفاً، ولا يُنكرُ مُنكراً إلّا ما أشرب من هواه!

وروى أبو داود والتّرمذيّ، من حديث أبي هُريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ العبد إذا أخطأ خطيئةً نُكِتَتْ في قلبه نُكتة سوداء، فإذا هو نزعَ واستغفر وتابَ سُقِلَ قلبه، وإن عاد زِيدَ فيها حتّى تعلوَ قلبه، وهو الرّان الذي ذكرَ الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾!

فتأمل هذا وذاك، تجد المَعنَيان يخرجان من مِشكاةٍ واحدة!

فاللهمّ يا مُعلّم آدم علّمنا، ويا مُفهّم سليمان فهّمنا!

ث. من حبيبٍ إلى حبيب: موتٌ وكَفالة!

بعد حادثة شقّ الصّدر، خشيتْ عليه حليمة، فقررتْ أن تُعيده إلى أمّه، وهكذا كان!

عاد النبيُّ ﷺ إلى حضن آمنة بنت وهب! أمٌّ حنونٌ صبَّت عليه الحبَّ صباً. كان كلُّ ما تبقّى لها من الدُّنيا، فعوّضته غياب الأب، وآنسته من غُربة اليُتم، وإن قيل لك: إنَّ الدُّنيا أمٌّ فصدِّق!

هو الذي لم يعِش مع أمِّه أكثر من ستِّ سنوات، أكثر من نصفها مُسترضعاً في ديارِ بني سعد عند حليمة، كان قد شارف على السِّتين حين وقف على قبرٍ، وبكى!

فقيل له: ما يُبكيك يا رسول الله؟

فقال: هذا قبر آمنة بنت وهب، استأذنتُ ربِّي أن أستغفر لها، فأبى عليّ! واستأذنته أن أزور قبرها، فأذِن لي، وأدركتني رِقّتها فبكيت!

ما زال يذكرُ حنانها بعد خمسين سنةً على موتها، إنَّ ما يُعطى من القلب، يبقى في القلب إلى الأبد!

وحين بلغَ النَّبيُّ ﷺ السَّادسة من عمره، رأتْ آمنة بنت وهبٍ أن تصحبه لزيارة قبر أبيه، وأخواله من بني النَّجار في المدينة المنوّرة.

فخرجتْ ومعها ابنها، وخادمتها أمُّ أيمن، ومكثتْ هناك شهراً، ثمّ قفلتْ راجعة، وفي الطَّريق اشتدَّ عليها المرض، فماتت، ودُفِنتْ بالأبواء بين مكّة والمدينة!

وهكذا اجتمعَ على النَّبيِّ ﷺ يُتمَين، يُتمٌ من جهة أبٍ لم يره أبداً، ويُتمٌ من جهة أمِّه، كان حظُّه من رفقتها سنواتٌ قليلة، وها هو اليوم في السَّادسة من عمره، بلا أبٍ ولا أمٍّ، والله خيرٌ حافظاً!

ومن الأخطاء الشَّائعة التي قرأتها في أكثر من كتاب:

قول بعض المعاصرين الذين كتبوا في السِّيرة، أنَّ النَّبيَّ ﷺ زار رفقة أمِّه أخواله من بني النَّجار أهل أمِّه آمنة بنت وهب! وهذا خلطٌ عجيب! آمنة بنت وهبٍ من بني زهرة، وهم من قريش، ولا خلافَ في هذا عند أحد! ولكنَّ المعاصرين حين نقلوا قول الأوائل: نزل على أخواله! ظنّوا أنّهم أخواله لأمِّه!

والحقيقة أنهم أخواله لأبيه! لأنّ هاشماً والد عبد المطلب نزل في المدينة في أحد أسفاره، فتزوّج سلمى بنت عمرو، وكانت من بني النّجار، ثمّ حملها معه إلى مكّة!

عجيبٌ وفاء آمنة بنت وهبٍ، والله عجيب، إنّها تحرص على صلة الحيّ والميّت، وتزرع في ابنها خُلق صِلة الرّحم، تصحبه لزيارة أبيه في قبره، وأخواله في بيوتهم! فتأمّل حالها وهي في الجاهليّة، وتأمّل حالنا اليوم، والله المستعان!

إنّ ما كان يراه عبد المطّلب من حُنوّ آمنة بنت وهبٍ على حفيده، هوّن عليه ما كان عليه النّبيّ ﷺ من اليُتم، أمّا وقد ماتت آمنة، فإنّ الجرح القديم قد انفتح مجدّداً، فرقّ عبد المطلب على النّبيّ ﷺ رِقّةً لم يُرَ منه مثلها على ولدٍ أو حفيد!

أنزله في كفالته، ورعاهُ بأهدابِ عينيه!

يقول ابن هشامٍ في السّيرة: كان يُوضَع لعبد المطّلب فراشٌ في ظلّ الكعبة، فكان بنوهُ يجلسون حول فِراشِه ذلك حتّى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحدٌ من بَنيه إجلالاً له، فكان النّبيّ ﷺ يأتي وهو غلامٌ حتّى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخّروه عنه.

فيقول عبد المطّلب إذا رأى فهم ذلك: دعوا ابني هذا فوالله إنّ له شأناً!

فسبحان هذا الرّبّ الرّحيم، إذا أخذ قلباً من طريق النّبيّ ﷺ وهَبه غيره، لم يكن موسى عليه السلام وحده الذي صُنِعَ على عين الله!

طالت الحياة بعبد المطّلب، فعاش مئةً وعشرين سنة، ولمّا استشعر دُنوّ الأجل، أوصى أبا طالبٍ أن يكفل النّبيّ ﷺ من بعده، وحين ناهز النّبيّ ﷺ الثّامنة من عمره، تُوفّيَ عبد المطّلب، فانتقل إلى كفالة عمّه أبي طالب!

وحفظ أبو طالبٍ الأمانة، وأحسن الكفالة، فكان سنداً وظهيراً للنّبيّ ﷺ أربعين عاماً، رعاهُ في صباه، وصاحبه في شبابه، ونافح عنه حين نزل عليه

الوحي.

واحتمل معه حِصار الشِّعب، ولكن سبحان من يهدي من يشاء!

ث. بُشرياتُ النُّبوَّة: عند بحيرا الرَّاهب!

على عادة قريشٍ في رحلة الشِّتاء والصَّيف، خرج أبو طالبٍ في تجارةٍ له إلى الشَّام، واصطحب معه النَّبيّ ﷺ وهو يومذاك ابن اثني عشرة سنة. فلمَّا بلغت القافلة مدينة بُصرى من الشَّام، وهي حوران اليوم، كان بتلك الأنحاء راهبٌ يُقال له بحيرا، خرج إليهم كأنَّه يطلب فيهم شيئاً، وكان من قبل لا يحفل بهم، ولا يخرجُ إليهم!

فعرف النَّبيّ ﷺ بصفته، وقال وهو آخذ بيده: هذا سيِّد العالمين، هذا يبعثه الله رحمةً للعالمين!

فقال له أبو طالبٍ: وما علمك بهذا؟

فقال: إنَّكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجرٌ ولا حجرٌ إلَّا خرَّ ساجداً، ولا تسجدُ إلَّا لنبيٍّ، وإنّي أعرفه بخاتم النُّبوَّة في أسفل غضروف كتفه مثل التُّفاحة، وإنَّا نجده في كُتبنا!

ثمَّ سأل بحيرا أبا طالبٍ: ما هذا الغلام منك؟

فقال: ابني!

فقال بحيرا: ما ينبغي أن يكون أبوه حيّاً!

فقال: هو ابن أخي، مات أبوه وأمُّه حُبلى به!

فقال بحيرا: صدقتَ، ارجعْ به إلى بلدك، واحذرْ عليه يهود!

والقصَّة على شهرتها، ووُرُودها في كلِّ كتب السِّيرة تقريباً، إلَّا أنَّ لأهل الصَّنعة الحديثيَّة فيها كلام، وهي إن صحَّت أو لم تصِحّ، فلا تضيفُ شيئاً ولا تُنقص شيئاً، إنَّه من قبل بشرى عيسى عليه السلام !

ولكنَّ المتأمِّل بما سيأتي يجد أنَّه كلَّما اقتربنا من زمن الوحيِ اتَّضحت

ج. في معترك الحياة!

كان أبو طالبٍ قليلَ المال كثيرَ العيال، وليس من شأن الرّجال أن يكونوا عالة، فانبرى النبيُّ ﷺ يعملُ برعي الأغنام ليعيل نفسه، ويساعد عمّه، ودأب الأنبياء عليهم السّلام أن يأكلوا من عمل أيديهم، وقد كان زكريّا عليه السلام نجّاراً!

روى البخاريُّ من حديث أبي هريرة، أنّ النّبيّ ﷺ قال يوماً لأصحابه: ما بعثَ اللهُ نبياً إلّا رعى الغنم! فقال أصحابه: وأنتَ؟

فقال: نعم، كنتُ أرعاها على قراريط لأهل مكّة!

ولستُ أدري الحكمة من عمل جميع الأنبياء برعي الغنم، وقرأتُ أشياء كثيرة فلم تُقنعني، وأغربُ ما قرأتُ فيها: رعوا الغنم ليتعلّموا رعيَ الأمم!

وهذا قولٌ فيه من السّجع أكثر ممّا فيه من الحكمة! وشتّان بين المعتركين، معترك المرعى ومعترك المجتمع! والأنبياء أوّلاً وآخراً فوق مصافي البشر، ويتعلّمون بالوحي في لحظةٍ ما لا يتعلّمه غيرهم بالتّجربة بسنوات!

ولست أنكر أهميّة التّجربة على شخصيّة الإنسان، والأنبياء بشرٌ نهاية المطاف، ولكن النّبوّة بالأصل معجزة في ذاتها، فلا يجري عليها بالضّرورة ما يجري على ما هو خاضعٌ لنواميس الله وسُننِه في الكون!

لتصنعَ سفينةً لا تغرق عليك أن تتعلّمَ هذا، ولكنّ نوحاً عليه السلام لم يحتج إلى ورشةٍ ولا مدرسة، كان مؤيّداً بالوحي: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾!

هذه التّجربة للنّبيّ ﷺ في معترك الحياة الاقتصاديّة للنّاس تجربة تركت أثرها في شخصيّته، ولكنّه ما رعى الغنم ليتعلمَ رعيَ النّاس! لقد أقام الدّنيا بالوحي!

فلا نقلّل من قيمة التّجربة، ولكن لا نراها الصّانع للشخصيّة في حقّ الأنبياء، هم لا يُقاسون بغيرهم، ولا يُقاس عليهم غيرهم!

ولكن لا بأس أن يُقال: إنّ التجربة تُسهم نوعاً ما في تكوين الشّخصيّة، وتتضافر مع الوحي، فتتعدّدُ المصادر، ولكنّ الوحي وحده يكفي، فقد علّمَ الأنبياءُ النّاسَ ممّا جاءهم من الوحي، أضعافاً مضاعفةً ممّا اكتسبوه بالتّجربة!

لم يخضِ النّبيّ ﷺ في شبابه معترك الحياة الاقتصاديّة والعمل فقط، وإنّما خاضَ معترك السّياسة والحرب أيضاً! حربُ الفِجار وحِلفُ الفضول!

وهاتان التّجربتان على أهميتهما لشخصٍ قُدّرَ له لاحقاً أن يُحارب، ويعقد الأحلاف، يُقارع القبائل والإمبراطوريات، إلّا أنّ ما قيل فيما قبلهما يُقال فيهما: إنّ الأمر كلُّه قائمٌ على الوحي والعِصمة!

فأمّا حربُ الفِجار فكانت بين قريشٍ وحليفتها كنانة، ضد قيس عيلان الذين انتهكوا قدسيّة الأشهر الحُرم! فقد كانت العرب في الجاهلية تُقدّس الأشهر الحُرم، وتضعُ فيها الحربَ فيما بينها، ولو ظفرَ الرّجلُ بقاتل أبيه في الأشهر الحُرم فإنّه لا يقتله! على هذا تعاهد العرب، وعلى هذا عاشوا، فلمّا أخلّت قيس عيلان بهذا دارت رحى الحرب! استمرت هذه الحرب أربع سنوات، بدأت وعُمر النّبيّ ﷺ فيها خمسة عشرة سنة، وانتهت وهو في التّاسعة عشرة!

وقيلَ أنّه باشر الحرب بنفسه، وقيل إنّه لم يباشرها وإنّما كان يُناول أعمامه النّبل، وهذا ما أميلُ إليه، وما يعنينا أنّها كانت تجربة هامّة، ولا بأس أن يُقال إنّ فيها تهيئة، مع التّأكيد أوّلاً وآخراً أنّه الوحي!

وأمّا حِلف الفضول، فيُريك بجلاءٍ أنّ الجاهليّة لم تكن جاهلية في كلّ تفاصيلها، فالقوم على جاهليّتهم كان فيهم أخلاقٌ ونخوةٌ ومكارم! ولقد شهد لهم النّبيّ ﷺ بهذا حين قال: «إنّما بُعِثتُ لأتمّمَ مكارم الأخلاق»!

أي أنّه قد كان فيهم ما يُبنى عليه، والكثير من مكارم الأخلاق التي جاء

بها الإسلام لم تكن بعيدة ولا غريبة عن المنظومة الأخلاقية للعرب في الجاهلية، وإنْ لم تَخلُ جاهليتهم من طَوام!

يقولُ النبيُّ ﷺ: لقد شهدتُ مع غمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان، ما أُحِبُّ أنَّ لي به حُمرَ النَّعم، ولو أُدعَى به في الإسلام لأجبتُ!

وأمّا قصّةُ حلف الفضول، فقد جاء رجلٌ من قبيلة زبيدٍ من اليمن إلى مكّة ببضاعةٍ يريد أن يبيعها، فاشتراها منه العاص بن وائل، ولم يدفع له ما اتّفقا عليه من مال! فاشتكاه الرّجل إلى سادة قريش، فلم يُعينوه لمكانة العاص بن وائل.

فوقف الرّجل على جبل أبي قُبيس وأنشد شعراً قال فيه مظلمته!

فكان أوّل من سمع هذه الشكوى هو الزُّبير بن عبد المطّلب عمُّ النبيّ ﷺ فقال: ما لهذا من مترك!

فجمع النّاس في بيت عبد الله بن جدعان، وعقدوا حِلف الفضول، وتعاهدوا ألّا يتركوا مظلوماً في مكّة حتى يُعيدوا إليه حقّه، وقاموا إلى العاص بن وائل وأجبروه أن يعيد إلى الرّجل حقّه، وهكذا كان.

وأمّا الآن، فإن كان الوحيُ الذي عليه قوام الأمر كلّه قد انقطع، فإنَّ ما جاء به الوحي ما زال بين أيدينا، وعنصر التفوّق الأهم التّجربة والإعداد والتّعلم بالاسترشاد بنورِ الوحي!

ح. ثمّ جاءتْ خديجة!

يظلُّ الرّجلُ يخرجُ إلى الدّنيا بدرعه وسيفه، ولا يهتزُّ لمصائب الدّنيا وضرباتها، حتّى يظنَّ أنّه صخرٌ لا قلب له، حتّى يلقاها، هي دون سواها، فيلقي أسلحته ويخلع درعه، فترى جراحه، هي فقط من يأتمنها على جراحه!

هذه المقولة الجميلة للرّافعي تلخّص الحكاية كلّها!

خديجة في حياة النبيّ ﷺ لم تكن مجرّد زوجة، كانت عوض الله له عن

كلّ ما لاقى قبلها، وكهفاً وملجأ عمّا سيلاقي بعد ذلك!

عوّضته حنان الأمّ التي فقدها صغيراً، وكانت كلّ دُنياه!

يَحدثُ أن يُبتلى أصحاب الرّسالات في بيوتهم، كما حدث مع نوحٍ ولوطٍ عليهما السّلام، وكم تصبح المهمّة شاقة حين لا تكون الجبهة الدّاخلية آمنة! ومع امرأة كخديجة، كانت تُحيلُ العلقمِ شهداً، والصعب يسيراً، كان النّبيّ ﷺ يشعر أنّ ظهره محميّ جداً!

أمّا كيف التقيا، فيقول ابن اسحاق:

كانت خديجة بنت خويلد امرأةً تاجرةً ذات شرفٍ ومال، تستأجر الرّجال في مالها، وتُضاربهم إيّاه بشيءٍ تجعله لهم، فلمّا بلغها عن النّبيّ ﷺ ما بلغها من صدقِ حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه، وعرضت عليه أن يخرجَ في مالٍ لها إلى الشّام تاجراً، وتُعطيه أفضل ما تُعطي غيره من التّجار، مع غلامٍ لها يُقال له ميسرة، فقبِلَ رسولُ الله ﷺ ذلك، وخرجَ تاجراً في مالها ومعه ميسرة حتّى قدِمَ الشّام!

ولمّا رجع إلى مكّة، ورأت خديجة في مالها الأمانة والبركة ما لم ترَ من قبل، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه من حُسن أخلاقه، وصدق حديثه، وعظيم أمانته، ورجاحة عقله، قررت أن تعرضَ عليه الزّواج!

فحدّثت بهذا صديقتها نفيسة بنت مُنية، وطلبت منها أن تذهب إلى النّبيّ ﷺ وتُفاتحه في الأمر.

فقبِلَ النّبيّ ﷺ ذلك، وكلّم أعمامه، فذهبوا إلى عمّ خديجة، وخطبوها منه، لأنّ أباها كان قد قُتِلَ في حرب الفِجَار. ووقف أبو طالبٍ يخطبُ في حفل الزّواج قائلاً: إنّ محمّداً لا يُوزن به فتىً من قريش إلّا رجحَ به شرفاً ونُبلاً، وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قلا فإنّما المالُ ظلٌّ زائلٌ وعاريةٌ مُسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك.

كانت خديجة قد تزوّجت قبل النّبيّ ﷺ مرّتين، ومع هذا لشرفها ومالها

وحسنها كانت مطمعاً للخطّاب من رجال قريش، فسبحان من يسوقُ العباد إلى أجمل أقدارهم سوْقاً، وها هي تُلقي برَحل قلبها عند أعظم رجلٍ في تاريخ البشريّة!

أحبّها النّبيّ ﷺ كما لم يُحبّ امرأة قطّ، وظلّ يذكرها حتى آخر يومٍ من حياته، ولا تزال مقولته بعد أن تزوّج إحدى عشر امرأةً بعد وفاتها، إذ لم يتزوّج معها امرأةً قطّ: والله ما أبدلني الله خيراً من خديجة!

كان عمرها أربعين سنة، وكان عمره خمسةً وعشرين، كان عندها من القلب ما يكفي لتنزل إليه، وكان عنده من العقل ما يكفي ليصعد إليها، فعاشا سعيدين!

مهمّ أن تملك أسباب الحياة، ولكنّ الأهم أن تعرف كيف تعيش، وحين تعثر على الشّخص المناسب لا تُضيّعه بالتّدقيق في التّفاصيل! الفروقات يمكن تذويبها، يمكن لاثنين أن يُصبحا واحداً، الحياة تجارب، البعض تشيبُ رؤوسهم ويبقون أطفالاً، والبعضُ شبابٌ نضجتْ عقولكم على نار التّجارب!

كانت غنيّة جداً، ولكنّها كانت تُشعِره أنّه أغلى ما تملك!

وكان فقيراً جداً، ولكنّه كان يُشعرها أن مالها أقلّ ما تملك!

إعقد زواجاً ولا تعقِد صفقة! إيّاك أن تتزوّج المرأة لمالها فقط، تعيش من يتزوّج خزنة، يمكنك أن تخدعها بعض الوقت، ولكنّك لن تستطيع أن تخدعها كلّ الوقت!

ومتى ما اكتشفت أنّك أردتها سيّدتك، فستعاملك على أنّك عبدها!

أنجبتْ له كلّ أولاده إلّا إبراهيم فهو من مارية.

ولدتْ له القاسم أوّلاً وبه كان يكنّى، ثمّ زينب، فرُقيّة، فأمّ كلثوم، ففاطمة، فعبد الله!

ومات أولاده الذّكور في صغرهم، أمّا بناته فأدركنَ الإسلام جميعهنّ، فأسلمنَ، وهاجرنَ!

ماتت بناته في حياته ﷺ، إلّا فاطمة، بقيت بعده ستّة أشهر، ثمّ لحقت به!

فالسّلامُ على قلبه كم فقدَ وتألّم، والسّلام على قلبه كم صبر واحتسب!

خ- بناء الكعبة:

الكعبة المُشرّفة في مكّة هي أوّل بيتٍ لله بُني في الأرض، بنتْها الملائكة، ولم يجعل اللهُ تعالى لها عِصمةً ضدّ سُنن الكون وحوادث الزّمن، ولو شاء لفعلَ، سبحانه لا يُعجِزه شيءٌ!

بَنَت الملائكةُ الكعبة، ثمّ أتَتْ عليها الحوادث، كالسّيلِ والرّيح، فهدمتها، ولم يبقَ منها إلّا حجارة أساسِها التي غطّاها رمل مكّة، فلمّا أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يعيد بناءها من جديد، أرشده إلى مكان أساساتها، وعلّمه ارتفاعها وأبعادها، فأعاد بناءها على الشّكل الذي بَنَته الملائكة، وهذا مصداقُ قول ربّنا تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾!

وقبل البعثة الشّريفة بخمس سنوات أصابَ مكّة سيلٌ عظيم، انحدر إلى البيت الحرام، وأوشكت الكعبةُ على الانهيار، فاضطّرتْ قريش إلى هدمها وإعادة بنائها من جديد! وكانوا يُعظّمونها تعظيماً شديداً، فهابوا هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومي، فلمّا رأى النّاس أنّه لم يُصبه شيء، قاموا إليه فساعدوه!

واتّفقت قريش فيما بينها على ألا تُدخل في بنائها إلّا طيّباً، فلا يدخلون فيها مهرَ بغيٍّ، ولا بيع رِباً، ولا مَظلمة أحدٍ من النّاس!

وتوزّعتْ قريش فيما بينها عمليّة بِنائها، فكان لكلِّ فخذٍ منها جزءٌ تبنيه وحدها، لمّا بلغ البناء موضع الحجر الأسود، اختلفوا فيما بينهم اختلافاً عظيماً، حتّى كادوا أن يقتتلوا، كلُّ منهم يريد أن يستأثر بشرف وضع الحجر الأسود في مكانه!

عندها اقترح عليهم أبو أميّة بن المُغيرة المخزوميّ أن يُحكّموا بينهم أوّل

داخلٍ عليهم من باب الصّفا، فرضي جميعهم بذلك!

وكَرّمَ الله تعالى نبيّه إذ كان هو أوّل من دخل عليهم من باب الصّفا. فحدّثوه بما اختلفوا فيه، وطلبوا حكمه: وهنا بدث فطنة النّبوّة التي تتحضّرُ لقيادة البشريّة، فطلب منهم أن يُحضروا ثوباً، فلمّا أحضروه، وضعه على الأرض، ووضع الحجر الأسود في وسطه، ثمّ طلب من سادة قريش أن يحملوه معاً، ففعلوا، ولمّا وصلوا إلى مكان الحجر الأسود، أخذه النّبيّ ﷺ بيده الشّريفة، ووضعه مكانه، ورضي بذلك الجميع، وكانت هذه كرامة من الله لنبيّه ﷺ!

والجدير بالذّكر أنّ الكعبة المُشرّفة الآن ليست على الشّكل الذي بنته الملائكة أوّل مرّة، وأعاد إبراهيم عليه السلام بناءه، بل إنّ قريشاً قصّرَث بها النّفقة فلم تُدخل حِجر إسماعيل عليه السلام في الكعبة وهو منها، ولذلك كان لها بابان لا باباً واحداً كما بنتها قريش!

سألت عائشةُ النّبيّ ﷺ عن حِجر إسماعيل عليه السلام أهوَ من الكعبة؟

فقال: نعم، هو من الكعبة.

فقالت: فما لهم لم يُدخِلوه في البيت؟

فقال: إنّ قومَكِ قد قصّرث بهم النّفقة.

فقالت: فما شأن بابه مرتفعاً؟

فقال: فعلَ ذلك قومُكِ ليدخلوا من شاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا!

ثمّ قال: يا عائشة، لولا أنّ قومَكِ حديثو عهدٍ بجاهلية، فأخافُ أن تُنكر قلوبهم، لأمرتُ بالبيت فهُدمَ، فأدخلتُ فيه ما أُخرجَ منه، وألزقته بالأرض، وجعلتُ له باباً شرقيّاً، وباباً غربيّاً، فبلغتُ به أساس إبراهيم.

ثمّ لمّا استلمَ عبد الله بن الزّبير زمام الحكم في الحجاز، حدّثته عائشة بما كان بينها وبين النّبيّ ﷺ بشأن الكعبة. قال: زال المانع الذي كان على عهد رسول الله ﷺ. فهدم الكعبة، وأعاد بناءها كما كانت على عهد إبراهيم عليه

السلام.

فلمّا قتلَ الحجّاجُ ابنَ الزُّبير، هدمَ الكعبة بأمر عبد الملك وأعاد بناءها كما كانت زمن قريش!

ولمّا وليَ الرّشيد الخلافة، أرسلَ إلى الإمام مالك يستنصحه ويستشيره، فقال: إنّي أريدُ أن أعيد البيت على بناية ابن الزُّبير، تنفيذاً لرغبة النّبيّ ﷺ.

فقال له الإمام مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين، إنّي أخشى أن تُصبح الكعبة ألعوبة الملوك، لا يشاء أحدٌ إلّا نقضَها وبناها فتذهب هيبتُها من صدور النّاس!

فأخذ الرّشيد بكلام الإمام مالك، وما زالت الكعبة على حالها منذ ذلك العهد.

وما استطردتُ بالحديث عن بناء الكعبة من عهد النّبيّ ﷺ قبل بعثته، وزمن نبوّته، وبعد وفاته، إلّا للحديث عن قاعدةٍ عظيمة من قواعد هذا الدّين ألا وهي: دَرْءُ المفاسد مقدّمٌ على جلب المصالح!

فإنّ كلَّ مصلحةٍ يَترتَّبُ على قيامها مفاسدُ عظيمةٌ فإنّها تُترك!

بناءُ الكعبة على الهيئة التي كانت عليها زمن إبراهيم عليه السلام مصلحةٌ لا شكّ، ولكنّ النّبيّ ﷺ تركَ هذه المصلحة، لأنّه خشِيَ من وقوع مفسدة، فإنّ قريشاً كانت جديدةَ عهدٍ بالإسلام، وهي تُعظّم الكعبة، وفعله قد يترتَّبُ عليه مفسدة كردّتها مثلاً، أو دخول الشّرِ في نفوسها، أو إساءة الظّنّ بالنّبيّ ﷺ بأنّه يريد مجداً شخصياً!

وبهذا الفهم أفتى الإمام مالك للرّشيد، مُقرّراً باباً عظيماً آخر من أبواب هذه الدّين وأصوله، ألا وهو: بابُ سدّ الذّرائع!

يعلمُ الإمام مالك أنّ الرّشيد استشاره في أمرٍ لا حُرمة فيه، ولكنّه أراد أن يُقفل هذا الباب، فلا يكون ذريعةً، كلّما جاء ملكٌ قام إلى الكعبة فهدمها فتذهبُ مهابةُ البيت من صدور المسلمين!

تُعلّمنا هذه الشّريعة الغرّاء النّظر في العواقب، وأنّ العاقل لا يفعل فقط. وإنّما ينظر إلى صدى فعله، وما يترتّبُ عليه. لهذا كانت السّيرة واقعاً لا تاريخاً!

ثمّ بدأت الحِكاية: نُزول الوحي!

كان هذا الكوكب غارقاً في الضّلالة من أعلى رأسه حتّى أخمص قدميه، اليهودُ حرّفوا التّوراة، والنّصارى زعموا أنّ لله ولداً، والعربُ ملأوا بيت الله الحرام بالأصنام وعبدوها من دونه، فإن كان هذا هو حالُ الذين نزلتْ فيهم الرّسالاتُ فعن غيرهم حدّث ولا حرج!

وبينما هذه البشريّة كذلك، نظر الله تعالى إليها نظرةَ عطف، فتحنّن عليها على عادته، وتكرّم كما هو دوماً، وتمنّنَ كما هو دأبه! عمّا قليلٍ ينزل من غارٍ مظلمٍ في مكّة رجلٌ يحمل النّور ليضيءَ هذا الكوكب!

كان قد بلغَ من العمر أربعين سنة، اتّقد عقله بما يكفي ليفهم الوحي ويُفهمه للنّاس، ونضجتْ عاطفته ولانتْ ليفيضَ حُبّاً ورحمة! ومن قبل هذا بكثيرٍ غُسِل قلبه في ديار حليمة، وصار الآن كلّ شيءٍ مهيّئاً لتبدأ الرّسالة التي كُتِبَ لها أن تُغيّر ملامح هذا الكوكب إلى الأبد!

وكتهيئةٍ لهذا الرّجل العظيم الذي كان يُعَدّ على مهلٍ لهذه الرّسالة، فإنّه أوّل ما بُدِئ به من الوحي الرؤيا الصّالحة في المنام، فكان لا يرى رؤيا إلّا وجاءت بعد ذلك كفلقِ الصّبح!

ثمّ حبّبَ إليه ربّه الخلوة، فكان يخلو بنفسه في غار حراء، يَتحنّثُ فيه الليالي ذوات العدد، ثمّ يرجع إلى خديجة، المرأة التي ستكون فيما بعد جبهته الداخلية، وأقوى جنوده،

وفي وحشة الحياة يحتاج الرّجلُ إلى قلب امرأة!

وفي إحدى خلواته في الغار، نزلَ عليه جبريل عليه السلام بأوّل قبسات النّور!

وقال له: إقرأ!

فقال: ما أنا بقارئ!

فأعاد عليه: إقرأ!

فأعاد قوله: ما أنا بقارئ!

فقال في الثالثة: إقرأ!

فقال: ما أقرأ؟

فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ اقْرأْ وربُّكَ الأكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

ونزل النّبيُّ ﷺ من غار حراءٍ وهو يرتجِفُ من هول الوحي! كان بإمكانه أن يذهب بقدميه إلى أبي طالب، عمّه الذي اعتادَ أن يحوطه ويرعاه! أو إلى أبي بكرٍ، صديقه الوفيّ، وموضع سرّه!

ولكنّه ذهب بقلبه إلى خديجة، ثمّة مواقف في هذه الدّنيا لا يحتاج فيها المرء أكثر من حضن!

وصلَ إليها وهو يقول: زمّلوني، زمّلوني!

فغطّته، وضمّته، وهدّأت من روعه! ولمّا ذهب عنه الرّوع، حدّثها بما كان، ثمّ قال لها: لقد خشيتُ على نفسي!

فقالت له: كلّا، والله ما يخزيك اللهُ أبداً، إنّك تصلُ الرّحم، وتحمِلُ الكَلَّ، وتُعين على نوائب الحقّ!

ثُمّ ذهبت به إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل، وكان شيخاً كبيراً قد أصابه العمى، وكان قد تنصّر في الجاهلية، وكتب الإنجيل بالعبرانية.

فقالت له: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟

فحدّثه النّبيُّ ﷺ بما حدث معه في الغار.

فقال له ورقة: هذا النّاموسُ الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذَعاً،

ليتني أكون حياً إذ يُخرجك قومك!

فيسأله النبيّ ﷺ بدهشة: أومخرجيّ هم؟!

فقال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطّ بمثل ما جئت به إلّا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً عزيزاً!

ولأنّ السّيرة واقع لا تاريخ لا بُدّ من وقفات!

1. مكّة على عراقتها التّاريخيّة والدّينيّة عند العرب، وقدسيتها عند ربّهم، إلّا أنّها بلا تاريخٍ ثقافيّ يُذكر، فليس للقوم فلسفات وفلاسفة كما كان لسقراط وأفلاطون عند الرّومان!

وليس للقوم تشريعات، وقوانين مكتوبة، كما في بلاد فارس!

وليس للقوم مذاهب فكرية كما كان في الصّين على يد كونفوشيوس وبوذا!

كانت جزيرة العرب بكراً من أيّ نشاطٍ ثقافيّ وفكريّ! اللهمّ أنّه كان للقوم قصائدهم وأشعارهم، وهي لا تعدو كونها تأمّلات بشريّة، وتجارب حياتيّة، وفخر، وهجاء، وغزل، وأحاديث خمرٍ وصيد، فهي أنشطة حياتيّة يوميّة أكثر منها فكريّة، على ما كان في شعرهم من عذوبة لا تُنكر!

في هذه البيئة، خرجت الرّسالة نقيّة، لا يمكن لأحدٍ أن يدّعي أنّها امتداد لما كان قبلها، أو استنساخ لما سبق، وإذا أُضيف إلى هذا كلّه أنّ النّبيّ ﷺ كان أميّاً لا يقرأ، ولا يكتب، ولا يقرض الشّعر، فهنا تكتمل المعجزة!

كما أنّ خلوّ أذهان العرب من الفلسفات، والتّعقيدات الفكريّة، جعلهم أسرع استجابة للوحي، فقد وقع فيهم على صفحةٍ بيضاء، وملأ خلْواً في أرواحهم وعقولهم، تماماً كما هو اليوم:

نلاحظ أنّ أصحاب المذاهب الفلسفيّة، والنّظريات الغربية الرّأسماليّة والشّيوعيّة، أقل استجابة لنورِ الوحي من غيرهم، إذ أغلبهم يرون في الإسلام تهديداً. ومعول هدمٍ للأصنام الفكريّة في عقولهم، ومن يهتدي في

الغرب فلانٌ الله شرح صدره ليرى ما في الحضارة الغربيّة من تفاهة وخواء، ومعاكسة للفطرة!

2. على بعض الأشياء أن تتأخّر لتأتي أجمل، إنّ الله سبحانه يختار من الأوقات أنفعها لا أسرعها! كُلّ دعوةٍ دعوتَ الله بها وتأخرتْ، فهذا ليس أوانها، ثِقْ بحكمة الله، وردِّد بقلبٍ ممتلئٍ باليقين: لقد استجاب، ولكنّه يُهيئ الأسباب!

وَكُلُّ همٍّ نزلَ بك فهذا أوانه، وهل يُصقَلُ النّاس إلّا تحت وطأة الأيام؟!

وحدَها النّار تُخرِجُ خبثَ الحديد وتصقله، ولولا وهج التّنور لبقيَ الخبزُ عجيناً!

كان على النّبيّ ﷺ أن ينتظر أربعين سنةً ليصبح العظيم الذي عرفناه، ثمّة مسؤوليات لا بُدّ لها أن يبلغ العقل أوجَه، والعاطفة أن تتّزِن لتنقاد لا لتقود!

3. هيّئ النّاس وأعِدّهم للمهمّة التي تريدها منهم، من أردته أن يقوم بعملٍ ناجحٍ درِّبه، البنت أعِدّها للزّواج وعلّمها كيف تُدار البيوت، والولد علّمه طباع النّساء وأرشده، معارك الحياةِ لا تُخاض بغير عُدّةٍ وعتادٍ!

صحيحٌ أنّ الخِبرة لا تأتي إلّا بالتّجارب ولكنّ امتلاك مفاتيح النّجاح أمرٌ حاسم في تحقيقه! النّبوّة شيءٌ فوق مستوى البشر وعملٌ يحتاج قلباً وروحاً وعقلاً من نوعٍ آخرٍ والرّؤى التي كان يراها النّبيّ ﷺ ثمّ تأتي كفلقِ الصّبح ما هي إلّا تهيئةٌ لاستقبال الوحي، وتحبيب الخلوة إلى قلبِ النّبيّ ﷺ وما هو إلّا صقلٌ للرّوح والقلب والعقل!

4. الزّواجُ الناجح هو الذي فيه من الصّداقةِ مقدار ما فيه من الحبّ؛ أن تأنسَ ويُؤنَس بك، تطمئنّ وتُطمئِن، تُجبَرَ وتَجبِر، أن تهونَ الدّنيا كلّها عندكَ ولا يهونُ حبيبُك، وأن يُباعَ الكونُ كلّه ويُشترى خاطرُ خليلك! أن تكونَ آمنًا ومانحًا للأمان، أن يتّكئَ كلاكما على صاحبِه، وهو لا يخشى السّقوط. فإن لم يتحقّق هذا المفهوم، فعن أيِّ مودةٍ ورحمةٍ نتحدّث؟!

ألم تسأل نفسك مرةً، ولو من باب الفضول: لماذا ذهب النبيﷺ إلى خديجة بعدما نزل عليه الوحي؟ لماذا اختارها هي بالذات دونًا عن أقاربه وأصدقائه؟

والجواب: لأنّ خديجةَ كانت كلّ هؤلاء بالنّسبة له؛ كانت مأمونةً، عاقلةً، قويّةً، حنونة. لهذا عرَف أنّه لن يحتويه من أهل الأرض غيرُها.

وهو -بالمقابل- كان قد شغفها حبًا بقلبه وأخلاقه، وإذا ضاقت الأرضُ بالإنسان، اتّسعَ له حِضنُ حبيبه!

5. صنائعُ المعروفِ تَقِي مصارعَ السّوء، هذه قاعدةٌ يعرفها النّاس بالتّجربة، لا تحتاج إلى دينٍ لتُدرَك، وإن كان الدّينُ قد أرساها. لم تكن خديجةُ تعرف من الإسلام شيئًا حين أتاها النّبيُّ ﷺ يرتجف، وعندما قال لها: لقد خشيتُ على نفسي، قالت له: كلّا والله، ما يُخزيك الله أبدًا!

وجعلت تُعدِّد عليه فضائلَه ومعروفَه مع النّاس، حتّى وهم في جاهلية، كانوا يعرفون أن زارعَ الخيرِ يحصده، وموقِدَ نارِ الشّرّ حتمًا سيكتوي بها!

فأكثِرُوا من صنائع المعروف، فلا أحدَ أوفى من الله تعالى!

من جَبر جُبِرَ، ومن أعانَ أُعين، ومن خَذَل خُذِل، من ظَلم ابتُلِي بمن هو أظلم منه!

6. تقول العرب: سَلْ من كان به خبيرًا! لا تطلبِ النّصيحةَ إلّا من حكيم، ولا تسأل قضاءَ حوائجك إلّا عند أهلها!

الأهوجُ يزيد المشكلاتِ تعقيدًا، ومن لا خِبرةَ له يُفتي بغير بصيرة!

الذي قتل مِئةَ نفسٍ ذهب أوّل الأمر إلى عابدٍ يسأله: هل له من توبة؟ فأخبره أن لا توبةَ له، فقتله وأتمّ به المئة. ولمّا ذهب إلى عالمٍ أرشده إلى الصّواب!

وعن دونِ قريشٍ كلِّها، ذهبت خديجةُ بالنّبيّ ﷺ إلى ورقةَ بن نوفل؛ لم

تذهب به إلى أبي طالب، رغم عِلمها بمدى حبّه له، ولا إلى أبي بكر، على يقينها أنه صديقه الأمين.

المسألةُ وحي، وخبز سماءٍ، وملائكة. وهذا هو ميدانُ ورقة بن نوفل ومجاله الذي غرف به.

فاشربوا من مَنبعِ النّهر، ودعوا عنكم القنوات!

7. لم يكن ورقةُ بن نوفل ليعلمَ الغيب، ولكنّه كان يعلمُ سنّة الله في الكون!

كان يعرف أنّ الحقَّ والباطلَ في صراعٍ حتى قيام الساعة؛ تتغيّر الميادين، ويتبادلُ المحاربون الأدوار، أمّا الحربُ فهي ذاتها. كان يعرف أن صدرَ قريشٍ سيضيقُ على هذه الدّعوة، وأنّ باطلَها سيستشرسُ في صراع الحقِّ الذي جاء به.

فيا أهلَ الثغور، ويا أيّها العاملون لهذا الدّين على اختلافِ مجالاتِهم، ضعوا هذه الحقيقةَ نُصبَ أعينِكم: لن تسلموا من أهلِ الباطل! إنّهم لا يُعادونكم لأشخاصِكم، وإنّما يعادونكم لرسالتِكم التي تحملونها. ومن لم يجد في ميدانِ الحقِّ له كارهًا، فليُراجع نفسه؛ فإنّه إن رضيَ عنك الباطلُ، فلستَ حاملَ حقٍّ.

هذا دينٌ وصل إلينا بالأشلاءِ تناثرت، وبالدّماءِ نفرت، وبالأموالِ أنفقت، ولن تُحافظوا عليه إلّا بهذه الأشياء، وإنّ سلعةَ الله غالية، وإنّ الله اشترى!

ذهبَ رَوْعُ الوحيِ عن النّبيّ ﷺ بتثبيتِ الله له أوّلًا، ثمّ باحتواءِ خديجةَ له، وبعد ذلك ببشرى ورقةَ بن نوفل له بأنّه سيكون نبيّ هذه الأمّة، وأنّ ما جاءه لم يكن أضغاثًا ولا حديثَ نفسٍ ولا تهيّؤاتٍ يراها، إنّما هو الوحيُ الصّادقُ الذي كان ينزل على الأنبياءِ من قبل.

ولكنّ هذا الوحي قد انقطع فترةً لا يعلم مقدارَها إلّا الله، والذي تستريح إليه نفسي من أقوالِ كتّاب السّيرة أنّها لم تزد على أربعين يومًا، كان النّبيُّ ﷺ فيها يتوق توقًا شديدًا لقبسٍ جديدٍ من الوحي؛ هذا الوحيَ الذي بدأ

باقرأ، ما هي الخطوةُ الثالية فيه؟ وما الذي يترتّب عليه؟

حالُ النّبيّ ﷺ في فترةِ انقطاعِ الوحي تُريك بجلاءٍ أنّ الفِكرةَ قد تملّكته تمامًا، فصار هو الذي يبحث عن الوحي وينتظره على جمرِ الشّوق ليبدأ الرّحلة، وهكذا أصحابُ الرّسالات ورجال الدّعوة الصّادقة، يبحثون عن أماكنِهم في الصّفوف، ولا ينتظرون في بيوتهم أن تسنح لهم الفرصة ليعملوا لدين الله؛ إنّهم يعلمون جيّدًا أنّ الفرصة لا تطرق الأبواب، وإنّما يكتشفها المرء وهو في طريق سيره إلى الله تعالى! فخُذوا أماكنكم بين الصّفوف، وسابقوا إلى الله تعالى في الميادين، ولا يهمّ حجمُ الثّغر الذي أنتم فيه؛ المهمُّ ألّا يُؤتى الإسلامُ من قِبَلِكم! ليس المهمُّ أن تُسند إليكم أدوارُ البطولة؛ كلُّ إنسانٍ في صفِّ الحقِّ بطل، ولو كان واقفاً في آخرِ الصّف، وأن يكون المرءُ ذليلًا في الحقِّ، خيرٌ له من أن يكون رأسًا في الباطل.

ثمّ ذهبَ ظمأُ الانتظار، وابتلّت عروقُ اللّهفة، وجاءه الوحيُ مرةً أخرى.

ولنسمَع الحكايةَ من صاحبِها، والموقفَ ممّن عاشه، يقول النّبيُّ ﷺ:

«بينما أنا أمشي إذ سمعتُ صوتًا، فنظرتُ عن يميني فلم أرَ شيئًا، ونظرتُ عن شِمالي فلم أرَ شيئًا، ونظرتُ أمامي فلم أرَ شيئًا، ونظرتُ خلفي فلم أرَ شيئًا، ثمّ نُوديتُ، فرفعتُ بصري إلى السّماء، فإذا الملَكُ الذي جاءني في حراء جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فرعبتُ منه حتّى هويتُ إلى الأرض، فرجعتُ حتّى أتيتُ خديجة، فقلت: زمّلوني زمّلوني، دثّروني دثّروني».

ثم نزل قولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

بالعلَق بدأتِ النّبوّة، وبالمدّثِر بدأتِ الرّسالة؛ أوامرُ في ظاهرها يسيرة، وفي باطنها ستقلبُ الدّنيا على عقب.

ولكن ما قبل هذا لا بدّ من جهدٍ لا يعقبه راحة، ومن عملٍ ليس فيه إجازة. هذا شيءٌ وعاه النّبيُّ ﷺ جيّدًا، فوهبَ كلَّه للرّسالة، وواصل اللّيل بالنّهار

يدعو دون كلَلٍ، ويعرض رسالة ربّه دون ملل، إلى درجةٍ كانت خديجةُ تُشفِق عليه وتطلب منه أن يستريح قليلًا، فيقول لها: مضى عهدُ النّوم يا خديجة!

قام بالمدثّر قيامًا لم يقمْهُ منَ العالمين أحد، وما قعد من تلك اللّحظة حتّى كانت لحظةُ: بل الرّفيق الأعلى!

وقبل أن نمشي مع النّبيِّ ﷺ في طريق دعوته، ونقف على أهمّ محطّات سيرته، ونستخلص منها ما يجب أن نعيشه واقعًا لا أن نقرأه كتاريخ، لا بدّ من وقفةٍ مع الوحي في المرّتين اللّتين نزلَ فيهما الوحي على النّبيّ ﷺ!

لقد عاد إلى خديجة في المرّة الأولى يرتجفُ ويقول: زمّلوني، زمّلوني، وفي المرّة الثّانية تملّكه الرُّعبُ حتّى سقط على الأرض، ثمّ عاد إلى خديجة يرتجف ويقول: دثّروني، دثّروني.

بأبي هو وأمي، كم كان وقعُ الوحي عليه شديدًا، وكم عانى ليكون لنا دين!

ومن نافلةِ القولِ أن يُقال إنّ الوحيَ والأوامرَ الربّانيّة لم تكن تُنزَلُ على قلبِ النّبيِّ ﷺ بصورةٍ واحدة، ولمّا اختلفتْ صُورُ الوحيِ اختلفتْ بالضرورة تأثيراتُها عليه ﷺ.

وكلُّ ما كان يأتيه من وحيٍ يمكن حصرُه في ستّ هيئاتٍ:

1. الرُّؤيا الصّادقة، وهي أوّلُ ما بُدِئَ به النّبيُّ ﷺ من الوحي، ورُؤيا الأنبياء وحي، وما أُوحيَ إلى إبراهيم عليه السلام بذبحِ ابنه إلّا برؤيا رآها في منامِه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾!

2. وحيٌ يُلقيه جبريلُ عليه السلام في قلبِ النّبيِّ ﷺ فيطبعُ فيه دون أن يراه أو يكلّمه، كقولِ النّبيِّ ﷺ:

«إنّ روحَ القُدُس نفثَ في روعي أنّ نفسًا لن تموتَ حتّى تستكمِلَ أجلَها وتستوعِبَ رزقَها، فاتّقوا الله وأجمِلوا في الطّلب، ولا يَحمِلنّ أحدَكم استبطاءُ الرّزقِ أن يطلبَه بمعصيةِ الله، إنّ الله لا يُنال ما عنده إلّا بطاعته».

3. وحيٌ يتمثّل فيه جبريلُ عليه السلام للنّبيّ ﷺ رجلًا، وقد يراه الصحابةُ في هذه الهيئة البشريّة، وهم لا يعلمون أنّه جبريل عليه السلام ، كحديث عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه : يا محمّد أخبرني عن الإسلام. وفي نهاية الحديث سألهم النّبيُّ ﷺ: أتدرون من السائل؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلّمكم دينكم.

4. وحيٌ يأتيه مثل صلصلة الجرس، وكان أشدّ أنواع الوحي على النّبيّ ﷺ، حتّى أنّه كان يتفصّدُ عرقًا في اليوم الشّديد البرد، وإذا ما أتاه وهو على ناقته بركَت به، فلم تستطع المسير. ولقد جاءه هذا الوحي مرّة، وفخذُه ﷺ على فخِذِ زيد بن ثابت رضي الله عنه ، فثقلت عليه حتّى كادت أن ترضّها.

5. وحيٌ يرى فيه النّبيُّ ﷺ جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه الله عليها، له ستّمائة جناح، ولقد رآه مرتين على هذه الحالة، أولى سنوات نبوّته.

6. وحيٌ أوحاه الله تعالى بلا واسطة جبريل عليه السلام ، وهذا كان ليلة المعراج إلى السّماء، حيث فُرضت الصّلاة.

7. وغالى بعضهم بمرتبةٍ سابعة، وهي تكليم الله تعالى لنبيّه ﷺ من غير حجاب، وهذا مما لا يصحّ ولا يثبت، وإن قال به بعض أهل العلم، والله أعلم.

الدعوةُ السِّرِّيَّةُ: الإسلامُ ينبثُ على مَهَلٍ!

كانت مكّةُ تَغُطُّ في سُباتٍ عميقٍ من الوثنيّة؛ آلهةُ العربِ بين جنباتها يُطافُ بها، وتُقدّمُ لها النُّذور، ويُستعانُ بها لقضاءِ الحاجات. وقريشٌ في نشوةِ سُكرِها بمكانتها المقدّسة عند العرب، ولو جهرَ النبيُّ ﷺ يومئذٍ بالدّعوة لثاروا عليه كالثّورِ الهائج قبل أن يجدَ من يؤمنُ به ويذُبُّ عنه. فاقتضتِ الحكمةُ أن تمضيَ الدّعوةُ في صمتٍ واعٍ حتى تُعدَّ رجالها الذين يثبتون عند المِحَن، ولا تُزعزعُهم العذابات، ولا تثنيهم السّياط إذا نزلت على ظهورهم!

وإنّي أرى أن أسلوبَ الدّعوةِ السِّرِّيَّةِ باديءَ الأمر لم يكن اختيارًا من النّبيّ ﷺ، وإنّما كان وحيًا من الله إليه؛ فليس أحدٌ أشجعَ من النّبيّ ﷺ على المواجهة، ولا أحد أكثرَ منه تسليمًا لأمر الله، ولا أحد انعقد في قلبه أنّ قدرَ الله ماضٍ، وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبَه، وأنّ ما أصابه لم يكن ليخطئَه؛ كما انعقد في قلبِ النّبيّ ﷺ!

لهذا فإنّ الدّعوةَ السِّرِّيَّة لم تكن اختيارًا للسّلامةِ الشّخصيّة، وإنّما اتّباعًا لنهجٍ ربانيّ، وما أراده ربُّنا تعالى هو أن ينبثَ الإسلامُ على مهلٍ؛ حتّى إذا حانت اللّحظةُ التي يُجهرُ فيها بهذا الدين كان نبتةً عصيّةً على الاقتلاع!

وكم أتى على المسلمين أزمانٌ كانت ظروفُهم فيها أشبهَ بظرفِ النّبيّ ﷺ أولَ الأمر، فكانت سيرتُه ﷺ منهجَ حياةٍ لا قصةً تُروى! وعلى سبيل المثال لا الحصر: عندما انتشرت محاكمُ التّفتيش في الأندلس بعد أن غربت شمسُ الإسلامِ عن تلك البلاد، احتفظ كثيرون بدينهم، وقاموا بعباداتهم سرًّا بعيدًا عن سياطِ الجلّادين وأقفاصِ الاعتقال. ولمّا مضى ذلك الوقتُ القاتم، وتمّ تشريعُ قانون الحرّيّاتِ الدّينيّة هناك، ذُهل القومُ بأعدادِ المسلمين الذين كانوا يُخفون إسلامَهم، وها هم قد جَهَروا بدينهم بعد قرونٍ من الكتمان كانوا يتوارثون هذا الدّينَ من جيلٍ إلى جيلٍ؛ يُصلّون خِفيةً ويَصومون خِفيةً، ويُخبّئون مصاحفَهم في أماكنَ آمنةٍ بعيدًا عن أعينِ القوم!

سيرة النبيِّ ﷺ دينٌ، وما جعلَ اللهُ في هذا الدينِ من حرج!

في الاتّحادِ السوفيتي ظَلَمَتِ الشيوعيّةُ كلَّ الناسِ وكلَّ الأديان، ولكنّ المسلمين نالوا القِسطَ الأكبرَ من هذا الطغيان.

أسعد طه له مقالةٌ رائعةٌ بعنوان: «هل شممتَ رائحةَ النبيِّ؟» تُلخِّص لك المشهدَ كلَّه.

في العاصمةِ الداغستانيّة مَخجٌ قَلعة كانوا يحفظون القرآنَ بشكلٍ لا يُمكنُ تصوُّره؛ كانوا يذهبون إلى الجبال، ويختبئون في الكهوف، يجلسون فيها ولا يخرجون إلّا بعد أن يحفظوا قَدْرًا من آياتِ الله، في انقطاعٍ تامٍّ عن العالمِ وعن أعينِ الشُّرطة.

أمّا طعامُهم وشرابُهم فكان يَتسلَّلُ إليهم به ذَوُوهم، يُعطونهم الزادَ ويَرحلون هربًا.

في أوزبكستان كان المعلّمون يتعمّدون إعطاءَ التلاميذ في نهارِ رمضان بعضَ الأطعمةِ المجّانية ليكتشفوا مَن يصومُ منهم، ومَن لا يصومُ، والعقوبةُ تقع على التلميذِ وأهله! بل وكان المعلّمون يقومون بدورِ المُخبرين، فيُحقّقون مع التلاميذِ لِيُفشوا أسرارَ عائلاتهم، ليعلموا مَن منهم ما زال على الإسلام.

أمُّ أحدِ التلاميذِ علّمته كيف يُصلّي بحاجِبيه إذا حان وقتُ الصلاة.

عجوزٌ تترِيّةٌ في جنوبِ أوكرانيا، حكَت كيف سلَبتها قواتُ «ستالين» كلَّ شيءٍ حين هجّرتها من بلدها في القِرم إلى سيبيريا، الأرضَ والبيتَ والمال، ولكنّها كانت سعيدةً للغاية لأنّها احتفظت طوال تلك السنينِ بمصحفِها!

ولكنْ ما إن سقطت الشُّيوعيّةُ حتّى خرجَ الإسلامُ كأنّه لم يُوأد من قبل، وحين كانت الشُّيوعية تهدم مساجدَهم، اكتشف العالمُ كلُّه، أنّ المساجدَ كانت في صُدورِ المسلمين هناك!

دعوةٌ سرّيّةٌ مارسها المسلمون؛ مرحلةٌ مكيّةٌ أولى أتَت مرّةً وما زالت

وستبقى تتكرر، وهذا دليلٌ حيٌ على أهميّةِ دراسةِ السّيرة؛ سيرة حياتية لا سيرة تأريخيّة.

وفي دارِ الأرقمِ بن أبي الأرقم كان التاريخُ يُكتبُ همساً؛ هناك جلس النّبيُّ ﷺ بين نَفَرٍ من الصّفوة، يُعلّمهم القرآنَ آيةً، آية، يسكبُ في أرواحهم يقيناً لا يتزلزل، ويَغرِسُ فيهم بذورَ النّور لتنبت فيما بعد راسخةً، وتغدو شجرةً وارفةً تُظلّلُ البشريّةَ كلَّها.

لم تكنِ الدّعوةُ السّرّيّةُ ضَعفًا، بل كانت حكمةً ربّانيّةً تحفَظُ النّورَ في غِمدِه إلى أن يَحينَ وقتُ الجهرِ بالدّعوة، وتَبني القلوبَ على مَهلٍ، كما تُبنى الجبالُ بالصّبرِ والعَزم!

لقد كانت تلك المرحلةُ مدرسةَ الإيمانِ الأولى؛ فيها صُقِلَتِ النّفوس، وتطهّرتِ القلوبُ من شوائبِ الجاهليّة، وتعلّم المؤمنون معنى الصّبرِ والكِتمان، وكيف يكون الصّدقُ مع الله في الخفاء قبل العَلَن! كلُّ لحظةٍ من لحظاتِ تلك الدّعوة كانت لَبِنةً في صَرحٍ شامخٍ سيظهر بعد حينٍ في هيئةِ جيلٍ يحملُ الهدايةَ للبشريّة!

طوالَ مدّةِ الدّعوةِ المكيّةِ التي استمرّت ثلاثة عشر عامًا، ثلاثةٌ هي عمرُ الدّعوةِ السّرّيّة، وعشرةٌ هي عمرُ الدّعوةِ الجهريّة، لم تكتشف قريشٌ أمرَ اجتماعِ المسلمين في دارِ الأرقمِ بنِ أبي الأرقم طوالَ هذه السّنين؛ لم تُحقّق قريشٌ خرقاً أمنياً، ولم تقعْ من المسلمين زلّةٌ تُظهرُ أمرَ الدّار، فبقي مهد الدّعوة الأولى طيَّ الكتمان!

في قريةٍ صغيرةٍ بيوتُها متلاصقةٌ، والكلُّ يعرفُ الكلَّ، يجتمع في دارٍ صغيرةٍ جَمعٌ من الرّجالِ، سادةٌ وعبيدٌ وبينَ بينَ ولا يُكتشَفُ أمرُهم، لَعَمري هذا واللهِ أمرٌ يدعو إلى العَجَب، ويُريك أهميّةَ أن يُخفيَ المسلمون دعوتَهم جيدًا في لحظاتِ الاضطهاد، ويُريك أهميّةَ أن يُحافِظَ المرءُ في كلِّ شؤون حياتِه على ما لا ضرورةَ لكشفِه للنّاس؛ فالإنسانُ نهايةَ المطافِ سيّدٌ لما يُخفيه، وعبدٌ لما يُظهرُه!

ونحن نشيرُ إلى عظمةِ الدّعوةِ التي وجدت تربتَها الخصبة في دار الأرقم بنِ أبي الأرقم، فلا بدّ أن نشيرَ إلى فِطنةِ النّبيّ ﷺ في اختيارِ تلك الدّار دونًا عن دورِ مكّةَ كلِّها:

1. كانت دارُ الأرقمِ تقعُ عند سفحِ جبلِ الصّفا في مكانٍ لا يلفتُ الأنظار، بعيدًا عن ضوضاءِ الأسواقِ ومجالسِ قريش، ممّا جعلها مأمنًا للدّعوة، ومكانًا صالحًا لِلقاءِ المؤمنين سِرًّا دون أن تُكتشف.

2. كان الأرقمُ بن أبي الأرقم شابّاً صغيراً في السابعةِ عشرة من عمره، ولم يكن معروفًا بمعارضةِ قريش أو مشاركتِها في خصوماتٍ، فلم يخطر ببالهم أن تكونَ دارُه مركزًا لتجمّعِ المؤمنين، فكان هذا عاملًا في حفظِ السّرِّ وكتمانِ الأمر.

3. لم يكن الأرقمُ بن أبي الأرقم مشهورًا بإسلامه، فلم تتم مراقبة بيتِه من قِبَلِ قريش؛ فالنبيُّ ﷺ والصحابةُ من الرعيلِ الأوّل، الذين بدأ ينتشرُ خبرُ إسلامِهم كأبي بكرٍ رضي الله عنه ، لا تصلحُ بيوتُهم لهذا الأمر!

4. الأرقمُ بن أبي الأرقم من بني مخزوم، وبنو مخزوم هم الفرعُ من قريش الذي بينه وبين بني هاشم سباقٌ محمومٌ نحو سيادةِ قريش، فيستحيلُ أن يخطرَ على بالِ أحدٍ أن يجتمعَ النّبيُّ ﷺ الهاشميُّ في عقرِ دارِ عدوّه.

هذا درسٌ بليغٌ باقٍ أبدَ الدّهرِ، اختيارُ ميدانِ الدّعوةِ من أهمِّ أسبابِ نجاحِها، واختيارُ البيئةِ المناسبةِ من أهمِّ أسبابِ قطفِ ما تمّ زرعه، فضَعْ نفسك دوماً في البيئةِ التي تُقدّرك، أو التي ترى أنّ جُهدَك فيها لن يذهبَ هباءً.

صحيحٌ أنّنا مأمورون بالسّعي ولسنا مسؤولين عن النّتائج، ولكن من حُسنِ السّعي حُسنُ اختيارِ الميدان!

لم تتجلّ فِطنةُ النّبيِّ ﷺ باختيارِ البيتِ الحاضنِ للدّعوةِ فقط، وإنّما كانت فِطنته في اختيارِ المدعوّين إلى ذلك البيت أكثرَ عجباً؛ فإنّما الدّيارُ بأهلِها، والإعجازُ في اختيارِ القلوبِ والأبدانِ أعظمُ منه في اختيارِ الجدران.

ولم يكن مُستغرباً أن يبدأ النبيُّ ﷺ بالدائرةِ القريبةِ منه؛ هؤلاء الذين عايشوه وعايشهم، وخَبروه وخَبِرَهُم، عرف معادنهم وعرفوا معدنه، فكانت أولى النّاسِ إسلاماً أمُّنا خديجةُ رضي اللهُ عنها.

هذه المرأةُ العظيمةُ التي ما ترددت قيدَ أنملةٍ عن الإيمان بالذين الذي جاء به زوجُها، وبإسلامِها صارتِ الدّيارُ آمنةً، ظهرُه ﷺ مَحميٌ، وعقلٌ راجحٌ يستعينُ به، وحضنٌ حنونٌ يأوي إليه. خديجةُ رضي اللهُ عنها لا يُشبهُها أحدٌ ولا تُشبهُ أحدًا؛ بإسلامها شاطرَتْه الإسلام، فحملت معه نصفه، وحمل هو نصفَه، ثم بدأ الإسلامُ يتوزّعُ على النّاس!

خديجةُ رضي اللهُ عنها درس بليغٌ مفاده: إنّ البيتَ هو كلُّ شيء؛ كلُّ الخرابِ في الخارجِ لا يضرُّ ما دامت السّكينةُ تُظلّلُ البيتَ من الدّاخل.

فأحسِنوا الاختيار؛ ولستُ أبالغُ إذ أقول: إنّ ثلاثةَ أرباعِ سعادةِ الإنسانِ أو شقائه مُرتبطةٌ برفيقِ عمره، وما تبقّى رُبعٌ يسيرٌ مهما كان شاقّاً يمكن التّعاملُ معه، والالتفاف عليه!

ومن الدائرةِ القريبةِ للنّبيّ ﷺ مولاهُ زيدُ بن حارثةَ رضي الله عنه ، وابنُ عمّه عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، الذي كان يومئذٍ صبيّاً يعيش في كفالتِه، وقد أسلما منذ اللّحظةِ الأولى التي عرض فيها النّبيُّ ﷺ عليهما الإسلام.

وبإسلامِ بناتِه الأربع أحكمَ النّبيُّ ﷺ إغلاقَ دائرته الصّغيرة من حوله.

لا شكَّ أنّ خديجةَ رضي اللهُ عنها كانت أوّلَ هذه الأمّة إسلامًا، أمّا البقيّةُ التي ذُكِرَت من الدائرةِ الضّيّقةِ للنّبيّ ﷺ فلا يمكنُ الجزمُ أبدًا بترتيبِ دخولهم في الإسلام؛ ما يمكنُ الجزمُ به أنّهم الرّعيلُ الأوّل، وأنّهم أسلموا تباعًا في أيّامِ الإسلامِ الأولى، ولا يُعلَمُ يقيناً أسَبَقَ أحدٌ منهم أبا بكرٍ في الإسلام، أم هو الذي سبقهم؛ ولكن ما يُعلَمُ يقيناً أن إسلامَ النّاسِ جميعًا كان في كفّة، وإسلامَ أبي بكرٍ رضي الله عنه في كفّة.

كان أبو بكرٍ رضي الله عنه صديقَ النّبيّ ﷺ قبل البعثة، وكان موضع سرّه ورفيقَ دربه، وحين رآه ﷺ عرضَ عليه الإسلامَ فلم يتردّد لحظة، وبقي النّبيّ ﷺ يذكرُها له حتّى آخرِ عمرِه، فيقول: «ما عرضتُ الإسلامَ على أحدٍ إلّا كانت له كَبْوَة، غيرَ أبي بكرٍ، فإنّه لم يتلعثم».

ولستُ أبالِغ إذ أقول إنّ النّبيّ ﷺ استند على كتفين في دعوته: على كتفِ خديجة، وعلى كتفِ أبي بكر! كانا جُنديّيه الأكثر ثباتًا، خديجةُ تحرُسه من الدّاخلِ وتَحمِلُ معه، وأبو بكرٍ يَحرُسه خارجَ البيتِ ويحمِلُ معه.

كان أبو بكرٍ يتحرّكُ داعيًا إلى الإسلامِ كأنّما الإسلامُ قد أُنزِل عليه؛ لم تكن الدعوةُ عنده مجرّدَ تكاليف من النّبيّ ﷺ، وإنّما انبرى ليحمِلَ الإسلامَ حَمْلَ الصّادقين الثّابتين، من اللّحظةِ التي أسلمَ فيها إلى اللّحظةِ التي غادرَ فيها الدّنيا، فجزاهُ اللهُ عنّا وعن الإسلامِ خيرَ ما جزى رفيقَ نبيٍّ على صُحبتِه!

إنّ الأسماءَ التي أتى بها أبو بكرٍ الصِّدّيق للإسلامِ تُزلْزِلُ الجبال؛ أسلمَ على يَدَيه: عثمانُ بن عفّان، والزّبيرُ بن العوّام، وسعدُ بن أبي وقّاص، وطلحةُ بن عُبيدِ الله، وعبدُ الرّحمنِ بن عوف.

هؤلاءِ الخمسةُ من العشرةِ المُبشّرين بالجنّة! تخيّل أنّ نصفَ العشرة أتى بهم أبو بكرٍ الصّدّيق إلى الإسلام، فكانوا في صَحيفتِه.

ولو تفرّسنا عميقًا في هؤلاء الخمسةِ لتبيّنتْ لنا الاستراتيجيّةُ التي عملَ بها النّبيّ ﷺ وصاحِبُه!

إنّ هذه الأسماءَ محفورةٌ في أذهانِنا على أنّها عمالقةُ الإسلام، وهم كذلك حقًّا، ولكنّ الذي لا يمكن لنا أن نتخيّلَه لعظمة هذه الأسماء، أنّهم جميعًا كانوا في رَيْعانِ الشّباب!

الزّبيرُ بن العوّام كان في الخامسةِ عشرة، وطلحةُ بن عُبيدِ الله في السّادسةِ عشرة، وسعدُ بن أبي وقّاص في السّابعةِ عشرة، وعثمانُ بن عفّان في الثّامنةِ والعشرين، وعبدُ الرحمنِ بن عوف في الثّلاثين.

لم يكنِ التّركيزُ على فئةِ الشّبابِ عبثًا أبدًا، وإنّما كان استهدافًا واعيًا مقصوداً لأسباب:

1. الشّبابُ لم يَطُلْ عليهم الأمدُ في الاستمرارِ على تقاليد معيّنة، ولم يعتادوا على عبادةِ الأصنامِ لسنواتٍ طويلة، ولم يتمسكوا بالدّفاع عنها. عقولُهم متحرّرة، والجاهليّةُ ليستْ متجذّرةً فيهم تجذُّرَ أولئك الطّاعنين في السّنّ الذين عكفوا على الشِّركِ عقوداً من الزمن.

2. الشّبابُ ليس بينهم وبين الجاهليّةِ وحدةُ مصيرٍ أو انتفاعٌ من واقعِ الحال، بحيثُ يكون تركُهم لما هم عليه خسارة فادحة لمكانتهم الاجتماعيّة أو السّياسيّة، فهؤلاء لا يقفون ضدّ الإسلام لأنّه إسلام، إنّهم يقفون ضدّه لأنّه ضِدُّهم!

الوليدُ بن المغيرة، وأبو جهل، وعُتبةُ بن ربيعة، وأبو سفيان هم «الدّولةُ العميقة» للمجتمعِ القُرشيِّ، والجاهليّةُ يصعبُ مقاومةُ جذورها.

أمّا الشباب فكانوا أحرارًا من رِبقةِ كلِّ هذه الاعتباراتِ السّياسيّةِ والاجتماعيّة التي كانت تُكبِّلُ سادةَ قريش.

3. الشّبابُ بصفةٍ عامّة مولعون بالتّجديد، ولهذا تجدُ اليوم أنّ أتباعَ الموضة، واللّاهثين خلف «الترندات» في غالبيتهم العظمى من الشّباب. إنّهم فئةٌ منفتحةٌ على التّغييرِ واتباعِ الجديد، سلباً كان أم إيجاباً. ولهذا لم يكن مستغربًا أن تكون فئةُ الشّبابِ هي الميدانُ الذي أولاه الإسلامُ عنايتَه الكبرى، فجاء بهم من الضّلالِ إلى الهدى.

4. إنّ الله تعالى أعطى الشّبابَ حماسةً عاليةً ونشاطاً فائضاً؛ فلا يعترفون بالصّعب، ولا يَلينون أمام المستحيل، وحملُ الإسلامِ صعبٌ وشاقٌ، يحتاج إلى عزيمةِ الشّباب. وليس معنى هذا أنّ الشّيوخَ ليس لهم مكانٌ في حملِ دعوةِ الإسلام، ولكنّ فرصةَ إيمانِ الشّباب وحركتِهم بعد الإيمان وثباتِهم على ما يَلْقَون أكبرُ من فرصةِ الشّيوخ، ومن المؤكّد أيضًا أنّ الدعوةَ تحتاج إلى حكمةِ الشّيوخ إلى جانبِ حماسةِ الشّباب.

سَلْ أيّ مديرٍ جديدٍ لمدرسةٍ أو مؤسّسةٍ: من هي الفئةُ التي استجابت للجديد، ومن هي الفئةُ التي حاولت أن تُعرقِل التغيير؟ تجدْ أن الجواب واحدٌ لا يتغيَّر: يتقبّلُ الشّبابُ التّغييرَ لأنّهم أقلُّ التِصاقًا بالنّظامِ القديم، أمّا الجيلُ القديم، فإنّ المؤسّسةَ تعيشُ فيه أكثر ممّا يعيشُ فيها!

الغريبُ أنّه طوالَ ثلاثِ سنواتٍ، هي عمر الدّعوة السّرّيّة، لم تتعرَّض قريشٌ للمسلمين بأيّ أذى، رغم أنّ أخبارَ الدّعوةِ الجديدة كانت تطرُقُ مَسامِعَها بين يومٍ وآخر. والسّببُ برأيي، أنّها لم تكن المرّةَ الأولى التي تظهرُ فيها دعوةٌ في قريش؛ فقد ظهر فيهم من قبلُ أُميّةُ بن أبي الصّلت، وزيدُ بن عمرو بنِ نُفَيل، وقِسُّ بن ساعدة، وكانوا حُنفاءَ على دينِ إبراهيمَ عليه السلام ، وكانوا يَعيبون على قريشٍ دينَهم ويتحدّثون بالتّوحيد، ولكنّ دعوةَ كلِّ هؤلاء كانت فرديّة، ثمّ ما لَبِثَ أن اندثرت بموت أصحابِها، فكانت قريشُ تَقيسُ على ما سبق!

أيضًا كان وَرَقةُ بن نَوفَل قد تنصّر، ومضى كما مضى أصحابُه الأحنافُ دون أن تكترِثَ قريشُ لأمرِهم.

لهذا كانت تَحسَبُ أن دعوةَ الإسلام ما هي إلّا كسابقاتِها، سيأتي عليها الزّمنُ وتندثر، فلم يكن من داعٍ لأيّ نوعٍ من أنواعِ المواجهة.

كان قانونُ قريشٍ واضحَ المعالم، طِبقَ الأصلِ من قانونِ الرّومان: «ما لقَيصَر، لِقَيصَر، وما لله لله»!

كانت راضيةً أن تحكمَ وتَتسيَّدَ وتُقرِّرَ وتحظى بالمكانةِ الاجتماعيّةِ والسّياسيّةِ والدّينيّة بين العرب، ثمّ لا يهمُّها أن يخرجَ صوتٌ خافتٌ من هنا أو هناك. أمّا أن يأتيَ دينٌ جديدٌ يَهُزُّ قواعدَ الجاهليّة، ويُحرّكُ أساساتِها وثوابتَها، ويتدخّلُ في كلّ شؤونِ الحياة، ويُنظّمُ ويُشرّع، بل ويطرحُ نفسَه بديلاً عن كلّ هذه المنظومةِ السّائدة، والأخطرُ أنّ فيه تهديداً شخصيّاً لمكانةِ السّادةِ والدّولةِ العميقةِ لقريش، فهذا ما لا يمكن لقريش أن تَسكُتَ عنه بأيّ حالٍ من الأحوال، وفي اللّحظةِ التي عَرَضَ فيها الإسلامُ نفسَه على

المجتمعِ عَرَضًا لا مُوازَنةَ فيه، دخلَتِ الأمورُ مرحلةً جديدة، ويمكنُ تسميتُها مرحلة كَسْرِ العَظْمِ، والعضِّ على الأصابعِ، أيُّ الدعوتين يضمدُ أكثر، وأيُّ الطَّرَفَين يَصرخُ أوّلاً!

الدّعوة الجهريّة: الإسلامُ في مواجهةِ الجاهليّة!

إنقضى عهدُ الهمسِ في دارِ الأرقَم، وآن أوانُ الجَهرِ بالحقّ في بَطحاءِ مَكّة، حيثُ وقف النبيّ ﷺ مُعلِنا رِسالته على رؤوسِ الأشهاد، يَقرَعُ قلوبَ قُريشٍ، ويرفعُ لواءَ النورِ في وجهِ الظُّلمة، ويُضيءُ شمعةَ التوحيدِ في ليلِ الشِّركِ البهيم.

ما كان الجهرُ بالحقّ في مكّة صوتاً يُقال، بل زلزلةٌ تُبدّلُ موازينَ الأرض!

كانت كلمةُ التّوحيدِ كالسّيفِ تُقطّعُ أغلالَ العِباد، وتَشقُّ طريقَ الحريّةِ في نفوسٍ استُعبِدتْ للأصنامِ وللحجارة.

منذ أنِ ارتفعَ ذلك الصّوتُ الهادِرُ عند جبلِ الصّفا، والعالَمُ كلُّه يتبدّل. لقد كانت الدّعوةُ الجَهريّةُ امتحاناً للإيمانِ وتمييزاً للصّفوف؛ فهُناك من انكشفت سَريرتُه فاستكبرَ وكذّب، وهناك من أشرقَ قلبه فآمنَ وصدّق.

سَمِعَها المستضعفون فوجدوا فيها عزّهم، وسمعَها الجبابرةُ فارتجفَ لها سلطانُهم، وسمعَها أصحابُ الفِطرةِ السّليمة الذين لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاء، فوجدوا فيها امتلاءً لِخَواءِ أرواحِهم الذي أحدثته الجاهليّة!

وكما أنّ الدّعوةَ السّريّة لم تكنِ اجتهادًا من النّبيّ ﷺ، بل وحياً مِن الله تعالى، كذلك الدّعوةُ الجهريّةُ؛ كانتْ بالوحي! لقد نزل أمرُ الله تعالى لنَبيِّه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، فدعا بني هاشم، فحضروا، وكان قد تناهى إلى سمعِ أبي لَهَبٍ بعضُ ما تناهى إلى سمعِ قريشٍ أنّ النّبيّ ﷺ يدعو سِرّاً إلى دينٍ جديد! وقبلَ أن يتكلّمَ النّبيّ ﷺ عاجَله أبو لهب، فقال له: هؤلاءِ هم عُمومتُك وبنو عمّك، فتكلّمْ ودَعِ الصّباة، واعلمْ أنّه ليس لقومِك بالعربِ قاطبةً طاقة، وأنا أحقُّ مَن أخذَك، فَحَسْبُكَ بنو أبيك، وإن أقمتَ على ما أنت عليه، فهو أيسرُ عليهم من أن تَثِبَ بك بُطونُ قريشٍ، وتُمِدَّهُم العرب، فما رأيتُ أحداً جاء على بني أبيه بشرٍّ ممّا جئتَ به، فسكتَ النّبيّ ﷺ ولم يتكلّمْ في ذلك المجلس.

ثم دعاهم مرةً ثانية، وقال: الحمدُ لله، أحمَدُه وأستعينه، وأؤمنُ به وأتوكلُ عليه، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، إنَّ الرائدَ لا يَكذِبُ أهلَه، ووالله الذي لا إلهَ إلا هو، إني رسولُ اللهِ إليكم خاصةً وإلى الناسِ عامةً، واللهِ لَتموتُنَّ كما تنامون، ولَتُبعَثُنَّ كما تستيقِظون، ولَتُحاسَبُنَّ كما تعملون، وإنها الجنّةُ أبدًا أو النارُ أبدًا!

فقال أبو طالب: ما أحبَّ إلينا معاونتك، وأقبلَنا لنصيحتك، وأشدَّ تصديقنا لحديثِك، وهؤلاءِ بنو أبيك مجتمعون، وإنّما أنا أحدُهم غيرَ أنّي أسرَعُهم لما تُحِبُّ، فامضِ بما أُمِرتَ به، فواللهِ لا أزالُ أحوطُك وأمنعُك، غيرَ أنَّ نفسي لا تُطاوعُني فِراقَ دينِ عبدِ المطلب.

فقال أبو لهب: هذه واللهِ السَّوأة! خُذوا على يديه قبل أن يأخذَ غيرُكم!

فقال أبو طالب: واللهِ لَنمنعَنَّهُ ما بقينا!

يتّضِحُ أنَّ بني هاشم كانوا على ثلاثة تيارات:

التيارُ الأول: من آمنَ واتَّبعَ النبيَّ ﷺ، كعليِّ بن أبي طالب، وعُبيدة بن الحارث، وسائر من آمن لاحقًا، وهؤلاءِ جمعوا الإيمانَ مع النُّصرة.

التيارُ الثاني: من لم يُؤمِنْ بالنبيِّ ﷺ، لكنَّه تعهّد بحمايته والدِّفاعِ عنه، على عادةِ العربِ في الجاهليّة بحميّتها وعصبيّتها للرَّحم والدَّم، ورأسُ هذا التيار أبو طالب، وسائرُ بني هاشم الذين لم يكونوا من التيار الأول.

التيارُ الثالث: من لم يؤمن بالنبيِّ ﷺ ونَصَبَ له العداء منذ اللّحظةِ الأولى، وكان هذا التيار متمثّلاً في بيتِ أبي لهبٍ كلّه، أبو لهبٍ، وزوجته أمُّ جميل حمّالةُ الحطب، وولداه اللذانِ استجابا لأبيهما، فقاما بتطليقِ ابنتَي النبيِّ ﷺ: رُقيّة وأمّ كلثوم.

وهذا حالُ أحدِنا دومًا مع أقاربه ومعَ النّاس!

صِنفٌ يَرى الخيرَ الذي فيك، فيكونُ معك عَضُداً ونصيراً، وصِنفٌ لا يتبنّى الخيرَ الذي تدعو إليه، ولكنّه يأبى أن تُظلَم، وصِنفٌ يُناصِبُك العداء!

وفي حياةِ كلِّ واحدٍ منّا هذه الأصناف الثلاثة.

وبعدما بلّغ النبيّ ﷺ رسالة ربّه إلى عشيرته، حانَ الآن دورُ قريشٍ قاطبةً، فصَعدَ على الصّفا، وجعل يُنادي: يا بني فِهر! يا بني عَدِيّ! يا بني مَخزوم!، حتّى نادى على بطونِ قريشٍ كلِّها، فاجتمعوا عليه، وجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسلُ عنه رسولًا لِينظر ما الخبر.

فجاء أبو لهبٍ وقريش، فقال النبيّ ﷺ: أرأيتم لو أخبرتُكم أنّ خيلًا بالوادي تريد أن تُغيرَ عليكم، أكنتم مُصدِّقيَّ؟

فقالوا: ما جرّبنا عليك كذباً.

فقال: فإنّي نذيرٌ لكم بينَ يدي عذابٍ شديد!

فقال أبو لهب: تبًّا لك سائرَ يومِك، ألهذا جمعتنا؟!

فَنزل قولُ اللهِ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾!

ثم قال النبيُّ ﷺ: يا معشرَ قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبدِ المطّلب، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا صَفيّة عمّة رسولِ الله لا أُغني عنكِ من الله شيئاً، يا فاطمة بنتَ رسولِ الله، سليني ما شئتِ من مالي، لا أُغني عنكِ من الله شيئاً!

ولمّا صَدَعَ النبيُّ ﷺ بما أُمِرَ، اضطربتْ مكّةُ اضطرابَ الرّيحِ العاصف، وارتجّت أركانُ الجاهليّة ارتجاجَ الشّجرةِ حين تُصيبُها الصّواعق.

هناك انقلبتْ قريشٌ على عاداتِها، وتغيّرت وُجوهُ سادتِها، إذ علمَتْ أن ما دعا إليه النبيُّ ﷺ ليس قولَ شاعرٍ ولا هذيانَ كاهن؛ إنّها دعوةٌ تقلبُ مكّةَ رأساً على عَقِب.

إنفجرتْ مكّةُ بمشاعرِ الغضب، وهاجتْ بالغرابة، وماجتْ بالاستنكار حين سمعتْ صوتاً يَجهرُ بتضليلِ المشركين وعبادةِ الأصنام، كأنّه صاعقةٌ قصفتِ السّحابةَ فرَعَدَتْ وبَرقتْ، وزلزلَتِ الجوَّ الهادئ، وقامتْ قريشٌ تَستعِدُّ للقضاءِ على هذهِ الثّورةِ التي اندلعتْ بَغتةً، وتَخشى أن تأتي على تقاليدِها

وموروثاتها ومكانتها، بل أن تأتي على هذه المنظومةِ الجاهليّة بأسرها.

قامتْ لأنّها عَرفَتْ أنّ معنى الإيمانِ يَنفي الألوهيّة عمّا سوى الله، وأنّ معنى الإيمانِ بالرّسالةِ وباليومِ الآخر هو الانقيادُ التامُّ والتّفويضُ المطلق، بحيثُ لا يَبقى لهم خيارٌ في أنفسِهم وأموالِهم فضلًا عن غيرِهم.

ومعنى ذلك كلّه: انتفاءُ سيادتِهم وكِبريائِهم على العرب، تلك السّيادةُ التي كانت بالصِّبغة الدّينيّة، وقد جاء الإسلامُ ليهدمَ هذا كلّه!

والحقيقةُ أنّ هذه هي مشكلةُ الجاهلياتِ في كلِّ العصور! إنّها ليست ضدّ الحقِّ لأنّه حقٌّ، بل لأنّ هذا الحقَّ يمدُّ يدَه ويهزُّ أركانَ باطلِهم.

إنّه الشّعورُ بالتّهديد، وفقدانِ المكان، وانهيارِ المنظومةِ التي يَعتاشونَ منها!

إنّه الشّعورُ بفقدانِ الامتيازات، وسحبِ البِساطِ من تحتِ أرجلِهم!

إنّ أخطرَ ما في الحقِّ بالنّسبةِ إلى الباطل أنّه لا يُنادي بالتّعايش مع الباطل، وإنّما بالقضاءِ عليه!

وانظرْ حولَك اليوم، تجدْ أنّ الباطلَ مُتسامِحٌ مع الباطلِ الذي لا يُشبِهُه، لأنّه لا يجدُ فيه تهديدًا، أمّا حين يتعلّقُ الأمرُ بالإسلام، فلا هَوادةَ ولا قِيَمَ ولا مبادئ!

إنّهم مع حريّةِ المرأة في أنْ تتعرّى، وضِدّ حريّتِها في أنْ تتحجّب!

إنّهم مع حريّةِ مقاومةِ المحتلِّ، ما دامتْ هذه المقاومةُ ليس لها رايةٌ تُهدّدُ باطلَهم، أمّا حين تُرفَعُ رايةُ الجهاد، تتحوّلُ عندهم المقاومةُ إلى إرهاب، ومن فعلٍ نبيلٍ يستحقُّ الإشادة، إلى فعلٍ خطيرٍ يستحقُّ التّجريم!

ومنذ فجرِ الدّعوةِ الأولى إلى غروبِ شمسِ هذا الكوكب، لن تجدَ شيئًا يجمعُ كلَّ أهلِ الباطل إلّا شعورَهم بالتّهديدِ من أهلِ الحقِّ!

تفهّموا هذه النّقطةَ جيدًا، دينُكم ليس فكرةً نظريّةً ليدخلَ في دائرةِ حريّةِ

دينكم فكرة عمليّة، وتطبيقُ يوميّ، ومنهجُ حياة، وهنا مكمنُ جماله وخطورته في آنٍ معًا!

والحقُ يُقال إنّ قريشًا تدرّجت في مواجهتها لدعوة الإسلام تدرّجًا لافتًا للنّظر، فهي لم تلجأ إلى استخدامِ القوّة المفرطة منذ اللّحظةِ الأولى، وإنّما سبقت مرحلةُ الاضطهاد التي أذاقت فيها المسلمين الويل، مرحلةُ من المقاومةِ النّاعمة والثّورةِ المضادّة، وأخذت هذه المقاومةُ النّاعمة تتخلّى شيئًا فشيئًا عن اتّزانها كلّما ظهرَ لهم أنّها لا تُجدي نفعًا في صرف المسلمين عن دينهم، وفي صرف النّاس عن النّبيّ ﷺ!

هذا التّدرّج في المجابهة يجبُ الوقوفُ عنده، لا للإشادةِ بحكمةِ قريش، فأيّ حكمةٍ في مجابهة الحقّ بغضّ النّظر عن وسيلةِ مجابهته؟! ولكن لأنّ الثّورةَ المضادّة التي قامت بها قريش ما زالت تتكرّر في كلّ عصرٍ يشهد صراعًا بين الحقّ والباطل! وما يعيشه المسلمون اليوم في ظلّ الهجمة الشّرسة على دينهم، سبق وأن عاشه المسلمون الأوائل بحذافيره في مكّة!

1. المساومة:

جاء مُشركو قريشٍ إلى أبي طالبٍ يشكون إليه النّبيّ ﷺ، وقالوا: إنّا واللهِ لا نصبرُ على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتّى تكفّه عنّا أو ننازله وإيّاك!

ثمّ خفّفوا حدّة الخطاب، فقالوا: قُل له إن أراد مُلكًا ملّكناه علينا، وإن أراد مالًا جعلناه أكثرنا مالًا، وإن أراد نساءً زوّجناه ما شاء، وإن أراد السّيادة أعطيناه مفاتيح الكعبة، ويكفّ عنّا هذا الذي جاء به!

فقال النّبيّ ﷺ لعمّه: واللهِ يا عم، لو وضعوا الشّمس في يميني، والقمرَ في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتّى يُظهره اللهُ أو أهلِكَ دونه!

إنّها سياسةُ العصا والجزرةُ التي تتكرّر في كلّ عصر، عرضٌ في ظاهره

المنح وفي باطنه التهديد، خذ من دنيانا ما شئت، وأعطنا من دينك ما نشاء!

وما أكثر ما رأيناه من هذا في أيامنا، والثابث من ثبّته الله!

وعندما فشلت قريش في المساومة على الدّين بالدُّنيا، انتقلت إلى المساومة على الدّين بالدّين!

فقد جاء رهط من قريش إلى النبيّ ﷺ، وقالوا له: يا محمد، هلمّ، فاتّبِع ديننا، ونتّبع دينك، تعبدُ آلهتنا سنةً، ونعبدُ إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيرًا ممّا بأيدينا شركناك فيه وأخذنا بحظّنا منه، وإن كان الذي لدينا خيرًا مما في يَدِك، شركتنا في أمرِنا، وأخذتَ بحظّك!

فقال لهم النبيّ ﷺ: معاذ اللهِ أن أشركَ به غيره!

فأنزلَ الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾!

وغدا رسولُ الله ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه الملأ من قريش، فتلى عليهم السّورة، فأيِسوا منه عند ذلك.

عندما يفشل الباطلُ في إسكات الحقّ إسكاتًا مطبقًا، فإنّه يسعى إلى إفساد منهجه، فإن ثبّتَ اللهُ أهلَ الحقِّ، استعر أهلُ الباطل في عداوتهم، وإن أجابوا صاروا إلى دعوةٍ رخوةٍ مشوّهة، لا فيها دنيا الباطل، ولا فيها آخرة الحقّ، ففاتتْهم الدّاران، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله!

2. صَدُّ النّاسِ عن الاستماع إلى دعوة الحقّ:

بذلت قريشُ جهدَها لصدّ النّاس عن الاستماع إلى النّبيّ ﷺ، فقد رأت أن كلامَه يجذب القلوب، وأنّ صوته إذا نفذَ إلى السّمع، لم يخرج إلّا وترك فيه أثرًا، فراحت تفتعل الحِيَل لتغلق الأسماع عن صوتِ التّوحيد!

وقد بلغ بهم المكر أن وضعوا الحرّاس على الطّرقات المؤدّية إلى مكّة، فإذا أقبل وفدُ حجيجٍ أو تُجّارٍ، قالوا له: إيّاك ورجلًا في المسجد يدّعي النّبوّة، فإنّه يسحر العقول ويُفرّق بين المرءِ وأهله!

ومن سَفهِ وسائلهم أنّهم أمروا رجالهم أن يتبعوا النّبيّ ﷺ في المواسم، فإذا قام يحدّثُ النّاس بآيات ربّه صاحوا خلفه، وأحدثوا شغبًا وجلبةً، مصداق قول ربّنا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾!

وما أشبهَ اليومَ بالأمس، واقعٌ مكرّر، وخطواتٌ متشابهة. فانظر لمن تُفتح القنوات، ولمن تُعطى منابرُ الإعلام، ومن يُغلق فمه، ويُحرم فرصة أن يُنافح عن دينه.

يكفي أن يخرج سفيهٌ ليُشكّكَ بصحيح البخاريّ، أو يفتري ويدّعي أن الإسلامَ ظلمَ المرأة، أو انتشرَ بالسّيف لا بالحقّ الكامن فيه، حتّى تُفتح له القنوات، ويُستضافُ على أنّه المفكّرُ الإسلاميّ، وإذا ما أردتَ أن تردَّ على هذه التّرهات، فإنّ هذه القنوات لا تُعطيك الفرصة، ولو من بابِ قرع الرّأي بالرّأي، ومجابهة الحجّة بحجّة.

3. محاولةُ تشويهِ سمعة النّبيّ ﷺ:

قررت قريشُ أن تشنَّ حربًا إعلاميّةً لتشويهِ سمعةِ النّبيّ ﷺ، فاجتمعَ كبراؤها في دارِ النّدوة، فقال لهم الوليدُ بن المغيرة: يا معشرَ قريش، إنّه قد حضرَ الموسم، وإنّ وفودَ العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم، فلا تختلفوا فيه، فيكذّبُ بعضُكم بعضاً!

فقالوا له: يا أبا عبد شمس، قُلْ وأقِمْ لنا رأيًا نقولُ به!

فقال: بل أنتم قولوا فأسمع.

فقالوا: هو كاهن!

فقال: ما هو بكاهنٍ، لقد رأيتُ الكُهّان فما هو بزمزمةِ الكاهن وسجعه!

فقالوا: هو مجنون!

فقال: ما هو بمجنونٍ، لقد رأينا الجنون وعرفناه.

فقالوا: هو شاعر!

فقال: ما هو بشاعرٍ، قد عرفنا الشِّعر برجزه وقريضه، ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشِّعر!

فقالوا: هو ساحر!

فقال: ما هو بساحرٍ، لقد رأينا السُّحّار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده.

فقالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟

فقال: والله، إنَّ لقوله لحلاوة، وإنَّ أصله لغدِق، وإن فرعه لجناه! وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلّا عُرِفَ أنّه باطل، وإنَّ أقرب القول أن تقولوا: جاء بقولٍ هو سِحر، يفرِّقُ بين المرءِ وأبيه، وبين الأخ وأخيه، وبين المرء وزوجِه، وبين المرء وعشيرتِه.

أرأيت ظلماً وافتراءً أكبر من هذا، جَمَعُوا كيدهم، وأتَوا صَفّاً، يَخِيطُون تهمةً زُورًا وبُهتاناً، لِيُلبِسوها لِمن كان عندهم بالأمسِ الصَّادقِ الأمين!

وعلى الرَّغم من أنّهم أجمعوا أمرهم على أن يقولوا ساحر، إلّا أنَّ التُّهمَ الأخرى فلتَت إلى سفهائهم، فقالوا عن النَّبيِّ ﷺ: شاعرٌ، ومجنونٌ، وكاهنٌ!

يعلمُ الباطل يقينًا أنَّ تشويهَ الدَّاعيةِ هو تشويهٌ للدَّعوة، ولك أن ترى اليوم ما نعيشه من حربٍ شعواء على الدُّعاة؛ يريدون إسقاطَ القدوات، ليسهل عليهم تصديرُ التَّافهين للنَّاس!

الصِّراع بين الحقِّ والباطل هو ذاته في كلِّ عصر، نفس الأسلحة والأساليب، المتحاربون فقط من يتبادلون الأدوار.

4. محاولةُ تشويه الدَّعوة:

لمَّا ضاقت قريشٌ بالحيلة، وتقطَّعت بهم سبلُ المكرِ أمام سطوع براهين النَّبيِّ ﷺ، استشعرت الهزيمةَ في عُقرِ فصاحتِها، فعمدت إلى اليهود لتستنجِدَ بخبرتهم، لعلَّها تجد عندهم ما تُطفئ به نورَ الوحي، أو تزلزل به

فجاء وفدُهم إلى يهودِ المدينة يقول: قد خرج فينا رجلٌ يزعم النّبوة، وقد فرّق ديننا وأفسد آلهتنا، فأنتم أهلُ العلم بما في الكتب، فصفوا لنا أمره، وأشيروا علينا بما نختبر به صدقه.

فقال أحبارُهم، في مكرٍ على عادتهم: سلوه عن فتيةٍ آمنوا بربهم فغابوا في الزّمان، وعن رجلٍ بلغ المشرقَ والمغرب، وعن حقيقةِ الرّوح، فإن أجابكم كما في كُتبِنا فهو نبيٌ حقٌّ، وإلّا فقد تقوّل من عند نفسه!

فرجعت قريشٌ تحمل ظنّها بالنّصر، وسألت النّبيّ ﷺ تلك الأسئلة، فجاءه الوحيُ بآياتٍ تهزُّ القلوب، وتفيضُ بحديث أصحاب الكهف في دقّةٍ يعجز عنها البشر، وتسرد قصةَ ذي القرنين كأنّها تُرى رأي العين، أمّا الرّوح فمِن أمر ربّي!

ولكن هيهات للباطل أن يستكين، ويخشع لما نزل من الحقّ، إنّه الكِبر!

وعندما باءت المحاولة لتشويه الدِّين بتكذيبه بالاستعانة باليهود، أعملوا عقولهم التي غلّفتها الأباطيل، ومضوا في غيّهم، تارةً يدّعون أن الإسلام صنيعة مؤامرة عليهم، قام بها النّبيّ ﷺ بمساعدة من جهات خارجيّة، فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾!

وتارةً يدّعون أن هذا القرآن ما هو إلّا صياغةٌ من النّبيّ ﷺ، ضمّنه ما سمعه من أساطير الأمم السّابقة وأخبارهم!

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

مع أنّهم يعلمون يقينًا أنّ النّبيّ ﷺ أميٌ، لا يكتب ولا يقرأ، وأنّه لم يغادر مكّة إلّا نادرًا، ولم يكن مرةً بمفرده؛ فلم يلتقِ بكاهنٍ ولا راهبٍ، ويسمع منه، ويأخذ عنه، ولكنّه الكِبر!

إنّها الهجمةُ المسعورة ذاتها التي نراها اليوم: زيفٌ وباطلٌ وتُرّهات، أملَتْها عليهم أنفسهم وشياطينهم، فرَمَوا بها الإسلام، تارةً تهمة في الإرهاب، وتارةً

في التحجُّر والتخلف، وتارةً بظلم المرأة، وتارةً بعدم القدرة على قيادة المجتمع، وتارةً بعدم مناسبته لهذا العصر!

ويقولون لك: أنظر إلى بلاد المسلمين وحالها؟

يُحمِّلون الإسلام نتائجَ فشلِ طغيانهم وأنظمتهم الوضعيّة الفاسدة في الإعلام والاقتصاد والتربية، والنّظرة إلى الإنسان!

يُحاسبون الإسلامَ على نتائجِ الحُكمِ وهو لم يحكم!

تخيَّل أن يقوم مشعوذٌ بإجراء عمليةٍ جراحيّةٍ لمريضٍ ساذجٍ جاءه، فتفشل العمليّة ويموت المريض، ثمّ يكون هنا حملةٌ مسعورةٌ تحمِّلُ الأطباء نتيجة فشل العمليّة، وهم لم يشتركوا فيها، وهذا هو الحال اليوم!

5. سياسةُ الإلهاء:

إذا لم تستطعْ إسكات الحقّ، أشغِل النّاس عنه بالباطل!

هذا أحد أبرز قوانين الجاهليّة في كلِّ العصور، مارسته الجاهليّات من قَبل قريش، ومارسته قريش، وما زال ساريًا في النّاس.

وَقَفَ النّضرُ بن الحارث خطيبًا في قريش، وقال: يا معشرَ قريش، والله ما نزل بكم أمرٌ ما أوتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمّدٌ فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صِدغَيه الشّيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحرٌ! لا والله ما هو بساحر، وقلتم: كاهنٌ! لا والله ما هو بكاهن، وقلتم: شاعرٌ! لا والله ما هو بشاعر، وقلتم: مجنونٌ! والله ما هو بمجنون!

يا معشرَ قريش، انظروا في شأنِكم، فإنّه والله قد وقع بكم أمرٌ عظيم!

ثمّ ارتحل النّضرُ بن الحارث إلى الحيرة في العراق، وأخذ يتعلّم أحاديث ملوك الفُرس، وأساطير وحكايات بلاد ما بين النّهرين، على ما فيها من مغامراتٍ وإثارةٍ وإباحيّةٍ وحروبٍ وهزلٍ وجدّ، حتّى يُوافق كلَّ ذوق. ثمّ عاد إلى مكّة، يُحدِّث النّاس ويقول: ما محمّدٌ بأحسنِ حديثًا منّي. وكان يتعقّد

أن يتتبع النبي ﷺ، فيحدّث في المجالس التي يحدّث بها! وزاد في غيّه أن اشترى راقصاتٍ ومغنّياتٍ يُرافِقنه، إمعانًا في سياسة الإلهاء.

ولك أن ترى اليوم، كم يُصبّ على هذه الأمّة من سيول الإلهاء!

حوّلوا كرةَ القدم من رياضةٍ إلى تعصّب، والمسلسلاث يُصدرونها في رمضان، ويستعدُّون طوالَ العام لينازعوا المسلمين شهرهم الفضيل!

الهابطون تُفتح لهم القنوات، والراقصات والمغنيّات صُدّرن لنا على أنهنّ نُخبُ المجتمع!

قضايا البطالة والفساد تمرّ عليها الصّحافة مرورَ الكرام، هذا إذا مرّت، وخلاف فنّانين تُفرد لهم الصّفحات، وطلاقُ فنانةٍ تصبح قضيّةً وطنيّة، وكلّما وقعت في البلادِ مصيبةٌ، سرّبوا لتافِهٍ لهم فضيحة. هي سياسةُ الإلهاء التي تأخذُ في كلّ عصرٍ وجهاً!

6. المحاربةُ برغيف الخبز:

ما من جاهليّةٍ قامت في هذه الأرض إلّا وحاولت تركيعَ النّاسِ باللُّقمة!

كان الصّحابيُّ الجليل خبّابُ بن الأرَتّ رضي الله عنه يعملُ حدّادًا في مكّة، وقد قصده العاص بن وائلٍ في عملٍ له، فلمّا انتهى خبّابٌ من عمله، ذهب إلى العاص بن وائلٍ يطلب أجرته، فقال له العاص: لا أعطيكَ حتى تكفُرَ بمحمّد!

ولعلّك تسأل: ما علاقةُ خلافِ الأفكار والمعتقدات بأداء الحقوق؟

فأجيبك: إن كنتَ تظنُّ أنّ تصرُّف العاص بن وائلٍ تصرُّفٌ فرديّ، فأنت واهم!

العاص عقليّةٌ ومنهاجٌ أكثر منه شخص! وأنت واهمٌ إن كنتَ تظنُّ أنّ الجاهليّة قد انتهت، وأنّه لم يعُد أحدٌ يبتزُّ أحدًا في حقّه ووظيفته لأجل خلافٍ في الرأي، كلُّ ما في الأمر أنّ الجاهليّة خلعت عمامةَ العرب عند قريش، ولبست ربطةَ عنقِ الفرنجة، ولكنّ العقليّة واحدة، والمواقف تتكرّر!

إنّ الجاهليّة لا ترحم أهلها، حتى ترحم عدوّها!

وعلى سبيل المثال: الأستاذةُ الجامعيّة البريطانيّة الشّهيرة «كاثلين ستوك» لها موقفٌ معارضٌ «للتحوّل الجنسيّ»، وترى أنّ الرّجل يستحيلُ أن يصبح امرأة، وأنّ المرأة يستحيلُ أن تصبح رجلًا، كما أنّه ليس من العدل أن يشارك المتحوّلون من الرّجال إلى نساء في المسابقات الرياضيّة النسائيّة لأن بُنيتهم أقوى وأجسامهم أصلب.

أُجبرتِ الجامعةُ كاثلين على الاستقالة بعد حملةٍ شعواء في وسائل الإعلام، إتّهمَت الجامعةُ فيها بأنّها ترعى «رُهابَ التحوّلِ الجنسيّ» بشكلٍ مؤسّساتيّ.

إنّها قضيّةُ العاصِ بنِ وائلٍ مع خبّابِ بنِ الأرَتّ بصورتها الحديثة: آمِن بما أمليه عليك، تحصل على وظيفةٍ وراتب، خالفني أحاربك في لقمةِ عيشك!

لقد تعاطفتَ مع كاثلين بلا شك، وهذا من فطرتك السّليمة ودماغك الموجود في مكانه الصحيح! والآن خُذِ الوجه الآخر للصورة: الأستاذة كاثلين امرأةٌ شاذّةٌ جنسياً، وتعيش مع صديقتِها في بيتٍ واحد، وتدافع باستماتةٍ عن حقوقِ الشّواذ، ورغم هذا لم يُقبَل منها أن تخالفهم في بعض جنونهم.

الأمر ببساطة: حتّى تكفرَ بمحمّد ﷺ!

فإذا كان هذا حال الجاهليّة مع الجاهليّة، فكيف هو حالها مع الإسلام؟!

فاحتسبوا واصبروا، فإن موعدنا ليس الدُّنيا، وإنّما موعدنا عند الحوض.

7. الحربُ النّفسيّة:

الإنسانُ ليس جسدًا، الإنسانُ قلبٌ وروح، وأنت حين تعبثُ بقلبه وروحه فإنّك تعبثُ بكيانه كلّه!

وعَتْ قريش هذه الحقيقة، فخاضت حربًا نفسيّةً شعواء على المسلمين.

كانت حربًا لا هوادة فيها، والأليم فيها أنها جاءت من أقرب الناس.

جُنَّ جنونُ خُناس بنت مالك حين علمت أن ولدها المدلل، مصعب بن عمير، قد أسلم!

كانت واحدةً من أثرى النّساءِ في مكّة، تبالغ في دلال ابنها الأثير على قلبها، تحضرُ له العطر من بلد، والثّياب من بلد، وتنتقي له أطيب طعامٍ وألذَّ شراب، فلمّا آمن مصعب، نزعت عنه كلَّ هذا التّرف، وطردته من البيت. وهو ابن النّعيم الذي لا جلادة له على شَظف العيش، حتّى تقشّر جلده كما يتقشّر جلد الحيّة، ونَحَل جسمه، وكان الصّحابة يبكون لحاله إذا رأوه، ولكنّه صبر وثبت.

وحين أسلم سعد بن أبي وقاص، لم تترك أمّه ترهيبًا ولا ترغيبًا إلّا مارسته عليه لتصدّهُ عن دينه، فلمّا يئست منه أن يرجع إلى دينها، لجأت إلى الإضراب عن الطّعام والشّراب، ووقفت في الشّمس، وقالت له: والله لا أستظلُّ ولا آكل ولا أشرب حتّى تكفرَ بمحمّد، فإن متُّ، عيّرتك العربُ بي.

ولكنّ سعدًا ثبتَ، وحين شارفتْ على الهلاك، وقف أمامها وقال لها: يا أمّاه، لو كان لك مئةُ نفسٍ، فخرجت نفسًا، نفسًا، ما تركتُ ديني، فكُلي إن شئت، أو لا تأكلي!

فلمّا علمت أنّه باقٍ على دينه، فكّتْ إضرابها.

ومارست قريشُ الحربَ النّفسيّةَ على النّبيّ ﷺ أيضًا، ومن صُورِ هذه الحربِ أنّ عتبةَ وعتيبةَ ابني أبي لهبٍ كانا قد تزوّجا قبلَ البعثةِ برقيّةَ وأمّ كلثومَ ابنتي النّبيّ ﷺ، فلمّا بُعث النّبيّ ﷺ أمرَ أبو لهبٍ ابنيه فطلّقاهما!

وجلسَ مرّةً عقبة بن أبي مُعيطٍ يسمعُ من النّبيّ ﷺ فرآه أبيّ بن خلف فظنّ أنّه قد آمن، فذهب إليه وقال له: هل آمنتَ بمحمّدٍ. فقال: لم أؤمنْ.

فلم يُصدّقه وقال له: حتى تُثبتَ لي أنّك لم تؤمنْ بمحمّدٍ لا بدّ أنْ تبصقَ في وجهه.

فقام اللَّعينُ عُقبة من فورِه وذهب إلى النبيِّ ﷺ وبصق في وجهه، بأبي أنتَ وأمّي يا رسولَ الله.

حربٌ نفسيّةٌ ما زالت تتكرّر بوجوهٍ مختلفةٍ اليوم، تختلفُ الوسائلُ والغايةُ واحدةٌ الضّغطُ على المؤمنينَ ليتركوا إيمانَهم.

٨. الاضطهادُ والإيذاءُ الجسديُّ:

استنفدت قريش كلَّ وسائلِها لصدِّ المسلمينَ عن دينهم ولم يبقَ أمامهم إلّا حيلةُ الضُّعفاءِ إذا ما أنهكهم الحقُّ، التنكيلُ والإيذاءُ والتعذيب!

روى البخاريُّ من حديثِ ابنِ مسعودٍ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُصلّي عندَ البيت وأبو جهلٍ وأصحابٌ له جلوسٌ، إذ قال بعضُهم لبعضٍ: أيُّكم يجيءُ بسلا جزورِ بني فلانٍ ويضعه على ظهرِ محمّدٍ إذا سجدَ. فانبعث أشقى القومِ عُقبةُ بن أبي مُعيطٍ، فجاء به حتى إذا سجدَ النبيُّ ﷺ وضعَ سلا الجزورِ على ظهرِه بين كتفيهِ وأنا أنظرُ، لا أُغني شيئًا، لو كانت لي مَنَعة!

فجعلوا يضحكونَ ويميلونَ بعضُهم على بعضٍ، ورسولُ اللهِ ﷺ ساجدٌ لا يرفعُ رأسَه، حتى جاءت فاطمةُ رضي الله عنها فطرحته عن ظهرِه، فرفعَ رأسَه ثمّ قال: اللهمّ عليكَ بقريشٍ ثلاثًا.

فشَقَّ عليهم إذْ دَعَا عليهم وكانوا يَرَوْنَ الدَّعوةَ في ذلِكَ البَلَدِ مُستجابةً، ثمّ سمّى: اللهمّ عليكَ بأبي جهلٍ، وعليكَ بعُتبةَ بن ربيعة، وشيبةَ بنِ ربيعة، والوليدِ بن عتبة، وأميّةَ بن خَلَف، وعُقبةَ بن أبي مُعيط.

فَوَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذينَ عَدَّ رسولُ اللهِ ﷺ صَرْعى في القليبِ يومَ بدرٍ.

وكان عمُّ عُثمانَ بن عفّان رضي الله عنه يلفُّه في حصيرٍ من أوراقِ النّخيل ثم يُدخِّنُه تحته!

وكان بلالُ بنُ رباحٍ رضي الله عنه مولى لأُميّةَ بن خَلَف، فكان أميّةُ يضعُ في عُنقِه حبلًا ثمّ يُسلّمُه إلى الصّبيان يطوفون به في جبالِ مكّة، حتى كان

يظهرُ أثرُ الحبلِ في عنقِه، وكان أميةُ يشدّه شدًا ثمّ يضربُه بالعصي، وكان يُلجئه إلى الجلوسِ في شمسِ مكّة الحارقة، وكان يُجوّعه ويمنعُ عنه الماء أيضًا، وأشدُّ ذلك كلّه أنّه كان يُخرجُه إذا حميت الظّهيرةُ فيطرحه على رمالِ مكّة الملتهبة، ثمّ يأمرُ بالصّخرة العظيمة فتوضعُ على صدره، ثمّ يقول له: واللهِ لا تزالُ هكذا حتى تكفرَ بمحمدٍ وتعبدَ اللاتَ والعُزّى.

وكان بلالٌ يُردّد: أحدٌ، أحد، وما زال على هذه الحال حتى اشتراه أبو بكرٍ فأعتقه.

وهذا خبّابُ بن الأرتّ رضي الله عنه الذي لاقى صنوفًا من العذاب لا تخطرُ على بالِ الشّياطين، كان المشركون يربطون حبلًا في رقبته ويجرّونه في شوارعِ مكّة، وكانوا يُحمُون الفحمَ الملتهبَ ويضعون خبّابًا رضي الله عنه فوقَه حتى أثّر ذلك في ظهرِه، وظلّت علاماتُ الحروق باقيةً في جسده حتى فارقَ الدّنيا، ولكن سبحانَ من ثبّته على دينِ الحقّ.

ولاقى آلُ ياسرٍ في سبيلِ الله ما لا تحتمله الجبال، كان ياسرٌ وزوجته سُميّة وابنُه عمّار رضي الله عنهم، من موالي بني مخزوم، فلمّا علم أبو جهلٍ بإسلامِهم جُنّ جنونُه، فكان يُعذّبُهم بنفسِه، وكان النّبيُّ ﷺ إذا مرّ بهم وهم على هذه الحال يقول لهم: صبرًا آلَ ياسر، فإنّ موعدَكم الجنّة.

وأوتدَ اللّعينُ أبو جهلٍ لِسُميّة في الأرض وربطها من يديها ورجليها، وأخذ يجلدُها ويأمرُها أن تكفرَ بالله وترجعَ إلى دينِ قريش، ويُفحِشُ في القول، فبصقت في وجهه، فأخذ حربةً وطعنها بها لتكونَ أوّلَ شهيدةٍ في الإسلام، ثمّ أمرَ فقتلوا ياسرًا أمامَ عيني عمّار.

شهد عمّارٌ رضي الله عنه مقتلَ أبويه أمامَ عينيه، فما كان منه إلّا أن ذكر آلهتَهم بخير، فتركوه، ولقيه النّبيُّ ﷺ بعد ذلك، فكان عمّار يخجلُ أن ينظرَ في عيني النّبيّ ﷺ، فقال له: كيف تجدُ قلبَك؟

فقال: مطمئنٌ بالإيمان يا رسولَ الله.

فقال له: إن عادوا فعُد!

هذا غيضٌ من فيضٍ ما لاقاه المسلمون من العذاب الجسديّ على يد قريش، ألا وإنّ سننَ الظّالمين واحدة، وطرقهم ذاتها، ومن أراد العمل لهذا الدّين على منهاجِ النّبيّ ﷺ فعليه أن يوطّن نفسه أنّ البلاء قد يُصيبه. ونسألُ الله العافية.

الهِجرةُ إلى الحَبَشَةِ: تركوا الأوطانَ وحَمَلوا القرآنَ!

بعدَ أن ضاقت مكّةُ بالمسلمين، وارتفع في بطحانها صُراخُ الجلّادِين، وانتشرَ في أرجائها أنينُ المعذّبين، أذِنَ لهم النّبيُّ ﷺ أن يهاجروا: إنَّ بأرضِ الحبشةِ ملك لا يُظلَمُ عندَهُ أحدٌ!

نزلت كلماتُهُ بردًا على قلوبٍ حرّقتها نارُ الظُّلمِ وسلامًا على أرواحٍ أنهكتها وطأةُ الطّغيانِ، فتهيّأتِ القلوبُ قبلَ الأقدامِ وهاجرت النّوايا قبلَ الأجساد. وخرجوا تحتَ عباءةِ اللّيلِ يطوونَ الصّحراءَ خُفيةً عن أعينِ الطُّغاة. ركبوا البحرَ، والبحرُ يومئذٍ مرآةٌ لقلوبِهم، مائجٌ بالخَشيةِ من المجهولِ، وساكنٌ بحُسنِ الظّنِّ باللهِ. وبين هذا وذاك كانَ الإيمانُ سفينتَهم التي لا تغرق.

ركبوا السُّفنَ الخشبيّةَ الصّغيرةَ، والماءُ من تحتِهم، والسّماءُ من فوقِهم، وبينهما يقينٌ باللهِ أنّهُ لن يُضيِّعَ أهلَهُ. وحينَ بلغوا أرضَ الحبشةِ تنفّسوا الحريّةَ لأولِ مرّةٍ منذُ أن جَهَروا بدعوتِهم، فضبَتْ قريشٌ جامَ كفرِها عليهم. كأنَّ السّماءَ هنا أوسعُ صدرًا، والرّيحَ ألينُ لمسًا، والأرضَ صارت أحنّ.

دخلوا على النّجاشيّ، ملكٌ أسود الوجهِ أبيضُ القلبِ، وما النّاسُ إلّا بقلوبِهم! خاطَبوهُ بلسانِ الصّدقِ، وتلا عليهِ جَعفرُ الآياتِ من سورةِ مريمَ، فسرى النّورُ في قلبِه كما يسري الضوءُ لحظةَ انبلاجِ الصّبحِ، وبكى حتّى بلّلَ لِحيتَهُ. وقال كلمتَهُ الخالدةَ أبَدَ الدّهر: إنّ هذا والّذي جاءَ بهِ عيسى عليه السلام ليخرُجا من مشكاةٍ واحدةٍ!

صدقَ فيه قولُ النّبيِّ ﷺ، وكلُّ قولٍ للنّبيِّ ﷺ صادقٌ: لا يُظلمُ عندَهُ أحدٌ. فآواهُم وأكرمهم، وردَّ عنهم مَكرَ قريشٍ حين بَعَثَت رُسلَها تطلُبهم. فوقفَ جَعفرُ خطيبًا بالحقِّ، فقال لهم النّجاشيُّ: إذهبوا فأنتم آمنون في أرضي.

يا لهُ من مَشهدٍ مهيبٍ، نصرَ الله تعالى فيهِ عبادَهُ من غيرِ سيفٍ ولا جُندٍ!

هذه هي باختصار حكايةُ الهِجرةِ إلى الحَبَشةِ، على أنّ الهِجرةَ إلى الحَبَشةِ لم تكن هجرةً واحدةً، وإنّما كانت اثنتين. والتّقديمُ تهيئةٌ للحديثِ،

والإجمالُ لا يُغني عن التفصيلِ، فإليك الحكايةَ كلَّها!

في شهرِ رجبٍ من السَّنةِ الخامسةِ للبعثةِ الشريفةِ خرج أوَّلُ ركبٍ من المسلمينَ إلى الحَبشةِ، كانوا اثني عشر رجلاً وأربع نسوةٍ، أميزهم عُثمانُ بن عفَّان، ومعه زوجتُهُ رُقيّةُ بنتُ النّبيّ ﷺ. خرجوا خِلْسةً تحت جُنحِ الظَّلام كي لا تَفطَنَ لهم قريشٌ، وتوجَّهوا إلى جُدّة، أقرب مدينةٍ إليهم مُطلَّةٍ على البحرِ، وعلى متنِ سفينتينِ تُقِلّانِ البضائعَ والنّاس، يمَّموا وجوههم شطرَ الحَبشةِ، وكان قد مضى وقتٌ حينَ عَلِمَتْ قريشٌ بخبرِهم، فخرجتْ تقتفي أثرَهم، ولكنّهم كانوا قد انطلقوا تحفُّهم عنايةُ ربِّهم، ووصلوا إلى الحبشة، وأقاموا في أهنأ بالٍ وأحسنِ جوارٍ.

وبعد هذه الحادثةِ بشهرينِ، خرج النّبيُّ ﷺ إلى الكعبةِ، فإذا جمعٌ غفيرٌ من قريشٍ هناك، ففاجأهم يَقرَعُ أسماعَهم وقلوبَهم بسورةِ النّجمِ، يُرتِّلُ آياتِها آيةً، آيةً، فغمرهم بسحرِ البيانِ الذي في القرآنِ، المضافِ إليه عذوبةُ صوتِه، حتّى إذا بلغ آخرَ السّورةِ ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾، ثمَّ سجد، فما تمالكوا أنفسَهم إلّا وهم ساجدونَ معه.

وبلغ قريشًا الخبرُ فجلدتهم بألسنةِ اللّومِ والعتابِ، فجاؤوا بعُذرٍ كاذبٍ ليَرضى عنهم قومُهم، أو ليَسلَموا من سخطِهم، وتابعوا في كفرِهم وغيِّهم.

ولكنَّ الخبرَ كان قد انتشر، وبلغ المسلمينَ في الحَبشةِ، فاعتقدوا أنَّ قريشًا قد آمنت، فعادوا إلى مكّةَ، وكانت هذه هي الهجرةَ الأولى إلى الحَبشةِ.

عاد مهاجرو الحَبشةِ ليجدوا قريشًا على حالِها، يَسومونَ المسلمينَ سوءَ العذابِ، وحدّثوا أصحابَهم عمّا وجدوهُ من أمانٍ في الحَبشةِ، فتطاولت الأمنياتُ إلى الهجرةِ. مؤلمٌ جدًّا أن يضيقَ على المرءِ وطنُه. ولما جاء الإذنُ من النّبيّ ﷺ بالهجرةِ إلى الحَبشةِ تشكّل وفدٌ قوامُهُ ثلاثةٌ وثمانونَ رجلاً، وتسعَ عشرةَ امرأةً!

كانتِ الهجرةُ الثّانيةُ إلى الحَبشةِ أصعبَ بكثيرٍ من الهجرةِ الأولى، فقد

أخذت قريشُ حِذرَها، وأعملتِ العيونَ على المسلمين. كما أنّ العدد هذه المرّة يفوقُ العددَ الأوّلَ أضعافًا، إنّ العددَ الآن يُناهزُ المئة. كما أنّ الوفد هذه المرّة فيه من كلّ بيتٍ سيّدٍ من صناديد قريشٍ ممثّلًا، وهذا ما زاد من صعوبةِ الموقف.

كان في الوفدِ حبيبة بنت أبي سفيان، سيّدِ قريشٍ! وأبو حذيفة بن عتبة، السّيدُ المُطاعُ في قومِه! وثلاثةٌ من أبناءِ سُهيلِ بنِ عمرو، فصيح قريشٍ ولسانِها! وهشامُ بنُ العاصِ بنِ وائلٍ، والعاصُ بنُ وائلٍ كان من أغلظ قريشٍ على المسلمين.

ولكنّهم رغمَ كلِّ هذه التعقيداتِ، خرجوا تحفُّهم رعايةُ اللهِ حتى بلغوا الحَبشةَ.

عَزّ على قريشٍ أن يجدَ المسلمون في الحَبشةِ وطنًا وجِوارًا من مَلِكٍ بينهم وبينه علاقاتٌ طيّبةٌ، فعمدوا إلى بعثةٍ دبلوماسيّةٍ يرأسها داهيةُ قريشٍ عمرو بن العاص. وأرسلوا مع البعثةِ الهدايا للنّجاشيّ ولبطارقَتِه الذين كانوا مُستشاريه في مجلسِ الحُكمِ.

التقى وفدُ قريشٍ البطارقةَ أولًا، وأعطَوْهم هداياهم، وأغروهم أن يُشيروا على النّجاشيّ بتسليمِهم المسلمين ليعودوا بهم إلى مكّة.

ثمّ دخلوا على النّجاشيّ وقدّموا له الهدايا، وقالوا: أيُّها الملك، إنّه قد ضوى إلى بلدِك غِلمانٌ سفهاء، فارقوا دينَ قومِهم، ولم يدخلوا في دينِك، وجاؤوا بدينٍ ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومِهم من آبائِهم وأعمامِهم وعشائرِهم، لتردّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

وقالتِ البطارقةُ: صدقًا أيُّها الملك! فأسلمهم إليهما، فليردوا إلى قومِهم وبلادِهم.

ولكن رأى النجاشيّ أنه لا بدّ من تمحيصِ القضيةِ، وسماعِ أطرافِها جميعًا، فأرسل إلى المسلمين، ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدقِ

كائنًا ما كان. فقال لهم النجاشي: ما هذا الدينُ الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا دين أحدٍ من هذه الملل؟

قال جعفرُ بنُ أبي طالبٍ – وكان هو المتكلّمَ عن المسلمين –: أيُّها الملك، كنا قوماً أهلَ جاهلية، نعبدُ الأصنامَ، ونأكلُ الميتةَ، ونأتي الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونسيءُ الجوارَ، ويأكل منّا القويُّ الضعيفَ، فكنا على ذلك، حتى بعث اللهُ إلينا رسولًا منّا، نعرفُ نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى اللهِ لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدقِ الحديثِ، وأداءِ الأمانة، وصلةِ الرَّحم، وحُسن الجوار، والكفِّ عن المحارمِ والدِّماء، ونهانا عن الفواحشِ، وقولِ الزور، وأكل مالِ اليتيم، وقذفِ المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاةِ والزكاةِ والصيامِ، فصدّقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دينِ الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلم عندك أيُّها الملك.

فقال له النجاشيُّ: هل معكَ ممّا جاء به رسولكُم عن الله من شيءٍ؟

فقال له جعفر: نعم!

فقال له النجاشيُّ: فاقرأه عليَّ. فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم، فبكى والله النجاشيُّ حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا أناجيلهم حين سمعوا ما تلا عليهم!

ثم قال النجاشيُّ لعمرو بن العاص وصاحبه: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدةٍ، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكَادُون. فخرجا!

وقال عمرو بن العاص لعبد الله بن ربيعة: والله لآتينهم غدًا بما أستأصل به خضراءهم.

فقال له عبد الله بن ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا، ولكن أصرَّ عمرو على رأيه.

فلما كان الغد قال للنجاشي: أيُّها الملك! إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولًا عظيمًا!

أرسل إليهم النجاشيُّ يسألهم عن قولهم في المسيح، ففزعوا، ولكن أجمعوا على الصِّدقِ، كائنًا ما كان. فلما دخلوا عليه، وسألهم، قال له جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأخذ النجاشيُّ عودًا من الأرض، ثم قال: واللهِ ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العود، فتناخرتْ بطارقته، فقال: وإن نخرتم والله.

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي، من سبّكم غرم، ما أحب أن لي جبلًا من ذهبٍ وأني آذيتُ رجلًا منكم!

ثم قال لحاشيته: ردُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجةَ لي بها، فوالله ما أخذ الله منِّي الرِّشوة حين ردَّ عليَّ ملكي، فآخذ الرِّشوة فيه، وما أطاع النَّاس فِيَّ فأطيعهم فيه.

وبين يَدي الهجرةِ إلى الحَبشةِ، وقفات:

1. كان اللهُ تعالى كان قادرًا على أن يَنشرَ دينَه بكلمةِ «كُن»، وكان سبحانه قادرًا على أن يدفعَ العذابَ عن المسلمين بأمرٍ تستجيبُ له الأرضُ في طرفةِ عينٍ. ولكنَّها ليست سُنَّة اللهِ في التَّغييرِ، ولا في التَّدافُعِ بين الحقِّ والباطلِ.

فإذا ضاقتْ عليكم الدُّنيا، فلا تسألوا: أين الله؟!

إنَّهُ هنا معكم، وهو الذي أقامكم على دينِه، وهو مقامٌ لا يُقيمُهُ إلَّا لِمَن يُحِبُّ.

فليكنِ السُّؤالُ: هل ما نحنُ عليهِ يُرضي اللهَ؟!

فإن كان، فلا تُبرَحوا أماكنكم!

2. إنَّ الهِجرةَ إلى الحَبشة لم تكن للحفاظِ على الدُّعاة، وإنّما للحفاظ على الدَّعوة!

هذا الكلامُ لا يعني بأيِّ حالٍ من الأحوال أنَّ المسلم رخيصٌ، وأنَّ الإسلام لا يأبَهُ له.

على العكسِ تمامًا، إنَّ هدمَ الكعبةِ سبعينَ مرّةً أهونُ على اللهِ من إراقةِ دمِ مُسلِم.

وإنَّ من مقاصدِ الشَّريعةِ السمحاءِ الحِفاظُ على النَّفس، ولكنَّ الإسلامَ أوّلًا.

سلامةُ الدَّعوةِ مُقدّمةٌ على سلامةِ الدّاعية، وحينَ لا يَسُدُّ ثَغرَ الإسلامِ إلّا المُواجهة، فلا يجوزُ أبدًا الأخذُ بالرُّخصة. تخيّلوا لو أنّه يومَ فِتنةِ خَلْقِ القرآن قرّرَ الإمامُ أحمدُ أن يختارَ السّلامة!

3. اختيارُ الحَبشَة لم يكن عشوائيًا، هيَ أرضُ والسّلام!

لقد كان اختيارًا واعيًا وحكيمًا، فيه من العُمقِ ما لو غُصنا فيه ما بَلَغنا قَعره.

فالحَبشةُ أوّلًا فيها ملكٌ عادلٌ لا يُظلَمُ عنده أحد، وما فرَّ المسلمون إلّا من الظُّلم، فلا يَستقيمُ أن ينتقلوا من جوارِ ظالمٍ إلى جوارِ مَن هو أظلمُ منه. لا أحدَ يَستجيرُ من الرَّمضاءِ بالنّار!

والحَبشةُ ثانيًا بعيدةٌ عن مكّة، وهذا يُصعّبُ على قُريشٍ تتبُّعهم بجيشٍ أو منازلةُ مَن أجارَوهم، وهذه نقطةٌ جوهريّة.

والحَبشةُ ثالثًا تَدينُ بالنّصرانيّة؛ أهلُ كتابٍ يَعرفونَ معنى الوحيِ والجَنّةِ والنّارِ والبعثِ والحِساب، وإن كانوا قد حرّفوا دينَهم، فأصلُ التّوحيدِ فيهم باقٍ، وهم في نهايةِ المطاف أقربُهم مَودّةً من باقي الأديان، فإنْ عزَّ المُوافِقُ

لك، فحطَّ رحالك على أهونِ مخالِف.

والحَبشةُ رابعًا: بلدٌ قويٌ مُستقِلٌ اقتصاديًا وعسكريًا، يصعبُ على قُريش مُحاربته أو التحكُّم بقراراته. ولو نزلوا في قبيلةٍ من قبائلِ العرب ما استقامت لهم الهجرة، لِنُفوذِ قُريش على أغلبِ القبائل وإن كان نفوذًا دينيًا، ولاشتراكِ كلِّ هذه القبائلِ مع قريش في عقيدتها، ولخوفها أيضًا من الحرب مع قريش.

كانتِ الهجرةُ إلى الحَبشةِ رِحلةَ الإيمانِ تحت جَناحِ الحِكمة. خرجوا من مكّةَ لا هَرَبًا من البلاءِ، بل حِفاظًا على جَذوةِ العقيدة. حَملوا قلوبهم العامرة باليقين، ومَضوا نحوَ مَلِكٍ عادلٍ لا يُظلَمُ عندَه أحدٌ، وليُعلِّموا الدُّنيا أنّ العَدالةَ أثمَنُ من القوّة، وأنّ الحَقَّ قد يَجِدُ مأواهُ في غيرِ الذينَ من المُفترَضِ أنّهم أهلُه!

الهِجرةُ إلى الحَبشة لم تكن فِرارًا، بل فتحًا بِصَمتٍ وصَبرٍ وإيمان. ومُنذُ ذلك اليومِ علّمَتنا أنّ مَن خَرَجَ في سبيلِ الحَقِّ فلا يُضيعُ اللهُ خُطاه، ولو سارَ إلى آخِرِ الأرض.

الحِصارُ في شِعبِ أبي طالِبٍ

زَجَعت بعثةُ قُرَيشٍ مِنَ الحبشَةِ تجرُّ أذيالَ الخيبةِ، فقد رفَضَ النَجاشيُّ أن يطردَ المسلمينَ الذين لاذوا به، وسمحَ لهم أن يعيشوا في دياره بأمان. لا الهدايا التي حملوها آتتْ أكلَها، ولا المناظراتُ الفكريةُ أثمرت، سلبهم الإسلامُ أحدَ أهمِّ حلفائهم البعيدين، وهنا كان مكمن مصيبتهم.

ومنذ تلك اللّحظةِ توالتِ الضرباتُ على رأسِ قريشٍ؛ ما إن تستفيقُ من ضربةٍ حتى تنهالَ عليها أخرى. أسلمَ حمزةُ بن عبدِ المطلب رضي الله عنه ، فلم تكد قريشٌ تستفيقُ من صدمتها حتى أسلمَ عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه ، وحين كانت تستجمعُ قواها، وتُعِدُّ وفدًا تفاوضيًا مليئًا بالإغراءاتِ مبطّنًا بالتهديدِ، باءت كلُّ محاولاتها بالفشل؛ فقد رفضَ النَّبيُّ ﷺ أن يتنازلَ قيدَ أنملة، ولمّا عادت من عنده تزبِد وتُرعد، بلغهم أنَّ بني هاشمٍ قد تعاهدوا جميعًا على حمايةِ النَّبيِّ ﷺ ومنعِ قريشٍ من المساسِ به!

كانت قريشٌ تتخبّطُ كالثّورِ الهائجِ على وقعِ الضرباتِ المتتالية، وأعاذكَ اللهُ من الثّيرانِ إذا تخبّطت؛ فإنّها تجنحُ إلى الدّمارِ جنوحًا غريبًا.

عجزت قريشٌ عن كسرِ شوكةِ الدّعوةِ، وأدركت أن السّيوفَ لا تقتلُ الفكرةَ، وأن نورَ الإسلامِ لا يُطفأُ بريحِ العداوةِ، فأجمعت كيدَها، وكتبت صحيفتَها الجائرةَ.

اجتمعتْ قريشٌ في دار بني كنانة، فتحالفوا، على بني هاشم وبني المطّلب ألّا يُناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتَهم، ولا يكلّموهم، حتى يُسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق، ألّا يقبلوا من بني هاشم صُلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفةٌ حتى يُسلموه، للقتل!

تمَّ هذا الميثاق، وعُلّقت الصّحيفة في جوف الكعبة!

ثلاث سنواتٍ من الحصار، لم يكن المشركون يتركون طعاماً يدخل مكّةَ

ولا بيعاً إلّا بادروه فاشتروه، حتى بلغ بنو هاشم الجهد فأكلوا أوراق الشّجر، وحتى كان يُسمع من وراء الشّعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلّا سرّاً وكانوا لا يخرجون من الشّعب لاشتراء الحوائج إلّا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكّة كانوا يزيدون عليهم في السّلعة قيمتها حتى لا يستطيعوا الاشتراء.

وكان حكيم بن حزام مرةً يحمل قمحاً إلى عمّته خديجة وقد تعرّض له مرة أبو جهل فتعلّق به ليمنعه فتدخّل بينهما أبو البختري، ومكّنه من حمل القمح إلى عمّته.

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ، فكان إذا أخذ النّاس مضاجعهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام النّاس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمّه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمره أن يأتي بعض فرشهم.

ثلاثة أعوام كاملة والأمر على ذلك، ثمّ تمّ نقض الصّحيفة وفكّ الميثاق، وذلك أن قريشاً كانوا بين راضٍ بهذا الميثاق وكارهٍ له، فسعى في نقض الصّحيفة من كان كارهاً لها.

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي، وكان يَصل بني هاشم في الشّعب مُستخفياً باللّيل بالطّعام، فلمّا طال الحال، ذهب إلى زهير بن أبي أميّة المخزومي، وكانت أمّه عاتكة بنت عبد المطّلب، وقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطّعام، وتشرب الشّراب، وأخوالك بحيث تعلم؟

فقال: ويحك، فما أصنع وأنا رجلٌ واحد؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها!

قال: قد وجدت رجلاً.

قال: فمن هو؟

قال: أنا!

قال له زهير: إبغنا رجلاً ثالثاً.

فذهب إلى المطعم بن عدي، فذكّره أرحام بني هاشم وبني المطّلب ابني عبد مناف، ولامه على موافقته لقريش على هذا الظُّلم، فقال المطعم: ويحك، ماذا أصنع؟ إنّما أنا رجلٌ واحد.

قال: قد وجدت ثانياً.

قال: من هو؟

قال: أنا.

قال: إبغِنا ثالثاً.

قال قد فعلت.

قال: من هو؟

قال: زهير بن أبي أميّة.

قال: إبغِنا رابعاً.

فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحواً مما قال للمطعم،

فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟

قال: نعم.

قال: من هو؟

قال: زهير بن أبي أميّة، والمطعم بن عدي، وأنا معك!

قال: إبغِنا خامساً.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد، فكلّمه، وذكّر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟

قال: نعم، ثم سمّى له القوم، فاجتمعوا عند الحجون، وتعاقدوا على القيام بنقض الصّحيفة.

وقال زهير: أنا أبدأكم فأكون أوّل من يتكلّم.

فلمّا أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهيرٌ عليه حلّة، فطاف بالبيت سبعاً، ثمّ أقبل على النّاس، فقال: يا أهل مكّة أنأكل الطّعام، ونلبس الثّياب، وبنو هاشم هلْكى، لا يُباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشقّ هذه الصّحيفة القاطعة الظّالمة.

قال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: كذبت، والله لا تُشقُّ.

فقال: زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب. ما رضينا كتابتها حين كُتبت.

قال أبو البختريّ: صدق زمعة، لا نرضى ما كُتب فيها ولا نُقِرُّ به.

قال المطعم بن عديّ: صدقتما وكذب من قال غير ذلك. نبرأ إلى الله منها وممّا كُتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قُضِي بليل، تشاوروا فيه بغير هذا المكان.

وأبو طالبٍ جالسٌ في ناحية المسجد. إنّما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله على أمر الصّحيفة، وأنّه أرسل عليها الأرَضَة، فأكلت جميع ما فيها من جوى وقطيعة وظلم إلّا ذِكر الله عزّ وجلّ، فأخبرَ بذلك عمّه، فخرج إلى قريش.فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذباً خلّينا بينكم وبينه، وإن كان صادقاً رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا!

قالوا: قد أنصفتَ.

وبعد أن دار الكلامُ بين القوم وبين أبي جهل، قام المطعم إلى الصّحيفة ليشقّها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلّا: باسمك اللهم!

تمّ نقض الصّحيفة، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشّعب، وقد رأى

المشركون آيةً عظيمةً من آيات نبوّته، ولكن هيهات للقلوب القاسية أن تلين!

خرج بنو هاشمٍ من الشّعبِ نحافَ الجسامِ، عِظامَ العزائمِ، تلمعُ في عيونِهم بشائرُ النّصرِ، فقد أدركوا أنّ الحقَّ يُحاصَرُ حينًا ليزداد صلابةً، ويُؤذى حينًا ليزدادَ بقاءً.

ذلك الحِصارُ لم يكن قيدًا، بل كان معراجًا صعدت فيه الدّعوةُ من ضيقِ الوادي إلى سَعةِ السماءِ، ومِن أنينِ الجِياعِ إلى نصرٍ يملأُ الأرضَ.

فتذكّروا أنتم أنّ الجوعَ يُهزَمُ بالصّبرِ، وأنّ الحِصارَ لا يقتلُ النّورَ، وأنّ مَن كانَ اللهُ معه فمَهما أُغلِقَت عليه أبوابُ الأرضِ، ففوقَه أبوابُ السماءِ مَفتوحةٌ.

وبين يدي المقاطعةِ والحصارِ في شِعبِ أبي طالِبٍ لا بُدَّ من وقفاتٍ:

أوّلًا: الثّباتُ على المبدأ، صَبرَ النّبيُّ ﷺ وأصحابُه على الحصارِ والجوعِ دون أن يُساوِموا على دينِهم، أو يَلينوا في دعوتِهم؛ ليعلَموا أنّ العَقيدةَ لا تُشترى براحةٍ زائلةٍ، ولا تُفدى برَغَدِ العيشِ.

ثانيًا: الدّمُ لا يَصيرُ ماءً، وقَفَ بَنو هاشِمٍ -مُؤمِنُهم وكافِرُهم- إلى جانبِ النّبيِّ ﷺ؛ ليعلَموا أنّ الرّوابطَ الأسريّةَ حين تُبنى على المُروءةِ والوفاءِ تكونُ دِرعًا أمامَ الظُّلمِ. والعَكسُ لا يَستقيمُ، فلا تُنصَرُ رَحِمًا على حسابِ الحَقِّ.

ثالثًا: الموقفُ الإنسانيُّ حتى مِن الخصومِ، فإنّ الخيرَ لا يُنزَعُ من قلوبِ النّاسِ جميعًا، وإنّ الكُفرَ ليس واحدًا، كما أنّ الإيمانَ كذلك. النّاسُ في نهايةِ المَطافِ مَعادِنُ، والعاقِلُ مَن خَبَرَ معادِنَ النّاسِ، واستفاد منهم؛ كُلٌّ واحدٍ بحسبِ رِقّةِ قلبِه وطِيبِ أصلِه ومَعدِنِه.

رابعًا: إنّ العاقبةَ لِلمُتّقين، انتهى الحِصارُ بتمزيقِ الصّحيفةِ الظّالِمةِ، وخرجَ المسلمونَ مرفوعي الرّؤوسِ؛ لتكونَ رسالةً لنا اليومَ أنّ الليلَ مهما طالَ فإنّ الفجرَ سيعقُبُه لا مَحالةَ، وأنّ الباطلَ قد يكسَبُ معركةً، ولكنّ الحَقَّ يكسَبُ الحَربَ في نهايةِ المَطافِ.

عامُ الحُزنِ: السّلامُ على قلبِك يا رسولَ الله!

إنّه عامُ الحُزنِ أشدُّ الأعوامِ وطأةً على قلبِ رسولِ الله ﷺ. فيه أُغلِقَ عليه بابانِ من الرّحمةِ كانا يُظلّانه في لهيبِ الدّعوة: بابُ العمِّ الحاني، وبابُ الزّوجةِ المُواسية.

في مَطلعِ ذلك العامِ أغمضَ أبو طالبٍ عينيه، الشّيخُ الجليلُ الذي احتضنَ اليتيمَ صغيرًا، ونصرَهُ كبيرًا، وذادَ عنه ما وسعَهُ الذّودُ بنفسه وبِبني هاشم. كان السّندَ في مواطنِ الضّعف، والدّرعَ إذا اشتدّتِ السّهامُ حول الدّعوة، ما وَهَنَ ولا لانَ. رجلٌ مثلُ أبي طالبٍ يُبكى بدمِ القلبِ لا بماءِ العينِ؛ عرفانًا بجميلِه حينًا، وأسفًا عليه حينًا آخر. لقدِ اتّسعَ قلبُه على الدّاعية، وضاقَ على الدّعوةِ، فسبحانَ مَن بيدِهِ قلوبُ عبادِه.

ولم يكدْ قلبُ النّبيِّ ﷺ يتعافى من فقدِ العمِّ حتّى كُلِم بفقدِ الحبيبةِ والزّوجةِ خديجة؛ رفيقةِ دربِه، وضِياءِ عُمرِه، ومَوطنِ سكينتِه وجَبهته الدّاخلية. المرأةُ التي اتّسَع عليه قلبُها حين ضاقت عليه مكّة، التي آمنت حين كفر النّاس، وأعطت حين منع النّاس، وكان له منها الولدُ، صارت الآنَ بين أطباقِ التّراب. وبفقدِ أبي طالبٍ فقَد النّبيُّ ﷺ نصيرَهُ في وجهِ قريش، وبفقدِ خديجةَ فقد مَلاذَهُ وموضعَ طمأنينته. كم شعرَ وقتذاك أنّه صار وحيدًا ومكشوفًا. فالسّلامُ على قلبِك يا رسولَ الله.

خرج أبو طالبٍ من حصارِ الشّعبِ مُنهكًا، هو الآنَ في الثّمانينَ من عمرِه، وأماراتُ الموتِ باديةٌ على وجهِه. فأرادت قريشٌ أن تلعب ورقتَها الأخيرة، فشكّلتْ وَفدًا رفيعًا من كُبرائِها، وجاءت إلى أبي طالبٍ فقالت: يا أبا طالبٍ، إنّك منّا حيثُ علمتَ، وقد حضرَك ما ترى، وتخوّفْنا عليك الموت، وقد علمتَ الذي بيننا وبين ابنِ أخيك؛ فادعُهُ فخُذْ له منّا وخُذْ لنا منه، ليَكُفَّ عنّا ونَكُفَّ عنه، وليَدَعْنا ودينَنا ونَدَعَهُ ودينَه.

فأرسل أبو طالبٍ إلى النّبيِّ ﷺ وقال: هؤلاءِ أشرافُ قومِك قد اجتمعوا لك ليُعطوكَ وليأخذوا منك.

فقال النبيُّ ﷺ: يا عمُّ، أفلا أدعوهم إلى ما هو خيرٌ لهم؟

قال أبو طالبٍ: إلامَ تدعوهم؟

فقال: أدعوهم إلى كلمةٍ واحدةٍ تدينُ لهم بها العربُ ويملكون بها العجَم!

فقال أبو جَهلٍ: ما هي هذه الكلمةُ؟ وأبيك لنعطينّكها وعشر أمثالها!

فقال النّبيُّ ﷺ: تقولون: لا إله إلّا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه.

فلم يُعجِبهم، وقاموا عنه يتملّكُهم الغضب.

ولك أن ترى كيف أنّ الباطلَ كلّما رأى من الحقِّ ثباتًا تنازلَ له خطوةً؛ فمن قبلُ كانت المساومةُ على تركِ هذه الدّعوة، أمّا الآن فالمساومةُ أن ندعك وشأنك وتدَعنا وشأننا!

وهذا عرضٌ مُغرٍ لا يُرفَض لو كان الإسلامُ جاء بفكرةِ التّعايشِ مع الباطل، ولكنّ الإسلامَ العظيمَ جاء ليُلغِيَ الباطلَ لا ليمنحه شرعيّةَ البقاء.

وعندما نام أبو طالبٍ على فراشِ الموت، ذهب إليه النّبيُّ ﷺ مُمنّيًا نفسه أن يُتَوِّجَ عمُّه نُصرةَ هذا الدين باعتناقِه، فوجد أبا جهلٍ قد سبقه إليه، يريد أن يتأكّدَ أنّه سيُغادِرُ الدُّنيا على دينِ قريش.

يا لشياطينِ الإنسِ إذا استفحلَ بها الكُفر!

فقال له النّبيُّ ﷺ: يا عمُّ، قُل: لا إلهَ إلّا الله، كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله.

فقال له أبو جهلٍ: يا أبا طالبٍ، أترغَبُ عن مِلّةِ عبدِ المُطّلب؟

وكان آخرَ ما قال أبو طالبٍ قبل خروجِ روحِه: أنا على مِلّةِ عبدِ المُطّلِب.

ولك أن تتخيّلَ مقدارَ الأسى في قلبِ رسولِ الله ﷺ على عمِّه، فقال والحزنُ يعتصرُه: واللهِ لأستغفرنّ لك ما لم أُنهَ عنك.

فنزلَ قولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾!

وبوفاةِ أبي طالبِ استفحلَتْ قريشٌ في إيذاءِ النّبيّ ﷺ، وحادثةُ وضعِ سَلا الجَزورِ على رأسِه ﷺ التي تحدّثنا بها سابقًا كانت بعد وفاة أبي طالب، وهذه جرأةٌ لم تكن تتجرَّأها قريشٌ في حياة أبي طالب.

كان النّبيُّ ﷺ حين يُؤذى من قريشٍ يأتي إلى خديجة، وها هي الآنَ على فراشِ الموت، يدخل عليها وقد اشتدَّ عليها، فيقول لها: بالكُرْه منّي ما يجري لكِ يا خديجة! أي: يُوجِعُني ما يُوجِعُك.

خمسٌ وعشرونَ سنةً وهي تُحُوطه وتحنو عليه وتحميه.

خمسٌ وعشرونَ سنةً وهي أمُّه وزوجتُه وحبيبتُه ورفيقتُه ودُنياه.

خمسٌ وعشرونَ سنةً تُغيِّر فيها النّاس وبقيتْ خديجةُ هي خديجة.

آمنَتْ بي حين كفَرَ بي النّاس، وصَدَّقتني حين كَذَّبني النّاس، وأشرَكَتْني في مالِها حين حرَمَني النّاس، ورزَقَني اللهُ وَلَدَها.

هكذا كان يُحدِّث عنها النّبيُّ ﷺ بعد وفاتِها.

تزوَّج بعدها إحدى عشرةَ امرأةً، وبقي إلى آخرِ عمرِه يقول: واللهِ ما أبدَلَني اللهُ خيرًا من خديجة.

لم يكن يعدُّها من النّساءِ فقط، بل كان يعدُّها من أبوابِ الرِّزق: إنّي رُزِقْتُ حُبَّها.

وفي ليلةِ العاشرِ من رمضان، من السَّنةِ العاشرةِ للبعثةِ الشَّريفة، تُوفِّيت أمُّنا خديجةُ بنتُ خُوَيلِدٍ رضي الله عنها. نزل النّبيُّ ﷺ إلى قبرِها، سجّاها في يديه الشَّريفتين، ودعا لها، ثمّ أهالَ عليها التُّراب، ومضى. الكثيرُ منه بقي في قبرِ خديجةَ إلى الأبد، والكثيرُ من خديجةَ بقي فيه إلى الأبد.

فالسَّلامُ عليكِ يا أمَّنا خديجة، والسَّلامُ على قلبِكِ المليءِ بالحبِّ والإيمان.

جزاكِ اللهُ عنّا، وعن الإسلام، وعن رسولِ الله ﷺ خيرَ ما جزى زوجةَ نبيٍّ عن حُسنِ صُحبتِها.

أمّا أنا وأنت، فها هي الدّنيا، وها هو حظّ المؤمنِ منها؛ ينهشُه الفقدُ من جهةٍ، ويطوّقه الحزنُ من جهة، وبينهما لحظاتُ صفاءٍ وسَعة. وبين هذا وذاك، علينا أن نُوطّن أنفسنا على ألّا يُلهينا الحزن، ولا يُطغينا الفرح عمّا خُلقْنا له.

إلى الطّائف: من القُساةِ إلى القُساة!

ضاقَتْ عليه مكّة، أبو طالبٍ الذي كان يَحوطُه ويرعاه قد مات، وخديجةُ جبهتُه الدّاخليّةُ وموضعُ طمأنينته ماتت أيضًا، ولم يتغيّر شيءٌ في مكّة: ما زالت غارقةً في الضّلال، تُكذّب نبيّها، وتسومُ أصحابه أصناف العذاب، فقرّر المسيرَ إلى الطّائف، علّه يجد فيها قلوبًا أرحم من تلك القلوب القاسية التي وجدها في صدورِ سادةِ قريش.

خرج النّبيّ ﷺ إلى الطّائف مشيًا على قدميه، يصحبه مولاه زيد بن حارثة. وفي الطّريق، كان كلّما مرّ على حيٍّ من أحياءِ العرب دعاهم إلى الإسلام، فلم يُجبه إلى ذلك أحد.

ولمّا وصل إلى الطّائف، وهي يومئذٍ موطنُ ثقيف، عرض دعوته على سادتها، وهم يومئذٍ إخوةٌ ثلاثة: عبدُ ياليل، ومسعود، وحبيب أبناءُ عمرو الثّقفي. فوجدهم كأبي جهلٍ غِلظةً، وكأبي لهبٍ تكذيبًا، وكأميّةَ بنِ خَلَفٍ أذيّةً.

فأمّا الأوّل فقال له وهو يمزّق قطعةً من ثوبِ الكعبة: إن كان اللهُ أرسلك!

وأمّا الثّاني فقال: أما وجد اللهُ أحدًا غيرك؟

وأمّا الثّالث فقال له: إن كنتَ رسولًا، لأنتَ أعظمُ خطرًا من أن أردّ عليك الكلام. ولَئِن كنتَ تَكذِبُ على الله، ما ينبغي أن أكلّمك. فقام عنهم النّبيّ ﷺ وقال لهم: إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنّي.

أرأيتَ كم أوذيَ ليكون لنا دين؟ أن يُقال له استخفافًا: أما وجد اللهُ أحدًا غيرك؟ يا لِقسوتها ويا لِقلبِه كم احتمل في سبيل الله!

فإن لم يَعرِفِ النّاس قدرَك، فتعزَّ بسيّدك، خيرِ ولدِ آدمَ، يَهزأ به سادةُ ثقيف. ولا حول ولا قوّة إلا بالله!

وبقيَ النّبيّ ﷺ عشرةَ أيّامٍ في الطّائف، لم يترك أحدًا من أشرافها إلّا دعاه إلى الإسلام، فلم يُجبه منهم أحد.

ثمّ قالوا له: أخرُجْ من بلادِنا!

وسلّطوا عليه غلمانَهم وسفهاءَهم، فمنهم الشّاتمُ بأقذعِ الألفاظِ، ومنهم الرّاجمُ بأقسى الحجارة، حتّى سالَ الدّمُ من قدميه الشّريفتين، وكان زيدُ بنُ حارثة يَقِيهِ بنفسه، ولكن ما يفعل رجلانِ في وجه قبيلة؟!

وما زالوا يتْبعونه شتمًا ورجمًا حتّى بلغ بُستانًا لعُتبة وشيبة ابني ربيعة، فلمّا التجأ إليه انصرفوا عنه.

وكأنّ ما لقيَهُ من الأذى النّفسيّ من سادة ثقيف لم يشْفِ صدورَهم، حتّى آذوه في جسده أيضًا.

أرأيتَ بأيّ شيءٍ وصَلَ الإسلامُ إليك، لم يَصِلْك على طبقٍ من لُطف، إنّما على طبقٍ من جَهدٍ وتضحيةٍ ودَم، هذا الإسلامُ غالٍ فلا تُضيّعه!

وفي بستانِ ابني ربيعة، جلس النّبيّ ﷺ في ظلّ داليةِ عنب، ورفع يديه يُناجي ربّه: اللهمّ إليك أشكو ضعفَ قوّتي، وقِلّةَ حِيلتي، وهواني على النّاس. يا أرحمَ الرّاحمين، أنتَ ربُّ المستضعفين، وأنتَ ربّي. إلى مَن تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يتجهّمُني؟ أم إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولكنّ عافيتَك هي أوسعُ لي. أعوذُ بنورِ وجهك الذي أشرقتْ له الظّلماتُ، وصَلُح عليه أمرُ الدّنيا والآخرة، من أن يَنزل بي غضبُك، أو يَحلّ عليّ سخَطُك. لك العُتبى حتّى تَرضى، ولا حول ولا قوّة إلّا بك.

فلمّا رآه ابنا ربيعة على هذا الحال، رَقَّ قلبهما عليه، فنادَيا على غلامٍ نصرانيّ لهما يقال له عَدّاس، وقالا: خُذ قِطفًا من هذا العنب، واذهب به إلى هذا الرّجل.

فجاءه عَدّاس، ووضع قِطفَ العنب بين يديه، فتناول منه النّبيّ ﷺ وقال: بِسم الله.

فقال عَدّاس: إنّ هذا الكلامَ ما يقولُه أهلُ هذه البلاد.

فقال له النّبيّ ﷺ: مِن أيّ البلادِ أنت؟ وما دينُك؟

فقال: أنا نصرانيّ من أهلِ نِينَوى.

فقال له النّبيّ ﷺ: مِن قريةِ الرّجلِ الصالحِ يُونُس بن متّى.

فقال: ما يُدريك ما يُونُس بن متّى؟

فقال النّبيّ ﷺ: ذلك أخي، كان نبيًا، وأنا نبيّ.

فأكبّ عَدّاسُ على رأسِ رسولِ الله ﷺ، وعلى يديه ورجليه يقبّلُها!

وأسلم عَدّاس. وسبحانَ مَن يُرسِل قَبَسًا من نورٍ على قلوب عباده في أحلكِ الأوقاتِ ظُلمة.

مهما ضاقت سيُرسلُ اللهُ إليك دوماً ما يُعزّيك به، ويُخبرُك أنّه راضٍ عنك، وأنّك على الطّريق.

فاتَتهُ الطّائف كلُّها هذه المرة، ورجع بقلبِ عَدّاس!

ولكنّ الهمّ بقي ثقيلاً، بقيتْ الطّائف جُرحًا ينزِفُ في قلبهﷺ! سألَته عائشةُ رضي الله عنها مرّةً:

هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدّ عليكَ مِن يومِ أُحد؟

فقال لها: لقد لَقِيتُ من قومك ما لَقِيتُ، وكان أشدّ ما لَقِيتُ منهم يومَ العَقَبة، إذ عَرَضتُ نفسي على ابنِ عبدِ ياليلِ بن كلالٍ، فلم يُجبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مَهمومٌ على وجهي، فلم أستَفِقْ إلّا وأنا في قَرْنِ الثّعالِب.

فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّتني، فإذا فيها جبريلعليه السلام ، فناداني فقال: إنّ الله قد سمع قولَ قومِك لك وما رَدّوا عليك، وقد بعثَ اللهُ إليك مَلَكَ الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم.

فناداني ملك الجبال، فسلّم عليّ، ثمّ قال: يا محمّد، إن شئتَ أن أُطبِقَ عليهم الأخشَبَين فعلتُ.

فقال له النبيُ ﷺ: بل أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلابِهم من يعبدُ الله عزَّ وجلَّ وحده لا يُشركُ به شيئًا.

يا لِقلبِك يا رسولَ الله! يا لِقلبِك الذي لا يعرفُ الانتقام ولا التشفّي.

يُعلِّمنا النبيُّ ﷺ أنَّ مهمّةَ المسلم الأولى أن ينشر الإسلام في الأرض. وأن يهتمَّ لهدايةِ المخالف والموافِق، وأنَّ مَن خُيّر بين هداية الذين آذوه وبين الانتقام منهم، فاختار الانتقام، فقد شطَّ عن سُنّةِ النبيِّ ﷺ، ولم يفهم الغاية السّامية من الدّعوة. ولو تأمّلتَ، لوجدتَ أن النبيَّ ﷺ لم يختر بين هداية هؤلاء الذين آذوه فقد كانوا في عينيه يومئذٍ أبعدَ ما يكون المرءُ عن الهداية ولكنّه اختار أبناءَهم! وهذا أبلغُ من الأول!

لقد اختار أمَلًا قادمًا على عذابٍ واقعٍ. ما أرحمَه من نبيٍّ ﷺ!

وإن كان عدّاس هو خيطَ النّورِ الأوّل في ظُلمةِ الرّحلة، فإنَّ مجيءَ جبريل عليه السلامُ وملكِ الجبال كان الخيطَ الثّاني من النّور. هنا بدأت معيّةُ الله تتجلّى لنبيّه ﷺ، فاطمأنَّ كلّه. ولكن لا أحدَ أكرمُ من الله، في تلك اللّيلة صرَفَ اللهُ تعالى إلى نبيّه ﷺ نفرًا من الجنّ، سمعوا تلاوته، فدعاهم فآمنوا، وانطلقوا إلى قومِهم دُعاةً.

سُبحان مَن يأخذُ بيدٍ ويُعطي بالأخرى، وسبحان من يُغلِقُ بابًا بحكمته، ويفتحُ أبوابًا برحمته. آمَن عدّاس، وآمن الجنُّ، والطّائف بقيت على موعدٍ مع عفوٍ رآه النّبيُّ ﷺ لاحقًا بعينيه حين أسلمت الطّائف، وجاءته ثقيف تُبايعه على الإسلام.

وإنّي أريد منك الآن أن تتأمّل معي: فلم أستفِقْ إلّا وأنا في قَرْنِ الثّعالب. هو يعلم أنّه نبيٌّ، ويعلم أنَّ الدّين الذي جاء به سيظهر في نهاية المطاف، ولكنّه إنسان: يحزن، ويضيق صدره، ويصيبه الهمُّ، بل ويَسير هائمًا على وجهه لا يدري أين تأخذه قدمُه. بأبي هو وأمي، ثمَّ ينتبه، فإذا هو في قرن الثّعالب، قد مشى مسافةً بعيدةً عن الطّائف.

فما بالك بنا نحن؟ نحنُ الذين لو جُمع إيمانُنا في كفّة، وإيمانُه ﷺ في

كفَّة، لرَجح إيمانُه على إيمانِنا، ولفاق يقينُه بالله يقينَنا، ولغلب صبرُه صبرَنا.

أليس مِن حقِّنا نحن أيضًا أن ننكسرَ أحيانًا؟ وأن نمشي ولا ندري أين تأخذنا أقدامُنا؟ فهل قدَّرنا هذا لبعضِنا؟ وعرفْنا أنَّه تمرُّ بالإنسان لحظاتٌ يَخرج فيها عن طَبعِه، وعن اتِّزانِه الذي عرفناه به؟

تمرُّ بالإنسان لحظاتٌ لا يطيق فيها أن يقولَ كلمةً، أو أن يسمعَ نصيحةً، أو يقابلَ إنسانًا. فلماذا نعتبر الأمر شخصيًا، ونزيد هموم بعضنا البعض، بدل أن نراعي أن النَّفس في إقبالٍ وإدبار، وأن الرُّوح تمرض تمامًا كما يمرض البدن؟ إذا رأيتَ صديقًا ضَجِرًا، فلا تكن له همًّا فوق همِّه، بل كن له قرنَ الثَّعالب الذي يستفيق عنده. احترم حزنَه، وحاجتَه في أن يبقى وحده. ثمَّ حين يهدأ، إربتْ على كتفِه، وامسحْ على صدرِه، وواسِ قلبَه، حدِّثه حديث القلب للقلب، والرُّوح للرُّوح، دَعكَ من المنطق قليلًا فالنَّفس لحظةَ انكسارها تحتاج احتواءً لا درسًا، والرُّوح لحظة تِيهِها تحتاج احتضانًا لا محاضرة!

نحن نضعف، لا من قلَّة الإيمان، ولكن من قسوة الحياة. ما كان إيمانُ النَّبيِّ ﷺ يوم الطَّائف قليلًا، ولكنَّ الخذلان كان موجعًا. ولقد علم الله حجم وجعه وانكساره، فلم يعاتبه، لأنَّه هَامَ على وجهه، ولم يقل له: أين إيمانك بي؟ بل أرسل له ملائكةً تحفُّه وتنصره.

علِم الله أن رسول الله ﷺ، نهاية المطاف إنسان، وأنَّ النَّاسَ تمرُّ بهم لحظاتُ ضعف،

تحتاج عندها قلبًا حنونًا، لا عقلَ فيلسوفٍ، أو لسانَ خطيبٍ.

ولأنَّ المصائب لا تأتي فُرادى، ولأنَّ أشدَّ النَّاس ابتلاءً الأنبياء، وهو سيِّدهم، كان على موعد مع ابتلاءٍ جديد حتَّى قبل أن تلتئم الجراح في قدميه، أمَّا عن جرح قلبه فكان ما زال ينزُّ حين قررتْ قُريش أن تمنعه من دخول مكَّة، وهكذا صار بين نارين لا الغريب قبِلَ منه دعوته، ولا القريب قبِلَ عودته! فكان لا بُدَّ له أن يبحث عمَّن يُجيره ويحميه ويُدخله تحت كنفه إلى مكَّة، فذهب إلى المُطعِم بن عديّ، وقبِلَ أن يُجيره، وباتَ عنده تلك

الليلة، ثمّ لمّا كان الصّباح، خرج المطعم وبنوه متقلّدي السّيوف، حتّى أتوا الكعبة، وقال للنّبيّ ﷺ: طُف بالبيت ما شئت!

فجاء أبو سفيان فقال للمطعِم: أمُجيرٌ أنت أم تابعٌ له؟

فقال: بل مُجير!

فقال أبو سفيان: قبلنا جوارك، وخلّينا بين محمّد وما هو فيه!

ثمّ مكث أياماً في مكّة، وأذِنَ له بالهجرة، ودار الزّمان قليلاً، مات في دورته المطعِم بن عديّ، ثمّ كانت غزوة بدر التي انتهت بالنّصر، ولمّا جيء بأسرى قُريش إلى النّبيّ ﷺ قال: لو كان المطعِمُ بن عديّ حيّاً وكلّمني في هؤلاء النّتنى لتركتهم له!

رغمَ أن هؤلاء أسرى حرب، ولو أن أحداً استطاع أن يقتله ما تردّد ثانية، ولكنّه حَفِظَ للمطعِم بن عديّ معروفه معه، ولم ينسه، وأخبرهم أنّه لو كان حيّاً وشفعَ فيهم ما ردّ طلبه، ولأطلقهم له عرفاناً بمعروفه الذي صنعه معه!

النّبلاء لا ينسون مواقف الآخرين المشرّفة معهم حتّى ولو كانوا من غير مِلّة وعلى غير دين!

فهل حفظنا للنّاس معروفهم، وتحيّنّا الفُرص لنردّ إليهم هذا الجميل عملاً بهَدْيِه وسُنّته، أم أخذنا ومضينا؟!

العبدُ تُقيّده السّلاسل، أمّا الحُرُّ فيُقيّده المعروف! فكُنْ حرّاً ولا تنسَ معروفاً أُسديَ إليك، صحيح أنّ الذي فعلَ المعروف هو في الغالب لا ينتظر سداداً، ولكنّ من العار أن تنسى أنت!

الإسراءُ والمعراجُ: سَيِّدُ الأرضِ في السَّماء!

عاد النّبيّ ﷺ مكلومًا من الطّائف، هناك حيث كُذِّب وزجم، كما أن جراحة السابقة لم تلتئم بعد. ما زال حزنُه على عمّه أبي طالبٍ لم ينقشع، وهو بين حزنين: حزن لفقدِه لمن كان يذود عنه ويحوطه ويرعاه، وحزنٍ على أن مضى أبو طالبٍ من الدُّنيا وهو على غير مِلّةِ الإسلام. جُرحُ فقْد خديجة كان ما زال ينزُّ أيضًا؛ تلك المرأةُ الفريدةُ في حياتِه التي لم يملأ مكانها أحد.

كانت الأرضُ في ظلِّ كلِّ هذا كأنّها مأتمٌ كبير. وحين ضاقت الأرضُ عن عزاءٍ أصبحت السّماءُ عزاءً. لقد سمع الله قول نبيّه: إن لم يكن بك عليّ غَضَبٌ فلا أُبالي! فاستدعاه إلى السّماء. ويا له من عزاء، ويا لِمقامِ النّبيّ ﷺ عند ربِّه.

نزل جبريل عليه السلام إلى النّبيّ ﷺ بصحبة ملَكين آخرين، فأخذوه وشقوا صدره، ثمّ انتزعوا قلبه وغسلوه بماء زمزم، ثمّ قاموا بملء قلبه إيماناً وحكمةً، وأعادوه إلى موضعه.

ثمّ جاء جبريل عليه السلام بالبراق، وهي دابّة عجيبة تضع حافرها عند منتهى بصرها، فركِبَه النّبيّ ﷺ وانطلقا معاً، إلى بيت المقدس.

وفي هذه المدينة المباركة كان النّبيّ ﷺ على موعدٍ للقاءِ بإخوانه من الأنبياء عليهم السلام، فقد اصطحبه جبريلُ عليه السلام إلى المسجد الأقصى، وعند الباب ربط جبريل عليه السلام البراق بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثمّ دخلا إلى المسجد، فصلّى النّبيّ ﷺ بالأنبياء إماماً، وكانت صلاته تلك دليلاً على مدى الارتباط بين دعوة الأنبياء جميعاً من جهة، وأفضليّته عليهم من جهة أخرى، وإيذاناً بنسخِ كلِّ الشّرائع، وتسيُّد النّبيّ ﷺ للرّسالة قاطبة!

وجاءه جبريل عليه السلام بثلاثة آنية، الأوّل مملوء بالخمر، والثّاني بالعسل، والثّالث باللّبن، فاختار النّبيّ ﷺ إناء اللّبن فأصاب الفطرة، ولو اختار غيرها لَغَوَتْ أمّته!

ثمّ بدأ الجزء الثّاني من الرّحلة، وهو الصّعود في الفضاء وتجاوز السّماوات السّبع، وكان جبريل عليه السلام يطلب الإذن بالدّخول عند الوصول إلى كلّ سماء، فيؤذن له وسط ترحيب شديد من الملائكة بقدوم سيّد الخلق وإمام الأنبياء ﷺ.

وفي السّماء الدّنيا، التقى النّبيّ ﷺ بآدم عليه السلام ، فتبادلا السّلام والتّحية، ثمّ دعا آدم له بخير، وقد رآه النّبيّ ﷺ جالساً وعن يمينه وشماله أرواح ذريته، فإذا التفت عن يمينه ضحك، وإذا التفت عن شماله بكى، فسأل النّبيّ ﷺ جبريل عليه السلام عن الذي رآه، فذكر له أن أولئك الذين كانوا عن يمينه هم أهل الجنّة من ذريته فيسعد برؤيتهم، والذين عن شماله هم أهل النّار فيحزن لرؤيتهم!

ثمّ صعد النّبيّ ﷺ إلى السّماء الثّانية ليلتقي بعيسى ويحيى عليهما السلام، فاستقبلاه أحسن استقبال وقالا: مرحباً بالأخ الصّالح والنّبيّ الصّالح.

وفي السّماء الثّالثة، رأى النّبيّ ﷺ أخاه يوسف عليه السلام ، وسلّم عليه، وقد وصفه النّبيّ ﷺ بقوله: وإذا هو قد أُعطِي شطر الحُسن!

ثمّ التقى بأخيه إدريس عليه السلام في السّماء الرّابعة، وبعده هارونعليه السلام في السّماء الخامسة.

ثمّ صعد جبريل عليه السلام بالنّبيّ ﷺ إلى السّماء السّادسة لرؤية أخيه موسى عليه السلام ، وبعد السّلام عليه بكى موسى فقيل له: ما يبكيك؟

فقال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي، يدخلُ الجنّة من أمّته أكثر ممن يدخلها من أمّتي.

ثمّ كان اللقاء بخليل الرّحمن إبراهيم عليه السلام في السّماء السّابعة، حيث رآه النّبيّ ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، كعبة أهل السّماء، الذي يدخله كلّ يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه أبداً، وهناك استقبل

إبراهيم عليه السلام النبيّ ﷺ ودعا له، ثمّ قال: يا محمّد، أقرئ أمّتك منّي السّلام، وأخبرهم أنّ الجنّة طيّبة التّربة، عذبة الماء، وأنّها قيعان، وأنّ غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر!

وبعد هذه السّلسلة من اللّقاءات المباركة، صعد جبريل عليه السلام بالنّبيّ ﷺ إلى سدرة المنتهى، وهي شجرة عظيمة القدر كبيرة الحجم، ثمارها تشبه الجرار الكبيرة، وأوراقها مثل آذان الفيلة، ومن تحتها تجري الأنهار، وهناك رأى النّبيّ ﷺ جبريل عليه السلام على صورته الملائكيّة وله ستمائة جناح!

ثمّ حانت أسعد اللّحظات إلى قلب النّبيّ ﷺ، حينما تشرف بلقاء الله، دون أن يراه سبحانه، والوقوف بين يديه ومناجاته، لتتصاغر أمام عينيه كلّ الأهوال التي عايشها، وكلّ المصاعب التي مرّت به، وهناك أوحى الله إلى عبده ما أوحى، وكان ممّا أعطاه خواتيم سورة البقرة، وغفران كبائر الذّنوب لأهل التّوحيد الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك، ثمّ فرض عليه وعلى أمّته خمسين صلاة في اليوم واللّيلة.

وعندما انتهى النّبيّ ﷺ من اللّقاء الإلهي مرّ في طريقه بموسى عليه السلام ، فلمّا رآه سأله: بم أمرك؟

فقال له: بخمسين صلاة كلّ يوم!

فقال موسى عليه السلام : أمّتك لا تستطيع خمسين صلاة كلّ يوم، وإنّي والله قد جرّبت النّاس قبلك فارجع إلى ربّك فاسأله التّخفيف.

فعاد النّبيّ ﷺ إلى ربّه يستأذنه في التّخفيف فأسقط عنه بعض الصّلوات، فرجع إلى موسى عليه السلام وأخبره، فأشار عليه بالعودة وطلب التّخفيف مرّة أخرى، وتكرّر المشهد عدّة مرّات حتّى وصل العدد إلى خمس صلوات في اليوم واللّيلة، واستحى النّبيّ ﷺ أن يسأل ربّه أكثر من ذلك، ثمّ أمضى الله عزّ وجلّ الأمر بهذه الصّلوات وجعلها بأجر خمسين صلاة.

وقد شاهد النّبيّ ﷺ في هذه الرّحلة الجنّة ونعيمها، وأراه جبريل عليه

السلام الكوثر، وهو نهر أعطاه الله لنبيّه إكراماً له، حافّتاه والحصى الذي في قعره من اللّؤلؤ، وتربته من المسك، وكان النّبيّ ﷺ كلّما مرّ بملأ من الملائكة قالوا له: يا محمّد، مُرْ أمّتك بالحجامة!

وفي المقابل، وقف النّبيّ ﷺ على أحوال الذين يعذّبون في نار جهنّم، فرأى أقواماً لهم أظفارٌ من نحاس يجرحون بها وجوههم وصدورهم، فسأل جبريل عليه السلام عنهم فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم النّاس، ويقعون في أعراضهم!

ورأى أيضاً أقواماً تقطع ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من نار، فقال له جبريل عليه السلام : هؤلاء خطباء أمّتك من أهل الدّنيا، كانوا يأمرون النّاس بالبرّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟!

ورأى شجرة الزّقوم المذكورة في القرآن، ورأى مالكاً خازن النّار، وشمّ رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها!

فلمّا أصبح أخذ النّبيّ ﷺ ناحية من البيت وجلس على غير عادته ممّا يألفه النّاس، دنا منه أبو جهلٍ، فلمّا رآه متغير الحال، قال: هل من خبر يا محمّد؟

قال: نعم.

قال: وما ذاك؟

قال: أسريَ بي ليلة البارحة إلى المسجد الأقصى.

قال: وعدتَ من ليلتك؟

قال: نعم.

قال: يا ابن أخي! أترى إن جمعتُ لك أندية قريش أتخبرهم بما أخبرتني به؟

قال النّبيّ ﷺ: نعم.

فنادى أبو جهل بأعلى صوته، يريد أن يشمت به، يا بني كعب ابن لؤي، يا معشر قريش، هلموا إليّ!

فاجتمعوا من كلّ حدب وصوبٍ تاركين أنديتهم حتى أقبلوا، قال: اسمعوا ما يقول محمّد.

فلمّا أخبرهم النّبيّ ﷺ، إذا بأحدهم يضع أصابعه بين أذنيه، وإذا بأحدهم يفغر فاه، ويضع أحدهم يديه على رأسه متعجباً، قالوا: وعدت من ليلتك؟!

قال: نعم، وعدت من ليلتي!

قالوا: صف لنا بيت المقدس، فلمّا همّ النّبيّ ﷺ بوصفه وقد رآه في اللّيل، وهو نبيّ كريم زاهد عابد، لمّا دخل المسجد لم ينظر إلى أروقته ولا إلى جدرانه ولا إلى حيطانه، فقد صلّى وتعبّد الله جلّ وعلا فيه، فلم يقدر أن يصف لهم المسجد، فما هي إلّا برهة وجبريل عليه السلام يُدني المسجد بين يديه، فأخذ النّبيّ ﷺ ينظر إلى المسجد ويصفه للملأ من قريش، وكلّما زاد في وصفه قال القوم من قريش: أمّا المسجد فكما قال، وأمّا الوصف فكما وصف.

ثمّ أخبرهم أنّه مرّ على قافلةٍ لهم وأنّها ضلّت بعيراً في الطّريق، فوعدهم يوم كذا وكذا أن تعود القافلة إلى مكّة، فاحتسبوا تلك الأيّام حتى خرجوا في ظهيرتهم، فلمّا خرجوا فما إن طلع حاجب الشّمس إلّا والقافلة قادمة مقبلة إلى مكّة كما أخبر النّبيّ ﷺ!

وارتدّ ناس ممّن كانوا قد آمنوا! ورأتها قريش فرصةً سانحة، وسعَوا بذلك إلى أبي بكرٍ، فقالوا: هل لك إلى صاحبك يزعم أنّه أسريَ به اللّيلة إلى بيت المقدس؟

قال: أوَقال ذلك؟

قالوا: نعم.

قال: لئن كان قالَ ذلك لقد صدَقَ!

قالوا: أوتصدّقه أنه ذهب اللّيلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يُصبح؟

قال: نعم إنّي لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدّقه بخبرِ السّماء في غدْوه أو رَوْحه، فلذلك سمّي أبو بكر الصّديق!

ولأنّ السيرة تُعاش ولا تُروى، وتُقرأ كدستور حياةٍ لا كتاريخٍ ميّت، لا بد من الوقوف هُنيهةً مع أهمّ الدّروس والعبر المستفادة من رحلة الإسراء والمعراج:

أولًا: إنّ مع العسر يُسرًا، ومن رَحِمِ المِحن تولد المِنح. كم كانت الدّنيا شديدةً على النّبيّ ﷺ قبل الإسراء والمعراج، كان مكلومًا بفقدِ عمّه أبي طالبٍ الذي كان له درعًا، وبفقدِ زوجته خديجةَ التي كانت له حضنًا، ثمّ ما أصابه من أذىً في رحلته إلى الطّائف. ثمّ جاء اليُسر ليَكسِر العُسر، وجاءت المنحة لتزيل المِحن بطريقةٍ لا تخطر على بال. ولو قيل لرسول الله ﷺ اختر لنفسك عزاءً، لربّما ما كان ليختار عزاءً بهذا الدفء، أن يصعد إلى السّماء السّابعة. فمهما اشتدّت الأمور، ومهما عظُم الكرب، كونوا على يقينٍ أن ربّ الفَرَج قريب، وأن كلّ هذا ما هو إلّا امتحانٌ وسحابةُ بلاءٍ ستنقشع، ويذهب التّعب، ويبقى الأجر.

ثانيًا: باختيار إناءِ اللّبن اختار النّبيّ ﷺ الفِطرة، الفِطرةُ جَمرةٌ في موقِدِ البشريّة، ممنوعٌ أن تنطفئ. إنّها البوصلةُ التي تضبط وجهة الإنسان. وإنّ الفاصل بين الإنسانيّة والحيوانيّة ليس الدّين، وإنّما الفِطرة؛ إذ لا دين مع فساد الفطرة. وإنّ الرأسماليّةَ المسعورة اليوم خطورتُها ليست على الإسلام فقط، وإنّما على البشريّة كلّها. إنّ ما يُروّجون له من الشّذوذ وتغيير الجنس، وزنى المحارم، وشواطئ العُراة، والزّواج من الحيوانات، لا يجعل البشريّة عاجزةً عن استقبال الدّين، بل يجعلها عاجزةً عن ممارسة إنسانيّتها.

ثالثًا: الصّلاة مِعراج الرّوح، كلُّ العبادات فُرضت على المسلمين والنّبيّ ﷺ في الأرض، وحدها الصّلاة فُرضت في السّماء حين كان في السّماء السّابعة. وهذا لعظيم شأنها وعلوّ قدرها. وهي آخر وصاياه ﷺ من الدّنيا.

الصّلاة مِعراجُ الرُّوح، رحلةٌ سماويّةٌ علويّة، تقفز بها الرّوح خارج حدود الجسد الطّينيّ المحبوس فيه، وتُحلّق في ملكوت الله الواسع. وبقدر الخشوع وتحقيق الأركان تحصل لذّة العبادة وتنعكس على الجوارح. ولخّصها لك النّبيّ ﷺ حين كان يريد من بلال أن يُقيم الصّلاة، فيقول له: أرِحنا بها يا بلال.

رابعًا: الإيمانُ ليس بالتّمنّي ولكن ما وقرَ في القلب وصدّقه العمل. صحيحٌ أنّه لن يدخل أحدٌ الجنّة إلا برحمة الله حتّى النّبيّﷺ ولكن هل تُدرك رحمة الله بشيءٍ أفضل من القيام بما فرضه الله تعالى وترك ما نهى عنه؟

رأينا في رحلة المعراج أصنافًا من العذاب تُصيب المرءَ بالرُّعب، وكلُّها بسبب ذنوبٍ عظيمة يستهين بها النّاس. كلّنا أصحابُ معاصٍ، وليس على ظهر الأرض معصوم. ولكن سبحان من أرخى علينا سِتره. أمّا المؤمنُ الخجِلُ فإذا أذنب عاد خجِلًا. والمرء بخيرٍ ما دام يستغفر ويتوب. اللّهم عاملنا بما أنت أهلُه، لا بما نحن أهلُه.

خامسًا: المسجدُ الحرام والمسجدُ الأقصى توأمان، القبلةُ الأولى للمسلمين، والقبلةُ الثّانية، لا فِكاكَ بينهما. كان الله تعالى قادرًا أن يجمع للنّبيّ ﷺ الأنبياء في الكعبة، ويصلّي بهم إمامًا، ثمّ يُعرج به من هناك، ولكنّه أراد أن يُقدّس بيتُ المقدس في قلوبنا، وأن يُرِيَنا منزلته عنده.

لهذا ونحن نتّجهُ بقلوبنا قبل وجوهنا إلى المسجد الحرام علينا ألا ننسى مسجدًا أسيرًا في بيت المقدس ينتظر منّا الكثير. فاللّهم استخدمنا ولا تستبدلنا.

سادسًا: إنْ قالَ فقد صدق، منذ بدأت الرّسالات، لم يحظَ نبيٌّ بصاحبٍ كحظوة النّبيّ ﷺ بأبي بكر. فاختر لك صحبةً صالحة؛ إنّ الحياةَ رحلةُ سفر، وكانت العرب تقول: الرّفيق قبل الطّريق.

هذا دينُ الجماعة لا دينُ الأفراد. دينُ العُصبة المسلمة التي تعمل لإعلاء العقيدة يدًا واحدة، ومن قبل: قلبًا واحدًا. وإنّ الذّئب لا يأكل من الغنم إلّا

القاصية.

سابقًا: النصرُ ليس في البقاء على قيد الحياة، وإنَّما في الثبات على المبدأ. في ظاهر الأمر، وبالقياسات الدُّنيويَّة الفارغة، حقق فرعونُ نصرًا ساحقًا على الماشطة، فقد آذاها وأولادها بالزَّيت المغلي. ولكن بحسابات الآخرة، فإنَّ القتيلَ ينتصرُ على القاتل إن مات على الحقِّ.

هذه الدُّنيا ليست نهاية المطاف. إنَّها أوَّله فقط؛ من اللَّحظة التي تخرج فيها الروحُ من الجسد تبدأ الرِّحلة.

الهجرةُ: من ضِيقِ الدّعوةِ إلى سعةِ الدّولةِ!

الهجرةُ النّبويّةُ الشّريفةُ لم تكن انتقالاً من مكانٍ إلى مكانٍ بقدرِ ما كانت ارتقاءً بالدعوةِ إلى مرحلةِ الدولةِ. خرجَ النبيُّ ﷺ من مكّة والحنينُ إليها يشتعلُ في صدرِهِ اشتعالَ النار تحت المرجل. تركَ وراءه بيتاً نشأ فيه، ومراتعَ الصِّبا، وطرقاتٍ فيها من الذكريات أكثرُ مما فيها من الخطوات. هنا جرى طفلاً، وهنا رعى شاباً، وهنا تاجر رجلاً، وهنا أحبَّ زوجاً، وهنا أنجب أباً، وهنا دعا نبياً، وهنا صُدِّقَ وهنا كُذِّبَ، وهنا خديجةُ، ويا لوحشةِ الطريق إذا ما تركَ الرِّجالُ قلوبَهم وراءهم.

خرجَ النبيُّ ﷺ من مكةَ كروحٍ تخرجُ من جسدٍ، وبعضُ الرحيلِ موتٌ ولو كان على قدمين!

وعلى مشارفها وقف هنيهةً مودّعاً، والعربيُّ صَبٌّ بطبعه، وهو سيدُ العربِ، خاطبَها بصوتٍ تختنقُ فيه الدمعةُ، ويمتزجُ معه الأسى: واللهِ إنك لأحبُّ بلادِ الله إليّ ولولا أن قومَكِ أخرجوني منك ما خرجت.

خرجَ النبيُّ ﷺ من مكةَ إلى المدينةِ، وفي ظهره قومه يطلبون دمه، والجائزةُ لمن أتى به حياً أو ميتاً، هانَ على القبيلة أطهرها! وتلقاء وجهه قومٌ غرباء أعطوه وعداً أن يكونوا له أهلاً، وبعضُ صحابةٍ سبقوه ليبدأ بهم الرحلة التي قلبت هذا الكوكبَ رأساً على عقب، ولا أغالي إذ أقول إن الإسلامَ وُلِد مرتين: مرة يوم نزول الوحي، ومرة يوم وصول النبي ﷺ إلى المدينة المنورة.

خرجَ النبيُّ ﷺ من مكةَ إلى المدينةِ، هنا الأنصارُ سيفُ الإسلامِ ودرعه، هنا الصادقون الذين آووه ونصروه ومنعوه، هنا جحافلُ الفاتحين ومهدُ الدولة، هنا المشكاة التي خرج منها النّورُ الذي أضاء هذا الكوكب.

ولكن هذه الهجرةُ المباركةُ لم تأتِ هكذا دفعةً واحدةً، ولم تكن قرارَ يومٍ وليلةٍ، كان لها مقدماتٌ، وسبقتها إرهاصاتٌ، وكان فيها محطاتٌ. الهجرةُ الشريفةُ لم تكن كرحلةِ الطائفِ حيث ذهبَ النبيُّ ﷺ عارضاً دعوته، كانت

الدعوةُ تنتظره هناك ليبدأ الفصل الأجملَ والأعقد في تاريخ الإسلام.

قبل الهجرة المباركة كان هناك بيعتان في العقبة، وبين البيعتين كان هناك مصعبُ بن عمير رضي الله عنه ، فتى قريش الوسيم.

أ. بيعةُ العقبةِ الأولى:

بعد سنواتٍ طويلةٍ قضاها النبيّ ﷺ في جهادٍ دائم، وعملٍ متواصلٍ لا يعرفُ الكللَ ولا الملل، وهو يطوفُ على القبائل، مُبلّغاً دعوة ربه، ملتمساً الحليف والنصير ، ملاقياً في سبيل ذلك صنوف الأذى والصد والإعراض، أراد الله إتمام أمره، ونصر دينه، وإعزاز نبيّه ﷺ، فكانت البداية، ونقطة التحول الحاسمة، وبصيص النّور الذي أطلّ من بين ركام الظلمات، عندما قيّضَ اللهُ تعالى أولئك النّفر السّتة من أهل المدينة، فالتقى بهم النّبيّﷺ في موسم الحجّ من السّنة الحادية عشرة للبعثة الشريفة، وعرض عليهم الإسلام، فاستجابوا لدعوته وأسلموا، وكان هذا الموكب أول مواكب الخير التي هيّأت للإسلام أرضاً جديدة، وملاذاً أميناً، حيث لم يكتف هؤلاء النّفر بالإيمان، وإنما أخذوا العهدَ على أنفسهم بدعوة أهليهم وأقوامهم، ورجعوا إلى المدينة وهم يحملون رسالة الإسلام، حتى لم تبقَ دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ.

فلما كان موسم الحجّ من العام التّالي، جاء إلى الموسم اثنا عشر رجلاً من المؤمنين، عشرة من الخزرج واثنان من الأوس، فالتقوا بالنّبيّ ﷺ عند العقبة بمنى، وبايعوه البيعة التي سميت «بيعة العقبة الأولى»، وكانت بنود هذه البيعة نفس البنود التي بايع النّبيّ ﷺ عليها النساء فيما بعد، ولذلك عرفت أيضا باسم «بيعة النساء»، والسّببُ أنّه لم يكن فيها بيعةٌ على القتال!

وقد روى البخاريّ في صحيحه نصّ هذه البيعة وبنودها في حديث عبادة بن الصامت، وكان ممن حضر البيعة، وفيه أن النّبيّ ﷺ قال لهم: تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في

معروفٍ، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصابَ من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصابَ من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله، إن شاءَ عاقبه، وإن شاء عفا عنه!

قال: فبايعناه على ذلك!

وهذه سُنّة اللهِ في هذا الدِّين، ما ضاقت عليه أرضٌ إلا فتح له غيرها! وما زهدَ فيه قومٌ إلا رغبَ به غيرهم! إنّه ليس حكراً على بلدٍ، ولا مُلكاً لقوم، وتأمّل بالذين حملوا رايته على مرّ العصور، تجدهم من كلِّ عرقٍ ولون، وكم تنقّلت دار الخلافة من مكانٍ إلى مكان!

من اشترى بيعَ له، ومن باعَ حُرِمَ منه، وإنّه لقافلةٌ ماضيةٌ إلى يوم القيامة، من ركبَ فيها فاز، ومن تخلّفَ عنها خسر!

ب. أوّلُ سفيرٍ في الإسلام:

كان لا بدّ للنُّور أن يمتدّ إلى أرضٍ تتهيأ لاحتضان الرِّسالة، فاختار النبيُّ ﷺ أن يرسل مع أصحابِ بيعة العقبةِ الأولى من يعلمهم أمرَ دينهم ويساعدهم في نشره وتبليغه.

فوقع اختياره على مصعبِ بن عمير رضي الله عنه ، ذلك الشاب الوسيم الذي بدل الحريرَ بالصبر، والترفَ بالثبات. أرسله إلى المدينة يحمل في صدره قرآناً وفي قلبه إيماناً وفي لسانه حكمةً وبياناً، ليكون بيده غرسَ الإيمان في تربةٍ جديدة.

دخل مصعبُ القلوبَ بلطفه قبل أن يدخل البيوتَ بخطاه، وجعل من المدينة حديقةً تنبضُ بالتوحيد. لم يكن اختيارُ مصعب بن عمير رضي الله عنه دون غيره من الصحابة اختيارًا اعتباطيًا، حاشا رسولَ الله ﷺ ذلك، وإنما تفرّسَ حوله، وقلّبَ أمره، وأجال نظره، فوجد مصعبًا غايته. ولقد اجتمعت في مصعب صفاتٌ تفرقت في غيره من الصّحابة، ومن أهم الأسباب التي دعت النّبيّ ﷺ أن يختار مصعب بن عمير رضي الله عنه هي:

أولاً: نظرًا للمسافة الشاسعة بين مكة والمدينة المنوّرة، إن من يقع عليه الاختيار سيكون هو المرجع الوحيد ومصدر التلقي الأول والأخير لهذا الدين في المدينة، فلا يصلح لهم حديث عهدٍ بالإسلام أو قديم عهدٍ به لا يحفظ كل ما نزل من الوحي، بالإضافة إلى علمه بالعبادات وقدرته على شرحها وتبسيطها. وقد كان مصعبُ بن عمير رضي الله عنه يحفظ كل ما نزل من القرآن، وهو من أوائل الذين أسلموا، الأمر الذي أتاح له أن يجمع مع الحفظ أسباب النزول وتفسير النبي ﷺ لما نزل من القرآن.

ثانيًا: توفرت في مصعب بن عمير رضي الله عنه كلّ الصّفات المثاليّة للدّاعية، تلك المكتسبة والموهوبة معًا، فقد كان وسيماً، والوجوهُ الحسنة رسول القلوب، وكان غايةً في الذكاء، لبقًا إلى أبعد حد، هادئًا ينسابُ كالنّسيم، صبوزًا لا يملُّ من المحاولة، حليمًا لا يعتريه الغضب بسرعة، رحيمًا يعرف معنى أن يخرج الله به الناس من الظلمة إلى النور.

ثالثًا: كان مصعب بن عمير رضي الله عنه ينحدر من أسرةٍ ثريّة، وهذه الصّفة بحد ذاتها عاملٌ مؤثرٌ في دعوته، فأما الفقير فيرى فيه درسًا عمليًا أن هذا الدين أغلى من الدنيا، وأما الغنيّ فلا يتردد، والناس مفطورةٌ على أن تتأثر بأشباهها، ولربما لو كان فقيرًا ولم يعرف الغنى في حياته لقال غنيّ في نفسه ما لي وترك دنياي، ولكنه الآن في حضرة ثريٍّ مثله ترك دنياه، وإن الممكن قادرٌ على فرض نفسه أكثر من المتخيّل.

رابعًا: العربُ أمةٌ تُلقِي للأنساب بالاً، وكلما شرَف نسبُ الرجل فيهم زاد تأثيره عليهم، ولم يكن عجبًا أن يسأل هِرَقل عن نسبِ النّبيّ ﷺ، فلما علمَ أنه شريفٌ في نسبه قال: وكذلك الرسلُ تُبعَث في نسبِ قومها. كان مصعبُ بن عمير رضي الله عنه من أشرف قريشٍ نسبًا، فهو من بني عبدِ الدار، الملأ من قريش الذين كانت عندهم مفاتيحُ الكعبة ويتوارثونها كابرًا عن كابر. وأن يرسل النّبيُّ ﷺ إلى المدينة قرشيًا عريقًا في نسبه، أبلغُ تأثيرًا في نفوسهم من إرسال واحدٍ من عوام النّاس. صحيحٌ أن المعيار في هذا الدين للتقوى، وأن الإسلام جاء ليجعل الناس سواسية، ولكن النّبيّ ﷺ يعرف

جيدًا كيف يفكر العرب وكيف يستجيبون.

خامسًا: قبل مجيئه إلى المدينة المنورة، كان مصعبُ بن عمير رضي الله عنه قد خُيِّر بين الدنيا والآخرة، فاختار الآخرة. ترك الثراء والنّعيم لأجل هذا الدين، لهذا فهو في مأمنٍ أن تفتنه الدنيا في الغربة أو تلهيه عن المهمة التي جاء لأجلها. لا يوجد نعيمٌ في الدنيا في ذلك الزمان إلا وكان مصعب قد أخذ بحظه منه، جاءهم بعد أن أُتخم منها ووضعها تحت قدميه، فهو لا يُشترى ولا يُستمال بها! وكم فتنت الدنيا أصحاب الدعوات حين فتحت لهم ذراعيها، أما مصعب رضي الله عنه فكان بين ذراعيها وغادر، ولو أرادها ما كان لأحدٍ في المدينة أن يعطيه ما أعطته أمه في مكّة. مصعبُ بن عمير رضي الله عنه كان في مأمنٍ من الدنيا، وهذه إحدى نقاط قوته.

سادسًا: الإمارة خطيرةٌ على النفوس، وكم من منصبٍ جعل الناس غيرَ الناس الذين كنا نعرفهم. ومصعب وإن أتى سفيرًا، إلا أنه في الحقيقة كان أميرًا بمعنى أن كل من يدخل في هذا الدين سيكون تحت إمرته. ومصعب رضي الله عنه لو كان يبحث عن شرف المناصب لصبا إلى مفاتيح الكعبة عند قومه، ولعرفته العرب قاطبة، فلن تمنحه المدينة أكثر مما كانت ستمنحه مكة. مصعبُ بن عمير رضي الله عنه كان في مأمنٍ من فتنة المنصب والإمارة، وهذه نقطةٌ جوهرية في شخصيته.

سابعًا: مصعبُ بن عمير رضي الله عنه ، ابنُ الهجرتين إلى الحبشة، كان قبل مجيئه إلى المدينة محصنًا من أن يلهيه الحنينُ إلى وطنه عن المهمةِ التي جاء فيها. ومن صبرَ على العيش في الحبشة، حيث القوم هناك أغرابٌ، لا لسانُه لسانهم ولا عُرفُه عرفهم، فهو لا شك أصبر على العيش في غربة المدينة، فالقوم في نهاية المطاف عربٌ يجمعه فيهم لسانٌ ولغةٌ وعاداتٌ وتقاليد وأعراف.

ثامنًا: مهمةُ أول سفيرٍ في الإسلام هي إلى مدينةٍ كبيرةٍ، لم يُسلم من أهلها بعد أكثر من أصابع اليدين، تحتاج همةً ونشاطًا، وقدرةً على الحركة، وصبرًا على التنقل. فلا بد أن يقع الاختيار على شابٍ قويٍّ، وقد كان مصعب

في الخامسة والثلاثين من عمره، يتفجّر فيه الشباب، وترشح من جسده القوة. كل هذا جعل من مصعب بن عمير رضي الله عنه اختيارًا مثالياً لهذه المهمة الحساسة والخطيرة.

وإذا أردت أن تعرف مدى حساسيتها وخطورتها، فسل نفسك السؤال التالي: ماذا لو فشل مصعب بن عمير رضي الله عنه في دعوته؟ حين أتى النبيّ ﷺ إلى المدينة، كان مصعبُ بن عمير رضي الله عنه قد أدخل الإسلام إلى كل بيت فيها. مصعبٌ هو فاتح المدينة، لا بسيفه، ولكن بدعوته.

نزلَ مصعب بن عمير رضي الله عنه على أسعد بن زرارة رضي الله عنه، وأخذا ينشران الإسلام في أهل يثرب بجد وحماس، وكان مصعب رضي الله عنه يعرف بالمقرئ لأنّه كلما دعا أحداً إلى الإسلام قرأ عليه القرآن!

ومن أروع ما يروى من نجاحه في الدعوة أن أسعد بن زرارة خرج به يوماً يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، فدخلا في حائط من حوائط بني ظفر، وجلسا على بئر يقال لها بئر مرق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ على الشرك، فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد: اذهبْ إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفّها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا.

فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيّد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه.

قال مصعب: إن يجلس أكلّمه.

وجاء أسيد فوقف عليهما متشتماً، وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة!

فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره!

فقال: أنصفتَ!

ثمّ ركز حربته وجلس، فكلّمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن.

قال: فوالله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم، وفي إشراقه وتهلّله!

ثمّ قال: ما أحسن هذا وأجمله؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدّين؟

قالا له: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثمّ تشهد شهادة الحقّ، ثمّ تصلّي ركعتين.

فقام واغتسل، وطهّر ثوبه، وتشهّد وصلّى ركعتين.

ثمّ قال: إنّ ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثمّ أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه، وهم جلوس في ناديهم.

فقال سعد: أحلفُ بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف أسيد على النّادي قال له سعد: ما فعلتَ؟

فقال: كلّمتُ الرّجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

وقد حُدّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنّهم قد عرفوا أنّه ابن خالتك، ليخفروك، فقام سعد مغضباً للذي ذكر له، فأخذ حربته، وخرج إليهما، فلمّا رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتّماً، ثمّ قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمتَ هذا منّي، تغشانا في دارنا بما نكره؟

وقد كان أسعد قال لمصعب: جاءك والله سيّد من ورائه قومه، إن يتبعك لم يتخلّف عنك منهم أحد!

فقال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن

كرهته عزلنا عنك ما تكره!

قال: قد أنصفت.

ثمّ ركز حربته فجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن.

قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم، في إشراقه، وتهلّله!

ثمّ قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟

قالا: تغتسل، وتطهّر ثوبك، ثمّ تشهد شهادة الحقّ، ثمّ تصلّي ركعتين. ففعل ذلك.

ثمّ أخذ حربته، فأقبل إلى نادي قومه، فلما رأوه قالوا: نحلفُ بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به.

فلّما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبةً!

قال: فإنّ كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

فما أمسى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، إلا رجل واحد وهو الأصيرم، تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقتل، ولم يسجد لله سجدة، فقال النبيّ ﷺ: عملَ قليلاً وأجر كثيراً!

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أميّة بن زيد وخطمة ووائل، كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر، وكانوا يطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة.

وقبل حلول موسم الحجّ التالي، عاد مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى مكّة، يحمل إلى النبيّ ﷺ بشائر الفتح، ويقص عليه خبر الأوس والخزرج، وما له فيهم من قوة ومنعة!

مصعبُ بن عمير رضي الله عنه درسٌ خالدٌ على صفحاتِ الزّمان مفاده: لا يستكثرنْ أحدٌ نفسه على الله!

فها هو الشّاب الوسيم الذي لم يفتنه جمال وجهه أن يسعى في جمال قلبه!

وها هو الثريُّ الذي وضع الدّنيا تحت قدميه ابتغاءً لرضى لربّه!

وها هو المُدلّلُ في بيته الذي ترك كلّ شيءٍ وراءه، ثم مضى إلى الحبشة، ثمّ إلى يثرب، حيث شظف العيش، معلناً إيّاها: حيثما كان دين المرء فهناك وطنه!

هذا دين النُّخب، والنّاس معادن، وقد كان خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام!

أبو بكر قبل الإسلام كان شامةً بين النّاس!

وعمر قبل الإسلام كان سيّد عديّ، وسفير قريش، ومجالدها!

وخالد بن الوليد كان جنرال القبيلة!

نعم كان في هذا الدين بسطاء ومجهولون، لأنه دينٌ لكلّ النّاس، ولكن الذين حملوه كانت لهم دنيا، وتجارات، وأراضٍ، ومناصب، لم يحملوه من فراغ، ولم يدافعوا عنه لأنه ليس لديهم ما يخسروه، صهيبُ الرّومي قايضته قريش بين ماله وبين الذّهاب إلى النّبيّ ﷺ مهاجراً، فتنازل لهم عن المال ومضى حيث حبيبه، وهناك تلقاه النّبيّ ﷺ قائلاً: ربح البيعُ أبا يحيى!

ت. بيعة العقبة الثانية:

في السّنة الثالثة عشرة من البعثة الشّريفة، حدث لقاءٌ غيّر مجرى التاريخ، فقد حضر لأداء مناسك الحج بضعٌ وسبعون مسلماً من أهل يثرب، هم ثمرة جهد مصعب بن عمير! فلما قدموا مكة، جرت بينهم وبين النّبيّ ﷺ اتصالات سرية بعيدة عن أعين قريش، اتفق فيها الفريقان على أن يجتمعوا في سرية تامة في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة، حيث

الجمرة الأولى من منى.

قال جابر بن عبد الله فقلنا: حتى متى يَترُك رسول الله ﷺ، يُطرد في جبال مكة، ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل، ورجلين حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله، على ما نبايعك؟

قال: تبايعوني على السّمع والطاعةِ في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا يأخذكم في الله لومةُ لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمتُ عليكم، وتمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم، ولكُمُ الجنة.

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة، فقال: رويداً يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلّا ونحن نعلم: أنه رسول الله ﷺ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافّة وقتل خياركم، وأن تعضّكم السّيوف، فإما أنتم قوم تصِبُرون على ذلك، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم جُبينة، فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله!

قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً!

قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنّة.

وهكذا بايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطّاعة والنّصرة والحرب، لذلك سمّاها عبادة بن الصامت رضي الله عنه بيعة الحرب!

أمّا رواية الصحابي كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه ، وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية، ففيها تفصيلات مهمة، قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين وقد صلينا وفقهنا، ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة، من أوسط أيام التشريق، وكنا نكتم من بايعنا من المشركين أمرنا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القَطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا

امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس ابن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس، كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فبين أن الرسول ﷺ في منعةٍ من قومه بني هاشم ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له، وإلا فليدعوه، فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله ﷺ، فيأخذ لنفسه، ولربه ما يجب من الشروط.

قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم!

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا!

فبايعنا يا رسول الله ﷺ فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة « السلاح» ورثناها كابراً عن كابر!

فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلاً: يا رسول الله، إن بيننا وبين القوم حبالاً، وإنا قاطعوها «يعني: اليهود» فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك، وتدعنا؟

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدّم الدّم، والهدم الهدم، أنا منكم، وأنتم منّي، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم!

ثمّ قال: أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم.

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

وقد طلب النّبيّ ﷺ منهم الانصراف إلى رحالهم وقد سمعوا الشّيطان يصرخ منذراً قريشاً، فقال العباس بن عبادة بن نفلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا.

فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم.

وفي الصّباح جاءهم جمع من كبارِ قريش، يسألونهم عمّا بلغهم من بيعتهم

للنبي ﷺ، ودعوتهم له للهجرة فحلف المشركون من الخزرج والأوس، بأنهم لم يفعلوا والمسلمون ينظرون إلى بعضهم.

قال: ثمّ قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وعليه نعلان جديدان، قال: فقلت له كلمة ـ كأني أريد أن أشرك بها القوم فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ، وأنت سيد من سادتنا، مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟

قال: فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه، ثم رمى بها إلي، وقال: والله لتنعلنّهما!

قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت « أي: أغضبت» والله الفتى، فأردد إليه نعليه.

قال: قلت: لا والله لا أردهما، فأل والله صالح لئن صدق الفال لأسلبنه!

كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها وبواعثها وآثارها وواقعها التاريخي، فتح الفتوح، لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقتها في صور متدرجة، مشدودة بهذه البيعة، منذ اكتمل عقدها، بما أخذ فيها رسول الله ﷺ من عهود ومواثيق على أقوى طليعة من طلائع أنصار الله الذين كانوا أعرف الناس بقدر مواثيقهم وعهودهم، وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا الله تعالى، ورسوله ﷺ، من التضحية مهما بلغت متطلباتها من الأرواح والدماء والأموال، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحق ونصرته، وهي ملابساتها قوة تناضل قوى هائلة تقف متألبة عليها ولم يغِبْ عن أنصار الله قدرها ووزنها، في ميادين الحروب والقتال، وهي آثارها تشميرٌ ناهض بكل ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتالي في سبيل إعلاء كلمة الله، على كل عالٍ مستكبر في الأرض، حتى يكون الدين كله لله، وهي في واقعها التاريخي صدق، وعدل ونصر واستشهاد وتبليغ لرسالة الإسلام.

ويظهر التخطيط العظيم في بيعة العقبة، حيث تمت في ظروف غاية في

الصعوبة وكانت تمثل تحدياً خطيراً وجريئاً لقوى الشرك في ذلك الوقت، ولذلك كان التخطيط النبويّ لنجاحها في غاية الإحكام والدقة على النحو التالي:

1. سرّية الحركة والانتقال لجماعة المبايعين، حتى لا ينكشف الأمر، فقد كان وفد المبايعة المسلم سبعين رجلاً وامرأتين من بين وفد يثربيّ قوامه نحو خمسمائة مما جعل حركة هؤلاء السبعين صعبة، وانتقالهم أمراً غير ميسور، وقد تحدد موعد اللقاء في ثاني أيام التشريق، بعد ثلث الليل، حيث النوم قد ضرب أعين القوم، وحيث قد هدأت الرّجل كما تم تحديد المكان في شعب الإيمان، بعيداً عن عين من قد يستيقظ من النوم لحاجة.

2. الخروج المنظم لجماعة المبايعين إلى موعد ومكان الاجتماع، فقد خرجوا يتسللون مستخفين، رجلاً، أو رجلين رجلين.

3. ضرب السرية التامة على موعد، ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، الذي جاء مع النبي ﷺ ليتوثق له، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي كان عيناً للمسلمين على فم الشّعب وأبو بكر رضي الله عنه الذي كان على فم الطريق، وهو الآخر عيناً للمسلمين، أما من عداهم من المسلمين وغيرهم، فلم يكونوا يعلمون عن الأمر شيئاً، وقد أمر جماعة المبايعين ألا يرفعوا الصوت، وألا يطيلوا في الكلام، حذراً من وجود عين تسمع صوتهم، أو تجس حركتهم.

4. متابعة الإخفاء والسرية حيث كشف الشيطان أمر البيعة، فأمرهم النبيّ ﷺ أن يرجعوا إلى رحالهم، ولا يحدثوا شيئاً رافضاً الاستعجال في المواجهة المسلحة التي لم تتهيأ لها الظروف بعد؛ وعندما جاءت قريش تستبرئ الخبر، مرّ المسلمون عليهم بالسكوت، أو المشاركة بالكلام الذي يشغل عن الموضوع.

5. اختيار الليلة الأخيرة في ليالي الحج، وهي الليلة الثالثة عشرة من ذي الحجة حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التالي، وهو يوم الثالث

عشر، ومن ثم تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم أو تعويقهم، إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمر متوقع، وهذا ما حدث.

6. وكانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التمييع والتراخي، إنه السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، ونصر لرسول الله ﷺ وحمايته إذا قدم المدينة.

يؤخذ من اختيار النقباء دروس مهمة، منها:

1. أن الرسول ﷺ لم يعين النقباء، وإنما ترك طريق اختيارهم إلى الذين بايعوا، فإنهم سيكونون عليهم مسؤولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله، ويقوم بأمره، وهذا أمر شورى، وأراد الرسول ﷺ أن يمارسوا الشورى عملياً من خلال اختيار نقبائهم.

2. التمثيل النسبي في الاختيار فمن المعلوم أن الذين حضروا البيعة من الخزرج أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس ثلاثة أضعاف من الأوس بل يزيدون ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج.

3. جعل رسول الله ﷺ النقباء مشرفين على سير الدعوة في يثرب، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر مثقفوه ومعتنقوه، فأراد الرسول ﷺ أنهم لم يعودوا غرباء لكي يبعث إليهم أحداً من غيرهم وأنهم غدوا أهل الإسلام، وحماته وأنصاره.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله تعالى، ورسوله ﷺ، فمنهم من قضى نحبه، ولقي ربه شهيداً، ومنهم من بقي حتى ساهم في قيادة الدولة المسلمة، وشارك في أحداثها الجسام، بعد وفاة رسول الله ﷺ، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النماذج التي تعطي ولا تأخذ، والتي تقدم كل شيء، ولا تطلب شيئاً إلا الجنة، ويتصاغر التاريخ في جميع عصوره ودهوره، أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرجال والنساء!

ث. النبيﷺ مهاجراً:

اضربوه ضربةَ رجلٍ واحدٍ حتى يتفرّق دمه بين القبائل. هذا شعار قريش ليلةَ الهجرة.

يا ليلَ مكة، هل شهدتَ ليلةً أثقل من تلك التي تجمع فيها الشرُّ عند باب الطُّهر؟ وظنّت الظلماتُ أنها قادرة على إطفاء النّور.

في دارِ الندوة اجتمع سادةُ قريش، عيونهم تقدح شرًا، وألسنتهم تقطر جمراً. طال بهم التفكير كيف يوقفون هذا الرجل الذي شقّ القلوب نصفين: نصفٌ يعاندُ ونصفٌ يُصدّق.

قال بعضُهم: احبسوه! وقال آخرون: أخرجوه!

ولكن الشّيطان نفخ في رمادِ حقدهم حتى اشتعلت صدورهم، فنفثت أكثر قراراتهم جرماً: اضربوه ضربةَ رجلٍ واحدٍ حتى يتفرق دمه بين القبائل.

كانت قريش تشحذ سيوفها، والعناية الإلهية تحفُّ نبيها. وإذا أراد الله أن يحفظ عبدًا من عباده، حفظه، ولو كان في فم الخطر.

عليٌّ بن أبي طالب، ذلك الفدائيّ الذي يحملُ من الشّجاعة أكثر مما يحمل من السّنوات، يتطوّع أن ينام في فراش النّبيّ ﷺ، كأنه يقول: خذوا من دمي ما شئتم، المهم أن يسلم النبيّ ﷺ.

هذا حديثُ دار النّبوّة، أمّا خارجها، فتجمّع فتية غلاظ القلوب، أيديهم على مقابض سيوفهم، ينتظرون لحظة خروج النبيّ ﷺ ليسفكوا دمه. ويحَ قريش، كيف هان عليها أطهر أبنائها؟

وحانت اللحظة: تدثّر عليٌّ في الفراش، وخرج النبيّ ﷺ. خرج لا من بابٍ خلفيٍّ للطوارئ، ولكن من الباب الذي هم عليه قعود. خرج كجبلٍ تحرّك من مكانه، وكأنّ الأرض تفسح له الطريق احترامًا. أخذ حفنةً من تراب الأرض ونثرها على رؤوسهم، وجعل يتلو آيةً تشقُّ جدار الليل: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾

وصل النّبيّ ﷺ إلى بيت أبي بكر، ولطالما استأذنه أبو بكرٍ بالهجرة، فكان

يمسكه بقوله: لا تعجل، لعلّ الله أن يجعل لك صاحبًا. كان النبيّ ﷺ يخبّئ أبا بكر لنفسه، ولأنّ الرفيق قبل الطريق. فمن عساه غير أبي بكر، رفيق العمر وصاحب الدهر؟ وكأنّ أبا بكرٍ أحسّ بها في قلبه، فابتاع ناقتين وحبسهما في داره استعدادًا إذا حانت اللّحظة، وصدق حديثُ قلبه معه: إن لله عبادًا يرون بنوره، ومنهم أبو بكر.

روى البخاريّ من حديث أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت:

لَقَلَّ يَوْمٌ كانَ يَأْتي علَى النبيِّ ﷺ، إلَّا يَأْتي فيه بيْتَ أبِي بَكْرٍ أحَدَ طَرَفَيِ النَّهارِ، فَلَمَّا أُذِنَ له في الخُرُوجِ إلى المَدِينَةِ، لَمْ يَرُعْنا إلَّا وقدْ أتانا ظُهْرًا، فَخُبِّرَ به أبو بَكْرٍ، فَقالَ: ما جاءَنا النبيُّ ﷺ في هذِه السَّاعَةِ إلَّا لأمْرٍ حَدَثَ!

فَلَمَّا دَخَلَ عليه قالَ لأبِي بَكْرٍ: أخْرِجْ مَن عِنْدَكَ!

قالَ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّما هُما ابْنَتايَ -يَعْنِي عائِشَةَ وأَسْماءَ!

قالَ النبيُّ ﷺ أشَعَرْتَ أنَّه قدْ أُذِنَ لي في الخُرُوجِ؟

قالَ: الصُّحْبَةَ يا رَسولَ اللهِ!

قالَ: الصُّحْبَةَ!

قالَ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ عِندِي ناقَتَيْنِ أعْدَدْتُهُما لِلْخُرُوجِ، فَخُذْ إحْداهُما!

قالَ: قدْ أخَذْتُها بالثَّمَنِ.

قالت عائشة: فو الله ما شعرت قطّ قبل ذلك اليوم أنّ أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي!

ولك أن ترى أنّ النبيّ ﷺ كتم أسرار مسيره، فلم يُطلع عليها إلا من لهم صلة ماسّة، ولم يتوسع في إطلاعهم إلا بقدر العمل المنوط بهم.

وقد استأجر النبيّ ﷺ دليلاً خبيراً بطريق الصّحراء، ليستعين بخبرته على مغالبة المُطارِدين، ونظر في هذا الاختيار إلى الكفاءة فقط، فإذا وُجدتْ في أحدٍ ولو مشركاً، استخدمه وانتفع بموهبته. وهذا ما كان منه

ﷺ في استئجاره لعبد الله بن أريقط، فقد كان مشركاً، ولكنه كان أعلم النّاس بالصّحراء!

أصرّ النّبيّ ﷺ أن يدفع ثمن راحلته، لتكون هجرته بماله ونفسه، وإلا فإنّه طالما أخذ من أبي بكرٍ في مواطن كثيرة، فقد صفت بينهما المودّة، وارتفعت عنهما الكلفة!

واتّفق النّبيّ ﷺ مع أبي بكرٍ على تفاصيل الخروج، وتخيّرا الغار الذي يأوون إليه مع دليلهما، تخيّراه جنوباً باتجاه اليمن، لتضليل المطاردين، وحدّدا الأشخاص الذين يتّصلون بهما في أثناء اللّجوء إليه، ومهمّة كلّ شخص.

وسارت الأمور على ما خطّطا، وكان أبو بكرٍ قد أمر ابنه عبد الله أن يتسمّع لهما ما يقول النّاس فيهما، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك من أخبار، وأمرَ عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحها عليهما إذا أمسى في الغار، فكان عبد الله بن أبي بكر في قريش يسمع ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم يأتيهما إذا أمسى فيقصّ عليهما ما علم، وكان عامر في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر، فاحتلبا، وذبحا، فإذا غدا عبد الله من عندهما إلى مكة، أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يعفّي عليه! وهذا من تمام الحرص على الأخذ بالأسباب كي لا يفطن أحدٌ إلى الأثر فيهتدي إليهما في الغار!

وانطلق مشركو قريشٍ في أثرِ المهاجرين يرصدون الطّرق، ويفتّشون كلّ مهربٍ، وراحوا يُنقّبون في جبال مكة، وكهوفها، حتى وصلوا قريباً من غار ثور، وأنصتَ الرّسول ﷺ وصاحبه إلى أقدام المطارِدين، تخفقُ إلى جوارهم، فأخذ الرّوع أبا بكر، وهمس يحدّث رسول الله ﷺ: لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا!

فقال له النّبيّ ﷺ: يا أبا بكر، لا تحزنْ إنّ الله معنا، يا أبا بكرٍ ما ظنّك باثنين الله ثالثهما!

وأنزلَ الله تعالى قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

وحفظ الله نبيّه، وردّ المشركين عن الغار، وما ذُكر من نسيج العنكبوت، وبيضِ الحمامة على باب الغار، فوارد في كُتب السيرة ومشهور، والعلماء غالبيتهم على تضعيفه، وأيًا كان فإنّ العبرة بالنتيجة لا بالسّبب، وسبحان من إذا أرادَ أن يُمضي قدره، أمضاه بالسّبب، وبانعدام السّبب، وبخلاف السّبب!

والآن، مضى ثلاث ليالٍ على مبيت النّبيّ ﷺ في الغار، وانطفأ حماس المشركين في الطّلب، وتأهّبَ المهاجران لاستئنافِ رحلتهما الصعبة.

وجاءَ عبدُ الله بن أريقط في موعده، ومعه رواحله، قد أعلفها لاستقبالٍ سفرٍ بعيد، وتزوّد الرّكبُ، ثم سار على اسم الله.

غير أنّ قريشاً ساءها أن تُخفِقَ في استرجاع النّبيّ ﷺ وصاحبه، فجعلت ديةَ كلِّ واحدٍ منهما جائزةً لمن يجيءُ بهما أحياءً أو أمواتاً، ومئتان من الإبل في الصحراء ثروة تغري بركوب المخاطر وتحمّل المشاق.

ومضى الرّكبُ المبارك، والآن فإنّ الحديث كلّ الحديث حديث سُراقة، واسمعْ منه يُحدّثك خبره كما في البخاريّ، فليس أقدرُ من المرءِ على رواية حكايته!

جاءَنا رُسُلُ كُفّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ في رَسولِ اللهِ ﷺ وأَبِي بَكْرٍ دِيَةَ كُلِّ واحِدٍ منهما؛ مَن قَتَلَهُ أوْ أسَرَهُ، فَبيْنَما أنا جالِسٌ في مَجْلِسٍ مِن مَجالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ، أقْبَلَ رَجُلٌ منهمْ حتّى قامَ علينا ونَحْنُ جُلُوسٌ، فَقالَ: يا سُراقَةُ، إنِّي قدْ رَأَيْتُ آنِفًا أسْوِدَةً بالسّاحِلِ، أُراها مُحَمَّدًا وأَصْحابَهُ!

فَعَرَفْتُ أنَّهُمْ هُمْ، فَقُلتُ له: إنَّهُمْ لَيْسُوا بهِمْ، ولَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلانًا وفُلانًا، انْطَلَقُوا بأَعْيُنِنا!

ثُمَّ لَبِثْتُ في المَجْلِسِ ساعةً، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فأَمَرْتُ جارِيَتي أنْ تَخرج بفَرَسِي وهي مِن وراءِ أكَمَةٍ، فتَحبِسها عليّ، وأخَذْتُ رُمحي، فخَرَجْتُ به مِن ظَهْرِ البيتِ، فخطَطْتُ بزُجِّهِ الأرْضَ، وخَفَضْتُ عاليَهُ، حتى أتَيْتُ فرسي فرَكِبْتُها، فرَفَعْتُها تُقرِّبُ بي، حتى دَنَوْتُ منهم، فعثرَتْ بي فرسي، فخَرَرْتُ عنْها، فقُمْتُ فأهوَيْتُ يَدِي إلى كِنانتي، فاستخرَجْتُ منها الأزْلامَ فاستقسَمْتُ بها: أضُرُّهُم أمْ لا؟ فخَرَجَ الذي أكرَهُ، فركِبْتُ فرسي، وعصيتُ الأزلامَ، تُقرِّبُ بي حتّى إذا سَمِعْتُ قِراءةَ رَسولِ اللهِ ﷺ، وهو لا يلتفتُ، وأبو بكرٍ يُكثِرُ الِالْتِفاتَ؛ ساخَتْ يَدا فَرَسِي في الأرْضِ حتّى بَلَغَتا الرُّكْبَتَيْنِ، فخَرَرْتُ عنها، ثُمَّ زَجَرْتُها فنَهَضَتْ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْها، فَلَمّا اسْتَوَتْ قائِمَةً، إذا لِأثَرِ يدَيْها عُثانٌ ساطِعٌ في السَّماءِ مِثْلُ الدُّخانِ، فاسْتَقْسَمْتُ بالأزْلامِ، فَخَرَجَ الذي أكْرَهُ، فَنادَيْتُهُمْ بالأمانِ فَوَقَفُوا، فَرَكِبْتُ فَرَسِي حتّى جِئْتُهُمْ، ووَقَعَ في نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ ما لَقِيتُ مِنَ الحَبْسِ عنْهمْ، أنْ سَيَظْهَرُ أمْرُ رَسولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقُلتُ له: إنَّ قَوْمَكَ قدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ، وأَخْبَرْتُهُمْ أخْبارَ ما يُرِيدُ النّاسُ بهِمْ، وعَرَضْتُ عليهمُ الزّادَ والمَتاعَ، فَلَمْ يَرْزَآنِي ولَمْ يَسْألانِي، إلّا أنْ قالَ: أخْفِ عَنّا.

فَسَأَلْتُهُ أنْ يَكْتُبَ لي كِتابَ أمْنٍ، فأمَرَ عامِرَ بنَ فُهَيْرَةَ، فَكَتَبَ في رُقْعَةٍ مِن أدِيمٍ، ثُمَّ مَضَى رَسولُ اللَّهِ ﷺ.

وقد وعدَ النبيُّ ﷺ سراقة بأن يلبس يوماً سواري كسرى!

ولأنَّ هذه الأمّة ذمتها واحدة، يفي بعضُها لبعضٍ، وأعلى الذّمم ذمّة النّبيّ ﷺ، فُتحت بلاد فارس زمن الفاروق، فلما صارت كنوز كسرى بين يديه، نادى على سراقة وألبسه سواري كسرى، ووفى بعهد نبيّه ﷺ، فجزى الله الفاروق عنّا خير ما جزى صحابياً عن وفائه!

وبعد أن طوينا حديث سراقة، فإنّ الحديث الآن حديث أمّ معبد! وهو حديثٌ ذو شجون، فيا أمّ معبدٍ كرري أوصافه!

مرّ الرّكبُ المبارك على خيمتَي أمّ مَعْبدٍ الخُزاعيّةِ، وكانت بَرْزَةً جَلْدَةً

تختبي بفناءِ القُبَّةِ، ثمّ تسقي وتُطعِم، فسألوها تمرًا ولحمًا يشترونهُ منها، فلم يُصيبوا عِندها من ذلك شيئًا، وكانَ القومُ مُرمِلينَ مُسنتين، فنظرَ رسولُ الله ﷺ إلى شاةٍ في كَسرِ الخيمةِ، فقالَ: ما هذهِ الشّاةُ يا أمّ مَعبدٍ؟

قالَت: شاةٌ خلّفها الجَهدُ عن الغنمِ!

قالَ: هَل بِها من لبنٍ؟

قالَت: هيَ أجهَدُ مِن ذلك!

قالَ: أتأذنِينَ لي أنْ أحلِبَها؟

قالَت: نعَم، بأبي أنتَ وأمّي، إنْ رأيتَ بِها حَلَبًا فاحلَبها!

فدَعا رسولُ اللهِ ﷺ، فمسَحَ بيدِهِ ضَرعَها، وسمّى اللهَ عزّ وجلّ، ودَعا لها في شاتِها، فتفاجّت عليهِ ودَرّت واجتَرّت، ثمّ دَعا بإناءٍ يُرِيضُ الرّهطَ، فحلَبَ ثَجًا حتّى علاهُ البهاءُ، ثمّ سقاها حتّى رَوِيَت، ثمّ سَقى أصحابَهُ حتّى رَوُوا، ثمّ شَرِبَ آخِرَهُم، ثمّ حلَبَ ثانيًا بَعدَ بَدءٍ حتّى ملأَ الإناءَ، ثمّ غادَرَهُ، وبايَعَها وارتحَلَ عَنها، فقلّ ما لَبِثَت حتّى جاءَ زَوجُها أبو مَعبدٍ يَسوقُ أعنزًا عِجافًا يَتَساوَكنَ هَزلًا ، مُخُّهنّ قليلٌ، فلمّا رأى أبو مَعبدٍ اللّبنَ عَجِبَ، وقالَ: مِن أينَ لكِ هذا يا أمّ مَعبدٍ، والشّاةُ عازِبٌ حِيالٌ ولا حَلوبَ في البيتِ؟

قالَت: لا واللهِ، إلّا أنّهُ مرّ بِنا رجُلٌ مُبارَكٌ، مِن حالِهِ كَذا وكَذا.

قالَ: صِفيهِ لي يا أمّ مَعبدٍ.

قالَت: رجُلٌ ظاهِرُ الوَضاءةِ، أبلَجُ الوجهِ، حسَنُ الخَلْقِ، لم تُعِبهُ ثُجلةٌ، ولم تُزرِ بِهِ صَعلَةٌ، وَسيمٌ قَسيمٌ، في عينَيهِ دَعَجٌ، وفي أشفارِهِ وَطَفٌ، وفي صوتِهِ صَحَلٌ ، وفي عُنُقِهِ سَطَعٌ، وفي لحيتِهِ كثافةٌ، أزَجُّ أقرَنُ، إنْ صمَتَ فعليهِ الوقارُ ، وإنْ تكلّمَ سَما وعلاهُ البهاءُ، أجملُ النّاسِ وأبهاهُ مِن بَعيدٍ، وأحلاهُ وأحسَنُهُ مِن قريبٍ، حُلوُ المنطِقِ، فَصلٌ لا نَزرٌ ولا هَذرٌ، كأنّ منطِقَهُ خَرَزاتُ نَظمٍ يتحدّرنَ، رَبعَةٌ لا تَشنَؤهُ مِن طولٍ، ولا تقتحِمُهُ عينٌ مِن قِصَرٍ، غُصنٌ بينَ غُصنَينِ، فهوَ أنظَرُ الثلاثةِ مَنظرًا وأحسَنُهم قَدرًا، لهُ رُفقاءُ يحُفّونَ بِهِ، إنْ

قالَ أنصتوا لقوله، وإنْ أمرَ تبادروا إلى أمرِه، مخفودٌ مَحشودٌ، لا عابسٌ ولا مُفنِدا!

قالَ أبو معبد: فهذا واللهِ صاحبُ قريشٍ الّذي ذكروا من أمرِه ما ذكروا، ولقد هممتُ أنْ أصحبَهُ، ولأفعلنّ إنْ وجدتُ إلى ذلك سبيلًا!

وفي اليوم الثّاني عشر من ربيع الأول للسنة الثالثة عشرة من البعثة الشّريفة، برزَ الأنصارُ على عادتهم منذ سمعوا بمخرج النبيّ ﷺ إليهم، ووقفوا بظاهر المدينة ينتظرون طلعته، ويودّون رؤيته، فلما حميت الظّهيرة، وكادوا ييأسون من مجيئه، وينقلبون إلى بيوتهم؛ صعد رجل من اليهود على أطم من آطامهم لبعض شأنه، فرأى النّبيّ ﷺ وصحبه يتقاذفهم السّراب، وتدنو بهم الرّواحل رويداً رويداً إلى المدينة، إلى وطنِ الإسلام الجديد، فصرخ اليهوديّ بأعلى صوته: يا بني قيلة، هذا صاحبكم قد جاء، هذا جدّكم الذي تنتظرون!

فأسرع الأنصارُ إلى السّلاحِ، يستقبلون به رسولهم ﷺ، وسُمِعَ التّكبيرُ يرجُّ أنحاء المدينة!

وأخيراً وصلَ الرّكبُ المُباركُ وجهته، وحطّ في المدينة رحاله، لتبدأ معه مرحلةٌ جديدة من عُمرِ الدّعوة، هذه المرحلة التي غيّرتْ وجه العالم إلى الأبد!

ولأنّ السّيرة واقع يُعاش، لا تاريخ يُقرأ، فقد تعلمنا من الهجرة النبوية الشريفة دروساً لا تُعدّ ولا تُحصى، فهي لم تكن انتقالاً من مكان إلى مكان فقط، وإنما كانت تصحيحاً لمسار الزمان وتغييراً لشكل هذا الكوكب إلى الأبد.

1 - علّمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أنّ النّصر يبدأ من القلب قبل أن يبدأ من السّيف. صحيح أن الهجرة كانت هروباً من بطش قُرَيش، ولكنها كانت أيضاً درساً بليغاً لما يمكن أن يحدث حين يُؤمن أصحاب الرّسالة برسالتهم، وأن هذا الدين شمس يمكن حجبها للحظات ولكن لا يمكن إطفاؤها، إنّ هذا

الدين لا يحتاج إلى تعديل، وإنما إلى يقين، ومتى آمنا به، واختلط بعظمنا ولحمنا فإننا نستطيع تغيير العالم.

2 - علّمتنا الهجرة النبويّة الشّريفة ثقافة الأخذ بالأسباب. وضع النّبيّ ﷺ علياً مكانه في الفراش حتى إذا استرق الفرسان الذين جاؤوا لقتله، نظروا من كوّة الباب، ظنّوه ما زال نائماً، بينما يكسب هو الوقت ليبدأ رحلة هجرته. اصطحب معه دليلاً يدله على الطريق، ولم يقل أنا نبيّ وسأصل على أيّ حال. كان يعلم أنّ الله لن يضيعه، ولكنّه أراد أن يعلّمنا ثقافة الأخذ بالأسباب. جعل آل أبي بكرٍ كتيبةً تحرس وتُطعم، ولم يقل ما لي وللأسباب إذا كان الله معي!

لا أحد أكثر يقيناً منه على الله، ولكنّه أراد أن يعلّمنا أن لله سنناً لا تُحابي أحداً، وأن كرامات النّصر والاستخدام تأتي بعد استنفاذ الأخذ بالأسباب.

3 - علّمتنا الهجرة النبويّة الشّريفة أن المؤمن يأخذ بالأسباب ولكنه لا يجعل يقينه عليها، وإنّما اليقين أولاً وآخراً على الله. إنّ الغار سبب، ولكنّ الحافظ الله، والدّليل سبب، ولكنّ الهادي هو الله. خذوا بالأسباب ما استطعتم، فهي لا تنافي التّوكل على الله، بل هي واقعة في قدر الله، ولكن لا تجعلوا يقينكم عليها، فكم من غايةٍ فاتت مع وجود السّبب، وكم من غاية أدركت رغم غياب السبب؟!

4 - علّمتنا الهجرة النبويّة الشّريفة أنّ المؤمن لا يفقد الأمل بالله مهما بدا الواقع أمام عينيه قاتماً، ولك أن ترى كيف أنّ النّبيّ ﷺ هو مطارد، والكلُّ يرصده يريد دمه لأجل الجائزة التي وضعتها قُرَيش، ويبشّر سراقة بسوازي كِسرى. أرأيت قبل اليوم رجلاً فاراً بدينه من قومه ليس معه إلّا صاحبه ودليله يبشّر بهدم واحدةٍ من أعظم إمبراطوريات ذاك الزمن.

5 - علّمتنا الهجرة النبويّة الشّريفة أنّ التّاريخ تصنعه اللّحظات التي نختار فيها طريق المبدأ. فالهجرة لم تكن أسهل طريق، وإنما كانت أصدقَ طريق، ومن سار في طريق الصّدق يصنعُ لنفسه أثراً لا يمحوه الزمن.

6- علّمتنا الهجرة النبوية الشريفة أنّه لا تمكين بلا ابتلاء. بعد مطاردة ومحاولة قتل، وظلمة الفرار سطعت شمس الدّولة، وعلا أذان بلال يصدح في أذن العالم كلّه أنّ الله أكبر، كلّ شدّةٍ إذا رافقها صبرٌ ويقينٌ فهي مقدّمةُ نصرٍ وفتح.

- علّمتنا الهجرة النبويّة الشّريفة أن الفكرة كلها ليست بالأماكن، وإنما بالغايات. انتقل النبيّ ﷺ من مكة إلى المدينة لا فراراً بنفسه، وإنما فراراً بدينه بحثاً عن أرض تتّسعُ للرّسالة! الأوطان في هذا الدين ليست تراباً فقط، وإنما رسالة، ولا تعارض بين العقيدة وحبّ الوطن، فحبُّ الوطن فطرة والعقيدة ميثاق، وقد يحملُ الرّجل فطرته معه لأجل ميثاقه. علمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أن الأوطان تُغادَر حين تضيق، لتُستعاد حين تفتح. خرج النّبيّ ﷺ من مكّة وهو يحبّها وودّعها بكلمات مؤلمة، ولكنّه عاد إليها فاتحاً. أحياناً نخطو الخطوة المؤلمة لأجل أن نفتح أبواب العزة.

7- علّمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أنّ هذا الدّين لا يقوم إلّا بالتّضحيات. نام عليّ رضي الله عنه في فراش الموت مطمئناً ليحفظ حياة النّبيّ ﷺ. وستبقى الهجرة تذكرنا أبدَ الدّهر أنّ الأمم لا تُبنى بالكلام، بل تُبنى بدماء الشّجعان وقلوب المخلصين.

8- علّمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أنّ الصّداقة الحقيقيّة في الشّدة لا في الرّخاء. أبو بكر رضي الله عنه قدّم روحه وماله ووقته وبيته وقلبه. وستبقى الهجرة تذكّرنا أنّ الصّديق الحقيقيّ ليس من يُرافقك في سَعة الطّريق، بل هو الذي يكون معك في ضيق الغار.

9- علّمتنا الهجرة النّبويّة الشّريفة أنّ القائد العظيم هو الذي يعيش معاناة شعبه، يهاجر كما يهاجرون، يُطارد كما يُطاردون، ويتعب معهم كما يتعبون، ويعيش معهم حياتهم بكل ما فيها من آلامٍ وتضحيات. كان الله تعالى قادرًا على أن يحمل نبيّه من مكّة إلى المدينة بالبراقِ كما حمله من مكّة إلى بيتِ المقدس، ولكن أين القدوة في ذلك؟ لا بدّ للمسلمين من طريق عمليّ لبناء الأمة، طريق في مقدور عموم المسلمين، ولا بدّ أن يسير النّبيّ ﷺ في هذه

الطّريق رغم كل المعاناة والتّعب ليعطيَ قدوةً لكلّ قائد.

النبيُّ ﷺ في المدينة: بناءُ الدّولة!

صحيحٌ أنّه مقدمُ النبي ﷺ إلى المدينة، لم يكن يخلو بيتٌ من بيوتها من مُسلم، ولكن هذا لا يعني أنّ النبي ﷺ قد ورث مجتمعًا متجانسًا لا مشكلات فيه! على العكس من هذا تمامًا، لقد ورث تركةً ثقيلةً!

كانت يثربُ قبل مقدم النبي ﷺ مدينةً تمشي على حدّ السكّين! نعم تمشي ولكنّها تقطرُ دمًا!

فالدمُ بين الأوس والخزرج لم يزل ساخنًا، والذّكرياتُ الثقيلةُ لمعركة بُعاث ما تزالُ تتردّد في الأزقّة كصدى لا يريد أن يخبو.

أعوامٌ طويلةٌ عاشوها في توترٍ لا يُطفئه نصرٌ ولا يحدّه انهزامٌ. قبيلتان تتشاطران الأرضَ والعداوةَ أيضًا!

وكان اليهودُ على عادتهم في كلّ عصرٍ ينفثون هواءً مسمومًا في جمرٍ غطّاه الرّماد، فما يلبثُ ما خبا من جمرِ العداوة زمنًا، تشبُّ فيه النّار من جديد!

وكانوا يحفظون كُتبًا تتحدّث عن نبيّ آخرَ الزّمان، ويرون في أفقِ الأيّام غيمةً بيضاءَ قد تُمطِر، لكنّهم يشتهون أن يكون الغيثُ لهم وحدهم.

وكانت السّوقُ تُدارُ بميزانٍ يميلُ بالسّلاح لا بالقِيَم، والبيوتُ تُغلقُ أبوابَها عند الغروب خشيةَ غارةٍ أو ثأرٍ. ومع ذلك، لم تكن المدينةُ بهذه القتامة التي تبدو كليلٍ ممتدٍّ ليس لهُ صُبح! ففي القلوبِ بقايا حلمٍ لسلامٍ يُرمّم الشّقوق، وفي النّفوسِ استعدادٌ خفيٌّ لصوتٍ يُعيد ترتيبَ الحياة. كانت يثربُ تبحثُ عن رجلٍ يجمعُ ولا يُفرّق، يُصلِحُ ولا يهدم، يملك من الحكمةِ ما يُطفئ نارًا استعصى على كلّ زعيمٍ أن يُخمِدَها.

ثمّ جاء ذلك اليومُ الذي غيّرَ مجرى التّاريخ؛ إنّه يومُ دخل النّبيُّ ﷺ المدينة. لم يكن دخولُه مشيًا على الطريق، بل كان كأنّما الفجرُ يمشي على قدمين! خرجت جموعُ النّاس من كلّ دارٍ، الرّجالُ والنّساءُ والأطفالُ،

تُزاحمُهم الدهشةُ وتسبقُهم الفرحةُ، والقلوبُ تخفقُ كأوراقٍ في ريحٍ مباركة. ورأى أهلُ المدينة وجهه، فإذا بالأرواح تسكن، كأنّ كلَّ السنوات السابقة لم تكن إلّا طريقًا موحشًا ينتهي بهذه اللحظة.

في تلك الساعة تغيّر كلُّ شيء، سقطت الأسوار الخفيّةُ بين القبيلتين، وصار الأوس والخزرج إخوةً لا يُفرّق بينهم إلّا التقوى، وانطفأت نارُ الثأر تحت رمادٍ باردٍ لم يقوَ بعد ذلك على الاشتعال. صار الضعيفُ مكرمًا لا يُهان، والقويُّ مسؤولًا لا يطغى.

دخل النّاس في عقدٍ جديدٍ من الحياة، كُتب فيه العدلُ بمدادٍ من الوحي، وتأسّست فيه دولةٌ لم تشهد البشريّةُ مثيلًا لصفائها.

كانت المدينةُ قبل قدومه ﷺ تبحثُ عن قائدٍ وحياة! فلمّا نزل فيها دبّت في تُرابها الرّوح. ومنذ ذلك اليوم، لم تَعُد يثربُ اسمًا لمدينة، بل صارت المدينةَ التي غَدَت موطنًا للنور، ومختارًا للنبوة، ودارًا للحضارة التي ستُعلّم العالمَ كيف ينهضُ بالعدلِ لا بالسيف، وبالمحبّةِ لا بالعصبيّة!

وقد كانت المدينةُ المنوّرةُ قبل البعثةِ الشريفةِ يعيشُ فيها الأوسُ والخزرجُ أبناءُ العمومةِ وخُصماءُ الدهرِ، واليهود!

وبدخولِ الإسلامِ إلى المدينةِ تغيّرتِ التركيبةُ المجتمعيّةُ لأوّلِ مرّةٍ على أساسِ العقيدة، فصار بالإمكانِ الحديثُ عن ثلاثِ فئاتٍ هم:

أوّلًا: المسلمون، وهم المهاجرون من مكّة، ومن أسلمَ من الأوسِ والخزرج!

ثانيًا: المشركون، وهم من بقيَ على دينه من الأوسِ والخزرج!

ثالثًا: اليهود، وهم ثلاثُ قبائل: بنو قينقاع، وبنو النّضير، وبنو قُريظة!

دون أن ننسى فئةً رابعةً لم تكن أقلَّ خطورةً على الإسلامِ من المشركين واليهود، ألا وهم المنافقون الذين أظهروا الإسلامَ وأبطنوا الكفر!

فأمّا المسلمون فكانوا جماعةً مشتملةً على قسمين:

قسمٌ هم في أرضهم وديارهم وأموالهم، لا يهمُّهم من ذلك إلّا ما يهمُّ الرّجل وهو آمنٌ في سربه، وهم الأنصار.

وكان بجانب هؤلاء قسمٌ آخر هم المهاجرون، فاتهم كلُّ ذلك، ونجوا بأنفسهم إلى المدينة، ليس لهم ملجأ يأوون إليه، ولا عملٌ يعملونه لمعيشتهم، ولا مالٌ يبلغون به قوامًا من العيش، وكان عدد هؤلاء اللاجئين غير قليلٍ، وكانوا يزيدون يومًا فيومًا، فقد كان أُمِرَ بالهجرة كلُّ من آمن بالله ورسوله.

وأمّا المشركون فهم من صميم الأوس والخزرج، ولم تكن لهم سيطرةٌ على المسلمين، وكان منهم من يتخالجه الشّكوك، ويتردّد في ترك دين الآباء، ولكن لم يكن يُبطِنُ العداوة والكيد ضدّ الإسلام والمسلمين، ولم تمتدّ عليهم مدّةٌ طويلةٌ حتى أسلموا وأخلصوا دينهم لله.

غير أنّ المنافقين فهم الذين رأوا في الدّين الجديد تهديدًا لتركيبة المدينة عمومًا، ولمصالحهم خصوصًا، فلم يستطيعوا الجهر بعداوتهم لأنّ الإسلام صار له شوكةٌ ومنعة، فأظهروا الإسلامَ وأبطنوا الكفر!

وعلى رأس هؤلاء عبدُ الله بن أُبيّ بن سلول، فقد كانت الأوس والخزرج اجتمعوا على سيادته بعد حربِ بُعاث، ولم يكونوا اجتمعوا على سيادة أحدٍ قبلَه، وكانوا قد نظّموا له الخرز ليتوّجوه ويملكوه، وكان على وشكِ أن يصيرَ ملكًا على أهلِ المدينة، إذ باغتَ مجيءُ رسولِ الله ﷺ، وانصرافُ قومِه عنه إليه، فكان يرى أنّه استلبَه مُلكًا، فكان يُبطِنُ شديدَ العداوةِ ضدّه.

ولمّا رأى الظروفَ لا تساعده على شِركه، وأنّه يَحرِمُ الفوائدَ الدنيويةَ، أظهر الإسلامَ بعد بدر، ولكن بقي مُستبطِنًا الكفر، وكان لا يجد مجالًا للمكيدةِ برسولِ الله ﷺ وبالمسلمين إلّا ويأتي بها، وكان أصحابه من الرؤساء الذين حُرِموا المناصبَ المرجوّةَ في مُلكه، يُساهمونه ويدعمونه في تنفيذِ خططه!

وأمّا اليهودُ في المدينةِ فلم يكونوا عربًا اعتنقوا اليهوديّة، وإنّما هم في

الأصل عبرانيّون جاؤوا إلى جزيرة العرب هاربين من اضطهاد الأشوريّين والرّومان لهم! وبعد القدوم إلى الحجاز صَبغوا بالصّبغة العربيّة في الزّيّ واللغة والحضارة، حتّى صارت أسماءُ قبائلهم أو أفرادهم عربيّة، وحتّى قامت بينهم وبين العرب علاقةُ الزّواج والصّهر، إلا أنّهم تحافظوا بعصبيّتهم الجنسيّة، ولم يندمجوا في العرب قطعًا، بل كانوا يفتخرون بدينهم وأصلهم. وكانوا يحتقرون العربَ احتقارًا بالغًا حتّى كانوا يسمّونهم أمّيّين بمعنى أنّهم وحوش سذّج، وأراذلُ متأخّرون، وكانوا يرون أنّ أموال العرب مباحةٌ لهم، يأكلونها كيف شاؤوا، ولم يكن لهم تحمّس في نشر دينهم، وإنّما جُلُّ بضاعتِهم الدينيّة هي: الفألُ والسّحرُ والنّفثُ والرُّقيةُ وأمثالُهم، وبذلك كانوا يرون أنفسَهم أصحابَ علمٍ وفضلٍ وقيادةٍ روحانيّة.

وكانوا مَهَرةً في فنونِ الكسبِ والمعيشة، فكانت في أيديهم تجارةُ الحبوبِ والتّمرِ والخمرِ والثّياب، كانوا يورّدون الثّيابَ والحبوبَ والخمر، ويُصدّرون التّمر، وكانت لهم أعمالٌ من دون ذلك هم لها عاملون، فكانوا يأخذون المنافعَ من عامّةِ العربِ أضعافًا مضاعفة، ثمّ لم يكونوا يقتصرون على ذلك، بل كانوا أكّالين للرّبا، كانوا يُقرضون شيوخَ العربِ وساداتِهم ليكتسب هؤلاء الرّؤساءُ مدائحَ من الشّعراء، وسمعةً بين النّاس بعد إنفاقِها من غير جدوى ولا طائلة، ثمّ كانوا يرتهنون أرضَ هؤلاء الرّؤساءِ وزروعَهم وحوائطَهم، ثمّ لا يلبثون إلّا أعوامًا حتّى يتملّكونها.

وكانوا أصحابَ دسائس ومؤامراتٍ وعُتوٍّ وفساد، يُلقون العداوةَ والشّحناء بين القبائلِ العربيّةِ المجاورة، ويُغرون بعضَها على بعضٍ بكيدٍ خفيٍّ لم تكن تشعره تلك القبائل، فلا تزال في حروبٍ داميةٍ متواصلة، ولا تزال أناملُ اليهودِ تؤجّج نيرانَها كلّما رأتها تقارب الخمودَ والانطفاء، وبعد هذا التّحريضِ والإغراء كانوا يقعدون على جانب، يرون ساكتين ما يحلّ بهؤلاء العرب، نعم كانوا يزوّدونهم بقروضٍ ثقيلةٍ ربويّة حتّى لا يحجموا عن الحربِ لعسرِ النّفقة، وبهذا العمل كانوا يحصلون على منفعتين: كانوا يتحفّظون على كيانهم اليهوديّ، وينفقون سوق الرّبا ليأكلوه أضعافًا

فضاعفة، ويكسبوا ثرواتٍ طائلة.

وطبعًا فإنّ اليهود لم يكن يُرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلّا بعين البغض والحقد، فالرّسول ﷺ لم يكن من جنسهم حتى يسكن جأش عصبيّتهم الجنسيّة التي كانت متغلّبةً على نفسيّاتهم وعقليّاتهم، ثمّ دعوةُ الإسلام لم تكن إلّا دعوةً صالحةً تؤلّف بين أشتات القلوب، وتُطفئ نار العداوةِ والبغضاء، وتدعو إلى التزام الأمانة في الشؤون، وإلى التقيّد بأكل الحلالِ من طيّب الأموال، ومعنى كلّ ذلك أنّ قبائل يثرب العربية ستتآلف فيما بينها، وحينئذٍ لا بدّ من أن تفلت من براثن اليهود، فيفشل نشاطهم التجاريّ، ويُحرَموا أموالَ الرّبا التي كانت تدورُ عليها رحى ثروتهم، بل ربّما يحتمل أن تتيقّظ تلك القبائل، فتدخل في حسابها الأموالَ الرّبويّة التي أخذها اليهود، فتقوم بإرجاعِ أرضِها وحوائطِها التي أضاعتها إلى اليهود في تأديةِ الرّبا.

كان اليهودُ يدخلون كلّ ذلك في حسابهم منذ عرفوا أن دعوةَ الإسلام تحاولُ الاستقرار في يثرب، ولذلك كانوا يُبطنون أشدّ العداوةِ ضدّ الإسلام وضدّ رسولِ الله ﷺ منذ أن دخل يثرب، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارِها إلّا بعد حين.

ويظهر ذلك جليًا بما رواه ابن إسحاق عن أمّ المؤمنين صفيّة رضي الله عنها:

حدّثت عن صفيّة بنتِ حُيَيّ بن أخطب أنّها قالت: كنت أحبَّ ولدَ أبي إليه، وإلى عمّي أبي ياسر، لم ألقهما قطّ مع ولدٍ لهما إلّا أخذاني دونه.

فلمّا قدم رسولُ الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي، حُيَيّ بن أخطب، وعمّي أبو ياسر بن أخطب، مُغلّسين، فلم يرجعا حتّى كانا مع غروب الشّمس، فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَينى.

فهششتُ إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفتَ إليّ واحدٌ منهما، مع ما

بهما من الغمّ.

وسمعتُ عمّي أبا ياسر، وهو يقول لأبي: أهو هو؟

قال: نعم والله!

قال: أتعرفه وتثبته؟

قال: نعم!

قال: فما في نفسك منه؟

قال: عداوته والله ما بقيت!

في هذا المجتمع الخليط، انبرى النبيّ ﷺ يَعملُ معولَ الهدمِ حينًا، ويدَ البناءِ حينًا آخر، حتّى استقرّت له الأمور، وأتمَّ اللهُ له الأمر، وجاء نصرُ الله والفتح، ولكن كلُّ هذا سبقه أربعُ خطواتٍ جعلت الدّولةَ تقفُ على أقدامِها:

أوّلًا: بناءُ المسجد!

عندما وطِئَت قدما النّبيّ ﷺ أرضَ المدينة، كان أوّلَ ما خطّته خطاه أن جعل للرّوح مقامًا، وللوحي مهوى، وللأمّة قلبًا ينبض، فشرع في بناءِ المسجد!

اجتمع المهاجرون والأنصار كأنّ قلوبهم أُفرِغت في قالبٍ واحد، لا يفرّق بينهم نَسبٌ ولا يُباعدهم ثراء، إنّما جمعتهم يدٌ تمتدُّ بالحجر، وأخرى تمسح العَرَق، وثالثة ترفع الدّعاء. ترى الغبار يتصاعد فوق الرؤوس كأنّه بخورٌ يتصعّد من فؤاد المدينة احتفاءً بميلاد أوّل بيتٍ يضيء دربها.

وكان رسولُ الله ﷺ يعمل بينهم كأنّه واحدٌ منهم، يحمل اللّبِنات بيدٍ قد حملت همَّ الرسالة، ويغرسها في جدارٍ سيصبح بعد قليل محرابَ أمّة. يبتسمُ والجهدُ يتصبّب على جبينِه الطاهر، كأنّما يعلّم الدّنيا أنّ المجد لا يُمنح للمتكاسلين، وأنّ بيوتَ الله تُشيّد بعرق الأطهار لا بزخارف الحجارة.

وكانت المدينةُ في تلك الأيّام تخلع عن كتفيها ثوبَ الجاهليّة، وترتدي

ثوبَ النور، كلُّ ضربةِ مِسحاةٍ كانت كأنّها ضربةٌ على قلبِ الزمان تُعلن بداية عصرٍ جديد. الأطفالُ يرقبون، والنّساءُ يدعون، والرّجالُ يعملون، والنبيُّ ﷺ بينهم كالنّور يمشي على الأرض، حتّى بدا المسجد ككائنٍ حيٍّ يشهق أول أنفاسه، ويستعدُّ ليكون محراب العبادة، ومجلس العلم، ومنطلق الجيوش، وصوتَ العدالة، وصدى السّماء.

وحين اكتمل البناء، لم يكن مجرّد جدرانٍ وسقفٍ من جريد النخل، كان وعدًا. كان الإعلانَ الرّسميَّ لميلاد مجتمعٍ لا يحكّمه طغيان، ولا يرفعه مال، ولا يهدِمه ظلم، بل يجمعه هذا البيتُ الذي ساوى بين غنيٍّ وفقير، وبين سيِّدٍ وعبد، وبين عربيٍّ وأعجميٍّ، وجعل معيارَ القرب من الله هو نقاءُ القلب لا نَسَبُ الدم.

هكذا قام المسجدُ النبويُّ: من عَرَقِ النبوّة، ومن دموعِ الفرح التي بلّلت ترابَ المدينة، ومن صدورٍ آمنت بأنّ هذا البيت سيكون نقطةَ الارتكاز التي سينهض منها العالم كلُّه.

لم يكن المسجدُ حجارةً تُرى، بل نورًا يُتّبع!

أمّا كيف بُني المسجدُ تفصيلًا، فتلك حكايةٌ أخرى!

أوّل ما فعله رسولُ الله ﷺ بعدما دخل المدينة أن بنى المسجدَ الذي هو مكانٌ لتجمُّع المسلمين، ومكانٌ لعبادةِ الله ربِّ العالمين، تُلقى فيه المواعظُ والتوجيهات، والخطبُ النّافعات، وتُجيَّش منه الجيوش، وتربّى فيه الأجيال، ويأوي إليه المسكين، ويستريح بظلّه المتعبون من ذوي الفقر والعالة، مع ما في المسجد من اجتماعِ المسلمين وتآلُفِ قلوبهم، وتعاونهم على البرّ والتقوى!

أمّا عن بناءِ المسجدِ النبويِّ وما جرى في ذلك من أحداث، فقد روى البخاريُّ من حديثِ أنسِ بن مالك، قال: لمّا قدِم رسولُ الله ﷺ المدينة نزل في عُلوّ المدينة في حيٍّ يقال لهم: بنو عمرو بن عوف، فأقام فيهم أربعَ عشرةَ ليلة، ثمّ أرسل إلى مَلأ بني النجار فجاءوا متقلّدي سيوفهم، وكأنّي

أنظر إلى رسولِ الله ﷺ على راحلته، وأبي بكرٍ ردفه، وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بِفناء أبي أيوب، فكان يُصلّي حيث أدركته الصّلاة، ويُصلّي في مرابضِ الغنم، ثمّ أمر ببناءِ المسجد فأرسل إلى ملأ بني النّجار فجاؤوا فقال: يا بني النّجار ثامِنُوني بحائطكم هذا!

فقالوا: لا والله، لا نطلب ثمنه إلّا إلى الله عزّ وجلّ.

فأبى رسولُ الله ﷺ إلّا بالثّمن!

وكانت فيه قبورُ المشركين، وكانت فيه خِرَب، وكان فيه نخل، فأمر رسولُ الله ﷺ بقبورِ المشركين فنُبِشت، وبالخِرَب فسُوِّيت، وبالنخل فقُطِع، فصفُّوا النخلَ قِبلةَ المسجد، وجعلوا عضادتَيه حجارةً، فجعلوا ينقلون ذلك الصّخر وهم يرتجزون، ورسولُ الله ﷺ معهم يقول:

اللّهمّ لا خيرَ إلّا خيرُ الآخرة، فانصرِ الأنصارَ والمهاجرة!

وقد ثبت في صحيحِ البخاريّ في موضعٍ آخر عن الزهري عن عروة أن المسجدَ الذي كان مِربدًا، وهو المكان الذي يُجفَّف فيه التمر، كان ليتيمين كانا في حجرِ أسعدَ بن زرارة، وهما سهل وسُهيل، فساومهما فيه رسولُ الله ﷺ فقالا: بل نهبُه لك يا رسول الله، فأبى حتّى ابتاعه منهما وبناه مسجدًا!

قال ابنُ كثير: ولم يكن في مسجدِ النبي ﷺ أوّل ما بُني منبرٌ يخطب النّاس عليه، بل كان النبي ﷺ يخطب النّاس وهو مستندٌ إلى جِذعٍ عند مُصلّاه في الحائطِ القِبلي، فلمّا اتُّخذ له المنبر، وعَدِل إليه ليخطبَ عليه، فلمّا جاوزَ ذلك الجذع خار ذلك الجذع وحنّ حنينَ النوقِ العِشار، لما كان يسمع من خطب الرسول ﷺ عنده، فرجع إليه النبي ﷺ فاحتضنه حتّى سكن كما يسكن المولودُ الذي يُسكّن!

وما أحسن ما قال الحسنُ البصريّ بعد ما روى هذا الحديث عن أنس بن مالك: يا معشر المسلمين! الخشبةُ تحنُّ إلى رسولِ الله ﷺ شوقًا إليه، أوَليس الرجالُ الذين يرجون لقاءه أحقَّ أن يشتاقوا إليه؟!

تمّ بناء المسجد في حدود البساطة، فراشه الرمال والحصباء، وسقفه الجريد، وأعمدته الجذوع، وربما أمطرت السماء فأوحلت أرضه، وقد تفلت الكلاب إليه فتغدو وتروح. هذا البناء المتواضع هو الذي ربّى ملائكة البشر، ومؤدبي الجبابرة، وملوك الدار الآخرة.

في هذا المسجد أذن الرحمن لنبيه يؤمّ بالقرآن خير من آمن به، يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل.

إنّ مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي تجعله مصدر التوجيه الرّوحي والمادي، فهو ساحةٌ للعبادة، ومدرسةٌ للعلم، وندوةٌ للأدب، وقد ارتبطت بفريضة الصّلاة وصفوفها أخلاقٌ وتقاليدُ هي لُبابُ الإسلام. لكن النّاس في عصورٍ تلت حتّى عصرنا غالوا في العمارة، وأمّا رسالةُ المسجد فتشكو إلى الله اليوم حال العباد!

أمّا الأسلافُ الكبار فقد انصرفوا عن زخرفة المساجد وتشييدها إلى تزكيةِ أنفسهم وتقويمها، فكانوا أمثلةً صحيحةً للإسلام.

لمِثل هذا فليَبن المسجدُ، فهو قلعةُ الإيمان، وحصنُ الفضيلة، وهو المدرسةُ الأولى التي يتخرج منها المسلم، هو بيتُ الأتقياء، ومكانُ اجتماع المسلمين يوميًا، ومركزُ مؤتمراتهم، ومحلُّ تشاورهم وتناصُحهم، والمنتدى الذي فيه يتعارفون ويتآلفون، وعلى الخير يتعاونون، منه خرجت جُيوشهم، ففتحت مشارقَ الأرض ومغاربَها، منه تخرّج العلماءُ والفقهاء. وفي رحابِه كان التقاضي والقضاء، ومحاسبةُ الخلفاء، فيه كانت الملاعنةُ تجري بين الرجالِ والنساء، وفيه كانت تتمُ قسمةُ الغنائم، فهو ملتقى الأمّة وناديها وجامعتها، ومكانُ شوراها.

هكذا فهم المسلمون الأوّلون وظيفةَ المسجد، وهكذا بنوه، فلم يُسرفوا في بنائه، ولم يزخرفوا، ولم يُبذّروا، ففتح اللهُ على أيديهم. فلمّا صار المسلمون إلى التبذيرِ والإسرافِ والزخرفةِ والمظاهر الفارغة، شأنهم في الأندلس وما تبعها، نزع اللهُ الملك من أيديهم، فصار ما بنوه من المساجد

كنائس ومتاحف، وما بقي في أيدينا جدرانٌ سامقة، وقبابٌ بهيّة، ومآذنُ شامخة، أمّا أرواحنا فما زالت تزحفُ على الأرض، وستبقى حتّى نعي أن بناءَ المسلم، وزخرفةَ روحه بالوحي، أجدى من زخرفة المبنى. إنّ الإيمان الحقيقيّ هو بناءُ الإنسان لا بناءُ الجدران!

ثانياً: المآخاةُ بين المهاجرين والأنصار!

بعدَ أن فرغَ النّبيُّ ﷺ من بناءِ المسجد، انبرى ليُقيم بناءً آخرَ لا يقلُّ أهمّيّة، بناءً لا يُشيّدُ بالطّينِ ولا يُرفَعُ بالخشب، إنّه بناءُ القلوب على القلوب، وتشييدُ الأمّةِ من جسمَينِ خُلِقا ليكونا واحدًا. فجمع المهاجرين والأنصار، ثمّ مدَّ بينهما جسرًا من نور، وقال بصدقِ النبوّةِ ورقّةِ الأبوّة: تآخوا في اللهِ أخوَينِ أخوَينِ!

كانت الكلماتُ قليلة، لكنّها كانت أثقلَ من الذّهب في ميزانِ الأخلاق، وأعمقَ من المحيطِ في طبقاتِ المعاني. في تلك اللّحظة، لم يكن أحدٌ يبحث عن النّسب، ولا يسأل عن المال، ولا يقيس قدرَ أخيه بقبيلته، فقد انطفأت فوارقُ الدّنيا في وهجِ الأخوّة الإيمانيّة. كأنّ القلوبَ كانت تنتظر هذه اللّحظة منذ بدء الخليقة.

قام سعدُ بنُ الرّبيع، ذلك الأنصاريُّ النبيل الذي كانت المدينة تتزيّن بابتسامته، فأخذ بيدِ أخيه عبدِ الرّحمنِ بن عوف، يده التي أنهكتها الأسفار، وقال له بلا تردُّد: يا أخي، هذا مالي فاقسمه بيني وبينك، ولي امرأتان، فانظر أعجبَهما إليك فأطلّقها فتتزوّجها!

أيُّ قلبٍ يَسَعُ هذا العطاء؟

أيُّ نفسٍ تُقدّم نصفَ حياتها لإنسانٍ لَقِيَه للتّو؟

وأيُّ مدينةٍ تلك التي أنجبت رجالًا بهذا السّخاء الرّوحي؟

لكنّ عبدَ الرّحمنِ بنَ عوف، الذي جاء من مكّة بأسمالِه القليلة وكرامتِه الكبيرة، ابتسم ابتسامةَ العفيفِ الواثق، وقال قولته الشّهيرة التي أضاءت

تاريخ الكرامة الإيمانية: بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن دلّني على السّوق!

كان المعطي عظيمًا، وكان الآخذ عظيمًا، وكان الإسلامُ بينهما أعظم.

ورأى النّاس كيف صنع النّبيّ ﷺ أمّةً تتآخى فيها القلوبُ قبل الأجساد. أمّةً جعلت الغريبَ قريبًا، والبعيدَ مُدنًى، والمسافرَ أهلَ دار. لم تكن المؤاخاةُ هِبَةَ حُسنِ الضِّيافة، بل كانت إعلانًا بأنّ هذه الأمّة لن تُبنى على الدّم وحده، بل على الرّضا والعَدلِ والإيثارِ والوفاءِ.

لقد كانت المؤاخاةُ صرخةً في وجهِ الجاهليّة التي لطالما قالت: أنا ابنُ فلان، ومن قبيلةِ كذا.

وجاء الإسلام ليقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

وفي تلك الكلمة تحوّلت المدينةُ إلى عائلةٍ كبرى، كلُّ قلبٍ فيها نافذةُ نور، وكلُّ يدٍ فيها بِساطُ رحمة.

وهكذا تأسّست الدّولةُ على أساسٍ لم تعرِفْ مثلَه أرض، لا تُمسِكُه الحجارة، ولا تُقيمُه الأبراج، بل يُقيمُه الصّدقُ والصّفاء، ويُقوّيه الحبُّ والعدل، ويُسيّجه قولُه تعالى:

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

كانت المؤاخاةُ أعظمَ معجزةٍ اجتماعيّةٍ في التّاريخ، بها ذاب الاحتقان، وتوحّد المختلف، وامتدّ ظلُّ النّبيّ ﷺ على المدينةِ كلِّها، فصار يُظلّلها بأمنٍ لا يُشبهُه أمن، ووئامٍ لا يُشبهُه وئام.

ومنذ ذلك اليوم، عرف النّاس أنّ الأمّةَ الحقيقيّة لا تُبنى بالسّيوف قبل أن تُبنى بالقلوب، وأنّ العظمة لا تنبت في أرضٍ يابسة، بل في القلوب التي روّتها الأُخوّةُ الصادقة!

كان النّبيّ ﷺ يضبط إعداداتِ الدّولة، ويقلبُ الدّنيا حرفيًا رأسًا على عقب، إنّه لا يبني كيانًا سياسيًا فقط، بل يبني أمّةً، لها دستور، وضوابط،

ومرجعيّة!

لهذا ما تعانق المهاجرون والأنصار مُحتفين بروعةِ الإخاء، حتّى كان النبيّ ﷺ يجمعهم، وهم المتفرّقون في القبائل والأنساب، في عباءةِ الأمّة، وثيقةً سياسيّة تضبط إيقاع العمل، وترسم حدود الحركة، وتؤطّر ميثاقًا للمسلمين من يومِ التآخي إلى قيامِ الساعة، ستّة عشر بندًا واضحًا لا يقبل التأويل، ولا مكانَ فيه للكناية!

هذا كتابٌ من محمّد النبيّ ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحِق بهم، وجاهد معهم:

1- أنّهم أمّةٌ واحدةٌ من دونِ النّاس.

2- المهاجرون من قريش على رِبْعَتِهم يَتعاقَلون بينهم، وهم يَفْدون عانيَهم بالمعروفِ والقِسْطِ بين المؤمنين، وكلُّ قبيلةٍ من الأنصار على رِبعتِهم يَتعاقَلون مَعاقِلَهم الأولى، وكلُّ طائفةٍ منهم تَفدي عانيَها بالمعروفِ والقسطِ بين المؤمنين.

3- وأنّ المؤمنين لا يتركون مُفرَحًا بينهم أن يُعطوه بالمعروفِ في فداءٍ أو عَقل.

4- وأنّ المؤمنين المتّقين على من بَغى عليهم، أو ابتغى دَسيعةَ ظُلمٍ أو إثمٍ أو عُدوانٍ أو فسادٍ بين المؤمنين.

5- وأنّ أيديَهم عليه جميعًا، ولو كان ولدَ أحدِهم.

6- ولا يقتلُ مؤمنٌ مؤمنًا في كافر.

7- ولا يَنصُرُ كافرًا على مؤمن.

8- وأنّ ذمّةَ اللهِ واحدةٌ يُجيرُ عليهم أدناهم.

9- وأنّ من تَبِعَنا من يهود فإنّ له النّصرَ والأسوة، غيرَ مظلومين ولا مُتناصِرين عليهم.

10- وأنّ سِلم المؤمنين واحدة، ولا يُسالِم مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتالٍ في سبيلِ الله إلّا على سواءٍ وعدلٍ بينهم.

11- وأنّ المؤمنين يَبوءُ بعضُهم على بعضٍ بما نال دماءَهم في سبيلِ الله.

12- وأنّه لا يُجيرُ مشركٌ مالًا لقريشٍ ولا نفسًا، ولا يحولُ دونه على مؤمن.

13- وأنّه من اعتبط مؤمنًا قتلًا عن بيّنةٍ فإنّه قوَدٌ به، إلّا أن يرضى وليُّ المقتول.

14- وأنّ المؤمنين عليه كافّة، ولا يَحِلُّ لهم إلّا قيامٌ عليه.

15- وأنّه لا يَحِلُّ لمؤمنٍ أن يَنصرَ مُحدِثًا ولا يُؤويه، وأنّه من نصره أو آواه فإنّ عليه لعنةَ اللهِ وغضبَه يومَ القيامة، ولا يُؤخذُ منه صَرفٌ ولا عَدل.

16- وأنّكم مهما اختلفتم فيه من شيءٍ فإنّ مَرَدَّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمّد ﷺ.

يا لرسولِ اللهِ ﷺ كيف غيّرَ هذا العالم!

إنّ المؤاخاةَ لم تكن حدثًا تاريخيًا عابرًا، بل كانت قد رسمت ملامحَ أوّلِ مجتمعٍ إسلاميّ، ووضعتِ النّموذجَ الذي تَبني عليه الأممُ العظيمةُ وحدتَها وقوّتَها وخُلودَها، وإنّ من أهمِّ الدّروسِ والعِبَرِ المستفادةِ من هذه المؤاخاة هي:

1. أنّ رابطةَ الإيمانِ أقوى من رابطةِ الدّم، أثبتت المؤاخاةُ أنّ الإيمان حين يستقرُّ في القلب يصنع أمتنَ وشائجَ ممّا تصنعه الأنساب. فقد انصهر المهاجرُ والأنصاريُّ في وحدةٍ روحيّةٍ لا تُبنى على مصالحَ ولا أهواء، بل على يقينٍ مشتركٍ وطريقٍ واحد.

2. أنّ المجتمعَ المسلم يقوم على التّعاضُد لا على التّنافُس، يوم أُخِيَ بين الرّجل وأخيه، لم تكن الأُخوّةُ شعاراتٍ تُقال، بل تقاسيمَ قلب، ولُقمةً تُقسَم، ودُورًا تُفتح، وأموالًا تُشارَك. لقد بُنيت المدينةُ على أساسِ التّكافلِ لا الاستئثار، وعلى المواساةِ لا المفاخرة.

3. أنّ إزالةَ الفوارقِ الاجتماعيّةِ ممكنةٌ حين تذوبُ النّفوس لله، جاء المهاجرون بلا مالٍ ولا دارٍ ولا قبيلةٍ تحميهم، وجاء الأنصار ببيوتهم وزروعِهم وعِزّهم، ومع ذلك التقى الطّرفان على مستوى واحدٍ من الكرامة الإنسانيّة، لا فضلَ لموسرٍ على معسرٍ إلّا بالتقوى.

4. أنّ القيادةَ النبويّة تصنع وحدةً لا تُشقّ، كانت المؤاخاةُ درسًا في فنّ بناء المجتمعات، لم تكن خطوةً عاطفيّة، بل مشروعًا استراتيجيًا يمهّد لقيام دولة، ويضمن اندماجَ المهاجرين في مجتمعِ المدينة بلا توتّرٍ ولا صدام.

5. أنّ البذلَ طريقٌ للحُبّ، وأنّ العطاء يصنع الثّقة، بذل الأنصار حتّى استحيت الجبالُ من سخائهم، فبادلهم المهاجرون حُبًّا ووفاءً وعملًا وجهادًا. وهكذا وُلِدَ مجتمعٌ تُربّيه القلوبُ قبل الأيدي، وتصنعه المشاعرُ قبل السّيوف.

6. أنّ الأمّةَ تُبنى حين يذوب «الأنا» في «نحن»، لم يَعُد للمهاجرِ شأنٌ منفصل، ولا للأنصاريّ شأنٌ خاصّ. كانت الآمالُ واحدة، والتّجاربُ مشتركة، والهمُّ واحدًا. وهذه الرّوح هي التي مهّدت لقيامِ حضارةٍ امتدّت من المدينة إلى آفاقِ الأرض.

7. أنّ الأخوّةَ في الله ليست مجرّد عاطفة، بل مسؤوليّة، فكلُّ أخوّةٍ تُبنى بلا واجباتٍ تذبل، ولكن أخوّة المهاجرين والأنصار قامت على نُصرةٍ، وحمايةٍ، وتضحيةٍ، وتقاسُمٍ، وجهاد. لذلك بقيت خالدة، لأنّها تحوّلت من مشاعرَ إلى أعمال.

8. أنّ المجتمعَ السعيد هو الذي يرى في اختلافِ النّاس ثراءً لا تهديدًا، جاء المهاجرون بخبراتهم وتجاربِهم وتجارتِهم، وجاء الأنصار ببيئتهم وأرضِهم وعاداتِهم، فكان الامتزاجُ بينهم مصدرَ قوّة، لا سببَ نزاع.

9. أنّ بناءَ الدّولة يبدأ ببناءِ القلوب، قبل أن تُشيَّد الأسوار، وتُنظَّم الجيوش، وتُكتَب الوثائق، أصلح النّبيّ ﷺ النّفوس أوّلًا. كانت المؤاخاةُ العمودَ الأوّل الذي حمل سقفَ الأمّة.

10. أنّ التّضحيةَ طريقُ النّصر، وما انتصرت الأمّة في بدرٍ وأحدٍ والخندق إلّا لأنّها قامت على نفوسٍ مستعدّةٍ أن تُعطي قبل أن تأخذ، وتؤثر قبل أن تؤثَر، وتُقدّم أخاها على نفسِها!

ثالثاً: المعاهدة مع يهود المدينة!

كانت يثربُ مدينةً ممزّقة الأنسجة؛ قبيلتان طال بينهما الدم، ويهودٌ بأحلافٍ متشابكة، ومسلمون مهاجرون فقدوا الأهل والدار، وأنصارٌ بثقل الماضي وعبء المستقبل. وبين هذه الأطياف كلّها، وقف النّبيّ الكريم ﷺ كمن يمسك بخيوطٍ شتّى، يريد أن يصوغ منها نسيجًا واحدًا يعيش فيه الجميع بطمأنينة.

عندها وُضعت تلك الوثيقة التي لم تكن سطورًا من حِبر، بل خارطةً أخلاقيّة تحكم علاقات المسلمين، سبقت كلّ ما عرفه عصرها من قوانين. وكتب فيها أن المسلمين أمّة واحدة من دون النّاس!

ومضى النّبيّ ﷺ ينسج حول هذه الوحدة دوائرَ من العدالة، تشمل أهلَ الكتاب، وتضمن لهم حقّهم في دينهم ونفوسهم وأموالهم. فكانت المعاهدة مع يهود المدينة!

كانت هذه لحظة ميلاد دولةٍ لا تشبه الدّول، دولةً ترتفع على أخلاق السّماء، لا على أطماع الأرض.

ولم يكن النّبيّ ﷺ يصالحهم خوفًا ولا ضعفًا ولا حاجة، بل لأنّ المدينة تتنفّس التعدّد، ولأنّ المجتمع الجديد لا يمكن أن يُبنى إلّا على أساسٍ يضمن لكلّ إنسان مكانه وحرمته.

لقد كان اليهود يومها يملكون المال والسّلاح والحصون، لكن النّبيّ ﷺ لم يفتح باب الصّراع، بل فتح باب الشّراكة، أراد لهم أن يكونوا جزءًا من أمن المدينة لا خنجرًا في خاصرتها، وأن يعيشوا تحت ظلّ القانون لا في زحام الفوضى.

وحين وقّعوا على الصّحيفة، شعر النّاس أن صوت الحديد في المدينة خفت، وأن ريح الدّم التي اعتادت أرض يثرب بدأت تهدأ. كان العدل هو الباب الذي مرّت منه السّكينة، وكان العهد هو الجسر الذي عبرت عليه القلوب من الشّك إلى الاحترام.

وهكذا لم تكن وثيقةً سياسيّةً فحسب، بل كانت درسا عميقًا في أن السّلم لا يولد من تشابه النّاس، بل من قدرتهم على احترام اختلافهم.

كانت تكتب للعالم كلّه أنّ النّبيّ ﷺ لم يأت ليبني دولةً للمسلمين وحدهم، بل ليبني مجتمعًا يستطيع كلُّ ساكنيه أن يناموا مطمئنّين تحت قمرٍ واحد. ولكنّ اليهود قاتلهم الله هم اليهود!

أمّا بالنسبة إلى بنود المعاهدة معهم، فقد جاءت في اثني عشر بندًا، راعاها النّبيّ ﷺ، وما رَعَوْها هم حقّ رعايتها، ومضوا حتّى اليوم ينقضون عهدهم في كلّ مرّة:

1. إنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، وكذلك لغير بني عوف من اليهود.

2. وإنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

3. وإنّ بينهم النّصر على من حارب أهل هذه الصّحيفة.

4. وإنّ بينهم النّصح والنّصيحة، والبرّ دون الإثم.

5. وإنّه لم يأثمْ امرؤ بحليفه.

6. وإنّ النّصر للمظلوم.

7. وإنّ اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

8. وإنّ يثرب حرامٌ جوفها لأجل هذه الصحيفة.

9. وإنّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدثٍ أو اشتجارٍ يُخاف فسادُه فإن مَردّه إلى الله عزّ وجلّ، وإلى محمّد ﷺ.

10. وإنّه لا تُجار قريش ولا من نصرها.

11. وإنّ بينهم النّصر على من دهم يثرب، على كلّ أناسٍ حصّتهم من جانب الذي قِبلهم.

12. وإنّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.

ومن أهم الدّروس المستفادة من معاهدة النّبيّ ﷺ مع اليهود:

1. أهميّة العدل كأساس للتّعايش، المعاهدة أثبتت أنّ السّلام لا يقوم على القوّة أو الغلبة، بل على العدالة بين جميع أطراف المجتمع، وحفظ حقوق الجميع مهما اختلفت معتقداتهم.

2. الوفاء بالعهود أساس الثقة، الالتزام بالمواثيق يعزّز الأمن والاستقرار، ويجعل العلاقات بين المجتمعات متينةً ومستدامة.

3. التّعاون على الخير والمصالح المشتركة، المعاهدة أكدت أن المجتمع المتعدّد الأطياف يمكنه حماية المدينة وتحقيق مصالح مشتركة رغم اختلاف الأديان.

4. التّسامح الدّينيّ والاجتماعيّ، اختلاف الدّين لا يمنع العيش المشترك، بل يمكن أن يكون رافدًا للقوّة حين تُحترم الخصوصيّات.

5. الحكمة في القيادة والسياسة، النّبيّ ﷺ جمع بين الدّين والسياسة والأخلاق، ووضع نموذج القيادة الربانيّة العادلة.

6. أهمية تنظيم المجتمع بوثائق واضحة، كتابة الحقوق والواجبات رفعت الخلاف للشّرع، ومنعت كثيرًا من الفتن.

7. السّلام أساس النّهضة المجتمعيّة، لا ازدهار بلا أمنٍ واستقرار، وهذا ما رسّخته المعاهدة في مجتمع المدينة.

على أن يُعلم يقينًا أنّ هذا كلّه لا ينطبق على حال المسلمين مع اليهود في فلسطين اليوم، فلا يُؤخذ زورًا للاستسلام والتّطبيع؛ فإنّ قياس ذاك على

هذا قياس باطلٌ مع الفارق!

فاليهود في المدينة يومذاك كانوا أصحاب أرضهم، جاء النبيﷺ فوجدهم فيها، بينما هم اليوم غزاةٌ محتلون!

أمّا ما يُقاس عليه من فعل النبيّ ﷺ اليوم فهم أهلُ الكتاب من النّصارى واليهود الذين يعيشون بيننا بلا عدوان؛ فهؤلاء لهم حقُّ المواطنة، ولهم حرمة دمائهم وأموالهم.

والمشكلة مع اليهود في فلسطين ليست لأنّهم يهود، بل لأنّهم غزاةٌ معتدون، والإسلام موقفه من العدوان واحد مهما كان الفاعل!

الإسلامُ يَسُلُّ سيفَه!

لم يخرج الإسلامُ من غِمْدِ السّيف، ولا وُلِد من صليل الحديد! وإنّما خرج من قلبِ نبيٍّ كان يمشي وحيدًا في طُرقات مكّة يحمل نورًا بين يديه، ويُنادي في النّاس: تعالوا إلى كلمةٍ سواء!

لم يكن الإسلامُ يومًا جيشًا مُدجّجًا يلوّح سيفه في وجوه النّاس، وإنّما كان فكرةً نورانيّةً تمشي على قدمين، تحمل في يدٍ رحمةً، وفي يدٍ عدلًا!

وحين يُقال: إنّ الإسلام انتشر بالسيف، فذلك يشبه أن يُقال: إنّ الشمس تُكره الأزهارَ على التفتّح! فالحقُّ لا يُفرَض بالقوّة، بل للقُلوبِ أبوابها حين تلمس صدقَه!

لم يعرف التاريخ دينًا حورب في مهده كما حورب الإسلام، ولم يعرف دعوةً غضّةً طريّةً تعرّضت لمحاولة الوأد كما تعرّض الإسلام، ومع ذلك ما ذُكر السيف إلا حارسًا، وما سُلّ إلا ليدفع ظالمًا، ولا أُشهِر إلا حين لم يبقَ سبيلٌ آخر. إنّ القطّة، وهي القطّة، إذا ما حُشرت في الزّاوية وخلفها أبناؤها، صارت لبؤة، فكيف بهذا الدّين الذي يفيض عزّة وكرامة؟! فهو، وإن كان فيه وداعة القطط في ألفتها، له وثبة الأسود إذا ما أُريد به ضيم!

أضجعوا الإسلامَ أرضًا وأوثقوه يريدون نحرَه، فلمّا انتفض في وجهِ ذابحيه اتّهموه بالإرهاب، وقالوا: انتشر بالسيف!

ثلاثةَ عشرَ عامًا كان النبيُّ ﷺ يسير في طُرقاتِ مكّة بلا سيف، ولا تُرس، ولا رُمح، نداؤه فيهم نداءُ المُشفِق: قولوا لا إلهَ إلّا اللهُ تُفلِحوا.

ومع ذلك أطلقوا عليه نِبالهم، واتّهموه بالسّحرِ والكذبِ والجنون، ووضعوا على رأسه سلا الجزور وهو ساجدٌ عند الكعبة.

وحاصروه وبني هاشم في الشِّعبِ ثلاث سنينَ حتى أكلوا أوراقَ الشجر، وتآمروا على قتله في مكّة، ورجموه بالحجارة في الطائف!

عذّبوا أصحابَه، وصلبوا بلالًا، وأحرقوا خبّابًا، وبِحَربة الغدر طَعن أبو جهلٍ

شفية، وبأصابعِ الحقد خنق ياسرًا!

ألجأوهم إلى ترك ديارهم بعدما ضيقوا عليهم مكة، فيمموا وجوههم إلى الحبشة، وليس لهم مرامٌ غير أن يسلموا ويرتاحوا من الأذى، إنّ فيها ملكًا لا يُظلم عنده أحد.

خرجوا باحثين عن شهقة عدلٍ بعدما صارت رئاتهم تزفُر نارًا من غضب كتموه في صدورهم مما نزل بهم من الظلم، كلّ هذا والقرآن ينزل فيهم: كفّوا أيديكم!

ونبيهم ﷺ يُخاطبُ بالوحي: «ادفعْ بالتي هي أحسن»!

فلما ضاق بهم ذرعًا قالوا: انتشرَ الإسلامُ بالسّيف!

الإسلامُ لم ينتشرْ بالسّيفِ، بلِ انتصرَ بالسّيف.

لم يُؤذَنْ للمسلمين بالقتالِ إلّا يومَ ضاقتِ الأرضُ عليهم، وارتفعتِ السّيوفُ في وُجوههم، فنزلتِ الآيةُ العظيمةُ التي رَسمت حدودَ الصّراع: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلونَ بِأنّهم ظُلِموا﴾.

فالقتالُ لم يكن دعوةً إلى الإسلام، بل كان دفاعًا عن حقّ الإسلامِ في الوجود.

وحين أقامَ الإسلامُ دولتَهُ الأولى، لم يَجمعِ النبيُّ ﷺ اليهودَ ويَعرِضْ عليهم الإسلامَ على حدّ السّيف، وإنّما وقَّع معهم صحيفةَ المدينة، أوّلَ وثيقةٍ سياسيّةٍ في التاريخِ للسّلمِ الأهليّ والتعايُشِ المشترك.

جَعَلَهم فيها أمّةً مع المؤمنين، أي شركاءَ في وطنٍ واحد، لا رَعايا ولا خاضعين، أقرّ لهم دينَهم كما هو، وأموالَهم كما هي، ومعابدَهم كما هي، وألزمَ نفسَه بحمايتهم.

أيُّ سيفٍ هذا الذي يحمي المخالفين في دينهم؟

إنّه سيفُ الإسلام، سيفُ العدل، لا سيفُ البغيِ والإكراه!

ولو كان السّيفُ وسيلةَ انتشارِه لَمَا بقيت كنائسُ الشام والعراقِ ومصر عامرةً، ولَمَا بقي أهلُها على دينهم قرونًا تحت حكم المسلمين.

السّيفُ لا يحفظُ كنيسةً، ولا يحمي صليبًا، ولا يُبقي شعائرَ المخالفين له قائمةً حتى اليوم، ولكنَّ الإسلامَ فعل، لأنّه لم يأتِ ليقتلَ المخالفَ، بل ليقيمَ العدلَ!

والتاريخُ يروي لنا مشهدًا يثيرُ الدهشة: حين دخل عمرُ بن الخطّاب بيت المقدس، أبى أن يصلّي داخل كنيسةِ القيامة، خشيةَ أن يأتي المسلمون بعد ذلك فيقولوا: هنا صلّى عمر، فيأخذونها منهم ويجعلونها مسجدًا.

وما زالت الكنيسةُ قائمةً على أقدامها حتى اليوم.

هذا ليس مشهدًا من فتوحاتِ الحديد، بل من فتوحاتِ الضميرِ!

وإنّ الفتوحاتِ التي يتحدّث عنها بعضُ القوم اليوم، وكأنّها حملاتٌ قسريّة، كانت في حقيقتها انتفاضةَ شعوبٍ تبحث عن مُتنفَّس.

بلادُ الشام تحت حكمِ الروم كانت ترزح تحت نيرِ الضرائب والاضطهادِ الدينيّ.

ولسنا نحن من يقول هذا، وإنّما مؤرّخوهم هم من رَوَوا أنّ كلَّ من كان يخالف الكنيسةَ يُعذَّب ويُنفى ويُحرَق.

فلمّا جاء المسلمون استقبلتهم الشعوب كمنقذين لا كغزاة!

ودخل الناس في الإسلام لا تحت ضغط السيف، بل تحت ظلّ العدالة!

لم تُفتح كلُّ البلادِ بالجيوش، فبعضُها فُتِح بالأخلاق!

إندونيسيا وماليزيا مثلًا، لم يصل إليهما جيشٌ قط، وكلُّ أولئك دخلوا الإسلام عبر الكلمة والقدوة، لا عبر القتال.

ولو كان السيفُ وسيلةَ الدعوة، فأيُّ سيفٍ وصل إلى جُزرٍ في أقصى

المحيطات لا يعرف اسمها إلّا البحّارة؟

والعجيبُ أن يُنصِفَ هذا الدينَ المنصفون من المستشرقين، ويجور عليه بعضُ أبنائه متهمين إيّاه بأنّه انتشر بحدّ السيف.

يقول ماكس مولر: لم يُكره المسلمون أحدًا على الإسلام، وتاريخُهم شاهدٌ على ذلك.

ويقول توماس أرنولد: لو شاء المسلمون أن يُكرهوا الناس على دينهم، لما بقي مسيحيٌّ واحدٌ في البلاد التي حكموها.

ثم، وأيُّ جريمةٍ في أن يكونَ للإسلامِ جيشٌ وسيف؟ وهل قامت دولةٌ في التاريخ لم يكن لها جيش؟

ثم ما شأنُنا بالتاريخِ والواقعُ ماثلٌ أمامنا؟ ألسنا نُذبح كلَّ يومٍ على أيدي جيوشٍ تدّعي دولُها الحضارةَ والإنسانية؟

المشكلةُ ليستْ في وجودِ الجيشِ للدولة، فهذا من مُكوّناتِ الدول، المشكلةُ ما الذي تفعله الجيوش، وبأيِّ عقيدةٍ تُحارب، ولأيِّ هدف؟

هناك فارقٌ شاسعٌ بين سفكِ الدمِ لأجلِ النفطِ والنفوذ، وبين الجيشِ الذي يأتي حاملًا العدلَ للناس.

ولتعرفَ الفارقَ بين الإسلامِ وغيرِه، قارنْ ما فعله الإسلامُ في الأندلس مع مخالفيه، بأيِّ سماحةٍ عاملهم، ثم انظرْ إلى محاكمِ التفتيشِ والإجرامِ حين صارت الأرضُ لهم.

الإسلامُ لم يَنتشرْ بالسّيف، بل دافَعَ بالسّيف حينَ اضطرّ، وحين ذهب غازيًا كان داعيًا، ولم يُحاربْ إلّا الذين حالوا بين الناس وبين رسالة ربهم. السيفُ في الإسلامِ حارسٌ لا واعظ، وحامٍ لا مبشر، وسلاحُ بقاءٍ لا وسيلة دعوة.

وبالعودة إلى السيرة العطرة، فإن أول معركة حقيقية سَلَّ فيها الإسلامُ سيفه كانت غزوة بدر. لقد سبقت تلك الغزوة بعوثٌ وسرايا، ولكنها لم تخرج

عن حدود المناوشات، والإتيان بها جميعًا يحوّل الكتاب إلى تأريخ، وما أردت هذا، فسأتجاوز مضطرًا كي لا أخرج عن مقصد الكتاب، وكي لا تكثر الصفحات فيجد القارئ نفسه أمام سفر ضخم مهيب. وكفى بالقلادة ما أحاط بالعنق، وإلى غزوة بدر نمضي!

غَزوةُ بدرٍ الكُبرى!

ومنْ لم يَذُدْ عن حوضِه بسلاحه يُهدَّمِ!

لا يومَ كيومِ بدرٍ، وهيهاتَ أن يأتيَ الزمانُ بمثله. في يومٍ طويلٍ نهارُه، شديدٍ حرُّه، وقف ثلاثُمئةٍ وثلاثةَ عشرَ رجلًا في قلب الصحراء القاحلة، يُقاتلون أكثرَ من ألفِ كافرٍ ومُشركٍ، حتى نُولَد نحنُ مسلمين!

خرج النبيُّ ﷺ من المدينة لا يطلبُ حربًا ولا يسعى إلى دمٍ، وإنّما لعيرِ قُرشيّةٍ سلبته وأصحابَه أمنَهم وديارَهم.

خرج وهو يقول: اللهمّ هذه قريشٌ جاءت بخيلائِها وفخرِها، تُحادّك وتُكذّبُ نبيّك. خرجَ معه صَفوةُ الله من خلقه، أولئك الذين اطّلع الله عليهم فقال: اعملوا أهلَ بدرٍ ما شئتم فقد غفرتُ لكم.

وجاءت قريشٌ تستعرضُ بالجندِ والحديد، لا تعرفُ أنّ النصرَ لا تجلبُه السيوف، وإنّما تستنزله القلوب!

جاءت قريشٌ تسيرُ ببطشِها وغرورِها، تحمل أوزارَ ثلاثِ عشرةَ سنةٍ من الظلم، هي عمرُ فجورِها على الإسلام في مكّة. لم يكفِها كلُّ الذي مضى، فجاءت تريد أن تنحرَ الجُزُر وتشرَبَ الخمر وتَعزِفَ القِيانُ حتى تُسمِعَ بفجورِها العرب، وكأنّ أحدًا قد فاته كلُّ محاولاتها لوأدِ الرسالة!

وحين تقابل الجيشان بدت الأرضُ كأنّها حضنٌ، لا يوجد على ظهرِها أطهرُ من هؤلاء لتضمَّهم، وبدت السماءُ وِشاحًا لا يوجد تحتها أطهرُ من هؤلاء لتظلّلَهم!

ثلاثُمئةٍ وثلاثةَ عشرَ مؤمنًا يقفون بقلوبٍ هي أكبرُ من أجسادهم، يواجهون جيشًا يُضاعِفُهم ثلاثَ مرّات. وإنّها لم تكن يومًا بالسيف، وإنّما بالقلب!

رفع النبيُّ ﷺ أكفَّ الضراعة: اللهم إن تُهلِكْ هذه العصابةَ فلن تُعبَد في

الأرض.

كان يعرفُ أنّ حوائجَ الأرضِ مفاتيحُها في السماء، وأنّ على العرش ربًا أمرُه نافذ، وإرادتُه كلمته، إذا أراد شيئًا قال له: كُنْ،

فكان!

أنزل النبيُّ ﷺ يديه، ولكنّه أبقى قلبه معلّقًا بربّه، ثم نادى بالمسلمين: قوموا إلى جنّةٍ عرضُها السمواتُ والأرض.

فوثبوا، لا كأنّهم ماضون إلى حدّ السيف، بل إلى إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

كانت كلُّ ضربةٍ من أيديهم تأخذُ ثأرًا قديمًا طال انتظارُه، فما في تلك الجهة إلّا عدوٌّ يعرفون وجهَه أو يعرفون فعلَه، وإنّ الحرّ لا ينامُ عن ثأره.

وفي ساعةٍ لا تُقاش بالدقائقِ، وإنّما بصليلِ الصوارم، انطفأ كبرياءُ قريش، وانتصب الحقُّ واقفًا يُعلِنُ للعالمِ كلّه أنّه قادم.

هذه كانت الحكايةُ بمغزلِ البلاغة، أمّا التاريخُ فيسردُ، فإليك التفصيل:

سمع النبيُّ ﷺ بخبرِ تجارةٍ لقريشٍ قادمةٍ من الشام يرأسُها أبو سفيان، فنادى في أصحابه للحاق بتلك القافلة، لعلّ الله يجعلُ فيها للمسلمين عِوَضًا، وكانت قريش قد سلبتِ المسلمين كرائمَ أموالهم وأراضيهم بعد هجرتهم من مكة إلى المدينة.

وظنّ بعضُ الصحابة أنّها مجرّدُ سريّةٍ كالسرايا الاستطلاعية العديدة التي سبقت تلك الغزوة الكبرى، فبقي بعضُهم في المدينة، خاصّةً أنّهم لم يكونوا يتوقّعون حربًا مع قريش، ولم يعزمِ النبيُّ ﷺ على أحدٍ بالخروج، بل ترك ذلك للرغبة والاختيار.

استطاع أبو سفيان، حين وصله خبرُ تحرّكِ المسلمين، أن يُفلِت بالقافلة، وأرسل ضِمضِمَ بنَ عمرو الغفاريّ لاستنفارِ قريشٍ لمجابهة المسلمين. فاستصرخ ضمضمُ القومَ، فخرج سادةُ قريشٍ أجمعون إلّا من أقعدته

الحاجة، فكانوا بين رجلين: إمّا خارجٍ وإمّا باعثٍ مكانه رجلًا، وأوعبت قريش، فلم يتخلّف من أشرافها أحد، إلّا أنّ أبا لهب بن عبد المطلب بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، استأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه قد أفلس بها.

خرج النبيّ ﷺ في ثلاثمئةٍ وثلاثةَ عشرَ رجلًا، ولم يكن معهم من الخيل إلّا فرسان: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود، وكان معهم سبعون بعيرًا يعتقب الرجلان والثلاثةُ على البعير الواحد.

ولمّا علمت قريش بنجاة القافلة بعد خروجها واجتماعها، همّوا بالرجوع، ولكنّ أبا جهلٍ أبى الرجوعَ إلّا أن يسمع بهم العربُ ويخبر هيبتهم، فقال بتكبّرٍ وترفّع: والله لا نرجع حتى نَرِد بدرًا، فنُقيمَ بها ثلاثًا، فننحرَ الجُزر، ونطعمَ الطعام، ونسقيَ الخمر، وتعزفَ القِيان، وتسمعَ بنا العربُ فلا يزالون يهابوننا أبدًا.

ولم يرجع من قريشٍ سوى الأخنسِ بنِ شُرَيقٍ لمّا علم بنجاة القافلة، ولم يرغبْ في القتال، فرجع بقومه بني زهرة وكانوا ثلاثمئةَ رجل، وكان مُطاعًا، فاغتبطت بنو زهرة برأيه، فلم يزل فيهم مُهابًا مُطاعًا.

ولمّا وصل خبرُ خروج سادةِ قريشٍ وصناديدِها إلى النبيّ ﷺ استشار أصحابَه، وأنبأهم بتغيُّر الوضع، فتكلّم سادةُ المهاجرين، وسكت النبيّ ﷺ يريد أن يسمع رأيَ الأنصار. ففهمها سعدُ بنُ معاذٍ فقال: كأنّك تريدُنا يا رسول الله؟

فقال النبيّ ﷺ: نعم.

فقال: يا رسولَ الله، قد آمنّا بك، وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ، فامضِ لِما أردتَ، فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضتَ بنا هذا البحر لخُضْناه معك، ما تخلّفَ منّا رجلٌ واحد. فابتهج النبيّ ﷺ برأيهم وعزيمتِهم، وقال لهم: سيروا وأبشروا، فإنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين، واللهِ لكأنّي الآن أنظر إلى مصارع القوم.

وأشار الحبابُ بنُ المنذر على النبيِّ ﷺ بتغيير موقع تمركز الجيش، فقال: يا رسول الله، أرأيتَ هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأيُ والحربُ والمكيدة؟

قال: بل هو الرأيُ والحربُ والمكيدة.

فقال: فإنّ هذا ليس بمنزلِ حرب، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماءٍ من القوم، فننزله ونخرّب ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضًا فنملأه، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

فقال له النبيُّ ﷺ: لقد أشرتَ بالرأي.

وأمر الجيش بالتوجه نحو ماء بدر.

وبنى المسلمون عريشًا للنبيِّ ﷺ على تلٍّ مرتفع يشرف على المعركة، وكان مما أشار به سعدُ بنُ معاذٍ خشيةَ أن يُهزم المسلمون فيتمكّنَ المشركون من رسول الله ﷺ. فدعا له النبيُّ ﷺ بخيرٍ وأثنى عليه.

ولما أصبح الصباحُ أقبلت قريشٌ بكتائبها، فلما تراءى الجمعان، دعا النبيُّ ﷺ وقال: اللهم هذه قريشٌ قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تُحادّك وتُكذّب رسولك، اللهم فنصرَك الذي وعدتني.

وأمر النبيُّ ﷺ أصحابَه ألّا يبدؤوا القومَ بالقتال حتى يأمرَهم، وقال لهم: إذا أكثبوكم فارموهم بالنبل، ولا تسلّوا السيوف حتى يغشوكم.

وكان أوّلَ من قُتِل من المشركين الأسودُ بنُ عبد الأسد المخزومي، قتله حمزةُ، وكان قد عاهد نفسه أن يقاتل حتى الموت، أو يشرب من حوض المسلمين، فعاجله حمزةُ بالموت وهو على مشارف الحوض.

ثم دعت قريشٌ إلى المبارزة، فخرج من فرسانها: عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، والوليدُ بنُ عتبة. فخرج إليهم عبيدةُ بنُ الحارث، وحمزةُ بنُ عبد المطلب، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ من المهاجرين. فقتل حمزةُ شيبة، وقتل عليٌّ الوليد، وأمّا عبيدةُ فتبادر هو وعتبة ضربتين وأثخن كلّ واحدٍ منهما صاحبه، حتى

بادر حمزةُ وعليٌ فقتلا عتبة، واحتملا صاحبهما عبيدة وقد قُطعت رجله، وما لبث أن مات من أثر الجراح بعد أربعة أيام أثناء عودتهم إلى المدينة.

وهنا كرّت قريشُ على المسلمين، وحمي الوطيس، وكانت المعركةُ مشهودةً من جانب الملائكة يقاتلون مع المسلمين، وما لبث أن انقشع غبار القتال عن هزيمةٍ ساحقةٍ لقريش، فقد فقدت قريشُ من خيرة فرسانها سبعين، وأسر سبعون، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلًا، وكان نصرًا مؤزّرًا.

وقد قُتِل من المشركين في نهاية تلك المعركة ساداتُ قومهم، وطُرحوا في قَليبِ بدرٍ بعد القتال، ثم قام النبيُ ﷺ على شفا البئرِ يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلانُ بنَ فلان، ويا فلانُ بنَ فلان، أيَسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسولَه؟ فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقًّا؟

فقال عمرُ: يا رسولَ الله، ما تُكلّم من أجسادٍ لا أرواحَ لها؟

فقال النبيُ ﷺ: والذي نفسُ محمدٍ بيده، ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، ولكنّهم لا يجيبون.

انتهت غزوةُ بدرٍ، ولكنّ دروسَها باقيةٌ أبدَ الدهر، بدرٌ لم تكن غزوةً وإنّما كانت مدرسة:

1- علمتنا غزوةُ بدرٍ أن العبدَ يريدُ، واللهُ يريدُ، ولا يكونُ إلّا ما أرادَ الله. خرج المسلمون في طلبِ قافلةِ قريشٍ، ففرَّ بها أبو سفيان، وأفلتت القافلةُ، وضاع صيدُ المسلمين، وظنّ أطرافُ الصراع أنّ الأمر قد انتهى، وما تنتهي الأمور في الأرض قبل أن تقولَ السماءُ كلمتها. وقد قالت: فلتكن الحرب.

2- علمتنا غزوةُ بدرٍ أن الباطلَ يمشي نحو مصرعه. نجَتِ القافلةُ من ظلّابها، ولكنّ قريشًا لم تَنجُ من غرورِ أبي جهل. رأى الأمرَ فرصةً سانحةً، وقال: لنقضِ عليهم. فقال عتبة: اعصِبُوها برأسي، وقولوا جَبُنَ عتبةُ، وارجعوا. ولكنّه غرورُ الباطل، وفرعونُ هذه الأمّة قتله غرورُه.

3- علمتنا غزوةُ بدرٍ أنّه لا أحد يعلمُ الغيبَ إلّا الله، حتى النبيّ ﷺ ظنّ أن الأمر لن يكون أكبرَ من الإغارةِ على قافلة. ولو تواعدتِ الطّرفان لاختلفا في الميعاد، ولكنّه موعدٌ قضى الله أن يكون فكان.

4- علمتنا غزوةُ بدرٍ أن الحكيمَ لا ينامُ عن عدوّه ولو كان نملة. فحكيمُ وُلد آدم لم تُشغله الدعوةُ عن أمرِ عدوّه، ولم يصرفه القرآنُ وقيامُ الليل عن تتبّع أخبار قريش. كان يتحسّسُ أخبارَهم، وإلّا فكيف عرف أساسًا بأمر القافلة؟ إنّ هذا الدينَ توازن، فما يقومُ الدينُ بهدم الدنيا، ولا تستقيم الدنيا بهدم الدين.

5- علمتنا غزوةُ بدرٍ أنّ الإسلام لم يَنتشر بالسيف. فالذين حملوا السيوف في بدرٍ مُنِعوا من القتال لسنواتٍ قبلها. إنّ الإسلام انتشر بالحقِّ الكامن فيه، وبالنورِ المنبعثِ من جنباته. ولكنّ الحقَّ الذي لا تدعمه القوةُ يستهينُ به الناس. ولم يكن السيفُ إلّا لإزالةِ العوائق أمام الدعوة، وإلّا فإنّ بلادًا كثيرةً فُتِحت بأخلاقِ التجّارِ المسلمين.

6- علمتنا غزوةُ بدرٍ أهمَّ درسٍ في القيادة: الأخذُ بالشورى، وضربُ الرأي بالرأي، لِما فيه مصلحةُ الأمة. قبل المعركةِ يقولُ النبيُّ ﷺ: أشيروا عليّ أيها الناس. ولما رأى فيهم ما يسرُّ قلبه، سار بهم إلى القتال. وفي ترتيباتِ الحرب ينزلُ ﷺ على رأيِ الحبابِ بن المنذر: لنجعلَ آبارَ بدرٍ خلفَ ظهورنا فنشرب ولا يشربون، ما دام الأمر رأيًا وحربًا ومكيدة. وبعد المعركة يستشيرُ ﷺ أصحابه في الأسرى. ولو استغنى قائدٌ عن الشورى لكان رسولُ الله ﷺ أغناهم.

7- علمتنا غزوةُ بدرٍ أن الدعاءَ أخذٌ بالأسباب أيضًا. ولو استغنى أحدٌ عن الدعاء يومًا لاستغنى عنه رسولُ الله ﷺ يوم بدر. إنها حربُ الإيمان الذي لا لَبس فيه، ضد الشركِ الذي لا لَبس فيه. ولكنّ النبيّ ﷺ كان يدعو ملءَ قلبه: اللهم نصرك الذي وعدت، اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبدَ في الأرض أبدًا.

8- علمتنا غزوةُ بدرٍ أنّ الجنةَ تحت ظلالِ السيوف، وأنّ الجهاد عبادة. وأنّ الربَّ الذي قال: كُتِبَ عليكمُ الصيامُ، هو الذي قال: كُتِبَ عليكمُ القتال. ولهذا لم يقل ﷺ لأصحابه: قوموا إلى الحرب، وإنّما قال: قوموا إلى جنة عرضُها السمواتُ والأرض. فطاب هناك الموتُ، وألقى عميرُ بنُ الحمام تمراتٍ من يده، وقال: إنّها لحياةٌ طويلةٌ إن بقيتُ حتى آكلَ تمراتي هذه.

9- علمتنا غزوةُ بدرٍ أنّ النبلاءَ لا يشغلُهم النصرُ عن الوفاء. عندما رُجم النبيُّ ﷺ في الطائف، ومَنعته قريشٌ من دخولِ مكة، أنزله مطعم بن عديّ في جواره. فلما رأى ﷺ أسرى المشركين في قيودهم قال: لو كان مطعمُ بن عديّ حيًا وكلّمني في هؤلاء لأطلقتُهم له. يا للوفاءِ يا رسولَ الله، تُطلِقُ من حاربوك لأجلِ مشركٍ صنعَ معك معروفًا.

10- علمتنا غزوةُ بدرٍ أن القائدَ لا يُخبّئ أقاربَه ويلقي بأولادِ الناس في أتون المعارك. فعندما حانت لحظةُ البدء، واصطفَّ الجيشانِ للمبارزة، أرسل النبيُّ ﷺ أحبَّ أعمامه إليه: سيدَ الشهداء حمزة، وصهرَه وحبيبَه عليَّ بن أبي طالب، وابنَ عمّه الآخر عبيدةَ بنَ الحارث بنِ عبد المطلب.

غَزوَةُ بني قَينُقاع!

أوّلُ الثالوثِ اليهوديّ يُكسرا

إنّهم اليهود، الغدر عندهم طبع، والخيانةُ فيهم أصلٌ. عاهدوا فخلفوا العهد، وأمنوا فخانوا. إنّ الغدر عندهم كالسمّ في العروق، يتسلّل إلى كلّ وعدٍ، ويفسدُ كلّ عهدٍ؛ ومهما علا صوتُ الحقّ، وسطع نورُ العدل، يبقى هذا الطبعُ فيهم كالموجِ لا يهدأ، وكالجمرِ وإن خبا فإنّه يتحيّن لحظة وقودٍ ليشتعلَ من جديد.

عندما انتصر المسلمون على قريشٍ في بدرٍ، امتلأت قلوبُ اليهودِ في المدينة غيظًا. وكانت بنو قَينُقاع أشدّ الثالوثِ اليهوديّ في هذا، فقد كانوا يسكنون المدينةَ لا حوافَها، وكانوا يُمسكون بصناعة الحديدِ، ويحتكرون صياغةَ الذهب، ولهذا توافَر عندهم المالُ والسلاح، وكان عندهم جيشٌ قِوامُه سبعمائةِ فارس. فغرّتهم أنفسهم، فكانوا يسخرون من المسلمين ويؤذونهم في السوق، وزاد في غيّهم ما بلغ من تجريحِهم في النساء إذا غشِينَ السوق.

فبلغ النبيّ ﷺ ذلك، وكان كعادته لا يجعل السيفَ أوّلَ ما يَلوح، فأراد أن ينهاهم بالحسنى، علّه يُجنّبهم ويُجنّب نفسَه مواجهةَ الجميعُ في غِنى عنها. فجاء إليهم في سوقهم، وجمعهم على صعيدٍ واحدٍ، وقال لهم مُهدِّدًا ومُحذِّرًا: يا مَعشرَ يهود، أسلِموا قبل أن يُصيبَكم ما أصابَ قريشًا!

فقالوا مُتعاظِمين متبجّحين: يا محمد، لا يَغُرّنك من نفسك أنّك قتلتَ نفرًا من قريشٍ كانوا غِمارًا لا يَعرفون القتال، إنّك لو قاتلتنا لَعرَفتَ أنّا نحنُ الناسُ، وأنّك لم تَلقَ مثلَنا!

كظمَ النبيّ ﷺ غيظَهُ وسمعها منهم ولم يردّ عليهم، وعاد أدراجَه، ولكنّ اللئيمَ يفهم الحِلمَ ضعفًا، ويحسب التَرَوّيَ جُبناً؛ فزاد بنو قينقاع في أذاهم، إلى أن كان يومٌ جاءت فيه امرأةٌ من المسلمين إلى سوق بني قينقاع،

فجلست إلى صائغ من اليهود، فجعلوا يريدونها أن تكشف وجهها، فأبت. فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهي غيرُ منتبهة، فلما قامت انكشفت عورتُها، فضحكوا بها، فصاحت بأعلى صوتها.

فوثب رجلٌ من المسلمين على الصائغ فقتله، وقام اليهود إلى الرجل فقتلوه، وانتشر الخبر في المدينة!

عندها غضب النبيُّ ﷺ، وقديمًا قالت العرب: احذر صولة الحليم إذا غضب!

فارتفع النداءُ الخالد: يا خيلَ الله اركبي!

وأعطى النبيُّ ﷺ الرايةَ لرئيس هيئة أركانه حمزةَ بنِ عبدِ المطلب، وسار بالجيش إلى بني قينقاع.

فلما رأوه دخلوا إلى حصنهم وأغلقوا على أنفسهم الباب، فضرب النبيُّ ﷺ عليهم حصارًا خانقًا. ولما رأوا منه الجدَّ، وأنه لا هوادة، وأنهم إن لم يستسلموا فإنّه قاتلُهم لا محالة، نزلوا على حكمه. عندها أمرَ النبيُّ ﷺ بوثاقهم.

فقام زعيمُ المنافقين عبدُ اللهِ بنُ أبيّ بنِ سلولَ، وقال للنبيِّ ﷺ: يا محمد، أحسِنْ في مواليّ!

وكان بنو قَينقاع حلفاءه قبل مقدم النبيِّ ﷺ المدينة. فأعرض عنه النبيُّ ﷺ ولم يُجِبه، فكرّر مقالته، فزادَه النبيُّ ﷺ إعراضًا، فأدخل يدَه في جيب النبيِّ ﷺ ناحية صدره، فقال له النبيُّ ﷺ غاضبًا: وَيْحَكَ! أرسِلْني!

فقال: لا واللهِ لا أرسِلُكَ حتى تُحسِنَ في مواليّ، أربعمئةُ حاسرٍ، وثلاثمئةُ دارعٍ، قد مَنَعوني الأبيضَ والأسودَ، وتحصُدُهم في غداةٍ واحدة؟!

ولأنّ ابنَ سلول كان مُطاعًا في قومه، وكفاكَ اللهُ شرَّ الأحمقِ المُطاع، ولم يكن قد مضى على إظهاره إسلامَه غيرُ شهرين، وهبهم النبيُّ ﷺ له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يُجاوروه فيها، فخرجوا إلى الشام.

ومن هذا المشهد نتعلّم أن الوفاء بالعهود هو عماد الأمانِ الاجتماعيّ والسياسيّ، وأنّ أيّ خيانةٍ تزرعُ الشك وتهدّدُ استقرارَ المجتمع، مهما بدا الطرفُ المعتدي قويًا. فالحزمُ مع المخطئ، والرحمةُ مع المظلوم، هو سبيلُ القيادةِ الحكيمة، كما علّمنا النبيّ ﷺ.

إنّ غزوةَ بني قَينُقاع تذكّرنا أن التحالفات والثقة بين الجماعات ليست مجردَ كلماتٍ على الورق، بل هي صروحٌ تُبنى بالتفاهم والأمانة، ولا تنهارُ إلا إذا هدمتها الخيانة. وأنّ الإجراءاتِ الوقائية، كالحصار والحذر، أحيانًا تفعلُ ما لا يفعله السيفُ؛ فهي تحفظُ الأرواح، وتحمي المجتمع من الانهيار.

ومن أعظمِ الدروس أنّ الخيانة لا تهدّدُ الفردَ وحده، بل تهدّدُ كلّ جدران الثقةِ التي يرتكزُ عليها المجتمع، وأنّ الحفاظَ على العهودِ والمواثيق هو ما يجعلُ السلامَ والأمنَ ثابتين كجبلٍ شامخٍ لا تهزّه الرياحُ العاتية.

هكذا، تركت لنا هذه الغزوةُ عِبرةً تترددُ في صفحاتِ التاريخ: الحزمُ مع المفسد، والرحمةُ مع المظلومِ، والوفاءُ بالعهودِ أساسُ كلّ مجتمعٍ صالحٍ وكلّ قائدٍ حكيم. ففي كلّ قرارٍ، وفي كلّ تعاملٍ، يظلُّ درسُ بني قَينُقاع حيًا، يهمس: من ينكثُ العهدَ يهدمُ السلام، ومن يحفظُه يزرعُ الأمن، ومن يجمعُ بين الحزمِ والرحمة يحفظُ الإنسانيةَ نفسها!

إغتيال كعبِ بن الأشرف!

عمليّةٌ خَلْفَ خُطوطِ العَدُوّ!

كان كعبُ بنُ الأشرف من أشدِّ اليهودِ بغضًا للمسلمين، وإيذاءً للنبيِّ ﷺ؛ ذلك أنّه لما أشرقت دولةُ الحقِّ في المدينة، وأضاءتْ شمسُ الإسلامِ قلبَ يثرب، لم يحتمل قلبُه المظلمُ ذلك النور، فراح يشحذُ سيفَ لسانه، ينالُ من عِرضِ النبيِّ ﷺ، ويُهيِّجُ العداوةَ، ويَسكبُ سُمًّا في آذانِ القبائل!

ولمّا وقعت بدرٌ، وارتجّت الجزيرةُ العربيّةُ لهيبة النصر، لم يجد كعبٌ في قلبه غير نارٍ تتأجّج؛ فراح يندبُ قتلى قريش، لا رحمةً بهم، بل حقدًا على النبيِّ ﷺ وأصحابه. ثمّ تجاوزَ الشتمَ إلى التحريض، والتحريضَ إلى الوعد، والوعدَ إلى القَسَم، أنّه لن يقرَّ له جفنٌ حتى يطفئَ نورَ هذا الدين.

وبلسانٍ كَذِبٍ، حين بلغه مصرعُ صناديدِ قريش، قال: هؤلاء أشرافُ العربِ وملوكُ الناس، واللهِ إن كان محمدٌ أصاب هؤلاء القومَ لَبطنُ الأرضِ خيرٌ من ظهرِها!

وحينئذٍ قال رسولُ اللهِ ﷺ: مَن لِكعبِ بنِ الأشرف؟ فإنّه آذى الله ورسولَه!

فانتدب له محمدُ بنُ مَسلَمة، وعبّادُ بنُ بِشر، وأبو نائلة واسمه سِلْكانُ بنُ سلامة، وهو أخو كعبِ بنِ الأشرفِ من الرضاعة، والحارثُ بنُ أوس، وأبو عَبسِ بنُ جَبرٍ، وكان قائدُ هذه الكتيبةِ التي ستعملُ خلفَ خطوطِ العدوّ محمدُ بنُ مَسلَمة.

وقال محمدُ بنُ مَسلَمة للنبيِّ ﷺ: يا رسولَ الله، أتحبُّ أن أقتلَه؟

قال: نعم.

قال: فَأْذَنْ لي أن أقولَ شيئًا!

قال: قُلْ.

فأتاه محمدُ بنُ مَسلَمة، فقال: إنَّ هذا الرجلَ قد سألنا صدقةً، وإنه قد عنانا.

قال كعب: والله لَتَمَلُّنَّه.

قال محمدُ بنُ مَسلَمة: فإنّا قد اتّبعناه، فلا نُحبُّ أن ندعه حتى ننظرَ إلى أيِّ شيءٍ يصيرُ شأنُه؟ وقد أردنا أن تُسلفنا وسقًا أو وسقين.

قال كعب: نعم، أرهِنوني.

قال ابنُ مَسلَمة: أيَّ شيءٍ تريد؟

قال: أرهِنوني نساءَكم.

قال: كيف نَرهَنُك نساءَنا وأنت أجملُ العرب؟

قال: فترهَنوني أبناءَكم.

قال: كيف نَرهَنُك أبناءَنا فيُسَبُّ أحدُهم، فيُقال: رُهِن بوسقٍ أو وسقَين؟ هذا عارٌ علينا، ولكنّا نَرهَنُك اللأمةَ، يعني السلاح.

فواعده أن يأتيَه.

وصنع أبو نائلة مثلَ ما صنع محمدُ بنُ مَسلَمة؛ فقد جاء كعبًا فتناشَد معه أطرافَ الأشعارِ سُوَيعةً، ثم قال له: ويحك يا ابنَ الأشرف، إنّي قد جئتُ لحاجةٍ أريد ذكرها لك، فاكتم عنّي.

قال كعب: أفعل.

قال أبو نائلة: كان قدومُ هذا الرجلِ علينا بلاءً؛ عادَتْنا العرب، ورَمَتْنا عن قوسٍ واحدة، وقَطَعَتْ عنّا السُّبُل، حتى ضاع العيالُ، وجَهَدَتِ الأنفس، وأصبحنا قد جَهِدْنا وجهدَ عيالُنا، ودار الحوارُ على نحوِ ما دار مع ابنِ مَسلَمة، وقال أبو نائلة أثناء حديثه: إنَّ معي أصحابًا لي على مثلِ رأيي، وقد أردتُ أن آتيَكَ بهم فتبيعَهم، وتُحسنَ في ذلك.

وقد نجح ابنُ مَسلَمة وأبو نائلة في هذا الحوارِ إلى ما قَصَدا، فإنَّ كعبًا لن

يُنكز معهما السلاح والأصحابَ بعد هذا الحوار.

وفي ليلةٍ مُقمِرة، اجتمعت هذه الكتيبةُ إلى رسولِ الله ﷺ، فشيّعهم إلى بقيعِ الغرقد، ثمّ وجّههم قائلًا: انطلقوا على اسمِ الله، اللهمّ أعنْهم!

ثم رجع إلى بيته، وطفق يُصلّي ويُناجي ربّه.

ووصلت الكتيبةُ إلى حِصن كعبِ بنِ الأشرف، فهتف به أبو نائلة، فقام لينزلَ إليهم.

فقالت له امرأته: أين تخرجُ هذه الساعة؟ أسمعُ صوتًا كأنه يقطرُ منه الدم!

قال كعب: إنما هو أخي محمدُ بنُ مَسلَمة، ورَضِيعِي أبو نائلة، إنّ الكريم لو دُعِي إلى طَعنةٍ أجاب.

ثم خرج إليهم وهو متطيّبٌ ينفخ رأسه.

وكان أبو نائلة قال لأصحابه: إذا ما جاء فإنّي آخذٌ بشعره فأشمُّه، فإذا رأيتموني استمكنتُ منه من رأسه فَدُونَكم فاضربوه.

فلمّا نزل كعبٌ إليهم تحدّث معهم ساعةً، ثم قال أبو نائلة: هل لك يا ابنَ الأشرف أن نتماشى إلى شِعْبِ العجوز، فنتحدّث بقيةَ ليلتنا؟

قال: إن شئتم!

فخرجوا يتماشون.

فقال أبو نائلة وهو في الطريق: ما رأيتُ كالليلةِ طِيبًا أعطَرَ قطّ!

فَرِح كعبٌ بما سمع، فقال: عندي أعطرُ نساءِ العرب!

قال أبو نائلة: أتأذَنُ لي أن أشمَّ رأسك؟

قال: نعم.

فأدخل يدَه في رأسه فشمّه وأشمَّ أصحابَه.

ثم مشى ساعةً، ثم قال: أعود؟

قال كعب: نعم.

فعاد لمثلها وشمّه، حتى اطمأنّ.

ثم مشى ساعةً، ثم قال: أعود؟

قال: نعم.

فأدخل يدَه في رأسه، فلمّا استمكن منه قال: دونكم عدوّ الله!

فاختلفت عليه أسيافُهم، لكنّها لم تُغنِ شيئًا، فأخذ محمدُ بنُ مسلمة مِغوَلًا فوضعه في ثُنّتِه، ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته، فوقع عدوُّ اللهِ قتيلًا.

وكان قد صاح صيحةً شديدةً أفزعت من حوله، فلم يَبقَ حصنٌ إلّا أوقدت عليه النيران.

ورجعت الكتيبةُ وقد أصيب الحارثُ بنُ أوسٍ بذُبابِ بعضِ سيوفِ أصحابِه فَجُرِحَ ونزَفَ الدمَ. فلمّا بلغت الكتيبةُ حَرّةَ العريض، رأت أنّ الحارثَ ليس معهم، فوقفت ساعةً حتى أتاهم يتبعُ آثارهم، فاحتملوه.

حتى إذا بلغوا بقيعَ الغرقد كبّروا، وسمع رسولُ اللهِ ﷺ تكبيرَهم، فعرَفَ أنّهم قد قتلوه، فكبّر.

فلما انتهَوا إليه قال: أفلحتِ الوجوه!

قالوا: ووجهُك يا رسولَ الله.

ورَمَوا برأسِ الطاغيةِ بين يديه، فحمد اللهَ على قتله، وتفَلَ على جُرحِ الحارثِ فبرئ، ولم يُؤذِ بعده!

ولمّا علمت اليهودُ بمصرعِ طاغيتِها كعبِ بنِ الأشرف، دبَّ الرعبُ في قلوبِهم العنيدة، وعلموا أنّ الرسولَ ﷺ لن يتوانى في استخدامِ القوةِ حين يرى أنّ النصحَ لا يُجدي نفعًا لِمَن يريد العبثَ بالأمنِ وإثارةَ الاضطراباتِ وعدمَ احترامِ المواثيق؛ فلم يُحرّكوا ساكنًا لقتلِ طاغيتِهم، بل لزموا الهدوءَ، وتظاهروا بإيفاءِ العهود، واستكانوا، وأسرعتِ الأفاعي إلى جُحورها تختبئ

فيها.

وهكذا تفرّغ الرسولُ ﷺ لمواجهةِ الأخطارِ التي كان يتوقّع حدوثَها خارج المدينة، وأصبح المسلمون وقد تخفّف عنهم كثيرٌ من المتاعب الداخلية التي كانوا يتوجّسونها، ويشمّون رائحتها بين آونةٍ وأخرى.

ولأنّ السيرةَ واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ؛ هذه أهمُ الدروس المستفادة من حادثةِ اغتيال كعبِ بنِ الأشرف:

1- أنّ حرمةَ المجتمعِ فوق حرمةِ الأفراد، كان كعبٌ يُشعل نار الفتنة في المدينة، يُحرّض قريشًا، يهجو النبيّ ﷺ، ويثير الأذى ضدّ المؤمنين؛ فجاءت الحادثةُ لتؤكّد أنّ المجتمعَ حين يُهدّد في أمنه واستقراره، فإنّ الدولةَ تمتلك حقَّ الدفاعِ عنه وإزالة مصدرِ الخطر.

2- أنّ حريةَ الكلمةِ لا تعني حريةَ التحريضِ والخيانة، لم يُقتل كعبٌ لأنّه شاعر، بل لأنّه تجاوز حدودَ الكلمةِ إلى التحريضِ المباشر على الحربِ وتأليبِ الأعداءِ وإثارةِ الفوضى.

3- أنّ العهودَ تُحترم، ومَن ينقضها يتحمّلُ نتائجَه، كعبٌ كان في حِلفِ المدينة، ومع ذلك خانَ العهد؛ وخيانةُ العهودِ لم تكن تمرُّ دون حساب.

4- الحكمةُ في تنفيذِ القراراتِ الحسّاسة، اختار النبيّ ﷺ رجالًا يتحلّون بالكتمانِ والشجاعةِ والدقّة، وأنجزوا العمليةَ دون اضطرابٍ داخلَ المدينة.

5- أنّ القيادةَ لا تتهاون مع الفتن، لو تُرِك كعبٌ لوسّع دائرةَ التحريضِ ضدّ المسلمين؛ فكان من الحكمةِ قطعُ الشرِّ من جذوره.

6- أنّ الأمنَ نعمةٌ لا تُترَك للمصادفات، الخطرُ الداخليّ أخطرُ من الخارجيّ؛ فكان الحزمُ ضرورةً لصونِ المدينة.

7- أنّ الأخلاقَ لا تتعارضُ مع الحزم، النبيُّ ﷺ أرحمُ الناس، ولكن رحمتَهُ لا تعني تركَ المفسدين يعبثون بأمنِ المجتمع.

غزوةُ أُحدٍ!

هزيمةٌ تُربِّيك خيرٌ من نصرٍ يُطغيك!

خرجت قُريشُ من غزوة بدرٍ مُثخنةً، ومرّغ الإسلامُ كبرياءَها في التّراب، وقتلَ أبرزَ رُؤوسِ الكفرِ فيها، لهذا لم تكُن غزوةُ أُحدٍ مجرّد جولةٍ ثانيةٍ من صراعِ الحقِّ والباطلِ، كانتْ بالنسبةِ إلى قُريشٍ تعني الثأر، أمّا المُسلمون فقد كانوا على موعدٍ مع واحدٍ من أبلغِ الدُّروسِ في تاريخِ الإسلام!

خرج مشركو قريشٍ من غزوةِ بدرٍ وقد وَهَنتْ قواهم، حيث فرّقَ المُسلمونَ شملَهم، وقتلوا أشرافَهم، وأضعفوا شوكتَهم بين قبائلِ الجزيرةِ العربيّةِ، وقطعوا طريقَ قوافلِهم إلى الشّامِ!

فكان لا بُدّ لهم مِن الثّأرِ، وردِّ الهزيمةِ على المُسلمينَ، وكسرِ شوكتِهم، فجمع أبو سُفيان ثلاثةَ آلافِ مقاتلٍ مِن قُريشٍ وكِنانةَ والأحابيشِ، وخرجتْ معهمُ النّساءُ ليُشجّعنَ الرِّجالَ على القتالِ، ومن بينهنّ هِندُ بنتُ عُتبةَ زوجةُ أبي سفيان، وكان قلبُها يشتعلُ بنارِ الألمِ لمقتلِ أبيها وأخيها في غزوةِ بدرٍ، ونظّمَ الكفّارُ جيشَهم فجعلوا قيادةَ الجيشِ لأبي سفيان، وقيادةَ الفُرسانِ لخالدِ بنِ الوليدِ، ومعه عِكرمةُ بنُ أبي جهلٍ.

وتوجّه الجيشُ إلى المدينةِ، وعلم المُسلمونَ بتحرُّكِ المشركينَ وقُدومِهم إليهم فحملوا أسلحتَهم، والتفُّوا حول نبيِّهم ﷺ، وظلُّوا حارسينَ لمدينتِهم ليلَ نهارَ، وإذا بالرّسولِ ﷺ يجمعُ أصحابَه، ويستشيرُهم في الأمرِ، فرأى بعضُهم ألّا يخرجَ المُسلمونَ من المدينةِ، وأن يتحصّنوا فيها، فإذا دخلها المشركونَ قاتلَهم المُسلمونَ في الطُّرقاتِ وحصدوهم حصدًا، فهم أعلمُ بمسالكِ مدينتِهم، ورأى البعضُ الآخرُ، وخاصّةً الّذين لم يشهدوا القتالَ يومَ بدرٍ، أن يخرجوا لمُلاقاةِ المشركينَ خارجَ المدينةِ.

وكان الرّسولُ ﷺ من أصحابِ الرّأي الأوّلِ، ومع ذلك وافق على الرّأي الثاني، لأنّ أصحابَ هذا الرّأي ألحّوا عليه، ولم يكنِ الوحيُ قد نزل بأمرٍ

محددٍ في هذا الشأنِ، ودخل الرّسولُ ﷺ بيته ولَبس ملابس الحرب، وخرج إلى النّاس، وشعر الصّحابةُ الذين أشاروا عليه بالخروج بأنّهم أكرهوه على ذلك، فقالوا له: استكرهناك يا رسولَ اللهِ، ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد!

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمته، أي درعه، أن يضعها حتّى يحكُمَ اللهُ بينه وبين عدوِّه!

وخرج النّبيُّ ﷺ مِن المدينةِ في ألفٍ مِن أصحابه، في شوّال سنة ثلاثٍ من الهجرةِ، حتّى إذا كانوا بين المدينةِ وأُحُدٍ، رجع عبدُ اللهِ بنُ أُبَيّ بن سلولٍ بثلثِ الجيشِ، وتبعهم عبدُ اللهِ بنُ حرامٍ يُناشدُهمُ اللهَ أن يرجعوا، ولا يخذلوا نبيّهم، وينصحُهم بالثّباتِ، ويُذكّرُهم بواجبِ الدّفاعِ عن المدينةِ ضدّ المُغيرين، ولكنّ الإيمانَ باللهِ ورسولِه واليومِ الآخرِ لم يكن ثابتًا في قلوبهم، ولذلك لم يستجيبوا له، وقال ابنُ سلولٍ: لو نعلمُ قتالًا لاتّبعناكم!

وأعطى النّبيُّ ﷺ لواءَ المُسلمين إلى مُصعبِ بنِ عُمير.

وجعل النّبيُّ ﷺ يستعرضُ الجيش يومئذٍ، فردَّ الصّغارَ الذين لا يقدِرون على القتالِ، وكان منهم يومئذٍ: عبدُ اللهِ بنُ عمرَ، وأُسامةُ بنُ زيدٍ، والبراءُ بنُ عازبٍ، وزيدُ بنُ أرقمَ وعمرو بنُ حزمٍ.

وهذا رافعُ بنُ خديجٍ عمرُه خمسَ عشرةَ سنةً يريدُ أن يُشاركَ في المعركةِ، فيلبسُ خُفّينِ في قدمَيه ليبدو طويلًا، فلا يردّه رسولُ اللهِ ﷺ، وتوسّط له عمُّه ظهيرٌ، فذكر لرسولِ اللهِ ﷺ أنّه يُجيدُ الرّمايةَ، فقبِلَه!

وعندئذٍ قال سمُرةُ بنُ جُندبٍ: أجازَ الرّسولُ ﷺ رافعًا وردّني وأنا أقوى، وأصرعُ رافعًا وأغلبه، فأمره النّبيُّ ﷺ أن يُصارِعَه، فغلب سمُرةُ رافعًا، فقبِلَه رسولُ اللهِ ﷺ، وهكذا كان الفتى المُسلمُ الصّغيرُ يحرصُ على التّضحيةِ بروحِه مِن أجلِ دينه والدّفاعِ عنه.

واقترح بعضُ الصّحابةِ الاستعانةَ باليهودِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: لا نستنصِرُ بأهلِ الشِّركِ على أهلِ الشِّركِ!

وعسكر المسلمونَ في شِعْبٍ في جبلِ أُحُدٍ، وجعلوا الجبل خلف ظهورهم، واختار النبيُّ ﷺ خمسينَ رجلًا يُحسنونَ الرماية، وجعل عبد الله بنَ جُبيرٍ قائدًا عليهم وقال لهم: لا تبرحوا أماكنكم، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تُشاركونا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينونا!

وهكذا أغلق البابَ أمام التفافِ الأعداء حول جيشه، وحمى يمينه بالجبالِ!

وفي صباحِ يومِ السبتِ، السابعِ مِن شهرِ شوَّال من السنة الثالثة للهجرة الشَّريفةِ، بدأتِ المعركةُ، وانقضَّ المسلمونَ على المشركين، فقتلوا حملة لواء المشركينَ، فكانوا يسقطونَ واحدًا بعد آخرَ، حتى سقط اللواءُ ولم يجد من يحملُه!

وكان الفارسُ الشُّجاعُ حمزةُ بنُ عبدِ المطَّلبِ ينقضُّ بسيفه على المشركينَ فيُطيحُ بهم، وكان وَحشيُّ بنُ حربٍ ينظرُ إلى حمزةَ مِن بعيدٍ ويتبعُه حيثُ كان، ذلك لأنَّ سيِّدَه جُبيرَ بنَ مُطعِمِ بنِ عديٍّ الَّذي قُتِلَ عمُّه طُعَيمةُ بنُ عديٍّ يومَ بدرٍ، قال لوَحشيٍّ: اخرج مع النَّاس، فإنْ أنتَ قتلتَ حمزةَ عمَّ محمَّد بعمِّي، فأنت عتيقٌ!

وكان وَحشيٌّ عبدًا حبشيًا يَقذفُ بالحربةِ بمهارةٍ شديدةٍ، فقلَّما يُخطئُ بها شيئًا، فاقتربَ وَحشيٌّ مِن حمزةَ، ورماه بالحربةِ فأصابَته، لكن حمزةَ لم يستسلِمْ، بل توجَّه إلى وحشيٍّ ودمُه ينزِفُ بغزارةٍ، فلم يستطعِ الوقوفَ على قدمَيه، فوقعَ شهيدًا في سبيلِ اللهِ، وسيطَر المسلمونَ على المعركةِ، وأكثروا القتلَ والأسرَ في جُنودِ المشركينَ، وحاول المشركونَ الفرارَ، فذهب المسلمونَ وراءَهم، فكان المشركونَ يتركونَ متاعَهم وسلاحَهم لينجُوا مِن القتلِ.

وكان الرُّماةُ على الجبلِ يُشاهِدونَ المعركةَ، فظنُّوا أنَّها قد انتهت بانتصارِ المسلمينَ، فتركوا أماكنَهم، ونزلوا مِن فوقِ الجبلِ ليُشارِكوا في جمعِ الغنائمِ، فتركوا ظهرَ المسلمينَ مكشوفًا لعدوِّهم، وقائدُهم عبدُ اللهِ بنُ جُبيرٍ يصرخُ

فيهم، وينهاهم، ويقول لهم: كيف تفعلون بقولِ رسولِ الله ﷺ: لا تبرحوا أماكنكم!

فلم يستمعوا إليه ونزلوا، ولم يبقَ مع ابنِ جُبيرٍ غيرُ سبعةٍ من الرُّماة!

فانتهز خالدُ بنُ الوليدِ قائدُ فُرسانِ المشركين فرصة الخطأ الّذي وقع فيه رُماةُ المُسلمينَ، فاستدار وجاء مِن خلف الجيش، وقتل من بقي من الرُّماة، فاختلّ نظامُ المُسلمينَ وارتبكوا، ونجح المشركونَ في قتل كثيرينَ منهم.

كلُّ هذا البلاء لأنّ بعضَ الرُّماةِ خالفوا أمرَ رسولِ الله ﷺ، وتبدّل الحالُ، وركّزَ المشركونَ على رسولِ اللهِ ﷺ ليقتلوه، ولكنّه ثبتَ لهم، وأخذ يُدافعُ عن نفسه، وحولَه بعضُ أصحابِه يذودونَ عنه، كان أكثرَهم استماتةً يومها طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ!

وكانت المرأةُ الأنصاريّةُ الشُّجاعةُ نُسيبةُ بنتُ كعبٍ تُدافعُ عن النّبيّ ﷺ كاللّبؤةِ، حتّى نجّى اللهُ رسولَه مِن الموتِ، ولكنّه تعرّضَ لإصاباتٍ كثيرةٍ في ركبتِه ووجهِه وأسنانه، وسال الدمُ على وجهه الشّريفِ، فأخذ يمسحُ الدمَ وهو يقولُ: كيف يفلحُ قومٌ شجّوا رأسَ نبيّهم وهو يدعوهم إلى ربّهم!

وأشاع المشركونَ أنّ النّبيّ ﷺ قد قُتِل، لكي يؤثّروا في عزيمةِ المُسلمينَ، ويُثيروا الذُّعرَ بينهم، ولكن رسولَ اللهِ ﷺ نادى أصحابَه: هَلُمّ إليّ عِبادَ اللهِ!

فاجتمع حولَه عددٌ مِن أصحابِه، وارتفعت روحُهم المعنويّةُ، وظلَّ النّبيُّ ﷺ ومَن ثبتَ معه في أرضِ المعركةِ، بل قاتلوا حتّى اللّحظةِ الأخيرةِ، إلى أنِ اكتفتْ قُريشٌ بما حقّقتْ وانصرفوا بعد انتهاء المعركةِ.

ولمّا انقضتِ الحربُ، صعد أبو سفيان على مكانٍ مرتفعٍ، ونادى في المُسلمينَ: أفيكم محمّدٌ؟ فلم يردّ عليه أحدٌ!

فقال: أفيكم أبو بكرٍ؟ فلم يردّ عليه أحدٌ!

فقال: أفيكم عُمرُ بنُ الخطّابِ؟ فلم يردّ عليه أحدٌ!

فقال: أمّا هؤلاء فقد قُتِلوا، فلم يتمالكْ عُمرُ نفسَه، فردّ عليه قائلًا: يا عدوّ

اللهِ، إنَّ الذين ذكرتهم أحياءٌ، وقد أبقى اللهُ لك ما يسوءُك!

ثمَّ قال أبو سفيان: أُعْلُ هُبَل!

فقال النبيُّ ﷺ: ألا تُجيبونه؟

قالوا: ما نقولُ؟

قال: قولوا: اللهُ أعلى وأجلُّ!

ثمَّ قال أبو سفيان: لنا العُزّى ولا عُزّى لكم!

فقال النبيُّ ﷺ: ألا تُجيبونه؟

فقالوا: ما نقولُ؟

قال: قولوا: اللهُ مولانا ولا مولى لكم!

فقال أبو سفيان: يا محمَّد، يومٌ بيومٍ، يومٌ نُساءُ ويومٌ نُسَرُّ!

فقال النبيُّ ﷺ: ألا تُجيبونه؟

فقالوا: ما نقولُ؟

قال: ليسوا سواءً، قَتلانا في الجنَّة وقتلاكم في النّار!

وعاد المشركونَ إلى مكّة، وقد انتشرتْ في ساحةِ القتالِ جُثثُ شهداءِ المُسلمينَ وقتلى الكفّارِ، وقد ارتوتِ الرّمالُ بدماءِ الشُّهداءِ الطّاهرةِ الّتي أُريقت مِن أجلِ الإسلامِ، فيا له مِن مشهدٍ حزينٍ!

سبعونَ شهيدًا مِن المُسلمينَ، واثنانِ وعشرونَ قتيلًا مِن المشركينَ، وحزنَ المُسلمونَ حُزنًا شديدًا على شهدائِهم، ووقفَ رسولُ اللهِ ﷺ حزينًا ينظرُ إلى جثّةِ عمِّه حمزةَ وقد مُثِّلَ به الأعداءُ، فأقسم لَيُمَثِّلَنَّ بسبعينَ مِن الكفّارِ إن نصره اللهُ عليهم بعد ذلك، فنزل قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾.

تجلّت صُوَرٌ رائعةٌ مِن البطولةِ والشَّجاعةِ والإيمانِ لرجالِ ونساءِ المُسلمينَ

في غزوةِ أُحُدٍ، وكذلك حدثت بعضُ المعجزاتِ، لتكونَ عِظةً وذكرى وتبصرةً للمؤمنين، فهذا أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ يُقبِلُ على النبيِّ ﷺ، وكان قد حلف أن يقتله، وأيقن أنَّ الفرصةَ قد حانت، فجاء يقولُ: يا كذَّابُ، أين تفرُّ؟

وحمل على رسولِ اللهِ ﷺ بسيفِه!

فقال النبيُّ ﷺ: بل أنا قاتلُه إن شاء الله!

وطعنه رسولُ اللهِ ﷺ طعنةً وقع منها، فما لبِث أن مات.

ويمسك رسولُ اللهِ ﷺ بسيفِه قبلَ بدءِ المعركةِ ويقولُ: من يأخذ هذا السَّيفَ بحقِّه؟

فتأخَّر القومُ، فقال أبو دُجانةَ: وما حقُّه يا رسولَ اللهِ؟

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: أن تضربَ به في العدوِّ حتَّى ينحني!

فقال أبو دجانةَ: أنا آخذُه بحقِّه!

فأعطاه إيَّاه. وكان أبو دجانةَ رجلًا شجاعًا يختالُ عند الحربِ، وكانت له عصابةٌ حمراءُ إذا اعتصبَ بها فإنَّه يُقاتلُ حتَّى الموتِ، فأخذ أبو دجانةَ السَّيفَ يضربُ به المشركين.

وأثناءَ المعركةِ رأى أبو دجانةَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ قد أصبح هدفًا لِنبالِ المشركينَ بعد أن فرَّ المسلمونَ، فأسرع أبو دجانةَ واحتضَن الرَّسولَ ﷺ، فصار النَّبلُ يقعُ على ظهرِ أبي دجانةَ وهو منحنٍ على جسدِ النَّبيِّ ﷺ حتَّى انتهتِ المعركةُ.

ومرَّ أنسُ بنُ النَّضرِ على بعضِ الصَّحابةِ فوجدهم لا يُقاتلونَ، وعندما سألهم عن سببِ امتناعِهم عن القتالِ، قالوا: قُتِل رسولُ اللهِ ﷺ!

فقال أنسٌ: وما تصنعونَ بالحياةِ بعدَه؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه رسولُ اللهِ ﷺ!

ثمَّ توجَّه إلى اللهِ تعالى وقال: اللهمَّ إنِّي أعتذرُ إليك ممَّا صنع هؤلاءِ، يعني

المسلمينَ الَّذين قعدوا، وأبرأ إليكَ ممّا صنع هؤلاء، يعني المشركين!

وظلّ أنس يُقاتلُ حتّى قُتِل، فوجدوا في جسدِه بضعًا وثمانين جُرحًا ما بين طعنةٍ برمحٍ أو ضربةٍ بسيفٍ أو رَميةٍ بسهمٍ، فما عرفه أحدٌ إلّا أختُه بعلامةٍ كانت تعرفُها في إصبعِه.

وهذا غسيلُ الملائكةِ حنظلةُ بنُ أبي عامرٍ، الّذي تزوّج جميلة بنت عبد الله بنِ أُبيّ بنِ سلولٍ، وفي اليومِ التّالي لزواجِه يسمعُ نداء القتالِ، فيخرجُ وهو جُنُبٌ مُلبّيًا النّداءَ، ويُقاتلُ في سبيلِ اللهِ حتّى يُقتل، فقال رسولُ الله ﷺ: إنّ صاحبَكم تغسلُه الملائكةُ!

وهذا قَتادةُ بنُ النّعمانِ أُصيبَت عينُه، ووقعت على خدِّه، فأتى رسول اللهِ ﷺ، فأخذ رسولُ اللهِ ﷺ عينَه بيدِه، وردّها إلى موضعِها، وقال: اللهمّ أكسِبه جمالًا!

فكانت أحسنَ عينيْه، وأحدّهما نظرًا، وكانت لا ترمَدُ إذا رَمِدَتِ الأخرى.

ولم تكنِ النّساءُ أقلَّ بطولةً مِن الرّجالِ، فهذه صفيّةُ بنتُ عبدِ المطّلبِ، لمّا رأت المُسلمينَ قد انهزموا، وفرّ بعضُهم مِن ميدانِ المعركةِ، أمسكت رُمحًا تضربُ به مَن فرّ مِن المُسلمينَ، وتحثُّه على العودةِ إلى القتالِ، ولمّا علمت بمقتلِ أخيها حمزةَ ذهبت لتنظرَ إليه، فلقيَها الزُّبيرُ، فقال: يا أُمّاه، إنّ رسولَ اللهِ ﷺ يأمرُكِ أن ترجعي!

قالت: ولِمَ؟ وقد بلغني أنّه قد مُثّل بأخي، وذلك في اللهِ، لأصبرنّ، وأحتسبنّ إن شاءَ اللهُ.

فلمّا جاء الزُّبيرُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ أخبره بذلك.

قال: خَلُّوا سبيلَها!

فنظرت إليه، فصلّتْ عليه، واسترجعتْ واستغفرتْ له.

ومرّ رسولُ اللهِ ﷺ بامرأةٍ مِن بني دينارٍ، وقد أُصيب زوجُها وأخوها وأبوها مع رسولِ اللهِ ﷺ، فلمّا ذكروا لها ما حدث لأخيها ولأبيها ولزوجِها

قالت: فما فعل رسولُ اللهِ ﷺ؟

قالوا: خيرًا، هو بحمدِ اللهِ كما تُحبّين!

قالت: أروني حتّى أنظرَ إليه!

فأشاروا إليه، حتى إذا رأته قالت له: كلُّ مصيبةٍ بعدك جلل، أي صغيرةٌ!

فإن كانت غزوةُ أُحدٍ قد انتهت، فإنّ مهمّةَ الرُّماة الّذين يحفظون ظهور المُسلمينَ لم تنتهِ بعدُ، فطوبى للمدافعينَ عن هذا الدِّين كلٌّ في مجاله، طوبى للقابضينَ على الجمرِ رافضي الانحناءِ والتلوُّنِ، كلّما وهنوا قليلًا تعزَّوا بصوتِ النّبيّ ﷺ يُنادي فيهم: لا تبرحوا أماكنكم!

فلا تبرحوا أماكنكم!

الأُمّهاتُ اللّواتي يُربّينَ أولادَهُنّ على الصّلاة والصّيامِ والأخلاقِ، أنتُنّ تحمينَ ظهورَنا، فلا تبرحنَ أماكنكُنّ!

الآباءُ الذين يسألونَ أولادَهم عن جزءِ -(عَمّ)- كما يسألونَهم عن علاماتِهم المدرسيّةِ، أنتم تحمونَ ظهورَنا، فلا تبرحوا أماكنكم!

المُدرّسونَ الذين يُؤمنونَ أنّ هذا الجيلَ إذا تربّى جيّدًا يُمكن أن يخرج منه أبو بكرٍ وعُمرُ وعثمانُ وعليٌّ مرّةً أخرى، أنتم تحمونَ ظهورَنا، فلا تبرحوا أماكنكم!

الموظّفونَ الذين يُؤدّونَ أعمالَهم بمهنيّةٍ وضميرٍ، ويُراقبونَ اللهَ قبلَ مُدرائِهم، أنتم تحمونَ ظهورَنا، فلا تبرحوا أماكنكم!

المُهندسونَ الذين يُشيّدونَ الجسورَ، ويشقّون الطُّرقَ دون غشٍّ واحتيالٍ وصفقاتٍ مشبوهةٍ، أنتم تحمونَ ظهورَنا، فلا تبرحوا أماكنكم!

فتياتُ الحجابِ والعِفّةِ اللّواتي يُربّينَ أنفسهُنّ استعدادًا لتربيةِ أولادِهنّ، أنتُنّ تحمينَ ظهورَنا، فلا تبرحنَ أماكنكُنّ!

شبابُ صلاةِ الفجرِ، ومجالسِ الحديثِ، ودورِ القرآنِ، أنتم تُرسانةُ الإسلامِ

الأفتك والأقوى، فلا تبرحوا أماكنكم!

كلُّ واحدٍ فينا لو تأمَّل موضعَ قدمَيه لاكتشف أنَّه جنديٌّ لأجلِ هذا الدِّين، وأنَّه لو حارب بشراسةٍ وأمانةٍ فإنَّه سيسدُّ ثغرًا هامًا، ويدفعُ خطرًا عظيمًا، كلُّ واحدٍ منَّا في مكانٍ وضعه اللهُ فيه، وألقى على كتفه مسؤوليَّةً وأمانةً، فلا تبرحوا أماكنكم!

ولأنَّ السِّيرةَ واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، انقضتْ غزوةُ أُحدٍ، أمَّا دروسها فما زالت صالحةً لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهذه هي أهمُّ الدُّروس المُستفادة منها:

1 - قد يخسرُ الحقُّ معركةً، ولكنَّه في نهايةِ المطافِ يكسبُ الحرب، علينا ألَّا ننشغلَ بالنَّصرِ والهزيمةِ بقدرِ انشغالِنا في أن نكونَ في صفِّ الحقِّ فعلًا، وبعيدًا عن صفِّ الباطلِ فعلًا! نحن في نهايةِ المطافِ لن نُسألَ عن النَّتائج وإنَّما عن السَّعي، ولن نُسألَ عن الوصولِ وإنَّما عن المسيرِ، قَتلى المُسلمينَ في غزوةِ أُحدٍ شهداءُ في الجنَّة رغمَ هزيمتِهم، وقتلى المشركينَ جِيَفٌ في النَّار رغمَ انتصارِهم، فالعِبرةُ ليست في البقاءِ على قيدِ الحياةِ، وإنَّما بالبقاءِ على المنهجِ أو الموتِ عليه، وإنَّ أصحابَ الأُخدودِ أُبيدوا عن بكرةِ أبيهم، ولكنَّهم قد حطُّوا رحالَهم في الجنَّة بعد أنِ امتطوا صهوةَ اللَّهبِ، والماشِطةُ وأولادُها كان الزَّيتُ المغليُّ مَركبَهم نحو الخلودِ!

2 - معصيةُ أمرٍ واحدٍ مِن أوامرِ النَّبيِّ ﷺ أدَّتْ إلى الهزيمةِ يومَ أُحدٍ، فلا تُمنِّي الأُمَّةُ نفسَها بالنَّصرِ بغيرِ طاعةِ أوامرِ نبيِّها، لا نصرَ إلَّا بالطَّاعةِ. فإن لاذتِ الأُمَّةُ باللهِ نصرَها، ولو قلَّتْ أسبابُها المادِّيَّةُ، وإنِ ابتعدتْ عنه تركَها لما بين يديها مِن أسبابٍ!

3 - النَّصرُ والهزيمةُ مجرَّدُ طقسٍ، أمَّا الإيمانُ فمناخٌ، فلا يجعلنَّكم تقلُّبُ الطَّقسِ تشكُّونَ في صحَّةِ المناخِ! نعم، هُزِمَ المُسلمون، ولكنَّهم كانوا على حقٍّ، وانتصرَ المشركونَ، ولكنَّهم كانوا على باطلٍ!

4 - هزيمةٌ تجعلك تلجأ إلى اللهِ، خيرٌ مِن نصرٍ يجعلك تطغى، وسُبحانَ مَن يُؤدِّبُ عبادَه بما يكرهونَ ليجعلَهم له كما يُحبُّ! ولو انتصر المُسلمونَ يومَ

أحدٍ رغم مخالفتِهم أمرَ النّبيّ ﷺ لَهدمٌ في نفوسِهم، ونفوسِ كلِّ المسلمين مِن بعدِهم، أهمُّ درسٍ في الإسلامِ: طاعةُ اللهِ ورسولِه!

5 - القتلُ واحدٌ، ولكنَّ العاقبةَ ليست سواءً: قتلانا في الجنّة وقتلاهم في النّارِ! سُنّةُ للهِ ماضيةٌ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، في نزالٍ وقتالٍ، أنظروا للأمرِ مِن هذه الزّاويةِ يهنْ المصابُ!

6 - في الأزماتِ تظهرُ معادنُ النّاسِ، هناك انكشف ابنُ سلولٍ، وهناك أيضًا صدقَ أنسُ بنُ النّضرِ ربَّه، فأنزل فيه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾

الأزماتُ كاشفاتٌ، تُميطُ الأقنعةَ، وتُظهِرُ الوجوهَ الحقيقيّةَ للنّاسِ!

فالحمدُ للهِ الّذي يُرسِلُ علينا الأزماتِ كي لا يُبقينا مخدوعين!

7 - النّصرُ والهزيمةُ ساعةٌ وساعةٌ؛ يَهزِمُ الحقُّ في جولةٍ، كي لا تمتلئَ صفوفُه بالمنافقين وعبّادِ النّتائجِ! ويكسبُ في جولةٍ، كي لا يشكَّ أصحابُه في سلامةِ المنهجِ وصحّةِ الطّريقِ!

8 - وَضعُ الرُّماةِ على الجبلِ يُخبِرُك إلى أيِّ حدٍّ كان النّبيُّ ﷺ يأخذُ بالأسبابِ، لم يقلْ: أنا نبيٌّ وسأنتصرُ على أيِّ حالٍ، بل كان يأخذُ بالأسبابِ ما استطاع، ولكنّه يَعقِدُ ثقتَه بربِّ الأسبابِ لا بالأسبابِ!

9 - القائدُ لا يَحتمي بجُندِه، بل يتقدّمُهم، وعندما أصاب الصّحابةَ الهلعُ، كان عليه الصّلاة والسّلامُ ثابتًا، يَرمي أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ بالحربةِ فيَخورُ أمامَه كالثّورِ، ويقعُ ميتًا!

فلا يَستكثِرَنَّ أحدٌ نفسَه على اللهِ، ولا يَرضَ بمقعدِ التّنظيرِ ليُبرِّرَ قعودَه مع الخوالفِ!

لِيَكُنْ في حضرةِ الدّمِ!

10 - إنَّ أشدَّ ما في يومِ أُحُدٍ مِن وجعٍ، لا نزولَ الرُّماةِ، مع أنّه موجعٌ، ولا استشهادَ حمزةَ، مع أنّه يَفطُرُ القلبَ، ولكنّه الدمُ الّذي سال مِن النّبيِّ ﷺ يومَ

شجُّوا رأسه، وكسروا رباعيَته / مقدّمة أسنانه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «كيف يفلحُ قومٌ شجُّوا رأسَ نبيِّهم وكسروا رباعيَته»؟!

واللهِ إنْ كوكبًا سال فيه دمُ رسولِ اللهِ ﷺ لهو كوكبُ سوءٍ!

حادِثةُ الإفكِ!

بَرَاءَة من فوقِ سَبعِ سَمَاوات!

كانتْ غَزْوَةُ بَنِي المُصْطَلِقِ شرارةَ وارتداد صَدًى لتهديدٍ صامتٍ أخذَ يَتعاظَمُ في أطرافِ الجزيرة.

فقدْ بَلَغَ النبيَّ ﷺ أنّ الحارثَ بنَ أبي ضرارٍ، سيّد بني المصطلق، يجمعُ القبائلَ، ويُهيّئُ الرّجالَ، ويَستنفرُ الأحلافَ لِيغزُوَ المدينة ويطفئَ نورها قبل أنْ يبلُغَ مَداهُ.

لم تكُنِ الغزْوَةُ إذنْ مُجرّدَ حملَةٍ عابرَةٍ، بل خُطوةً استباقيّةً لِحمايةِ الدّولةِ الناشئةِ مِنْ طَعنَةٍ تُدبّرُ في الظّلامِ.

خرَجَ النبيُّ ﷺ بجيشِه، لا طالِبَ مُلْكٍ ولا باغِيَ دَمٍ، بل حارِسًا لِلأمانِ، قاصِدًا أنْ يُطفِئَ شرًّا قبلَ أنْ يَشتعِلَ، وأنْ يَرُدَّ كَيدًا قبلَ أنْ يَستفحِلَ.

وقَدْ وقعتْ في هذه الغزوة حوادثُ جِسامٌ، لا مناصَ من الوقوفِ عندها!

أوّلاً: زواجُ النّبيِّ ﷺ من جُويرية بنتِ الحارثِ:

لمَّا قَسَمَ رَسولُ اللهِ ﷺ سَبيَ بَنِي المُصْطَلِقِ، وَوَقَعَتْ جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرارٍ فِي سَهْمِ ثَابِتِ بْنِ قَيسِ بنِ شَمَّاسٍ، كَاتَبَهَا عَلَى نَفْسِهَا، فَجَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تَسْتَعِينُهُ عَلَى كِتَابَتِهَا.

فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوَ أَقْضِي عَنْكِ كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ؟

فَقَالَتْ: نَعَمْ.

فَقَضَى عَنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ كِتَابَتَهَا، وَتَزَوَّجَهَا.

فلمَّا عَلِمَ النَّاسُ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَةَ، قَالُوا: أَصْهَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَحْتَ أَيْدِينَا؟!

فَأَعْتَقُوا مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ سَبْيِ بَنِي المُصْطَلِقِ.

فَمَا رَئِيتِ امْرَأَةً كَانَتْ عَلَى قَوْمِهَا أَبْرَكَ مِنْ جُوَيْرِيَةَ، أُعْتِقَ فِي سَبَبِهَا مِئَةُ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ.

ولأنّ السّيرةَ واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروس المستفادة من زواجِ النّبيّ ﷺ من جويرية بنتِ الحارث:

1 - أنّ الرّحمةَ قد ترفعُ أمّةً بأسرِها، فالنبيُّ ﷺ لم يتزوّج جويرية طمعًا، وإنما رحمةً ومواساةً لامرأةٍ وقعت في الأسر، فكان هذا الزّواج سببًا في تحريرِ مئاتٍ من قومِها. وهكذا تكونُ الرحمةُ حين تصدرُ من قلبٍ كبيرٍ: نفعُه يعمُّ ولا يقفُ عندَ شخصٍ واحدٍ.

2 - أنّ الخيارَ الأخلاقيَّ أقوى من الخيارِ السياسيِّ، كان يمكنُ للنبيِّ ﷺ أن يُبقيَ على السبيِ، لكنه قدّمَ فضيلةَ العتقِ على مصلحةِ المغانمِ. المبدأُ عندهُ قبلَ المكسبِ، والإنسانُ قبلَ المتاعِ.

3 - أنّ حُسنَ التعاملِ قد يغيّرُ مصيرَ الشعوبِ، رأى النّاس أنّ قومَ جويريةَ صاروا أصهارًا للنبيِّ ﷺ، فاستحوا أن يُبقوا عليهم، فأعتقوهم. خُلُقٌ حسنٌ من امرأةٍ واحدةٍ حرّرَ قبيلةً بأكملها. الكلمةُ الطيبةُ قد تصنعُ ما لا تصنعُهُ الجيوش.

4 - أنّ الإسلامَ لا يُذلُّ الأسيرَ بل يرفعُهُ، جويريةُ لم تُتركْ في السبيِ، ولم تُهنْ، بل خُيّرتْ، وأُعطيتْ كرامةَ الزّواجِ من رسولِ اللهِ ﷺ، وارتفعتْ مكانتُها حتّى صارتْ أمًّا للمؤمنينَ. هذا درسٌ عظيمٌ في كرامةِ الإنسانِ مهما كانَ ضعفُهُ.

5 - أنّ النبيّ ﷺ كان يُداوي القلوبَ قبلَ أن يفتحَ البلدانَ، لمّا رآها مستضعفةً متألّمةً، لم يتركْها لحزنِها، ولم يعاملْها كغنيمةٍ، بل خفّفَ عنها عبءَ الكتابةِ، وضمّدَ جراحَها، وهذا منهجٌ نبويٌّ لا يزالُ بحاجةٍ إلى أن يُتعلّمَ كلَّ يومٍ.

6 - أنّ الزّواجَ في الإسلامِ رسالةٌ، لا شهوةٌ فقط، زواجهُ ﷺ بجويريةَ لم يكنْ عبثًا، وإنما كان خطوةً إصلاحيةً، اجتماعيةً، إنسانيةً، وسياسيةً، في الوقتِ

نفسه. زواجُ واحدٌ غيرَ موقفَ قبيلةٍ كاملةٍ من الإسلام.

7 ـ أنّ الفضلَ يعودُ لأهلِه ولو كانوا في الأصلِ أعداء، قيل عن جويرية: "ما كانت امرأةٌ أعظمَ بركةً على قومِها منها."

امرأةٌ واحدةٌ، من قومٍ محاربين، تصبحُ سببَ نجاةٍ لهم، لأنّ اللهَ يجعلُ البركةَ حيثُ يشاء.

8 ـ أنّ الإسلامَ ينتصرُ بالأخلاقِ أكثرَ مما ينتصرُ بالسّنان، حين رأى بنو المصطلقِ هذا العدلَ والكرمَ، دخلَ كثيرٌ منهم في الإسلام. لم يُجبروا، ولم يُقهروا. القلوبُ فُتحت قبلَ الحصونِ.

9 ـ أنّ الحريةَ أحبُّ إلى النفسِ من الملكِ، جويريةُ اختارتْ الحرية على المالِ. فلم تسألِ النبيّ ﷺ أن يزيدَها مالًا، بل أن يُساعدَها على فكّ رقبتِها. النفوسُ الأصيلةُ تختارُ الكرامةَ لا الذهبَ.

10 ـ أنّ الكبارَ لا يقابلونَ الإساءةَ بالإساءةِ، قومُ جويرية خرجوا ليعيثوا في دارِ المسلمينَ، فلمّا هُزموا لم يُنتقمْ منهم، بل أُكرموا، وعُتقوا، وتحوّلتِ العداوةُ إلى صِهرٍ وودّ. وهكذا تُغلقُ الجراحُ بأخلاقِ الكبارِ لا بطعناتِ الصغارِ.

ثانياً: تطاولُ ابنِ سلولٍ!

عندَ رُجوعِ النبيّ ﷺ من غزوةِ بني المصطلقِ، وقعَ شِجارٌ بينَ رُجلٍ منَ المهاجرينَ ورجلٍ منَ الأنصارِ، فصرخَ المهاجريّ: يا للمهاجرينَ!

وصرخَ الأنصاريّ: يا للأنصارِ!

فسمعَ ذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ فقالَ: ما بالُ دعوى الجاهليةِ؟! دَعوها فإنها مُنتِنةٌ.

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ أبيّ بنِ سلولٍ حاضرًا، فاغتنمَ الموقفَ ليُؤلّبَ قومَهُ، وقالَ لهم ساخطًا: ما رأيتُ مثلَ هؤلاءِ! سمّنْ كلبكَ يأكلْكَ! واللهِ لئنْ رَجعنا إلى المدينةِ ليُخرجنّ الأعزُّ منها الأذلَّ!

وأشارَ إلى نفسِهِ بالعزِّ وإلى رسولِ اللهِ ﷺ بالأذلِّ عياذًا بالله.

وكانَ هناكَ غلامٌ منَ الأنصارِ، هو زيدُ بنُ أرقمٍ، سمعَ كلامَهُ، فمضى إلى رسولِ اللهِ ﷺ فأخبرَهُ بما قالَ.

فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ يختبرُهُ: يا غلامُ، لعلَّكَ غضبتَ عليه؟

فقالَ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ.

وعندما بلغَ عمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه الخبرُ، قالَ: مُرني يا رسول الله أضرِبْ عنقَ هذا المنافقِ!

فقالَ النبيُّ ﷺ: دَعْهُ يا عمرُ، لا يَتحدّثُ النّاس أنّ محمّدًا يقتلُ أصحابَهُ.

وذهبَ عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ يُنكِرُ ما قالَ ويقسِمُ باللهِ أنهُ ما نطقَ بشيءٍ، وهمَّ بعضُ الأنصارِ أن يُصدِّقوهُ ويُكذّبوا الغلامَ، حتّى نزلَ قولُ اللهِ تعالى في سورةِ المنافقون: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾.

فقالَ النبيُّ ﷺ لزيدٍ: قد صدّقكَ اللهُ يا زيدُ.

ثمَّ جاءتْ بقيّةُ القصةُ، والتي تُظهرُ الفرقَ الشاسعَ بينَ منهجِ المنافقينَ ومنهجِ المؤمنينَ:

فقد بلغَ عبدَ اللهِ بنَ عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ (ابنَ المنافق) ما قالَهُ أبوهُ، فقامَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وقالَ: يا رسولَ اللهِ، لقد بلغني ما قالَ أبي، واللهِ لَتعلمنَّ أنهُ الأذلُّ وأنكَ الأعزُّ، واللهِ يا رسولَ اللهِ، إنْ شِئتَ أن آتيكَ برأسِهِ لفعلتُ!

فلمّا اقتربَ الجيشُ منَ المدينةِ، سبقَ الابنُ أباهُ ووقفَ على بابِ المدينةِ شاهرًا سيفَهُ، وقالَ لأبيهِ: واللهِ لا تدخلُها حتّى يأذنَ لكَ رسولُ اللهِ ﷺ! فلتعلمنَّ اليومَ مَنِ الأعزُّ ومنِ الأذلُّ!

فجاءَ عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ يَشكو إلى النبيِّ ﷺ: يا رسولَ اللهِ، يمنعني ابني أن أدخُلَ المدينةَ!

فأرسلَ النبيّ ﷺ إلى الابنِ وقالَ لهُ: خلِّ عنهُ، دعهُ يدخُلْ.

فقالَ الابنُ: أمّا وقد أذِنَ لكَ رسولُ اللهِ ﷺ فادخُلْ.

وكانَ يقولُ بعدَ ذلكَ: واللهِ ما رأيتم مثلي في برٍّ بأبي!

يَقصِدُ: لم أطِعْ أبي في معصيةٍ، ولم أتركْ طاعةَ رسولِ اللهِ ﷺ.

ولأنّ السّيرةَ واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدّروس المستفادة من حادثةِ تطاولِ ابنِ سلولٍ على النّبيّ ﷺ:

1 ـ أنّ الفِتنَ تكشِفُ النّفوسَ كما تكشِفُ النّارُ المعدِنَ، ما إنْ وقعَ الشّجارُ الصغيرُ حتّى ظَهَرَ ما في قَلْبِ ابنِ سَلولَ من غِلٍّ وحَسَدٍ وضِغْنٍ على الإسلامِ، فطَفِحَ باطِنُهُ الفاسِدُ على لِسانِهِ. الشّدائدُ تكشِفُ، والرّخاءُ يُخفِي.

2 ـ أنّ المُنافِقَ لا يَعيشُ إلّا على حِسابِ غيرِهِ، فجُملتُهُ الخبيثةُ: سَمِّنْ كَلْبَكَ يأكُلْكَ! تكشِفُ طَريقةَ التّفكيرِ النّفاقِيّ: مَنفعةٌ ثمّ جُحودٌ ثمّ طَعنٌ في اليدِ التي أعطَتْهُ.

3 ـ أنّ العَداوةَ لِلنّبيّ ﷺ كامِنَةٌ في الصّدورِ قبلَ الألْسنِ، فابنُ سَلولَ لَمْ يَقُلْ ما قالَ إلّا حَسَدًا وبُغضًا لِما أعزّ اللهُ بِهِ الإسلامَ، فالنّفاقُ مَرَضٌ داخِلِيٌّ يَظهَرُ عندَ أوّلِ فُرصَةٍ.

4 ـ أنّ رَسولَ اللهِ ﷺ أحكَمُ النّاسِ وأرفَقُهُم، إذ رَفَضَ قتْلَ ابنِ سَلولَ وقالَ: «لا يَتَحَدّثُ النّاس أنّ محمّدًا يَقتُلُ أصحابَهُ.»

فالنّظَرُ للعاقِبَةِ أولَى من شِفاءِ الغَيظِ.

5 ـ أنّ المُؤمِنَ يُغَلِّبُ حَقّ اللهِ على حَقّ الأقارِبِ، عبدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ سَلولَ وَقَفَ في وَجهِ أبيهِ وقالَ: لا تَدخُلْ حتّى يَأذَنَ لكَ رَسولُ اللهِ ﷺ.

6 ـ أنّ طاعَةَ اللهِ ورسولِهِ فوقَ العاطِفَةِ القَرابِيّة، فلَمْ يَمنَعهُ حُبُّ الأبوّةِ أنْ يَقِفَ معَ الحقّ. الإيمانُ لا يُجامِلُ.

7 ـ أنّ الكَرامَةَ الحَقيقِيّةَ في طاعَةِ اللهِ لا في المُلكِ ولا في القَبيلَةِ، قولُهُ:

«لَيخرجَنّ الأعزُّ مِنها الأذلَّ» كشف اللهُ بُطلانهُ، وأظهر أنه هو الأذلُّ، وأنّ رَسولَ اللهِ ﷺ هو الأعزُّ.

8 ـ أنّ القُرآنَ يَهتِكُ سُتورَ المنافِقين، فقد أنزلَ اللهُ تصديقًا لغلامٍ صغيرٍ (زيد بنِ أرقمَ)، وفي هذا دَرسٌ: الحقُّ يُعرفُ بالدّليلِ لا بالعُمرِ والمقامِ.

9 ـ أنّ الشّبابَ قدْ يَسبقونَ الكِبارَ في الإيمانِ والبصيرةِ، فزيدٌ قالَ الحقَّ، وعبدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ أوقفَ أباهُ على بابِ المدينةِ. الإيمانُ نورٌ.

10 ـ أنّ الطّاعةَ تُعطِي صاحِبَها كَرامةً حتى عند شِدّةِ الموقِفِ، فعبدُ اللهِ يقولُ للنّبيِّ ﷺ: «لو أمَرتَني بقتلِهِ لقَتلتُهُ.» ثمّ لا يَتعدّى قبلَ أنْ يأذنَ رسولُ اللهِ ﷺ.

11 ـ أنّ الدّعوةَ تَحتاجُ حُسنَ سياسةٍ كما تَحتاجُ قُوّةً، لَو قُتِلَ ابنُ سَلول يومَها لَضاعَتِ الحِكمةُ، ولَقالَتِ العَرَبُ: يَقتلُ أصحابَهُ.

12 ـ أنّ الثّباتَ على الحَقِّ أهمُّ من عُلُوِّ الصّوتِ، ابنُ سَلولَ كانَ صاخِبًا، وابنُهُ كانَ ثابِتًا. الأوّلُ هُدِمَ بآيةٍ، والثّاني رُفِعَ بصفحةٍ خالِدةٍ.

13 ـ أنّ اللهَ يُظهِرُ الحَقَّ ولو كَرِهَ المنافِقونَ، أنزَلَ اللهُ آياتِ المنافِقينَ فَكَشَفَ الكَذِبَ وأعلَنَ صِدقَ الغُلامِ.

14 ـ أنّ أهلَ الباطِلِ يَتّكِئونَ على الإشاعاتِ، وأهلَ الحَقِّ يَتّكِئونَ على الوَحيِ، أشاعَ ابنُ سَلولَ الفُرقةَ، وجَمَعَ النّبيُّ ﷺ القُلوبَ بكَلِمةٍ واحِدةٍ: «دَعوها فإنّها مُنتِنةٌ.»

15 ـ أنّ الوَلاءَ والبَراءَ أصلٌ في العَقيدةِ، عبدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ وَقَفَ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ وضِدَّ نِفاقِ أبيهِ، فكانَ هذا غايةَ الصّدقِ في الإيمانِ.

ثالثاً: حادثةُ الإفْكِ!

وفي غزوةِ بني المصطلقِ وقعتْ حادثةُ الإفكِ الشّهيرة، حيثُ وقعَ المنافقونَ في عِرضِ رسولِ اللهِ ﷺ! ولنستمِعْ إلى هذه الحادثةِ من بَطَلَتِها!

روى البخاريُ ومسلمٌ في صحيحيهما من حديث الصّديقة بنت الصّديق عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ، قالتْ:

كانَ رَسولُ ﷺ إذا أرادَ سَفرًا أقرعَ بينَ أزْواجِه، فأيُهنَ خرج سهمُها خرج بِهَا رَسولُ اللهِ ﷺ معه، فأقرعَ بيننا في غزْوةٍ غزاها فخرج فيها سهمي، فخرَجتُ مع رَسولِ اللهِ ﷺ بعدَ ما أُنزِلَ الحجابُ، فكنْتُ أحملُ في هودجي وأنزَلُ فيه، فسِرْنا حتى إذا فرغَ رَسولُ اللهِ ﷺ من غزوته تلك وقفل، دنوْنا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيلَةً بالرّحِيلِ، فقُمتُ حِينَ آذنُوا بالرّحيل، فمشيتُ حتى جَاوَزْتُ الجَيشَ، فلمّا قَضَيتُ شأنِي أقبلْتُ إلى رَحلِي، فلمستُ صدري، فإذَا عِقدٌ لي مِن جَزْعِ ظَفَارٍ قدِ انقطَعَ، فرَجَعتُ فالتَمستُ عِقدِي فحبسني ابتِغاؤهُ، وأقبَلَ الرّهطُ الّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونِي، فاحتمَلُوا هَودَجِي فرَحَلُوهُ علَى بَعِيرِي الذي كُنْتُ أركَبُ عليه، وهُمْ يَحسِبُونَ أنّي فِيهِ، وكانَ النّساءُ إذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ، ولَمْ يَغشَهُنَّ اللّحمُ، إنّما يَأكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطّعامِ، فلَمْ يَستَنكِرِ القَومُ خِفَّةَ الهَودَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وحَمَلُوهُ، وكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فبَعَثُوا الجَمَلَ فَسارُوا، ووَجَدْتُ عِقدِي بَعدَ ما استَمَرّ الجَيشُ، فَجِئتُ مَنازِلَهُمْ وليس بِهَا منهمْ دَاعٍ ولَا مُجِيبٌ، فَتيَمّمتُ مَنزِلِي الذي كُنْتُ به، وظَنَنتُ أنّهُمْ سَيَفقِدُونِي فَيَرجِعُونَ إلَيّ، فَبينَا أنَا جَالِسَةٌ في مَنْزِلِي، غَلَبَتْنِي عَينِي فَنِمتُ، وكانَ صَفْوانُ بنُ المُعَطّلِ السُّلَمِيُّ ثمّ الذّكوانيُّ مِن وراءِ الجَيشِ، فأصبَحَ عِندَ مَنْزِلِي، فَرَأى سَوَادَ إنسَانٍ نَائِمٍ فعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وكانَ رَآنِي قَبلَ الحِجَابِ، فَاستَيقَظْتُ باسترجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمّرْتُ وجْهِي بجِلْبَابِي، وواللهِ ما تَكَلّمنَا بكَلِمَةٍ، ولَا سَمِعتُ منه كَلِمَةً غيرَ استِرجَاعِهِ، وهَوَى حتّى أنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ علَى يَدِهَا، فقُمتُ إلَيهَا فرَكِبتُهَا، فَانطَلَقَ يَقودُ بِي الرّاحِلَةَ حتّى أتَينَا الجَيشَ مُوغِرِينَ في نَحرِ الظّهِيرَةِ وهُمْ نُزُولٌ، فَهَلَكَ مَن هَلَكَ، وكانَ الذي تَوَلّى كِبْرَ الإفْكِ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيّ ابنُ سَلُولَ! فَاشتَكَيتُ حِينَ قَدِمتُ شَهرًا، والنّاس يُفِيضُونَ في قَولِ أصحَابِ الإفكِ، لا أشعُرُ بشيءٍ مِن ذلكَ، وهو يَرِيبُنِي في وجَعِي أنّي لا أعرِفُ مِن رَسولِ اللهِ ﷺ اللُّطفَ الذي كُنْتُ أرَى منه حِينَ أشتَكِي، إنّما يَدخُلُ علَيّ رَسولُ اللهِ ﷺ فيُسَلّمُ، ثمّ يقولُ: كيفَ تِيكُمْ؟ ثمّ يَنصَرِفُ!

فذلك يَريبني ولا أشعُرُ بالشرّ، حتى خرجتُ حين نقهتُ، فخرجتُ مع أمّ مِسطحٍ قِبَلَ المناصعِ، وكان متبرَّزَنا، وكنّا لا نخرجُ إلّا ليلًا إلى ليلٍ، وذلك قبلَ أنْ نتخِذَ الكُنُفَ قريبًا من بيوتِنا، وأمرُنا أمرُ العربِ الأُولِ في البرّيّةِ قِبَلَ الغائطِ، وكنّا نتأذّى بالكنفِ أنْ نتخذَها عند بيوتِنا. فانطلقتُ أنا وأمُّ مسطحٍ، وهي ابنةُ أبي رُهمِ بنِ المطّلبِ بنِ عبدِ منافٍ، وأمُّها بنتُ صخرِ بنِ عامرٍ، خالةُ أبي بكرٍ الصّدّيقِ، وابنُها مِسطحُ بنُ أثاثةَ بنِ عبّادِ بنِ المطّلبِ، فأقبلتُ أنا وأمُّ مِسطحٍ قِبَلَ بيتي حينَ فرغنا من شأنِنا، فعثرتْ أمُّ مسطحٍ في مِرطِها فقالتْ: تَعِسَ مِسطَحٌ!

فقلتُ لَها: بئسَ ما قُلتِ، أتسُبّينَ رجلًا شهدَ بدرًا؟

فقالَتْ: أيْ هَنْتاه ولَمْ تسمَعِي ما قالَ؟

قلتُ: ما قالَ؟

فأخبرَتْني بقولِ أهلِ الإفكِ! فازددتُ مَرَضًا على مَرَضي، فلمّا رَجَعتُ إلى بيتي دَخَلَ عليّ رسولُ اللهِ ﷺ فسلّمَ، ثمّ قالَ: كيفَ تيكُم؟

فقلتُ له: أتأذنُ لي أنْ آتيَ أبوَيّ؟

إنما أريدُ أنْ أستيقنَ الخبرَ من قِبَلِهما!

فأذِنَ لي رسولُ اللهِ ﷺ، فقلتُ لِأمّي: يا أمّتاه، ماذا يتحدّثُ النّاس؟

قالَتْ: يا بُنيّةُ، هوّني عليكِ، فواللهِ لقلّما كانتِ امرأةٌ قطُّ وضيئةٌ عندَ رجلٍ يُحبُّها، لَها ضرائرُ، إلّا كثّرْنَ عليها!

فقلتُ: سُبحانَ اللهِ، أولقدْ تحدّثَ النّاس بهذا؟

فبكيتُ تلكَ اللّيلةَ حتى أصبحتُ لا يَرقأُ لي دمعٌ ولا أكتحِلُ بنومٍ، ثمّ أصبحتُ أبكي! ودعا رسولُ اللهِ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ وأسامةَ بنَ زيدٍ، حينَ استلبثَ الوحيُ، يَسألُهما ويستشيرُهما في فِراقِ أهلِه، فأمّا أسامةُ فأشارَ على رسولِ اللهِ ﷺ بالّذي يعلَمُ من براءةِ أهلِه، وبالّذي يعلَمُ لهمْ في

نفسِهِ، فقالَ أسامةُ: أهلُك، ولا نعلمُ إلَّا خيرًا.

وأمَّا عليٌّ فقالَ: يا رَسولَ اللهِ، لم يُضيِّقِ اللهُ عليك، والنساءُ سِواها كثيرٌ، وسَلِ الجاريةَ تَصدُقْك!

فدَعا رَسولُ اللهِ ﷺ بَريرةَ، فقال: أي بَريرةُ، هل رأيتِ من شيءٍ يَريبُك؟

قالت بَريرةُ: والذي بعثَكَ بالحقِّ، ما رأيتُ عليها أمرًا قطُّ أغمِصُه، غيرَ أنها جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، تنامُ عن عجينِ أهلِها، فتأتي الداجنُ فتأكلُه!

فقامَ رَسولُ اللهِ ﷺ مِن يَومِهِ فاستعذَرَ مِن عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ، وهو على المِنبرِ، فقالَ: يا مَعشرَ المُسلِمينَ، مَن يَعذِرُني مِن رَجُلٍ قد بلَغني عنه أذاهُ في أهلِي، واللهِ ما علِمتُ على أهلي إلَّا خيرًا، ولقد ذكَروا رَجلًا ما علِمتُ عليه إلَّا خيرًا، وما يَدخلُ على أهلي إلَّا مَعي!

فقامَ سعدُ بنُ مُعاذٍ أخو بَني عبدِ الأشهَلِ، فقالَ: أنا يا رَسولَ اللهِ أعذِرُك، فإنْ كانَ مِنَ الأوسِ ضربتُ عُنقَهُ، وإنْ كانَ مِن إخوانِنا مِنَ الخَزرَجِ أمرتَنا ففَعلْنا أمرَكَ!

فقامَ سعدُ بنُ عُبادةَ، وهو سيِّدُ الخَزرَجِ، وقد احتمَلَتْهُ الحميَّةُ، فقالَ لِسعدٍ: كذَبتَ لَعَمرُ اللهِ لا تقتُلُهُ، ولا تَقدِرُ على قتلِهِ، ولو كانَ مِن رَهطِك ما أحببتَ أنْ يُقتَلَ.

فقامَ أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ، وهو ابنُ عمِّ سعدٍ، فقالَ لِسعدِ بنِ عُبادةَ: كذَبتَ لَعَمرُ اللهِ لَنقتُلَنَّهُ، فإنَّك مُنافِقٌ تُجادِلُ عنِ المُنافِقِينَ!

فثارَ الحَيَّانِ الأوسُ والخَزرَجُ حتى همُّوا أنْ يَقتتِلُوا، ورَسولُ اللهِ ﷺ قائِمٌ على المِنبرِ! فلَم يَزلْ يُخفِّضُهم حتى سكَتوا وسكَتَ! فبكَيتُ يَومِي ذلك كلَّهُ لا يَرقأُ لي دَمعٌ ولا أكتحِلُ بنَومٍ، حتى لأظُنُّ أنَّ البُكاءَ فالِقٌ كَبِدِي! فبَينا أبَوايَ جالِسانِ عِندي وأنا أبكي، فاستأذَنَتْ عليَّ امرأةٌ مِنَ الأنصارِ، فأذِنتُ لَها، فجلَسَتْ تَبكي مَعي! فبينا نَحنُ على ذلك دَخلَ رَسولُ اللهِ ﷺ علَينا فسَلَّمَ ثمَّ جلَسَ، ولَم يَجلِسْ عِندي مُنذُ قِيلَ ما قِيلَ قَبلَها، وقد لَبِثَ شَهرًا لا يُوحَى

إليه في شأني بشيءٍ، فتشهّد رسولُ الله ﷺ حين جلس، ثمّ قال: أمّا بعد، يا عائشةُ، إنه بلغني عنكِ كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئةً، فسيبرّئُكِ اللهُ، وإنْ كنتِ ألممتِ بذنبٍ، فاستغفري اللهَ وتوبي إليه، فإنّ العبدَ إذا اعترف ثمّ تاب، تاب اللهُ عليه!

فلمّا قضى رسولُ اللهِ ﷺ مقالتَهُ قلص دمعي حتى ما أحسّ منه قطرةً، فقلتُ لأبي: أجبْ رسولَ الله ﷺ عنّي فيما قال.

فقالَ أبي: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرسولِ اللهِ ﷺ.

فقلتُ لأمّي: أجيبي رسولَ اللهِ ﷺ فيما قالَ.

قالتْ أمّي: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرسولِ اللهِ ﷺ.

فقلتُ وأنا جاريةٌ حديثةُ السّنّ لا أقرأُ منَ القرآنِ كثيرًا: إنّي واللهِ لقد علمتُ: لقد سمعتُمْ هذا الحديثَ حتى استقرّ في أنفسِكُمْ وصدّقتُمْ به، فلئنْ قلتُ لكُمْ: إنّي بريئةٌ، لا تُصدّقوني، ولئنِ اعترفْتُ لكُمْ بأمرٍ، واللهُ يعلمُ أنّي منه بريئةٌ، لتُصدّقُنّي، فواللهِ لا أجدُ لي ولكُمْ مثلًا إلّا أبا يوسفَ حينَ قالَ: "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ".

ثمّ تحوّلتُ واضطجعتُ على فراشي، واللهُ يعلمُ أنّي حينئذٍ بريئةٌ، وأنّ اللهَ مبرّئي ببراءتي، ولكنْ واللهِ ما كنتُ أظنّ أنّ اللهَ منزلٌ في شأني وحيًا يُتلى، لَشأني في نفسي كانَ أحقرَ من أنْ يتكلّمَ اللهُ فِيّ بأمرٍ، ولكنْ كنتُ أرجو أنْ يرى رسولُ اللهِ ﷺ في النّومِ رؤيا يبرّئُني اللهُ بها، فواللهِ ما رامَ رسولُ اللهِ ﷺ مجلسَهُ، ولا خرجَ أحدٌ من أهلِ البيتِ، حتّى أُنزلَ عليه، فأخذَهُ ما كانَ يأخذُهُ منَ البُرَحاءِ، حتّى ليتحدّرُ منه منَ العرقِ مثلُ الجُمانِ، وهو في يومٍ شاتٍ من ثِقَلِ القولِ الذي أُنزلَ عليه، فسُرّيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ وهو يضحكُ، فكانتْ أوّلَ كلمةٍ قالَها: يا عائشةُ، أمّا اللهُ فقد برّأكِ.

فقالتْ لي أمّي: قومي إليه.

فقلتُ: واللهِ لا أقومُ إليه، فإنّي لا أحمدُ إلّا اللهَ عزّ وجلّ.

وأنزلَ اللهُ تعالى: {إنّ الّذينَ جاؤوا بالإفكِ عُصبةٌ منكُم}، ثمّ أنزلَ اللهُ هذا في بَرَاءتي. قالَ أبو بَكرٍ الصّدّيقُ - وكانَ يُنفِقُ على مِسطح بن أثاثة لِقرابته منه وفقرِهِ -: واللهِ لا أُنفِقُ على مِسطحٍ شيئًا أبدًا، بعدَ الذي قال لعائشة ما قال!

فأنزلَ اللهُ: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ منكُم والسَّعة أن يُؤتُوا أُولي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وليَعفُوا وليَصفَحُوا ألا تُحبُّونَ أن يَغفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

قالَ أبو بَكرٍ الصّدّيقُ: بَلَى واللهِ إنّي لَأُحِبُّ أنْ يَغفِرَ اللهُ لي.

فَرَجَعَ إلى مِسطحٍ النَّفَقَةَ الّتي كانَ يُنفِقُ عليه، وقالَ: واللهِ لا أنزِعُها منه أبدًا.

وكانَ رَسولُ اللهِ ﷺ سألَ زَينَبَ بنتَ جَحشٍ عن أمري، فقالَ لِزَينَبَ: مَاذا عَلِمتِ، أو رَأيتِ؟

فَقالَتْ: يا رَسولَ اللهِ، أَحمِي سَمعِي وبَصَرِي، واللهِ ما عَلِمتُ إلّا خيرًا.

وهي الّتي كانَتْ تُسَامِينِي مِن أزْوَاجِ النبيّ ﷺ فَعَصَمَهَا اللهُ بالوَرَعِ، وطَفِقَتْ أُختُها حَمنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فيمَن هَلَكَ!

ولأنّ السّيرة واقعٌ يُعاش لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمّ الدّروس الحياتيّة التي تُستخلص من حادثة الإفك:

1. الزّوجةُ رفيقٌ دائمٌ فلا تزهَدْ بها! وعندما أرادَ اللهُ تعالى أنْ يُؤنِسَ آدمَ عليه السلام خلقَ لهُ زَوجةً! زَوجةٌ صَالِحَةٌ تُغنيكَ عنِ الدُّنيا كلِّها، والدُّنيا كلُّها لا تُغنيكَ عن زَوجَةٍ صَالِحَةٍ! رِباطٌ مُقدّسٌ حفّهُ اللهُ بالمودّةِ والرَّحمةِ، تحملُكَ مرّةً وتحملُها مرّةً، تتغاضى لها وتتغاضى لكَ، صَدِيقٌ مَوثوقٌ إنْ قلَّ حولَكَ الأصدقاءُ، ورفيقٌ عذبٌ إنْ جفا عنكَ الرِّفاقُ، وصدرٌ حنونٌ إنْ رمتْكَ الدُّنيا بنبالِ قسوتِها، وكتفٌ متينٌ إنْ أردتَ الاتّكاءَ، ومُدَبِّرٌ أمينٌ إنْ خانَكَ التدبيرُ، وناصِحٌ مُحِبٌّ إنْ زلّتْ بكَ الخطواتُ، ولكن تذكّرْ أنّ الحُبَّ قبلَ أنْ

يكونُ ثمارًا تُجنى، فهو بذورٌ تُزرعُ، ولا حصادَ إلّا لزارعٍ، والطريقةُ الوحيدةُ للحصولِ على الحُبِّ هي تقديمُهُ! وانظُرْ للنبيِّ ﷺ كيف أنّهُ، وحتى وهو في الجيشِ، يحرصُ أنْ يكونَ معهُ زوجةٌ، فلا تمشِ وحدكَ وقد جعلَ اللهُ لكَ رفيقًا!

2. العدلُ بينَ الزوجاتِ واجبٌ في النفقةِ والمبيتِ، أمّا الحُبُّ فلا أحد يملكُ قلبَهُ، وقد كانَ نبيُّنا ذلك الذي قالَ: اللهُمَّ لا تؤاخذني فيما لا أملكُ، قالها قاصدًا قلبَهُ لأنّهُ كانَ يُحِبُّ عائشةَ أكثرَ من غيرِها، ولكنّهُ كانَ يعدلُ بينَ زوجاتِهِ عدلًا عجيبًا، فلا يُعطي عائشةَ أكثرَ من غيرِها، ولا يبيتُ عندها أكثرَ ممّا يبيتُ عندَ ضرائرِها رضيَ اللهُ عنهنَّ أجمعين، ولو أنّهُ أرادَ أنْ يُطيعَ قلبَهُ لكانَ اصطحبَ عائشةَ معهُ كلَّ مرّةٍ، ولكنّهُ كانَ يقترعُ بينَ نسائِهِ فأيُّهنَّ خرجَ اسمُها كانتْ معهُ، وبهذا لا تشعرُ أيُّ واحدةٍ منهنَّ بالظلمِ، وقد كانتْ عائشةُ معهُ في الغزوةِ التي كانتْ فيها حادِثةُ الإفْكِ، وكانتْ أمُّ سلمةَ معهُ في صُلحِ الحُدَيْبِيَةِ! مَعذورٌ أنتَ حينَ تُميلُ بقلبِكَ، ولكنّكَ مَوزورٌ ومحاسَبٌ حينَ تظلِمُ في معاملتِكَ، والظُّلمُ ليسَ في أخذِ مالِ النّاسِ فقط، وإنّما هو في ألّا تُعطي النّاسَ حقوقَهم التي هيَ لهم عندَكَ، ولو كانتْ معنويّةً!

3. العاقِلُ لا يضعُ نفسَهُ في موضعِ الشُّبهَةِ، لأنَّ النّاسَ مفطورونَ على سوءِ الظَّنِّ! ودفعُ الشبهةِ سُنّةٌ نبويةٌ شريفةٌ. كانَ النبيُّ ﷺ مُعتكِفًا في المسجدِ، فجاءتْ إليهِ أمُّنا صَفِيَّةُ تزورُهُ ليلًا، فجلستْ عندَهُ ثمَّ قامتْ لتذهبَ إلى بيتِها، فقامَ معها النبيُّ ﷺ ليُوَصِّلَها، فمرَّ رجلانِ من الأنصارِ بهما، فلمّا رأيا النبيَّ ﷺ أسرعا، فقالَ لهما: على رِسْلِكما، إنّها صَفِيَّةُ بنتُ حُيَيٍّ. فقالا: سبحانَ اللهِ يا رسولَ اللهِ، فقالَ لهما: إنَّ الشّيطانَ يجري من الإنسانِ مجرى الدمِ، فخشيتُ أنْ يَقذِفَ في قلوبِكما شرًّا! وبالعودةِ إلى حادثةِ الإفْكِ... فإنَّ أمَّنا عائشةَ أطهرُ من ماءِ زمزمَ، وصفوانَ بنَ المُعطّلِ صحابيٌّ جليلٌ فوقَ التُّهمةِ، ولكنْ تأخُّرهما عن الجيشِ فتحَ بابًا للمرضى والمنافقين، فوقعوا في عرضِها رضيَ اللهُ عنها. فإنْ كانتْ أمُّ المؤمنين وصحابيٌّ جليلٌ لم ينجُوا من سوءِ الظنِّ، فلا تتوقّعْ أنْ أسلَمَ أنا وأنتَ وهي... فالنّاسُ لا يُحسِنونَ

الظنِّ عادةً! من يراكَ مع امرأةٍ ليستْ من محارمكَ في مقهى، لن يقولَ إنَّكَ تُساعدُها... بل سَيُسيءُ الظنَّ مباشرةً! فانتبهْ جيِّدًا إلى موضعِ خطواتِكَ.

4. إيّاكَ ونقلَ الإشاعاتِ، فشأنُ النّاسِ دائمًا أنْ يَفتري بعضُهم على بعضٍ! لا تُصدِّقْ تهمةً بلا دليلٍ، ولا تبحثْ عن دليلٍ للتهمةِ التي سمعتَها. ما لكَ وللناسِ؟ ومن تتبَّعَ عوراتِ النّاسِ تتبَّعَ اللهُ عورتَهُ! لا تخُضْ في ذمّةِ رجلٍ لم تُشاهِدْ خيانتَهُ، ولا في عرضِ امرأةٍ لأنَّ فلانًا قالَ. كفى بالمرءِ إثمًا أنْ يُحدِّثَ بكلِّ ما سمعَ! وحتّى وإنْ رأيتَ... فإنَّ اللهَ ستيرٌ يحبُّ السّترَ، وما منّا من أحدٍ إلّا ولهُ عيوبٌ يكرهُ أنْ يراها النّاسُ، فلا تَفضحْ... فتُفضَحْ!

5. خدمةُ الإنسانِ المقطوعِ نُبلٌ، وعليهِ أنْ يُراجِعَ إنسانيّتَهُ وأخلاقَهُ وإسلامَهُ، فمن رأى مقطوعًا في الطريقِ وكانَ قادرًا على مساعدتِهِ فلم يفعلْ فقدْ خانَ المروءةَ! حتّى العربُ في جاهليّتِها (وهي على الشّركِ) عدُّوا خدمةَ المقطوعِ من أنبلِ الأخلاقِ. قصةُ أمِّ سلَمةَ: فرقوا بينها وبين زوجِها أبي سلمة وبين ابنِها، فبقيتْ سنةً كاملةً تبكي وحدَها على مشارفِ مكّةَ... حتّى رقَّ لها أحدُ بني عمومتِها، فأعادوها إلى زوجِها وابنِها، ثمَّ خرجتْ وحدَها تريدُ المدينةَ، فلقيها عثمانُ بنُ طَلْحةَ وهو مشركٌ، فسارَ معها مسيرةَ أيامٍ، يُنزِلُ لها البعيرَ ويبتعدُ عنها حتّى تركبَ، ويقودُهُ لها في طريقٍ صحراويٍّ طويلٍ، حتّى بلغَتْ مشارفَ المدينةِ، فعادَ أدراجَهُ إلى مكّةَ بعد أنْ أدّى أمانتَهُ كاملةً! أبعدَ هذا النُّبلِ نُبلٌ؟ وهذا رجلٌ مشركٌ! فإنْ لم يزِدْكَ دينُكَ خُلقًا... فأنتَ لم تفهمْ معنى الإسلامِ بعد.

6. اللُّطفُ مع الزّوجةِ واجبٌ! وكانَ الأوائلُ يقولونَ: لا نُسمّي الرجلَ رجلًا، حتّى ننظرَ إلى زوجتِهِ: أهي عزيزةٌ أم مُهانةٌ؟ وإنَّ أمَّنا عائشةَ لم ترتبْ ممّا يحدثُ إلّا لأنها لم تعُدْ تجدُ من النبيِّ ﷺ ذاكَ اللطفَ الذي اعتادتْهُ، بل كانَ يسألُها سؤالًا عابرًا: كيفَ تيكُم؟ وهذا فيه موقفانِ كبيرانِ: لو لم يكنْ يغدقُ عليها اللطفَ أصلًا لما شعرتْ بتغيُّرِهِ! والخلافُ بين الأزواجِ لهُ أدبٌ، لم يضربْها ﷺ، لم يشتمْها، بل اكتفى بإيقافِ إظهارِ اللطفِ إلى أنْ تنجلي الأزمةُ. قليلٌ من الإعراضِ يكفي... أمّا تحويلُ البيتِ إلى ساحةِ معركةٍ فهو

7. اعترِف بفضلِ النّاس السابقِ ولو صدرَ منهمُ الخطأ. ولا تنسَ معروفهم القديمَ وإنْ بدا منهم ما يزعجُك الآن. حسّانُ بنُ ثابتٍ كان ممّن تكلّفوا في حادثةِ الإفكِ... ومع ذلك كانتْ عائشةُ ترفضُ أنْ يُسبَّ عندها، وقالتْ: لا تسبّوه، فطالما ذبّ عن عرضِ النبيّ ﷺ. وكانتْ تُنشدُ لهُ: فإنَّ أبي ووالدهُ وعِرضي لعِرضِ محمّدٍ منكم وقاءُ! هذا هو النّبلُ الحقيقيّ.

8. من الحِكمةِ سترُ الأخبارِ الحزينةِ عنِ المريضِ، لأنّ النفسيّةَ إذا ساءتْ تسبّبتْ في تفاقمِ المرضِ، والعكسُ ثابتٌ في الطبّ: إبعادُ الحزنِ عنِ المريضِ يُسرّعُ شفاءَه بإذنِ اللهِ. ولمّا أصابتِ الحُمّى عائشةَ ونامتْ في فراشِها، لم تكنْ تدري بما يُقالُ عنها، وقد حرصَ أبواها ألّا تعلمَ شيئًا حتّى لا تسوءَ حالُها. فلا تجمعوا على المريضِ سوأتينِ: سوأةَ المرضِ... وسوأةَ الأخبارِ الحزينةِ التي تكسِرُ خاطرَهُ!

9. إذا وقعَ الخصامُ بينَ الأحبّةِ، فمنَ النّبلِ ألّا يهجُروا بالكليّةِ. كانَ النبيُّ ﷺ في موقفٍ صعبٍ... فأقسى ما يُبتلى به الزوجُ أن يتكلّمَ النّاس في عرضِ زوجتِه، ومع ذلك لم يهجُرْ عائشةَ: كان يزورها، يعودُها، يسألُها: كيف تيكِ؟ فالحبُّ قد يتغيّرُ شكلُهُ، ولكنَّ الحقوقَ لا تسقطُ بالخلافِ. وتبقى الحقيقةُ: مشكلتنا اليوم ليستْ في وقوعِ الخلافاتِ... بل في أنّنا لا نعرفُ كيف نختلفُ!

10. إذا اضطرّتِ المرأةُ للخروجِ من البيتِ فحبّذا ألّا تخرجَ وحدها، وهذا ليسَ شكًّا فيها، بل حمايةٌ لها. خرجتْ عائشةُ لقضاءِ حاجتها فاصطحبتْ أمَّ مِسطَحٍ معها، وجعلتْ لها رفيقةً في موضعٍ يكونُ فيه وجودُ الرفيقةِ مهمًّا. فلا تخرجْنَ وحيداتٍ إنْ وُجِدَتِ الرّفقةُ!

11. المؤمنُ لا يقبلُ أن يُساءَ إلى أحدٍ في حضرتِهِ، ولمّا دعتْ أمُّ مسطحٍ على ابنِها لأنّه خاضَ في عرضِ عائشةَ، نهرتْها عائشةُ لما تعرفُهُ من فضلِهِ وسابقتِهِ. أمُّ المؤمنين تُعلّمنا درسًا في حفظِ أعراضِ النّاس... وأمُّ مسطحٍ

تعلّمنا درسًا آخر: لا تقبلِ الباطلَ ولو جاء به أقربُ الناس إليك.

12. إذا نزلَ بك أمرٌ تكرهُهُ فلا تتسرّعْ في القرار، واستشرْ من تثقُ بدينه وعقلِه. وهذا النبيّ ﷺ يستشيرُ عليًا وأسامةَ في أمرٍ يمسّ بيتَهُ! المشورةُ تُتيحُ لك استخدامَ عقولِ غيرِك، وهي أقومُ من عقلٍ واحدٍ. والمشكلاتُ تُربكُ صاحبَها: ليستْ صعبةً دائمًا، لكنّها مشكلتُهُ هو.

13. لا تقلْ إلّا حقًّا ولو كنتَ خصمًا، وهذه من أعلى درجاتِ النُّبلِ. وانظرْ إلى زينبَ بنتِ جحشٍ: ضرّةُ عائشةَ، ومنافستُها، ومع ذلك قالت: أحمي سمعي وبصري، وما علمتُ إلّا خيرًا! ألقتْ غيرتَها بعيدًا، وانتصرتْ لدينِها وأخلاقِها. النُّبلاءُ كثيرونَ في الوفاقِ، أمّا النبيلُ حقًّا فهو الذي يحفظُ نُبلَهُ حين يستطيعُ أن يتخلّى عنه.

14. مواقفُ الجَبْرِ في الانكسارِ لا تُنسى. المرأةُ الأنصاريّةُ حين سمعتْ بمصابِ عائشةَ، جلستْ تبكي معها. لم تُقدّمْ حلولًا، قدّمتْ قلبًا. والناسُ في لحظاتِ الانكسارِ لا يريدونَ حلولًا، بل يريدونَ من يشعرُ بألمِهم.

15. البكاءُ مُستراحٌ. لا تكتمْ أحزانَك، فالقلبُ قد ينفجرُ بما يحملُهُ. وقالَ ذو الرّمّةِ:

لعلَّ انحدارَ الدمعِ يُعقبُ راحةً

من الوجدِ أو يشفي نجيَّ البلابلِ

فلمّا بكى وجدَ راحةً. وليس البكاءُ ضعفًا، فقد بكى النبيُّ ﷺ عند موتِ ابنِهِ إبراهيمَ، وقال: إنّ العينَ لتدمعُ، وإنّ القلبَ ليحزنُ، ولا نقولُ إلّا ما يرضي ربَّنا.

16 ـ إذا هجمَ عليكَ الحزنُ... فتعزَّ بقصصِ الصّالحينَ.

إنْ كذّبوكَ... فقد كُذّبَ نوحٌ عليه السلام .

وإنْ عصوكَ... فقد عُصِيَ موسى عليه السلام .

وإنْ ظلموكَ... فقد ظُلِمَ يُوسفُ عليه السلام .

وإن افتقرتَ... فقد افتقرَ عيسى عليه السلام .

وإن ابتليتَ بولدٍ عاقٍ... فقد ابتلي نُوحٌ عليه السلام بابنه.

وإن ابتليتِ بزوجٍ مؤذٍ... فتذكّري زوج آسية الطاغية.

وإن جاءكَ الأذى من قريبٍ... فتذكرْ أذى أبي لهبٍ وهو عمّ النبيّ ﷺ.

تعزَّ... فإنَّ في قصصِهم عبرةً، وللقلوبِ المكسورةِ دواءً.

غزوةُ الأحزاب!

آخرُ مرّةٍ يُغزى الإسلامُ في عُقرِ داره!

اجتمعَ الأحزابُ حولَ المدينةِ كما تجتمعُ الذئابُ حولَ شاةٍ وحيدةٍ، تُحرِّكُهم شهوةُ الافتراسِ لا شرفُ الحربِ!

قريشٌ بمالِها، وحقدِها، وجندِها! وغطفانُ بِعنجهيتِها، واليهودُ بِخُبثِهم، ظنّوا جميعًا أنّهم قادرونَ على وَأدِ الإسلامِ في مهدِ دولتِهِ، ولكن هيهاتَ أن يَستطيعَ النّاس إطفاءَ شمعةٍ أوقدَها اللهُ!

اجتمعَ الأحزابُ، عَشَرَةُ آلافٍ مِن الجُندِ، بَل عَشَرَةُ آلافٍ مِن الحِقدِ، جاءوا يَحملون أمنيّةً ألقاها الشيطانُ في قلوبِهم، وفي عيونِهم شَرَرٌ يَتطايرُ، كانوا كغُيمةٍ سوداءَ تَسُدُّ الأُفُقَ، فظنّوا أن شُعلةَ الإسلامِ ستنطفِئُ عندَ أوّلِ هَبّةٍ، وما عَلِموا أن تلكَ الشُّعلةَ لم تكُن نارًا، وإنّما كانت نورًا في صَدرِ نبيٍّ يَستضِيءُ بها صَحبُهُ!

إجتمَعَ الأحزابُ مِن كلِّ صَوبٍ، حَمَلوا في صُدورِهم أحقادَ السِّنينِ، وجَرّوا خلفَهم ضَغائنَ الأمسِ، يَحدوهم الأمَلُ أنّه بإمكانِهم أن يَقتلِعوا هذه الفَسيلةَ النورانيّةَ التي نَبَتَت في عُمقِ صَحرائِهم، وحَسِبوا أنّهم الرّيحُ العاصِفُ، وفي عُقولِهم صُوَرُ الفَسائلِ التي طالما ذَرَتْها الرّيحُ، رَتّبوا كلَّ شيءٍ بِدِقّةٍ، دَبّروا أمرَهم بليلٍ، وأخذوا حِذرَهم، ولكن عنايةَ اللهِ إذا حَفَّت عبادَه، يُؤتى العِداةُ مِن مأمنِهم!

وبَينَ الخوفِ والبَردِ والجُوعِ، كانَ النبيُّ ﷺ يَمشي بينَ أصحابِهِ بوجهٍ تكسوه السّكينةُ، كأنّما لا قَفرَ في هذا الظّلامِ سِواهُ، كان يُرَبِّتُ على كَتِفِ العامِلِ، ويَمسحُ التّرابَ عن رأسِ المُتعَبِ، ويَغرِسُ في القلوبِ بُذورَ الصّبرِ!

تَوزّعَ الصّحابةُ حولَ الخَندَقِ لا يحرُسون مَدينةً، بَل يَحرُصونَ دينًا وعقيدةً، يَتصَبّرون على الجُوعِ الذي يَنحَتُ أضلاعَهم، وعلى البَردِ الذي يَقضِمُ أطرافَهم، وبَينما كان بَعضُهم يَرتجِفُ مِن تآمُرِ الجُوعِ مع البَردِ، كان

كان الخَندقُ الذي حُفِرَ بأيدٍ مُتعَبةٍ، أشبهَ بِسَطرٍ صغيرٍ كُتِبَ في زَملِ التاريخِ، لكنّه حَمَلَ معنًى أعظَمَ مِن كُلِّ خُطَطِ الدِّفاعِ التي عَرَفَتْها الجُيوشُ، معنى التَّدبيرِ الذي يَسبِقُه الدُّعاءُ، والجُهدِ الذي يُرافِقُه اليقينُ، والعَمَلِ الذي يَقودُ إلى العِنايةِ!

كان الصَّحابةُ يَضرِبونَ الأرضَ بالفُؤوسِ، لكنَّهم في الحقيقةِ كانوا يَضرِبونَ اليأسَ في صُدورِهم!

كُلُّ حَجَرٍ يُقلَبُ، كان قَلبًا يُقلَبُ إلى الإيمانِ!

كُلُّ حَفنَةِ تُرابٍ تُرمَى، كان هَمًّا يُرمَى!

كُلُّ عَرَقٍ يَتساقَطُ، كان دُعاءً يَرتفِعُ!

كان الصَّحابةُ يَحرُسونَ الخَندَقَ، لكنَّ الحقيقةَ التي نَعرِفُها اليومَ أنَّهم كانوا يَحرُسونَ الإسلامَ!

وكان لَيلُ المَدينةِ تَحتَ الحِصارِ غيرَ اللَّيلِ!

لَيلٌ لم تَعرِفْ يَثرِبُ مِثلَهُ، رِيحٌ تَعوي بينَ البُيوتِ، وتُرابٌ يَتطايَرُ كطَعَناتٍ مُتتابِعةٍ، فيَلسَعُ الوجوهَ كأنَّه الإبَرُ!

وفي لَحظةٍ فاصِلَةٍ، حين بَلَغَتِ القلوبُ الحَناجِرَ، وتَكَسَّرَ الصَّبرُ على شِفاهِ الرِّجالِ، جاءَتِ الرِّيحُ!

جاءَت نَفحةٌ عُلويَّةٌ نَفَثَتْها فَمُ العِنايةِ، لا تَرفَعُ سيفًا، ولا تَرمي سَهمًا، ولا تَضرِبُ رُمحًا، ولكنَّها مَأمورةٌ، وإذا ما حَفَّتْكَ عِنايةُ رَبِّكَ فنَمْ آمِنًا في أجفانِ الخَطَرِ!

اِقتَلَعَتِ الرِّيحُ خِيامَ الأحزابِ، وقَلَبَتْ قُدورَهم، وأطفَأَتْ نِيرانَهم، وألقَتْ في قلوبِهم خَوفًا لو وُزِّعَ على الجِبالِ لَتَصَدَّعَتْ!

وفي الصَّباحِ، كان المَشهَدُ مَهيبًا، وليس في الكونِ أكثرُ هَيبةً مِن وُقوفِ

إختفى الأحزابُ كما يَختفي الظِّلُّ إذا إصطادَه شعاعُ الشّمس، وتحوّلتِ الجُموعُ التي أرادتْ أن تَبتلِعَ المَدينةَ الصَّغيرةَ إلى أنقاضِ خِيامٍ وقُدورٍ!

وَوَقفَ الصّحابةُ على أطرافِ الخَندَقِ مَبهورين، لا مِن إنتِصارِ صَنعَتْهُ سُيوفُهم، بل مِن دَرْسٍ كَتَبتهُ يَدُ اللهِ: إنّ القلوبَ إذا صَدَقَتْ، نَجاها اللهُ ولو اجتَمَعَ عليها أهلُ الأرضِ جميعًا!

ووَقَفَ النبيُّ ﷺ يُطالِعُ الأُفُقَ المُمتدَّ، كأنّما يَقرأُ القادِمَ كُلَّهُ: الآنَ نغزوهم ولا يَغزونَنا!

كانت مَقولتُهُ إيذانًا بِعَصرٍ جديدٍ، عَصرٍ تَتحوَّلُ فيه المَدينةُ مِن قَلعةٍ مُحاصَرةٍ إلى رايةٍ تَتَقَدَّمُ، ومِن دِفاعٍ مُرهِقٍ إلى هُجومٍ يَفتَحُ الدُّنيا!

وهكذا بَقِيَتْ غَزوةُ الأحزابِ دَرسًا لا يَشيخُ مع الزَّمَنِ: إنّ النّصرَ ليس ضَربَةَ سَيفٍ، بل ضَربَةَ يَقينٍ!

تِلك كانتِ الحِكايةُ بِاقتِضابٍ إذا ما خَفَّها البَيانُ، أمّا التّاريخُ فيَسرِدُ سَردًا، فإلَيكَ الذي حَدَثَ!

لمّا أجلى رسولُ اللهِ ﷺ بَني النّضيرِ عنِ المدينةِ، خرجوا إلى خيبرَ وقد امتلأت قلوبُهم غيظًا وحسدًا، فلم يزالوا يتردّدون بين القبائلِ، يحرّضونها على رسولِ اللهِ ﷺ، ويعدونها إنْ هي غزتِ المدينةَ أنْ يكونوا معها بمالِهم وولدِهم. وكان رأسُهم حُيَيُّ بنُ أخطبَ، لا يقرُّ له قرارٌ حتّى يجمعَ العربَ كلَّهم على حربِ النبيِّ ﷺ. فخرج إلى مكّةَ، فدخل على قريشٍ، وزيّن لهم حربَ محمّدٍ، وقال: إنّا سنكونُ معكم حتّى نستأصِلَ محمّداً وأصحابَهُ.

ففرحت قريشٌ وقالت: الآنَ آنَ لنا أنْ نثأرَ لِأحُدٍ، وتلاقت إرادتُهم على ذلك. ثمّ خرج حُيَيٌّ إلى غطفانَ فكلّمَ عُيينةَ بنَ حِصنٍ والحارثَ بن عوفٍ، ووعدهم من ثمارِ خيبرَ ما يجعلُهم يجيئونَ بجموعِهم، فاستجابوا، ولم يزلْ ينتقلُ بين القبائلِ حتّى تهيّأت الأحزابُ التي لم يجتمعْ مِثلُها في العربِ قطُّ.

وبلغ رسولَ اللهِ ﷺ خروجُ الأحزابِ، فجمع أصحابَه للمشورةِ، وقد أخذ الخوفُ من قلوبِهم مأخذَه، لما علموا من قوّةِ قريشٍ وغطفانَ وكثرة من تبِعهم. فتكلم سلمانُ الفارسيُّ، وكان ممّن شهد أمثالَ تلك الحروبِ في بلادِ فارس، فقال: «يا رسولَ اللهِ، إنّا كنا بفارس إذا خِفْنا الخيلَ خندقْنا علينا».

فاستحسن رسولُ اللهِ ﷺ الرأيَ، وأمر بحفرِ الخندقِ في الجهةِ المكشوفة من المدينةِ، وهي ثغرةٌ واسعةٌ يخشى المسلمون دخولَ الخيلِ منها.

وخرج المسلمون ومعهم رسولُ اللهِ ﷺ يحفرون الخندقَ في بردٍ شديدٍ، وقد نالهم من الجوعِ شدّةٌ حتّى إنّ بعضَهم ليشدّ على بطنِه حجرًا، وكان النبيُّ ﷺ قد ربط على بطنِه حجرينِ. وكان يحملُ الترابَ بنفسِه، ويثبّت القلوبَ، ويقول: «اللهم لا عيشَ إلّا عيشُ الآخرةِ، فاغفر للأنصارِ والمهاجرة».

وأثناءَ الحفرِ اعترضت الصحابةَ صخرةٌ عظيمةٌ استعصت عليهم، فدعوا رسولَ اللهِ ﷺ، فلمّا جاء أخذ المعولَ وقال: «باسمِ اللهِ». وضربَها ضربةً فتحت بصاعقةِ نورٍ، وقال: «اللهُ أكبرُ، فُتِحَت لي مفاتيحُ الشامِ». ثمّ ضرب ثانيةً فسطع نورٌ آخرُ وقال: «اللهُ أكبرُ، فُتِحَت لي مفاتيحُ فارس». ثمّ ضرب ثالثةً وقال: «اللهُ أكبرُ، فُتِحَت لي مفاتيحُ اليمنِ». وكان المنافقون يرون ذلك فيسخرون، ويقولون: «يَعِدُكم بكنوزِ كسرى وقيصرَ وأحدُكم لا يأمنُ أنْ يذهبَ لقضاءِ حاجتِه!».

فلمّا فرغ المسلمون من حفرِ الخندقِ، وأقبلت الأحزابُ في عشرةِ آلافٍ، نزلوا بظاهرِ المدينةِ، فلمّا رأوا الخندقَ قالوا: «هذه مكيدةٌ لم تكن العربُ تعرفُها». وضربوا حصارًا شديدًا على المسلمين، ورموا بالنبلِ والحجارةِ، ومنعوا النّاس من الخروجِ، وكان اللّيل باردًا، والنهارُ ثقيلًا، والمسلمون على السهرِ والخوفِ والجوعِ.

وزاد الجوعُ بالنّاس حتّى بلغ منهم مبلغًا شديدًا، وكان من أعجبِ ما وقع يومئذٍ كرامةُ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ في الطعامِ. فقد رأى برسولِ اللهِ ﷺ ضعفًا وجوعًا، فانصرف إلى أهلِه، وقال لامرأتِه: «لقد رأيتُ برسولِ اللهِ ما لا

أطيقُ، هل عندكِ شيءٌ؟».

فقالت: «عندي صاعٌ من شعيرٍ وعَناقٌ».

فطحنت الشعيرَ وطبخت العناقَ. وجاء جابرٌ سرًا إلى رسولِ اللهِ ﷺ وقال: «يا رسولَ اللهِ، إني صنعتُ طعامًا يسيرًا، فأتِ أنت ورجلٌ أو رجلانِ».

فوضع النبيُّ ﷺ يدَهُ على صدرِهِ وقال: «يا جابرُ، كثيرٌ طيبٌ».

ثمّ نادى في أهلِ الخندقِ جميعًا: «يا أهلَ الخندقِ، إنّ جابرًا صنع لكم طعامًا، فهلمّوا».

فبُهِتَ جابرٌ، وذهب إلى أهلِهِ يقول: «ويحكِ، قد جاء رسولُ اللهِ ﷺ بالنّاس جميعًا!».

فقالت: «هو أعلمُ بما يقول».

فجاء النبيُّ ﷺ إلى البيتِ، وقال لجابرٍ: «لا تُنزِلَنّ من القدرِ إلّا بإذني، ولا تُخرِجَنّ خبزًا من التنورِ إلّا بإذني».

فكان ﷺ يأخذ من القدرِ ويكسر من الخبزِ ويبارك، فيدخل النّاس فوجًا بعد فوجٍ، يأكلون حتّى يشبعوا وينصرفون، والقدرُ كما هي، والتنورُ كأنْ لم يُمَسّ. حتّى أكل أهلُ الخندقِ جميعًا، وبقي الطعامُ كما هو. فكانت هذه الكرامةُ من أعجبِ ما رآه النّاس يومَ الخندقِ، يثبّت اللهُ بها قلوبَ المؤمنين.

وفي بعضِ الأيامِ وجد عمرو بنُ عبدِ وُدٍّ العامريُّ -وكان من أشدِّ فرسانِ العربِ- ثغرةً ضيقةً في الخندقِ، فاقتحم منها ومعه نوفلٌ وكتيبةٌ من فرسانِ قريشٍ، وجعل يدعو إلى المبارزةِ ويقول: «مَن يبارزُ؟».

فلمّا سمع المسلمون صوتَهُ اضطرب بعضُهم، وعرفوا بأسَهُ.

فقام عليُّ بنُ أبي طالبٍ وهو شابٌ، وقال: «أنا يا رسولَ اللهِ».

فقال له النبيُّ ﷺ: «اجلس، إنه عمرو».

ثمّ عاد عليٌّ ثانيةً وثالثةً، حتّى أذن له النبيُّ ﷺ.

وخرج إليه، فقال له عمرو: «مَن أنت؟».

قال: «أنا عليٌّ».

قال: «ابنَ أخي، ما كنتُ لأقتلك».

فقال عليٌّ: «لكنّي واللهِ لأقتلنك».

واقتتلا قتالًا شديدًا، حتّى علت الغبرةُ، ثمّ سمع المسلمون تكبير عليٍّ، وقد قتل عمرًوا، فكبّر المسلمون، وسقط في أيدي المشركين، وارتفعت روحُ المسلمين. وقد قال النبيُّ ﷺ يومها: «برز الإيمانُ كلُّه إلى الشركِ كلِّه».

وبلَغَ رسولَ اللهِ ﷺ في أثناءِ الحصارِ أنَّ بَني قُريظةَ قد نقضوا العهد، بعد أن جاءهم حُيَيُّ بنُ أخطبَ، فدخل حصونَهم، فلا يزال يفتل فيهم حتّى مالت قلوبُهم، وقالوا له: «قد نقضنا العهدَ».

وكان بين المسلمين وقريظةَ عهدٌ على النصرةِ والدفاعِ المشتركِ، فلمّا غدروا اشتدّ الأمرُ على المسلمين، إذ صار العدوُّ يأتي من داخلِ المدينةِ وخارجِها.

وأرسل النبيُّ ﷺ سعدَ بنَ معاذٍ وسعدَ بنَ عبادةَ ليتثبتا من أمرِهم، فلمّا رجعا قالا: «عضَلٌ وقارةُ!» إشارةً إلى قبيلتينِ غدرتا من قبلُ.

فعلم النّاس أنّ الخطبَ جللٌ، وأنّ المدينةَ قد انكشفت.

وفي تلك الساعاتِ الحرجةِ ظهر نفاقُ المنافقين، فكانوا يستأذنون النبيَّ ﷺ ويقولون: «إنّ بيوتنا عورةٌ» - وما هي بعورةٍ - ويتسللون من العملِ، ويرجفون في الصفوفِ، ويقولون: «ما وعدنا اللهُ ورسولُهُ إلّا غرورًا».

ثمّ جاء نُعيمُ بنُ مسعودٍ الأشجعيُّ، وكان قد أسلم سرًّا، فعرض نفسَهُ على رسولِ اللهِ ﷺ، وقال: «يا رسولَ اللهِ، إنّ قومي لا يعلمون بإسلامي، فمُرني بما شئتَ».

فقال له النبيُّ ﷺ: «إنما أنت رجلٌ واحدٌ، فخذِّلْ عنا ما استطعتَ».

فدخل نعيمٌ على بني قريظة وقال لهم: «إنّ قريشًا وغطفانَ إنْ رأوا فرصةً انصرفوا وتركوا المدينة لكم، فخذوا منهم رهائن».

ثمّ ذهب إلى قريشٍ فقال لهم: «إنّ بني قريظة قد ندموا، وأرادوا أن يأخذوا منكم رجالًا يسلّمونهم لمحمّد».

ثمّ ذهب إلى غطفانَ فقال مثل ذلك.

فوقع الشكُّ في نفوسِ الأحزابِ، وفسدت الثقةُ التي كانت بينهم، وصار بعضُهم يتهم بعضًا، حتّى انقطع ما بينهم من حلفٍ.

ولما كانت ليلةُ شديدةُ الريحِ والقرّ، بعث اللهُ ريحًا صرصرًا فجعلت تقلع خيامَ المشركين، وتكفِئ قدورَهم، وتقطع حبالَهم، ولا تدع لهم بناءً يقوم، ولا نارًا توقد.

حتّى قامَ أبو سفيانَ وقال: «إنّا واللهِ ما أصبحنا بدارِ مقامٍ، فارتحلوا».

فانصرف الأحزابُ خائبين، وقد كفى اللهُ المؤمنين القتالَ!

فلمّا أصبح المسلمون ورأوا انصرافَ الأحزابِ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الآنَ نغزوهم ولا يغزونَنا». ثمّ أمر بالسير إلى بني قريظةَ الذين خانوا العهدَ.

وانتهت الغزوةُ، وقد ردّ اللهُ كيدَ الأحزابِ، وثبّت دعائمَ الدولةِ، ورفع المسلمين إلى مقامٍ لم يبلغوه قبلَها، وكانت تلك الوقعةُ فاصلةً بين مرحلتين: مرحلةٍ يستقبلون فيها هجومَ قريشٍ، ومرحلةٍ يغزون هم فيها قريشًا حتّى فُتِحت مكّةُ!

ولأنّ السّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه أهمُّ الدّروس المستفادة من غزوة الأحزاب:

1. أنّ بَصيرةَ رَجُلٍ واحدٍ قد تُنقِذُ أمّةً؛ كما فعلت فكرةُ الخَندَقِ، فالرّأيُ السّديدُ أحيانًا أقوى من ألفِ سيفٍ، ويحوّلُ ميزانَ القُوى بلمحةِ عقلٍ ثاقبٍ.

2. أنّ التوكّلَ بلا عَقلٍ تَمَنٍّ، والعملَ بلا توكّلٍ غُرورٌ؛ فلا يتحقّقُ النصرُ إلا إذا

ارتبطت حركةُ الأرض بثقة السّماء، واجتمع الجهدُ البشريّ مع العون الإلهي.

3. أنّ القِيادةَ ليست صَوتًا يعلو، بل كتفًا تتسخُ بالتّراب مع الجنود؛ فالقائدُ الحقُّ يعيشُ تعبَهم، ويحملُ معهم خوفَهم، ويشعرون في حضوره بالقوة لا بالكلمات.

4. أنّ الشّدائدَ تُصهِرُ القلوب؛ فتُبقي الصّادق كالذّهب، وتُسقط المنافق كالرّماد؛ ففي لحظاتِ المِحَنِ تتعرّى النفوس، ويظهرُ معدنُ كلّ إنسانٍ.

5. أنّ ساعةَ الصّبرِ عند القمّةِ أثمنُ مِن ألفِ ساعةِ راحةٍ في السّفح؛ فالنصرُ يُولَدُ عند آخرِ خطوةٍ من التحمّلِ، لا عند أوّلِ تنهيدةِ يأسٍ.

6. أنّ الرّيحَ التي يُرسِلُها اللهُ قد تهزمُ جيوشًا لا يهزمُها سيفٌ؛ فالموازينُ بيدِ اللهِ، وقد ينكسرُ العدوُّ بلا ضربةٍ، بكلمةٍ واحدةٍ: «كُنْ».

7. أنّ الجماعةَ المتّحِدةَ أقوى من عشرةِ آلافٍ متفرّقين؛ فالأحزابُ اجتمعوا بأجسادِهم وتفرّقوا بقلوبِهم، والمسلمون كانوا قلّةً بأجسادِهم، لكنهم كتلةً واحدةً بروحِهم.

8. أنّ الألمَ والجوعَ والخوفَ ليست نِقمًا، بل جُسورًا يمشي عليها النصرُ؛ فاللهُ يُهيّئُ القلوبَ بالابتلاءِ لتكونَ أهلاً لأمانةِ الانتصارِ.

9. أنّ الخيانةَ ليست رَأيًا، بل سقوطًا أخلاقيًا يُسقِطُ أصحابَه مهْما بلغوا قوّةً؛ فالعهدُ عند الشرفاءِ دينٌ، وعند الغادرين ورقةٌ تُسقَطُ متى شاؤوا.

10. أنّ تحالُفَ الباطلِ هَشٌ؛ لأنّ القلوبَ السوداءَ لا تُتقِنُ البقاءَ معًا طويلًا؛ فالشرُّ لا يجتمعُ إلا ليختلفَ ويتصدّعَ سريعًا.

11. أنّ الحِكمةَ أحيانًا أبلغُ من السّيفِ؛ وأنّ حُفرةً في الأرضِ قد توقفُ عاصفةً في السّماء؛ فالعقلُ الرشيدُ يتفوّقُ على الاندفاعِ.

12. أنّ اللهَ يُمهِلُ ليميّزَ الصّفَّ، ثمّ ينصرُ من صَبرَ وثَبتَ ولم يُبدّلْ؛ فالمحنةُ في الأحزابِ كانت اختبارًا، والفرجُ جاءَ بعد اكتمالِ الابتلاءِ.

13. أنّ المحنَ العظيمة تمهّد للقوة؛ وغزوةُ الأحزابِ كانت انتقالًا من الدّفاع إلى الفتحِ، فبعد تلك اللّيلة تغيّر التاريخُ وارتفعت رايةُ العزّة.

14. أنّ النصرَ يبدأ من ثباتِ الداخلِ قبل أن يظهر على الأرض؛ فالقلبُ المؤمنُ يصنعُ الخطوةَ الأولى نحو الفتح مهما اشتدّ الظلامُ.

15. أنّ الصّراعَ بين الحقِّ والباطلِ ثابتٌ؛ الجنودُ هم الذين يتغيرون، أما السننُ فواحدةٌ؛ وكم من أحزابٍ اجتمعوا بعد ذلك، وكم من قلةٍ مؤمنةٍ حوصرت، واللهُ بالغٌ أمرَهُ.

غزوةُ بني قريظة!

عَلَى الباغي تَدُورُ الدَّوائِرُ!

أحاطَ الأحزابُ بالمدينةِ إحاطةَ السّوارِ بالمعصمِ، ضربوا حصارًا خانقًا، ولو استطاعوا أن يمنعوا الهواءَ عن المسلمينَ لَمَنعوه! ووقف رسولُ اللهِ ﷺ بين أصحابِه باسمًا، صبرُ الأنبياءِ في عينيهِ، ويقينُ السّماءِ في صدرِه. هناك، في تلك اللحظاتِ الفاصلةِ، كُشِف وجهُ الخيانةِ في بني قُريظة كشفًا لا يحتملُ التأويل.

كان بينهم وبين رسولِ اللهِ ﷺ عهدٌ موثّق، كُتِب بالعدلِ، وخُطّ بالأمان، وأبرِم على أن تبقى المدينةُ حَرَمًا آمنًا يحميهِ الجميع، لكنّ النّفوسَ التي أَلِفَتِ الغَدْرَ لم تستطع صبرًا على الوفاءِ. فلمّا اشتدّ الخَطْبُ، وجاءتِ الأحزابُ من كلِّ صوبٍ، تزلزلت قلوبُ بني قريظة، ومالت نفوسُهم إلى الغدرِ ميلَ الرِّيحِ لورقٍ ضعيف. فتحت الخيانةُ أوّلَ بابِها همسًا، ثمّ كَبِرَت حتّى صارت فعلاً مُعلَنًا، فمزّقوا صحائفَ العهدِ كما تُمَزَّقُ الثّيابُ البالية، وتهيّؤوا ليغرِسوا خناجِرَهم في خاصرةِ المدينة.

كانت تلك الخيانةُ أشدّ على المسلمين من وقعِ السيوفِ، فالعهدُ حُرمَة، ونقضُه جريمة، فإذا طُعِن المرءُ من خلفِهِ، فمن أين يأتيهِ الحذر؟ ومع ذلك ظلّ النبيّ ﷺ حكيمًا، ينظر بعينِ العدلِ لا بعينِ الغضب، وينتظر انقضاءَ حصارِ الأحزاب قبل أن يلتفتَ إلى هؤلاء الذين خانوا.

ثمّ جاء الفرجُ، وانصرف الأحزابُ بريحٍ أرسلها اللهُ، وقلوبٍ قُذِف فيها الرُّعب، وما إن عاد النبيّ ﷺ إلى المدينة ووضع سلاحه، حتّى جاءه جبريلُ عليه السلام يقول: إنّ اللهَ يأمرُكَ بالسيرِ إلى بني قريظة، فإنّي لم أضع السّلاح بعد!

فنهض النبيّ ﷺ نهوضَ الأسدِ إذا طُعِنَ عرينُه. ونادى في النّاس: لا يُصَلّينّ أحدُكم العصرَ إلا في بني قريظة!

فانطلقت الجموعُ، تُهرولُ بين الرمالِ كأنها سيلٌ جارٍ، وقد علموا أن الحُكمَ هنا ليس نصرًا للسيفِ، بل للعدلِ، وأنّ المدينةَ لا تُبنى على حجرِ الغدرِ.

حوصِرَ بنو قريظة في حصنهم أيامًا، وكلُّ يومٍ يزداد يقينُهم بأنّ الغدرَ لا يورِّثُ عزًّا، ولا يُنقِذُ صاحبه ساعةَ الشدة. فلمّا أيقنوا بالهزيمةِ، نزلوا على حكمِ رسولِ الله ﷺ، ففوّض الحكمَ إلى سعدِ بن معاذٍ رضي الله عنه، الرجلِ الذي عرفوه دهرًا، وعرفوا في قلبِه العدلَ لا الهوى.

وكان حكمُ سعدٍ حكمًا من نورِ السّماء، لا من غضبِ الأرض: أن تُقتل مقاتلتُهم، وتُسبى نساؤُهم وذراريُهم، ويُقسم مالُهم.

فقال له النبيُّ ﷺ: لقد حكمتَ بحكمِ اللهِ من فوقِ سبعةِ أرقعة!

ولم يكن ذلك انتقامًا أجوفَ، ولا حَمِيّةً عمياء، بل كان تأديبًا لدولةٍ خانت عهدَها في ساعةِ الخطر، وقد كاد غدرُها أن يُسقِطَ المدينةَ كلَّها في يدِ المشركين. وكانت تلك الخاتمةُ درسًا للتاريخ: أن الوفاءَ حصنٌ، وأن الغدرَ لا يبني أمّة، وأن النبيَّ ﷺ كان يُقيم الحدودَ والعدلَ لتقومَ الحياةُ، لا لتهدمَها!

تِلك كانَتِ الحِكايةُ مُوجَزةً تتّكِئُ على عُكّازِ البيانِ، أمّا السّردُ فَلا مَناصَ مِنهُ، فإلَيكَ الّذي حَدَثَ!

لَمّا أصبَحَ رَسولُ اللهِ ﷺ وقَد ذَهَبَ الأحزابُ رَجَعَ إلى المَدينَةِ، وَوَضَعَ المُسلِمونَ سِلاحَهُم، فأتاهُ جِبريلُ عليه السلام في صُورَةِ دِحيَةَ بنِ خَليفَةَ الكَلبيّ، على بَغلةٍ عَلَيها قَطيفةُ دِيباجٍ، فَقالَ لَهُ: يا مُحمّد، إن كُنتُم قَد وَضَعتُم سِلاحَكُم فما وَضَعَتِ المَلائِكَةُ سِلاحَها، إنّ اللهَ يَأمُرُكَ أن تَخرُجَ إلى بَني قُرَيظَةَ، وإنّي مُتَقَدِّمٌ إلَيهم فَمُزَلزِلٌ بِهِم.

فأمَرَ رَسولُ اللهِ ﷺ مُنادِياً يُنادي في النّاسِ: لا يُصَلّيَنّ أحَدُكُم العَصرَ إلّا في بَني قُرَيظَةَ.

وَكانَ سَعدُ بنُ مُعاذٍ - إذ أصابَهُ السَّهمُ - دَعا رَبَّه، فَقالَ:

اللّهُمّ إن كُنتَ أبقَيتَ مِن حَربِ قُرَيشٍ شَيئاً فَأبقِني لَها، فَإنّهُ لا قَومَ أحَبُّ

إليّ أن أجاهدهم من قومٍ كذّبوا رسولَك وأخرجوه، اللهمّ إن كنت وضعت الحربَ بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادةً، ولا تُمتني حتى تقرّ عيني من بني قُريظةَ!

فخرجَ المسلمونَ مبادرينَ إلى بني قُريظةَ، فطائفةٌ خافوا فواتَ الوقتِ فصلّوا، وطائفةٌ قالوا: واللهِ لا نُصلّينَ العصرَ إلّا في بني قُريظة، فبذلك أمرنا رسولُ اللهِ ﷺ. ثمّ علِمَ ﷺ باجتهادِهم، فلم يُعنّف واحداً منهم.

وأعطى رسولُ اللهِ ﷺ الرايةَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ، واستخلف على المدينة ابنَ أمّ مكتومٍ. ونهضَ عليٌّ وطائفةٌ معَهُ حتى أتوا بني قُريظةَ ونازلوهم، وسمِعوا سبَّ رسولِ اللهِ ﷺ، فانصرَفَ عليٌّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقال له: يا رسولَ اللهِ، لا تبلُغ إليهم - وعرّضَ لَهُ.

فقالَ لَهُ: أظنُّك سمِعتَ منهم شتمي، لو رأوني لكفّوا عن ذلِك. ونهضَ إليهم، فلمّا رأوهُ أمسكوا!

فقالَ لهم: نقضتُمُ العهدَ يا إخوةَ القرودِ، أخزاكمُ اللهُ وأنزَلَ بكم نقمتَهُ!

فقالوا: ما كُنتَ جاهلاً يا محمّد، فلا تجهَل علينا.

ونزَلَ رسولُ اللهِ ﷺ فحاصَرَهم بضعاً وعشرينَ ليلةً، وعرَضَ عليهم سيّدُهم كعبُ بنُ أسدٍ ثلاثَ خِصالٍ ليختاروا أيّها شاؤوا:

إمّا أن يُسلِموا ويتّبِعوا محمّداً على ما جاءَ بِهِ فيسلَموا، قالَ: وتُحرِزوا أموالَكم ونِساءَكم وأبناءَكم، فواللهِ إنّكم لتعلَمونَ أنّهُ الّذي تجِدونَهُ في كتابِكم.

وإمّا أن يَقتُلوا أبناءَهم ونِساءَهم ثمّ يتقدّموا فيقاتِلوا حتى يموتوا عن آخِرِهم.

وإمّا أن يُبيّتوا المسلِمينَ ليلةَ السّبتِ في حينِ طمأنينتِهم فيقتُلوهم قتلاً.

فقالوا لَهُ: أمّا الإسلامُ فلا نُسلِمُ ولا نخالِفُ حكمَ التّوراةِ، وأمّا قتلُ أبنائِنا ونسائِنا فما جزاؤُهُمُ المساكينَ مِنّا أن نقتُلَهم، ونحنُ لا نتعدّى في السّبتِ!

ثمّ بعثوا إلى أبي لُبابةَ، وكانوا حلفاءَ بني عمرو بن عوفٍ وسائرِ الأوس، فأتاهم، فجمعوا إليه أبناءَهم ورجالَهم ونساءَهم، وقالوا له: يا أبا لُبابةَ، أترى أن ننزلَ على حُكمِ محمّدٍ؟

فقالَ: نعم، وأشارَ بيدِهِ إلى حلقِهِ: إنّهُ الذّبحُ إن فعلتُم.

ثمّ ندِمَ أبو لُبابةَ في الحالِ، وعلِمَ أنّهُ خانَ اللهَ ورسولَهُ، وأنّهُ أمرٌ لا يسترُهُ اللهُ عن نبيِّهِ ﷺ. فانطلقَ إلى المدينةِ، فربطَ نفسهُ في ساريةٍ، وأقسمَ لا يبرحُ مكانَهُ حتّى يتوبَ اللهُ عليهِ. فكانتِ امرأتُهُ تحلُّهُ لوقتِ كلِّ صلاةٍ.

وفيهِ نزلَت: ﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنوا لا تخونُوا اللهَ والرّسولَ وتخونوا أماناتِكُم﴾.

وأقسمَ أن لا يدخلَ أرضَ بني قُرَيظةَ أبداً، مكاناً أصابَ فيهِ الذّمَّ. فلمّا بلغَ النّبيَّ ﷺ فعلُهُ قالَ: أمَا إنّهُ لو أتاني لاستغفرتُ لهُ، وأمّا إذا فعلَ فلستُ أطلِقُهُ حتّى يُطلِقَهُ اللهُ. فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وآخرونَ اعترَفوا بذنوبِهِم﴾. فلمّا نزلَ فيهِ القرآنُ أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ بإطلاقِهِ.

ونزلَ في تِلكَ اللّيلةِ الّتي في صَبيحتِها نزلَت بنو قُرَيظةَ على حُكمِ رسولِ اللهِ ﷺ، ثعلبةُ وأسيدُ ابنا سَعيةَ، وأسدُ بنُ عُبيدٍ، وهُم نفرٌ مِن هدلٍ بني عمِّ قُريظةَ والنّضيرِ، وليسوا منهم، نزلوا مسلمينَ، فأحرزوا أموالَهم وأنفسَهم.

وخرجَ في تِلكَ اللّيلةِ عمرُو بنُ سُعدى القُرَظيُّ، ومرَّ بحرَسِ رسولِ اللهِ ﷺ وعليهِ محمّدُ بنُ مسلَمةَ، وكانَ عمرُو قد أبى أن يدخُلَ فيما دخلَ فيهِ بنو قُريظةَ، وقالَ: لا أغدرُ بمحمّدٍ أبداً!

فقالَ لهُ محمّدُ بنُ مسلَمةَ إذ عرَفَهُ: اللّهُمَّ لا تحرِمني إقالةَ عثَراتِ الكِرامِ.

فخرجَ على وجهِهِ حتّى باتَ في مسجدِ النّبيِّ ﷺ ثمّ ذهبَ فلَم يُرَ بعدُ.

وذُكِرَ لرسولِ اللهِ ﷺ أمرُهُ، فقالَ: ذلِكَ رجلٌ نجّاهُ اللهُ بوفائِهِ.

فلمّا أصبحَ بنو قُرَيظةَ نزلوا على حُكمِ رسولِ اللهِ ﷺ، فتواثبَ الأوسُ إلى

رسولِ اللهِ ﷺ، فقالوا: يا رسولَ الله، قد علمت أنهم حلفاؤنا، وقد شفع عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ في بني قينقاع حلفاءِ الخزرجِ، فلا يكن حظُّنا أوكس عندك من غيرنا، فهم موالينا.

فقالَ لهم رسولُ اللهِ ﷺ: يا معشرَ الأوسِ، ألا ترضون أن يحكم فيهم رجلٌ منكم؟

قالوا: بلى.

قال: فذلك إلى سعدِ بنِ معاذٍ.

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ قد ضرَبَ لهُ خيمةً في المسجدِ يعودهُ من قريبٍ في مرضِهِ من جرحِهِ في الخندقِ. فلمّا حكّمهُ رسولُ اللهِ ﷺ في بني قريظة، أتاهُ قومهُ فاحتملوهُ على حمارٍ، وقد وطّؤوا لهُ بوسادةٍ من أدمٍ وكانَ رجلاً جسيماً. ثمّ أقبلوا بهِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وأحاطوا بهِ في طريقِهم يقولون: يا أبا عمرٍو، أحسِن في مواليك، فإنّما ولاكَ رسولُ اللهِ ﷺ ذلِك لتحسنَ إليهم!

فقالَ لهم: قد آنَ لسعدٍ ألّا تأخذهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ.

فلمّا أطلَّ سعدٌ على النبيّ ﷺ قالَ للأنصارِ: قوموا إلى سيّدِكم!

فقامَ المسلمونَ، فقالوا: يا أبا عمرٍو، إنّ رسولَ اللهِ ﷺ قد ولاكَ أمرَ مواليك لتحكمَ فيهم!

فقالَ سعدٌ: عليكم بذلك عهدُ اللهِ وميثاقُهُ: أنّ الحكمَ فيهم ما حكمتُ؟

قالوا: نعم.

قالَ: وعلى من هاهنا؟ - من النّاحيةِ الّتي فيها رسولُ اللهِ ﷺ، وهو معرضٌ عنهُ إجلالاً لهُ.

فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: نعم.

قالَ سعدٌ: فإنّي أحكمُ فيهم أن يُقتلَ الرّجالُ، وتُسبى الذّراري والنّساءُ، وتُقسمَ الأموالُ!

فقالَ لهُ رَسولُ اللهِ ﷺ: لقد حَكمتَ فيهم بِحكمِ اللهِ تعالى مِن فوقِ سبعةِ أرقِعةٍ!

وأمَرَ بِهم رَسولُ اللهِ ﷺ، فأخرجوا إلى مَوضِعِ سوقِ المَدينةِ، فخَندَقَ بِها خَنادِقَ، ثمَّ أمرَ بِهم، فضُرِبَت أعناقُهم في تلك الخنادقِ، وقُتِلَ يومئذٍ حُيَيُّ بنُ أخطبَ وكَعبُ بنُ أسدٍ. وكانوا مِنَ السّتمئة إلى السّبعمئة. وقُتِلَ مِن نِسائِهم امرأةٌ، وهِيَ بُنانةُ امرأةُ الحَكمِ القُرَظيّ الّتي طرحت الرّحى على خلّادِ بنِ سُوَيدٍ فقَتلَتهُ.

وأمَرَ رَسولُ اللهِ ﷺ بِقتلِ كُلِّ مَن أنبتَ مِنهم، وتَركَ كُلَّ مَن لم يُنبِت، أي لَم يَظهَر لَهُ شعرُ عانةٍ وَلَم يَبلُغ، وَكانَ عَطِيّةُ القُرَظيّ مِن جُملةِ مَن لم يُنبِت. فاستَبقاهُ رَسولُ اللهِ ﷺ، وَهوَ مَذكورٌ في الصَّحابةِ.

وَقسَمَ النّبيُّ ﷺ أموالَ بَني قُرَيظةَ، فأسهَمَ لِلفارِسِ ثَلاثةَ أسهُمٍ وَلِلرّاجِلِ سَهماً، وَقَد قيلَ: لِلفارِسِ سَهمانِ وَلِلرّاجِلِ سَهمٌ. وَكانَتِ الخَيلُ لِلمُسلِمينَ يَومَئذٍ سِتّةً وَثلاثينَ فَرَساً. وَوَقَعَ لِلنّبيِّ ﷺ مِن سَبيِهم رَيحانةُ بِنتُ عَمرِو بنِ خُناقةَ إحدَى بَني عَمرِو بنِ قُرَيظةَ، فَلَم تَزَل عِندَهُ حتّى ماتَ ﷺ.

فلمّا تَمَّ أمرُ بَني قُرَيظةَ، أُجيبَت دَعوةُ الرَّجُلِ الصّالِحِ سَعدِ بنِ مُعاذٍ، فانفَجَرَ جُرحُهُ، وَانفَتَحَ عِرقُهُ، فَجرى دَمُهُ وَماتَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ـ وَهوَ الّذي أتَى الحَديثُ فيهِ: أنّهُ اهتَزَّ لِمَوتِهِ عَرشُ الرَّحمَنِ!

ولأنَّ السّيرةَ واقِعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُكتب، هذه هي أهمُّ الدُّروس المستفادة من غزوة بني قريظة:

1. أنَّ العُهودَ مِيثاقُ أرواحٍ قبل أن تكونَ حروفًا مكتوبة؛ فمن خانَ العهدَ خانَ نفسَه، وسقطَ من عينِ التاريخِ قبل أن يسقطَ من عينِ الرجال.

2. وأنَّ الأزماتِ العُظمَى تُظهِرُ مَعادِنَ النُّفوس؛ فما إن هدأ غبارُ الأحزابِ حتّى انكشفَ وجهُ الغدرِ بين جدرانِ بني قريظة، كخنجرٍ يُسَلُّ حين يطمئنُّ الصدر.

3. وأنّ القيادة الرّبانيّة لا تعرف التردد؛ يمشي النبيّ ﷺ بخطواتٍ كالنور، يضع الحقّ في موضعه، والعدل في كفّه.

4. وأنّ العدالةَ توزَنُ بميزانٍ لا يميلُ؛ ميزانٍ يقيمُ الحقّ ولو على رقابِ المعتدين.

5. وأنّ الأمنَ نعمةٌ لا تُصانُ إلا بالحزمِ؛ فمدينةُ الوحي لا تليق بها أن تُفتح لأنيابِ الخيانة.

6. وأنّ المنافقينَ هم هَمَش الجُبنِ؛ يختبئون وراء الكلام، فإذا جاءت ساعةُ العملِ انكمشوا.

7. وأنّ اللهَ يُمهِلُ ولا يُهمِلُ؛ والغادرُ مهما طال نومُه على وسادةِ الخديعة، فسيستيقظ على حسابٍ لا يؤجَّل.

8. وأنّ الأمّةَ تُبنى بالقوّةِ والحِكمةِ والإيمانِ، لا بالعاطفةِ وحدها!

9. وأنّ النّصرَ الحقيقيّ نصرُ المَبدأ قبل نصر السيف.

10. وأنّ التاريخَ لا يحفظُ الخائنينَ إلا عِبرةً، ويحفظُ الأوفياءَ سَواري نورٍ في سفرِ الخلود.

11. وأنّ رسولَ اللهِ ﷺ جمعَ بين الحزمِ والرّحمةِ، فلا يَغلِبُ عاطفةٌ على حكمٍ.

12. وأنّ الغزواتِ مَدارسُ تربيةٍ إلهيّة؛ تُنقّي الصفَّ وتُقيم القلوبَ على محاريبِ اليقظة.

صُلحُ الحديبية!

الصُّلحُ الّذي أورثَ فتحًا!

صُلحُ الحديبيةِ ليسَ معاهدةً تُقرأ، بل درسًا من دروسِ السّماء، أنّ النّصرَ لا يُقاسُ بصوتِ السّيوف، بل بثباتِ الرّوح. وأنّ التّراجعَ خطوةً في الظاهر، قد يكونُ صعودًا في سُلَّمِ القَدَر.

وأنّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يمشي إلى الفتحِ ولو بدا أنّه يعودُ أدراجَه. فما عادَ يومَ الحديبيةِ، بل تقدّمَ إلى مكّةَ من حيثُ لم تدرِ مكّة!

خرجَ النّبيُّ ﷺ من المدينةِ لا يُريدُ حربًا، إنّما يُريدُ عُمرةً يَزفُّ بها القلوبَ إلى البيتِ العتيق. خرجَ ومن حولهِ ألفٌ وأربعمائةٍ، ما في أيديهم إلا سيوفُ المسافر، وما في صدورِهم إلا شوقٌ يوشكُ أن ينفلِقَ من حنينِه. كانتِ القوافلُ تمشي على الرّملِ كأنّ الأرضَ تُفرشُ لهم طُرقًا من نور، والقلوبُ تملأُ السّماءَ تكبيرًا وتهليلًا.

فما إن بلغوا الحديبيةَ حتّى اعترضتهم قُريش؛ جاءتْ بعنادِها القديم، تقفُ كجبلٍ أصمَّ في وجهِ الوحي، تمنعُ الطريقَ إلى بيتٍ ما وُضِعَ إلّا لِيُزار. ومعَ ذلك، ما اهتزَّ للرسولِ ﷺ رِمش، بل قال: إنّا لم نأتِ لِقتال.

كانَ يمشي بينَ أصحابِهِ يمسحُ من على أرواحِهم غبارَ اليأس، ويزرعُ مكانَه رَوحَ الرّجاء.

وبعثَ السُّفَراء، وتناوبتِ الرُّسل، وتكسّرتِ الكلماتُ بينَ الخوفِ والرّجاء، حتّى جاءَ سُهَيلُ بنُ عمرٍو؛ فجاءَ معه الفَرَج، إذ قالَ النّبيُّ ﷺ: سَهُلَ أمرُكم.

وفي تلكَ اللحظةِ بدأتِ المعركةُ الكُبرى؛ ليستْ معركةَ سيوفٍ، بل معركةَ ضبطِ الغضب، وحبسِ القوّة، وإمضاءِ الصّبر.

وكتبوا الصُّلحَ بنودًا بدتْ للصحابةِ كأنّها أمطارٌ مالحةٌ تُطفئُ جمرَ قلوبِهم ولا تُنبتُ شيئًا. لكنّ النّبيَّ ﷺ كانَ يرى ما وراءَ الغيب، يرى فتحًا ينزلُ من

السَّماء ببطء، كغُصنِ زيتونٍ يميلُ على زمنٍ مُتعب.

رَجَعَ المسلمون بلا عُمرة، لكنهم رجعوا بإذنٍ سماويٍّ لفتح الأرض؛ رجعوا وقد علَّمهم النبيُّ ﷺ أنَّ الهزيمةَ أحيانًا قشرةٌ تُخفي لُبَّ النَّصر، وأنَّ الصُّلحَ جِسرٌ تُعبر فوقه الفُتوحات.

وهناك، عند أشجارِ الحديبيةِ الصَّامتة، كتب التاريخُ أعظم درس: أنَّ النَّصر ليس في حدِّ السَّيف، بل في حدِّ البصيرة، وأنَّ قلبًا مطمئنًا بالله قد يصنعُ من التَّنازلِ انتصارًا، ومن الصَّبرِ أُمّة، ومن الحِلْمِ دولةً تفتحُ القلوب قبل المدن.

وهكذا عاد النبيُّ ﷺ إلى المدينة، وعاد معه وَعْدٌ يلمع كفجرٍ قريب:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

ذاك كان موجزُ النَّشرةِ، وإليك الآن تفاصيلَها!

في شهرِ ذي القَعدَةِ من السنةِ السادسةِ للهجرة، عَزَمَ رسولُ اللهِ ﷺ على الخروجِ إلى مكّةَ معتمرًا لا يُريدُ حَربًا، واستعملَ على المدينةِ نُمَيلَةَ بنَ عبدِ اللهِ اللَّيثيِّ.

ثمَّ دعا الرسولُ ﷺ العربَ ومَن حولَهم من أهلِ البادية؛ ليخرجوا معه، وقد أخبرهم أنَّه يريدُ الخروجَ للعُمرة، وهو يخشى من قُريشٍ أن يعرِضوا له بحربٍ أو يصدُّوه عن الكعبة، فأبطؤوا عليه، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، وكانوا حوالي ألفٍ وأربعمائة، وساق معه الهَدْيَ سبعين ناقةً، وأحرمَ بالعُمرة؛ ليأمَنَ النَّاس من حربِه، وليعلموا أنه خرج زائرًا لبيتِ اللهِ ومُعظِّمًا إيّاه، وقد جعل الهديَ سبعين بَدَنَة، فكانت كلُّ بدنةٍ عن عشرةِ نفر.

وأمرَ النبيُّ ﷺ أن لا يكون معهم سلاحٌ غيرُ السيوفِ في القِرَب، ولما رأى عمرُ بنُ الخطابِ ذلك، ظنَّ في هذا المظهرِ ضعفًا أمامَ قُريش، ولم يَفطَنْ إلى أنَّ غايةَ الرسولِ من بدايةِ الأمرِ أن يُثبتَ للملأ أنَّه خارجٌ للعُمرة لا للحرب، فقال للرسولِ: أتخشى يا رسولَ اللهِ من أبي سفيانَ وأصحابِه؟! ولم تأخذ

للحربِ غدّتها.

فقال الرسولُ ﷺ: لستُ أحبُّ أن أحملَ السِّلاحَ مُعتمِرًا.

وما زال النبيُّ ﷺ وصحبُه سائرين حتى كانوا بعُسفان، وهو مكانٌ قريبٌ من مكّة، فتقدّم إليه بُسرُ بنُ سفيانَ الكعبيّ، وقال له: يا رسولَ الله، هذه قُريشٌ سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العوذُ المطافيل، وقد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طُوى يُعاهدون الله لا تدخلُها عليهم أبدًا عنوةً، وهذا خالدُ بنُ الوليدِ في خيلِهم قدّموها إلى كُراعِ الغميم، وكلاهما مكانٌ قريبٌ من الحديبية.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: يا ويحَ قُريشٍ! لقد أكلتْهم الحربُ! ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبينَ سائرِ العربِ؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرَني اللهُ عليهم دخلوا في الإسلامِ وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة.

فما تظنُّ قريشٌ؟! فواللهِ لا أزالُ أجاهِدُ على الذي بعثني اللهُ به حتّى يُظهِرَهُ اللهُ أو تنفردَ هذه السالفةُ.

ثمّ قال: مَن رجلٌ يخرجُ بنا على طريقٍ غيرِ طريقِهم التي هم بها؟

فتقدّم رجلٌ ممّن أسلم، وسلك بالنبيِّ ﷺ ومن معه طريقًا وَعِرًا بين الشِّعاب حتّى بلغوا ثنيّةَ المُرار، فبركتْ ناقةُ الرسولِ ﷺ.

فقال بعضُ ذوي الألسنةِ الطويلة الذين ينتظرون العثرات: لقد خلأتِ الناقةُ!

فردّ عليهم الرسولُ ﷺ وهو أبدًا حاضرُ البديهة: ما خلأتِ الناقةُ، وما هو لها بخُلُق، ولكنْ حبَسَها حابسُ الفيلِ عن مكّة، فلا يدخلُها قهرًا.

ثمّ قال مُسالِمًا: لا تدعوني قُريشٌ اليومَ إلى خُطّةٍ يسألونني فيها صِلَةَ الرَّحِمِ إلا أعطيتُهم إيّاها.

ثمّ زجَرَ ناقته فقامت.

ثمّ أمرَ النبيُّ ﷺ الناس بالنزولِ في الوادي، ولما اطمأنّ، جاءه بديلُ بنُ وَرقاءَ الخُزاعيّ، وكانت خُزاعةُ مُصادِقةً لرسولِ الله ﷺ، مسلمُها ومشركُها، لا يَخفونَ عنه شيئًا كان بمكّة، وربّما فطِنت قريشُ لذلك.

فقال له بَديلُ: ما الذي جاءَ بك؟

فقال النبيُّ ﷺ: ما جئتُ أريدُ حربًا، وإنّما جئتُ زائرًا للبيت ومعظّمًا لحرمته.

وهو مِثلُ ما قاله لبِشرِ بنِ سُفيان، فعاد بَديلُ إلى قريشٍ وقال لهم ما سمعه مِن رسولِ اللهِ ﷺ، فاتهموه وجَبهوه هو ومَن معه، وقال أحدُ رجالِ قريشٍ: وإن كان لا يريدُ قتالًا، فوالله لا يدخلها علينا عَنْوةً أبدًا، ولا تتحدّثُ العربُ عنّا بذلك، وبيننا مِن الحربِ ما بيننا!

ولا بُدّ من ذكرِ المبعوثينَ مِن قريشٍ إلى رسولِ اللهِ ﷺ لِغرابةِ أخلاقِ بعضِهم، وكأنّ دُهاةَ قريشٍ أرادوا أن يقفوا على الحقيقةِ مِن اختلافِ مَشارِبِ رُسُلِهم؛

فقد بعثوا أولًا بَديلًا الخزاعيّ - وهم يعلمون موالاةَ خُزاعةَ للنبيّ ﷺ - فهو أقربُ إلى المسلمين وأحبّ، وكان مِن أمرِه ما كان.

ثمّ أرسلوا الحُلَيسَ بنَ عَلقَمةَ، وكان يومئذٍ سيدَ الأحابيش.

فلمّا عاد برأيٍ يُؤيّدُ المبعوثَ الأوّلَ -وهو بَديلُ الخُزاعيّ- ويُعظّم لهم من شأنِ رسولِ اللهِ ﷺ، سَخِروا منه وقالوا له: اجلس، فإنّما أنتَ أعرابيٌّ لا عِلمَ لك!

فغضب الحُلَيسُ لِكرامتِه وقال: يا معشرَ قريشٍ، واللهِ ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم!

أيُصَدُّ عن بيتِ اللهِ مَن جاءَ مُعظّمًا له؟ والذي نفسُ الحليسِ بيده لَتُخَلُّنَّ بين محمّدٍ وبين ما جاءَ له، أو لأَنْفِرَنّ بالأحابيشِ نَفرةَ رجلٍ واحدٍ!

فقالوا له: مه! كُف عنّا يا حُليس حتّى نأخذ لأنفسنا ما نَرضى به!

فسكت وصبر على مَضض.

وكانت غايةُ قريشٍ أن يتأكدوا من غايةِ النبي ﷺ من مجيئه، فاستعملوا هذه الطريقة التي تدلُّ على الدهاءِ والسياسة وبُعد النظر.

وذلك بعد أن أرسلوا بُسرَ بنَ سُفيان يصف للنبيّ ﷺ استعداد قريشٍ للحرب: بِخيلِهم ورجِلهم وجنودِهم المدجّجةِ بالحديد.

ثمّ أرسلوا مِكرَزَ بنَ حفصِ بنِ الأحنف، وكان رجلًا غادرًا، فعلم من رسول الله ﷺ ما علِم السابقون.

ثمّ اختارت قريشٌ عُروةَ بنَ مسعودٍ الثّقفيّ، وكلّفوه بمقابلةِ الرسول ﷺ.

فقال لهم-بعد أن سمع توبيخَ المفاوضين السابقين-: يا معشرَ قريشٍ، إني قد رأيتُ ما يلقى منكم مَن بعثتموه إلى محمّد إذا عاد إليكم من التعنيفِ وسوءِ اللفظ؛ وقد سمعتُ بالذي أصابكم، فجمعتُ من أطاعني من قوميَ ثمّ جئتكم حتّى آسيتُكم بنفسي.

فقالوا له: صدقتَ، ما أنت عندنا بمتّهم!

ووعدوه أن يأخذوا برأيه وأن لا يُغلّظوا له القول مهما كانت نتيجةُ بعثته.

ثمّ سار حتّى أتى النبيّ ﷺ وجلس بين يديه، ثمّ قال في وقاحةٍ وغِلظة-وقد تخيّل أنه لا يرى في أصحاب الرسول ﷺ عظماء- بل رأى أوباشًا يفرّون ويتركون رسولهم:

يا محمّد! أجمعتَ أوشابَ النّاس ثمّ جئتَ بهم إلى بيضتك لتفضّها بهم!

إنها قريشٌ قد خرجت معها العوذُ المطافيل، قد لَبِسوا جلودَ النمور، وأيْمُ اللهِ لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدًا!

وكان أبو بكرٍ رضي الله عنه قاعدًا خلف النبي ﷺ، فغاظته كلمةُ عروة -وهو رسولُ صُلح- فانقلب مُهدّدًا وقال له:

امْصَصْ بَظْرَ اللاتِ! أنحن ننكشف عنه؟!

وهذه أكبرُ مَسبةٍ تصدر من مسلمٍ لمشركٍ.

فقال عروة: من هذا يا محمد؟

فقال له ﷺ: هذا ابنُ أبي قُحافة.

فقال عروة: أما واللهِ لولا يدٌ كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها.

ثمَّ جعل يتناول لِحيةَ رسولِ الله ﷺ وهو يكلمه.

وكان المُغيرةُ بنُ شُعبةَ واقفًا على رأس النبي ﷺ مُدَجَّجًا بالسلاح، فجعل يقرع يدَ عروة إذا تناول لِحيةَ رسول الله ﷺ ويقول:

اكْفُفْ يدَكَ عن وجهِ الرسولِ ﷺ قبل ألا تصلَ إليك!

فيقول عروة: ما أفظَّك وأغلظك!

فيتبسم رسولُ الله ﷺ.

فقال له عروة: من هذا يا محمد؟

فقال ﷺ: هذا ابنُ أخيك؛ المغيرةُ بن شعبة.

فقال عروة: أيْ غُدَرُ!

فقامَ عُروةُ بنُ مَسعودٍ وعادَ إلى قُرَيْشٍ وقالَ لهم:

يا مَعشرَ قُرَيْشٍ، إنّي قد جِئتُ كِسرَى في مُلْكِهِ، وقَيصرَ في مُلكِهِ، والنّجاشيَّ في مُلكِهِ، وإنّي واللهِ ما رأيتُ مَلِكًا في قومٍ قطُّ مثل محمد ﷺ في أصحابه، ولقد رأيتُ قومًا لا يُسلِمُونَه لشيءٍ أبدًا، فَرَوا رأيَكم؛ فقد عَرَضَ عليكم خُطَّةَ رُشدٍ فاقبَلُوها.

فكان كلامُ عُروةَ بنِ مَسعودٍ الثَّقفيِّ لِقُرَيْشٍ دليلَ مَكرِهِ ودَهائِهِ؛ فإنَّه لم يَنصَحْهُم بشيءٍ، واكتفى بتفويضِ الأمرِ لهم، بعد أن وصف استِقتالَ أصحابِ محمد ﷺ في سبيله.

وكان النبيُ ﷺ إذا بعث لهم رسولًا أهانوهُ وفعلوا به الأفاعيل، كما حدث لـ خُراشِ بنِ أُميةَ الخُزاعيِ ليبلِّغ أشراف قريشٍ عن الرسول ﷺ ما جاء له، فعقروا جمله، وأرادوا قتله لولا أن منعتهُ الأحابيشُ، وهم رجالُ الحُليس بن علقمةَ.

وترسل قريش كتيبةً من الجند فترمي الكتيبةُ أصحاب النبيﷺ بالنبل والحجارة، وهذا سببٌ صريحٌ للحرب، فيعفو عنهم النبيُ ﷺ ويخلّي سبيلهم.

وأخيرًا وقع اختيارُ الرسول ﷺ على عُمرَ بنِ الخطّاب ليبعثه مفاوضًا.

فقال عُمرُ: يا رسولَ اللهِ، إنّي أخافُ قريشًا على نفسي، وليس بمكّة أحدٌ يمنعني، وقد عرفتْ قريشٌ عداوتي لها، ولكني أدلّك على رجلٍ أعزَّ بها مني: عثمانُ بنُ عفّان.

فدعا رسولُ الله ﷺ عثمانَ بنَ عفّانَ فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش.

فخرج عثمان إلى مكّة، فلقِيَه أبانُ بنُ سعيدِ بنِ العاصِ، فحمله بين يديه، ثمّ أجاره حتّى بلغ رسالةَ رسولِ الله ﷺ، وهي:

إنّ محمّدًا لم يأتِ لحربٍ، وإنما جاء زائرًا لهذا البيت، معظّمًا لحرمته.

فلمّا أدّى أمانته قالوا له: إن شئتَ أن تطوف بالبيت فطُف.

فقال: ما كنتُ لأفعل حتّى يطوفَ به رسولُ الله ﷺ.

فاحتبسته قريش عندها، فشاع أنه قُتِل، فقال الرسول ﷺ:

لا نَبرَحُ حتّى نُناجِزَ القَومَ!

فكانت بَيعةُ الرِّضوانِ تحت الشجرة، بايعه العربُ على الموت أو على عدم الفرار، وأوّل من بايعه سِنانُ بنُ أبي سِنانٍ الأسديُّ على الحرب إلى النهاية.

ولم يتخلّف أحدٌ من المسلمين عنها إلا الجَدُّ بنُ قَيس؛ فقد رأوه لاصقًا

بإبط ناقته يستتر بها من النّاس، وهو نفسه الذي اعتذر عن غزوة تبوك بشهوته لنساء الروم!

وظهر أن نفي عثمان كان سابقًا لأوانه، وأنّ قريشًا خجلت وخشيت عاقبة الإصرار على الرفض، فأرسلوا سُهَيلَ بن عمرو.

فلمّا رآه النبي ﷺ قال:

قد أراد القومُ الصُّلحَ حين بعثوا هذا الرجل!

وكان نظره صائبًا، فإن سهيلًا كان يحمل شروط الصُّلحِ؛ وأهمها:

أن يرجع الرسول ﷺ هذا العام كي لا يُقال إنه دخل مكّة عنوةً.

ولكن سهيلًا كان كثيرَ الإلحاحِ والتهجُّم، وقد أطال الكلام، حتّى غضب عمرُ ووثب، فأتى أبا بكر، ودار بينهما الحوار:

يا أبا بكرٍ أليس رسولَ اللهِ؟

قال أبو بكرٍ: بلى.

قال: أولسنا المسلمين؟

قال: بلى.

قال: أوليسوا بالمشركين؟

قال: بلى.

قال: فعلامَ نُعطي الدَّنِيَّة في دِيننا؟!

فقال أبو بكر: يا عمرُ، الزمْ غرزَهُ؛ فإنّي أشهدُ أنه رسولُ الله.

ثمّ تقدّم عمر إلى النبي ﷺ وقال:

يا رسولَ الله، ألستَ برسولِ اللهِ؟

قال ﷺ: بلى.

قال: أولسنا بالمسلمين؟

قال: بلى.

قال: أوليسوا بالمشركين؟

قال: بلى.

قال: فعلامَ نُعطي الدَّنِيَّة في ديننا؟!

فقال النبي ﷺ:

أنا عبدُ اللهِ ورَسولُه! لن أخالِفَ أمرَه، ولن يُضيِّعَني.

فهدأ روعُ عُمَرَ، وعاد إليه حِلْمُه.

وكان يقول بعد ذلك:

ما زلتُ أتصدّقُ وأصوم وأصلّي وأعتِقُ ممّا صنعتُ يومئذٍ؛ مخافةَ كلامي حتّى رجوتُ أن يكون خيرًا.

فَلْننظُرِ الآنَ في عقدِ الهُدنةِ الذي تمّ بينَ الرّسولِ ﷺ وقريش.

فإنّه بعدَ أن تمّتِ المفاوضةُ الشفويّةُ اتفقوا على تدوينِها بالكتابةِ، وكان الكاتبُ لها عليُّ بنِ أبي طالبٍ.

أملى الرسولُ ﷺ: اكتبْ بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ.

فقال سُهيلٌ: لا أعرفُ هذا، يقصدُ الرّحمنَ! اكتبْ: باسمِك اللهمّ، وهي صيغةُ الجاهليّةِ.

فقال النبيُّ ﷺ: اكتبْ باسمِك اللهمّ. فكتبها.

ثمّ قال: اكتبْ هذا ما صالح عليه محمّد رسولُ اللهِ ﷺ سُهيلَ بنَ عمرو.

فقال سُهيلٌ: لو شهدتُ أنك رسولُ اللهِ لم أقاتلْك، ولكن اكتبْ اسمك واسمَ أبيك!

فقال الرسولُ ﷺ: اكتبْ هذا ما صالح عليه محمد بنُ عبدِ الله سهيل بن عمرو.

وجاءت بنودُ صُلحِ الحديبيةِ في أربعِ نقاطٍ:

1- وضعُ الحربِ عشرَ سنين يأمنُ فيها النّاس ويكفُّ بعضُهم عن بعضٍ.

2- وأنّه من أتى محمّدا من قريش بغيرِ إذنِ وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمّد لم يردّوه!

3- وأنّ بينهم عيبةً مكفوفةً، وأنه لا إسلال ولا إغلال، ومن أحبّ أن يدخل في عقدِ محمّد وعهدِه دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدِهم دخل فيه.

4- يرجعُ النبيُّ ﷺ عن قريش عامَه هذا فلا يدخلُ مكّة، وأنّه إذا كان عامُ قابلٍ خرجوا عنها فيدخلُها بأصحابه فيقيمُ ثلاثًا، معه سلاحُ الراكبِ: السيوفُ في القِرَب، لا يدخلونها بغيرِها.

فلمّا فرغوا من الكتابةِ والتوقيعِ من الطرفين أشهدَ على الصلحِ رجالًا من المسلمين ورجالًا من المشركين، وهم:

أبو بكرٍ الصّدّيقُ، وعمرُ بنُ الخطابِ، وعبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ، وعبدُ اللهِ بنُ سهيلٍ، وسعدُ بنُ أبي وقّاصٍ، ومحمودُ بنُ مسلمةَ، ومكرزُ بنُ حفصٍ.

وكان سهيلٌ يشترطُ شروطَ القويّ، بل كان يُملي شروطًا؛ فقد أبى أن يكتبَ العهدَ أحدٌ سوى عليٍّ أو عثمانَ، وحذفَ صفةَ رسولِ اللهِ واسمَ الرّحمنِ الرّحيمِ، ونصّ على التزامِ الرسولِ ﷺ بتسليمِ المسلمين الذين يفرّون من مكّة.

وكان المسلمون كلّما سمعوا شرطًا ضجّوا، ولا سيّما بعد أن علموا أنهم سيرجعون أدراجهم خائبين، لا حربًا ولا عمرةً، وكان الرسولُ ﷺ وعدَهم بالنصرِ والفتحِ القريبِ، فكانوا يرفعون أصواتَهم ويهُزّون أسيافَهم، واتخذوا احتجاجَ عمرَ شعارًا لهم فصاروا يقولون:

لِم نُعطي هذه الدّنيّة في دِيننا؟!

فجعل الرسولُ ﷺ يُخفِضُهم ويومئ بيده: اسكتوا!

ولم يكن أبو بكرٍ أقلّ حبًا بالحربِ من عمرَ، فإن رسول اللهﷺ لما تأكّد أن قريشًا تريد منعه من البيت قال:

أشيروا عليّ أيها النّاس، أتريدون أن نؤمّ البيت فمن صدّنا عنه قاتلناه؟

فقال أبو بكرٍ: يا رسولَ الله، خرجتَ عامدًا لهذا البيت لا تريدُ قتل أحدٍ ولا حربًا، فتوجّهْ له، فمن صدّنا عنه قاتلناه.

وحدثت حادثتانِ عندَ تدوينِ هذهِ الصّحيفةِ:

الأولى: أنّ خُزاعةَ تواثبت، فقالوا: نحنُ في عقدِ محمّد وعهدِهِ.

وتواثبت بنو بكرٍ فقالت: نحنُ في عقدِ قريش وعهدِهِم.

وأثناءَ الكتابِ جاء أبو جندلٍ بنُ سهيلِ بنِ عمرو، وكان مُسلمًا مُقيمًا بمكّة، وهو يرسفُ في الحديد، وقد انفلتَ إلى رسولِ الله ﷺ!

وكان المسلمونَ القادمونَ مع النبيّ ﷺ وقد تكلّفوا المشاقّ والانتظارَ الطويل، فلمّا رأوا الصُّلحَ والرُّجوعَ وما تحمّلهُ الرسولُ ﷺ، دخلَ عليهم أمرٌ عظيمٌ من الغمّ والغيظِ وخيبةِ الأمل؛ ممّا يدلّنا على أنّ عُمرَ كان معذورًا في غضبه.

فكاد المسلمونَ يهلِكون من الألمِ والحسرة، وليسوا كلُّهم في مكانةِ النبيّ ﷺ ولا في قوةِ عقلِهِ وخُلُقِهِ، ولكنهم كظموا غيظَهم، وأطاعوا، ولم يخرجوا على النظام، ولم يتسرّبْ إليهم الفشل.

فلمّا رأى سُهيلٌ ابنَه قادمًا يلجأ إلى النبيّ، قام إليه، فضرب وجهَهُ، وأخذ بتلابيبه، ثمّ قال: يا محمّد، قد تمتِ القضيةُ بيني وبينكَ قبل أن يأتيك هذا!

فقال له: صدقتَ.

وأغربُ ما في الأمر أن يكونَ اللاجئُ ابنَ المفاوضِ نفسهُ!

ولعلّه لو كان غيرَه لسلك سُهيلٌ مسلكًا ليّنًا، ولكنه رأى في إسلام ابنه، وفرارِه، والتجائه إلى النبيّ في الوقتِ نفسه الذي يتمّ فيه الصُلح، إهانةً لكرامته، وهو ممثّلُ قريشٍ ولسانُ حالِها وصاحبُ كلمتها.

ثمّ جعل سُهيلٌ ينتزُ ابنَه بتلابيبه ويجرّه ليردّه إلى قريش، وجعل أبو جندلٍ يصرخُ بأعلى صوتِه:

يا معشرَ المسلمين! أأُردُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟!

فزادَ هذا النداءُ نارَ المسلمينَ اشتعالًا.

ولكن النبيّ ﷺ نظرَ إليه وقال:

يا أبا جندلٍ، اصبرْ واحتسِبْ؛ فإنّ اللهَ جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفينَ فَرَجًا ومَخرجًا! إنّا قد عقدنا بيننا وبين القومِ صُلحًا، وأعطيناهمْ على ذلك، وأعطونا عهدَ اللهِ، وإنّا لا نغدرُ بهم.

هذا الصُلحُ الذي أعقبهُ خيرٌ كثيرٌ.

فإنّ هذه الهدنة - وقد أطلق عليها اسم «صُلحُ الحديبيةِ» - كانت من أحكمِ الأعمال.

وقال الزُهريّ: إنه ما فُتح في الإسلامِ فتحٌ قبلَه كان أعظمَ منه!

ذلك أن القتالَ كان بين المسلمينَ والكفارِ في كلِّ مكان، فلمّا كانت الهدنةُ وضعتِ الحربُ أوزارَها، وأمِنَ النّاس؛ كلّم بعضُهم بعضًا، والتقَوا، فتفاوضوا في الحديثِ والمنازعة؛ فلم يُكلَّم أحدٌ في الإسلامِ وهو يعقلُ شيئًا إلا دخل فيه.

ولقد دخل في الإسلامِ في سنتين مثلُ من كان فيه قبلَ ذلك وأكثرُ.

والدليلُ على قولِ الزهريّ: أنّ الرسولَ خرج إلى الحديبيةِ في ألفٍ وأربعمئةِ مسلم، ثمّ خرج عامَ فتحِ مكّة - بعد ذلك بعامين - في عشرةِ آلافٍ!

ولمّا فَرَغَ النّبيُّ ﷺ من تدوينِ وَثيقةِ الهُدنَةِ مِن صُورَتَين، أمَرَ أصحابَهُ

بالنحرِ والحلقِ ثلاثَ مرّاتٍ، فلم يقمْ منهم أحدٌ؛ لشدّةِ سخطِهم وألمِهم ممّا وقعَ، وهم لا يعلمونَ ما انطوى عليهِ هذا العهدُ من المنافعِ للإسلامِ.

فدخلَ الرّسولُ ﷺ على زوجتِهِ أمِّ سلمةَ وهو شديدُ الغضبِ، فاضطجعَ، فسألتْهُ عن حالِهِ مرّاتٍ وهو لا يجيبُها، ثمّ ذكرَ لها ما لقيَ من النّاسِ وقالَ لها: «هلكَ المسلمونَ؛ أمرتُهم أنْ ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا؛ وهم يسمعونَ كلامي وينظرونَ وجهي!»

فقالتْ: يا رسولَ الله، لا تلُمْهم؛ فإنّهم قد دخلَهم أمرٌ عظيمٌ ممّا أدخلتَ على نفسِكَ من المشقّةِ في أمرِ الصّلحِ ورجوعِهم بغيرِ فتحٍ.

ثمّ أشارتْ عليهِ أنْ يخرجَ ولا يكلّمَ أحدًا منهم وينحرَ بدنتَهُ ويحلقَ رأسَهُ.

ففعلَ ذلكَ، فلمّا رأوْهُ قاموا فنحروا وحلقوا، وانصرفَ إلى المدينةِ بعدَ أنْ أقامَ بالحديبيةِ تسعةَ عشرَ يومًا، وكانَ المسلمونَ معذورينَ حقًّا؛ فقد تعبوا في السّفرِ وفي الانتظارِ عشرينَ يومًا، وقد تقذّرتْ أبدانُهم وثيابُهم وأصابتْهم عدوى الهوامِّ والطّفيليّاتِ، فامتلأَ شعرُهم بها، حتّى إنّ كعبَ بنَ عجرةَ قالَ: كانَ القملُ يتساقطُ على وجهي، فمرَّ بي رسولُ الله ﷺ فقالَ لي: «احلِقْ!»

ولا عجبَ إذا انتشرَ هذا التّذمّرُ في جيشِ الرّسولِ ﷺ، ولكنّ العجبَ لتأثيرِهِ فيهم؛ فإنّ مجرّدَ ظهورِهِ في النّاسِ وأخذِهِ بنحرِ ضحيّتِهِ وحلقِ رأسِهِ جعلَ المتذمّرينَ والسّاخطينَ والمنتقدينَ والمتأفّفينَ يعودونَ إلى عادتِهم من طاعتِهِ وتقليدِهِ في سنّتِهِ، فأقبلوا يحلقونَ وينحرونَ، ثمّ عادوا أدراجَهم إلى المدينةِ في صفوفٍ منتظمةٍ.

وبعدَ الصّلحِ وعودةِ النّبيِّ ﷺ إلى المدينةِ فرَّ من سجونِ مكّةَ مسلمٌ محبوسٌ اسمُهُ أبو بصيرٍ عتبةُ بنُ أسيدٍ، وقدمَ على رسولِ الله ﷺ مستغيثًا مثلَ ما فعلَ أبو جندلٍ، فردّهُ رسولُ الله تنفيذًا لمعاهدةِ الحديبيةِ، وسلّمَهُ إلى رسولِ قريشٍ، وهو رجلٌ من بني عامرٍ أوفدَهُ المكّيّونَ؛ ليتسلّمَ الأسيرَ المسلمَ الفارَّ من المدينةِ ويعودَ بهِ إلى سجنِهِ.

فخرجا، واستغفل أبو بصيرٍ حارسهُ وخطف سيفهُ وقتله، فلمّا سمع الرّسولُ ﷺ بهذا النّبإ قالَ: «ويلُ أمّهِ! مِسعرُ حربٍ لو كانَ معهُ رجالٌ.»

ثمّ جاء أبو بصيرٍ بنفسِهِ إلى النّبيّ ﷺ بعد قتلِهِ الحارس ونجاتِهِ، وقالَ لهُ: يا رسولَ الله، وفتْ ذمّتُك وأدّى اللهُ عنك، أسلمتني ليد القوم وقد امتنعتُ بديني أنْ أُفتتنَ فيهِ أو يُعبثَ بي.

ثمّ خرجَ أبو بصيرٍ هائمًا على وجهِهِ، وقد عزم على أنْ يعيشَ عيشةَ الغزوِ والمعاكسةِ لقُريشٍ ويُعلِنَ عليهم حربًا بمفردِهِ، فنزلَ مكانًا اسمهُ «العيص» مِن ناحيةِ ذي المروةِ على ساحلِ البحرِ بطريقِ قُريشٍ إلى الشّام.

وعلِمَ المسلمونَ المحبوسونَ بمكّةَ بخبرِهِ ففرّوا وانضمّوا إليهِ، فاجتمعَ منهم قريبٌ مِن سبعينَ رجلًا، وتربّصوا بتجارةِ قُريشٍ وقوافِلِها حتّى ضيّقوا عليها، فكانوا لا يظفرونَ بأحدٍ منهم إلّا قتلوهُ، ولا تمرُّ بهم عيرٌ إلّا اقتطعوها.

فلمّا ضاقت قُريشٌ ذرعًا بهؤلاء العصاةِ الّذينَ لا يُطيقونَ الإقامةَ في مكّةَ، ولا يُقبلونَ في المدينةِ؛ تنفيذًا للمعاهدةِ الّتي خرقتها نخوةُ رجلٍ مغامرٍ بقوّةِ إيمانِهِ، فخرجَ على قانونٍ لا يعترفُ بِهِ، وخالفَ صُلحًا لم يكُن فيهِ طرفًا؛ لأنّهُ على الحالَينِ مِن بعضِ الرّعايا، فليسَ صُلحُ الحُديبيةِ حُجّةً على أحدٍ سوى النّبيّ ﷺ، وقد قالَ لهُ: «يا أبا بصيرٍ، إنّا قد أعطينا هؤلاء القومَ ما قد علِمتَ، ولا يَصلُحُ لنا في ديننا الغدرُ، وإنّ اللهَ جاعِلٌ لكَ ولِمن معكَ مِن المستضعفينَ فرجًا ومخرجًا، فانطلِق إلى قومِك.»

ثمّ سلّمهُ إلى رسولِ قُريشٍ يدًا بيدٍ، ولم يكُنِ الرّسولُ وحدهُ، بل كانَ معهُ أحدُ الموالي، فذمّةُ محمّدٍ بريئةٌ، وقد وفى بعهدِهِ كما قالَ لهُ أبو بصيرٍ بعدَ قتلِهِ الحارسَ.

وكانت قُريشٌ قبيلةَ تجارةٍ وأسفارٍ، ولم يقدِروا على هذا العددِ مِن قُطّاعِ الطّريقِ المؤمنينَ، الّذينَ يدفعُهم إيمانُهم إلى التّربّصِ والقتلِ والغنيمةِ؛ فإنّهم لم يكونوا مجرمينَ، بل كانوا آبقينَ لا وطنَ لهم ولا ملجأ، فهم يقتلونَ قُريشًا وينهبونها انتقامًا لحرّيّتِهم وحياتِهم، فلمّا عجزت قُريشٌ عن

مقاومتِهم، كتبوا إلى الرسولِ ﷺ يسألونه بأرحامِهم أنْ يُؤوِيهم، فلا حاجة لِقُرَيْشٍ بِهم!

فآواهُم رسولُ الله ﷺ، فقدموا عليه إلى المدينةِ، واستراحَ منهم القُرَشِيّون.

وهذا خرقٌ في المعاهدةِ لم يتكهّنْ به سُهيلُ بنُ عمرٍو، خلقتْهُ الحوادثُ وطبيعةُ الأشياءِ، وحيلةٌ فتقَها ذِهنُ الزّمانِ وتمخّض بها فكرُ المصادفةِ، وحلٌ لم يخطرْ ببالِ عمرَ حينَ غضِبَ؛ لأنّه رأى في النّصّ إجحافًا بحقّ المسلمينَ، وقد جعلَ أبو بصيرٍ وأصحابُهُ قاعدةً ثابتةً؛ وهي أنّ كلَّ من يستطيعُ مِنَ المسلمينَ الفارّينَ أنْ يَجعلَ نفسَهُ مرغوبًا عنه لدى قُرَيْشٍ يدخلُ المدينةَ برجاءٍ مِن قُرَيْشٍ نفسِها!

وها نحنُ نرى الحوادثَ قد أنتجَتِ العدلَ في المعاهدَةِ؛ فإنّها نصّتْ على التِزامِ النّبيّ ﷺ بِردّ مَن يفِرُّ إليه مِن مسلِمي قُرَيْشٍ، وليسَ على قُرَيْشٍ أنْ تفعلَ مِثلَ ذلك إذا فرّ إليها أحدٌ مِنَ المدينةِ، وكانَ في هذا النّصّ أكثرُ مِن عدمِ المساواةِ؛ لأنّ المنتظَرَ أنْ يفِرّ إلى المدينةِ أكثرُ ممّن يفرّونَ إلى مكّةَ؛ لأنّ كلَّ مَن جاءَ المدينةَ مهاجِرًا جاءَها مختارًا متشوّقًا لِيقيمَ، فلا يُنتظَرُ أنْ يعودَ إلى مكّةَ، فجاءَ أبو بصيرٍ وأعادَ بِبأسِهِ واستِبسالِهِ الحقَّ إلى نِصابِهِ، وصحّحَ خيطَ الميزانِ، وجعَلَ أهلَ مكّةَ يتوسّلونَ إلى النّبيّ ﷺ بأرحامِهم أنْ يكُفَّ عنهُم أذى الهاربينَ الذينَ انقلَبوا عليهم حرْبًا.

ولأنّ السّيرةَ واقعٌ يُعاش وليس تاريخاً يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدروس المستفادة من صُلح الحديبية:

1 ـ إنّ السّلامَ حينَ يُوقَّعُ بِيدِ القُوّةِ لا بِيدِ الضّعفِ، يكونُ فتحًا خفيًا. فقد علّمَتْنا الحديبيةُ أنّ اليدَ التي تُمسك السّيفَ قادِرَةٌ على أن تُمسك القَلَمَ، وأنّ المَهابةَ لا تُنقِصُها غَمامةُ حِلمٍ، وأنّ الرِّفقَ حينَ يجيءُ من موضِعِ قُوّةٍ يُصبِحُ أشدَّ مَضاءً مِن السّيفِ.

2 ـ أنّ النّصرَ ليسَ صَليلَ حديدٍ، بل بَصيرةٌ تتقدّمُ إلى الأمامِ وإن بدا أنّها

تعودُ إلى الوراء.

رأى الصحابةُ التنازُلَ هزيمةً، ورآه النبيُّ ﷺ سُلَّمًا يَرقى بهم نحوَ فتحٍ مُبينٍ، فالعِبرةُ ليست بما تراهُ العينُ، بل بما تراهُ القُلوبُ حينَ تُضيئُها الثِّقةُ باللهِ.

3 ـ أنَّ الحِلْمَ سلاحٌ يَهزِمُ أُمَمًا. فلو شاءَ النبيُّ ﷺ لاقتحمَ مكَّةَ، ولكنَّه آثرَ الحِوارَ على الحربِ، والصَّبرَ على الغضبِ، فجعلَ مِن الحديبيةِ مدرسةً تُدرِّسُ للأجيالِ أنَّ الانتصارَ على الغضبِ أعظمُ مِن الانتصارِ على الأعداءِ.

4 ـ أنَّ التنازُلَ الحكيمَ قد يكونُ أعمقَ مِن الانتصارِ السريعِ. فالحديبيةُ منحتِ الإسلامَ زمانًا يَتنفَّسُ فيه، وانفتحتِ القُلوبُ التي أغلَقَتْها السُّيوفُ، فدخلَ النَّاسُ في دينِ اللهِ أفواجًا حينَ وَضَعَتِ الحربُ أوزارَها.

5 ـ أنَّ الطَّاعةَ أصلُ الفتحِ، وأنَّ مُخالَفةَ الهوى مِفتاحُ النُّورِ. غَضِبَ الصَّحابةُ، وتأذَّى بعضُهم ممَّا رأوهُ تنازُلًا، لكنَّهم عادوا يُقدِّمونَ الطَّاعةَ فوقَ العاطِفةِ، فكانتِ النَّتيجةُ فتحَ مكَّةَ بعدَ عامينِ فقط، وكأنَّ السَّماءَ تقولُ: لا يُضيعُ اللهُ مِثقالَ طاعةٍ.

6 ـ أنَّ القِيادةَ ليست صُراخًا ولا ادِّعاءً، بل سَكينةٌ تَمشي بينَ الرِّجالِ فتُطفِئُ حَريقَ قُلوبِهم.

كانَ ﷺ ثابتًا، هادئًا، يَزرَعُ الطُّمأنينةَ في كُلِّ نَظرةٍ، ويجعلُ مِن صَبرِه جِسرًا لِعُبورِ الأُمَّةِ مِن ضِيقِ اللَّحظةِ إلى سَعةِ القَدَرِ.

7 ـ أنَّ الوفاءَ بالعهدِ دِينٌ قبلَ أن يكونَ خُلُقًا. ثبتَ النبيُّ ﷺ على بُنودِ الصُّلحِ كُلِّها، حتَّى تلك التي جَرَحَتْ قُلوبَ أصحابِه، لِيَرسَخَ فيهم أنَّ القُوَّةَ بلا وَفاءٍ غَطرَسةٌ، وأنَّ العدلَ فوقَ الانفِعالِ.

8 ـ أنَّ القُلوبَ إن خُلِّيَ بينها وبينَ كَلِمةِ الحقِّ دَخَلَتْ فيها. حينَ هَدَأَتِ السُّيوفُ وتفرَّقَتِ الجيوشُ، بَقِيَ كَلامُ اللهِ يَتسرَّبُ كالماءِ، فأسلَمَ يومَ الحديبيةِ مَن لم يُسلِمْ في كُلِّ مَعارِكِ الإسلامِ قبلَها.

9 ـ أنّ الفتحَ الحقيقيَ هو فتحُ القلوبِ قبلَ فتحِ المُدن. فالحديبيةُ لم تُسقط حِصنًا ولم ترفع رايةً على قلعةٍ، لكنها فتحت طريقًا في الأرواح، وأعادت صِياغةَ الخريطةِ مِن جديدٍ.

10 ـ أنّ الله يُربّي هذهِ الأمّةَ بالابتلاء كما يُربّيها بالنّصر. تألّمَ المسلمون، واضطرَبت نفوسُهم، لكنّ الله أراد لهم أن يتعلّموا أنّ الطريقَ إلى الفتحِ يمرُّ أحيانًا عبرَ ما يَكرَهُهُ القلبُ ويثقُلُ على النفس.

رسائلُ النّبيّ ﷺ إلى ملوكِ الأرض!

الإسلامُ من غارِ حراءٍ إلى قصورِ الملوك!

لمّا استقامَ الإسلامُ في المدينةِ، وقامت دولته على أعمدةِ الإيمانِ والعدلِ، وأصبح للمسلمين رايةٌ تُهابُ وصوتٌ يُسمع، أدرك النبيّ ﷺ أنّ زمنَ الاستضعافِ قد انقضى، وأنّ الدعوةَ التي نزل بها جبريلُ عليه السلام لا يليقُ بها أن تبقى محصورةً بين نخيلِ المدينة، بل خُلقت لتبلُغ الآفاقَ وتطرُقَ أبوابَ القلوبِ في كلّ أرضٍ. فقد انتقلتِ الرسالةُ من طورِ الاضطهادِ إلى طورِ البناء، ومن مرحلةِ النّجاةِ الفرديّةِ إلى مرحلةِ الهدايةِ العامّة. وبات على الأمّةِ أنْ تحملَ نورَها إلى العالَمِ كما تحملُ الشّحبُ ماءَها إلى كلّ مكانٍ.

وعَزَمَ النبيّ ﷺ على أن يُعرّفَ مُلوكَ الأرضِ بخبرِ السّماء، وأن يُنذِرَهم بما بين أيديهم ويَدعوهم إلى ما بعدَه، فأملى كُتُبًا موجزةً مُحكَمةً، تبدأ باسمه الكريم: «مِن محمّد رسولِ اللهِ إلى ...»، وتدعوهم بالأمرِ الإلهي: «أسلِمْ تُسلَمْ»، وتُذكّرهم بأنّه ﷺ لم يُبعَث إلى العربِ وحدَهم، بل إلى النّاس كافّةً. وكانت تلك الرسائلُ علامةً على انتقالِ الإسلامِ من دائرةِ الجزيرةِ إلى سعةِ الدُّنيا.

فكاتبَ النبيّ ﷺ هرقلَ عظيمَ الرومِ، فقرأ الكتابَ وتأمّل معانيه، وكاد قلبُهُ يميلُ إلى الحقّ لولا رهبةُ العرشِ وخوفُ النّاس.

وراسَلَ النّبيّ ﷺ كِسرى مَلِكَ فارسَ، فاعتملَ الكِبرُ في صدرِه، فمزّقَ الكتابَ، فدعا عليه النبيّ ﷺ فمزّقَ مُلكَه كما مزّق رسالةَ رسولِ اللهِ ﷺ.

وكتب النّبيّ ﷺ إلى النّجاشيّ مَلِكِ الحَبشةِ، الرجلِ العادلِ الذي لم يُعرَفْ عنه جورٌ قطّ، فقرأ الكتابَ بقلبٍ سليم، فآمنَ وصدّق، وكان إيمانُهُ بشارةً بنصرةِ اللهِ لعبده.

ووجّه النّبيّ ﷺ رسائلَ إلى ملوكِ العربِ وقبائلِهم: إلى هَوذةَ بن عليّ في اليمامة، وإلى المُقوقِس في مِصرَ، وإلى المُنذِرِ بنِ ساوى في البحرين،

يدعوهم جميعًا إلى نورِ الله.

وحَمَلَ هذه الكتبَ رجالٌ من خِيرةِ الصَّحابة، انتقاهم النبيُّ ﷺ لمهابةِ الموقفِ وجلالِ المهمة:

فبعث دِحيةَ الكلبيَّ إلى هرقل، وعمرو بن أميّة الضَّمريَّ إلى النَّجاشيّ، وعبدَ اللهِ بن حُذافةَ السَّهميَّ إلى كِسرى، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المُقوقِس، وسَليط بن عمرو إلى هوذة، والعلاءَ بن الحضرمي إلى البحرين.

كانوا يخرجون من المدينةِ بقلوبٍ يملؤها اليقين، يحمل كلٌّ منهم رقعةً صغيرةً، لكنّها تحمل وزنَ الرِّسالةِ كلِّها وبصمةَ خاتمِ النُّبوة.

وهكذا انطلقت رسائلُ النّبيِّ ﷺ من مدينةٍ متواضعةٍ إلى عروشٍ عظيمةٍ، تحمل بين سطورِها نورًا يُوقِظُ القلوبَ، وحُجّةً تُقيمُ الدليل، ودعوةً تُخاطِبُ الإنسانَ قبلَ السُّلطانِ. وكانت تلك المكاتباتُ أوّلَ إعلانٍ بأنّ الإسلامَ لم يَعُد دينَ قبيلةٍ، بل رسالةَ أمّةٍ، بل دعوةَ ربِّ العالمين للعالَمين.

أوّلًا: إلى النّجاشيّ ملكِ الحَبشة!

كان النَّجاشيُّ أصحَمةُ بن أبجَرَ مَلِكَ الحَبَشةِ، رجلًا جَبَلَهُ اللهُ على العدلِ جِبلًّا؛ لا يُظلَمُ عندهُ أحدٌ، ولا تُرَدُّ في مجلسِهِ خَصلةُ إنصافٍ. وكان يُحسِنُ السَّماعَ، ويقفُ مع الحقِّ ولو خالفَ أهواءَ الملوك. ولهذا اختارَهُ النبيُّ ﷺ ملجأً للمستضعفين، فأَمِنَ عندهُ المهاجرون، وبقُوا في ظلِّ رِقّتِهِ وعدلِ سُلطانِهِ آمنين.

ولمّا قامت دولةُ الإسلامِ في المدينةِ، واستقام أمرُها على أُسسِ الإيمانِ والعدلِ، ورأى النّبيُّ ﷺ أنّ الرِّسالةَ قد انتقلت مِن ضيقِ الاستضعافِ إلى سَعةِ التمكين، وأنّ نورَ الوحي لا يليقُ به أن يُحبس بين نخيلِ المدينة، كتب إلى الملوكِ يدعوهم إلى هُدى اللهِ، وكان مِن أعظمِ كتبِهِ كِتابَهُ إلى ملكِ الحَبشةِ العادلِ.

وكان نصُّ رسالتِهِ ﷺ إلى النّجاشيّ:

«بِسْمِ اللهِ الرحمن الرَّحِيم

مِن محمَّد رسولِ اللهِ، إلَى النَّجاشيِّ الأَصْحمةِ مَلِكِ الحَبشةِ.

سَلامٌ على مَنِ اتَّبعَ الهُدى.

أمَّا بعدُ: فإنِّي أحمَدُ إليكَ اللهَ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو، المَلِكَ القُدُّوسَ السَّلامَ المُؤمِنَ المُهيمِنَ.

وأشهَدُ أنَّ عيسى ابنَ مريمَ رُوحُ اللهِ وكَلِمتُهُ ألقاها إلى مريمَ البتولِ الطَّيِّبةِ الحَصانِ، فحَمَلَتْ بعيسى، فخَلَقَهُ اللهُ مِن رُوحِهِ ونَفَخَتِهِ.

وإنِّي أدعوكَ إلى اللهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، على الطَّاعةِ واتِّباعي، وأن تُؤمِنَ بي وبالذي جِئتُ به؛ فإنِّي رسولُ اللهِ.

وقد بَلَّغتُكَ بعضَ ما بُعِثتُ به.

وقد بَعَثتُ إليكَ ابنَ عمِّي جَعفَرَ بنَ أبي طالِبٍ ونَفَرًا مِنَ المُسلمين، فإذا جاءوكَ فأقْرِهِم، ودَعِ التَّكبُّرَ.

والسَّلامُ على مَنِ اتَّبعَ الهُدى.»

وأمَّا الذي حَمَلَ الرِّسالةَ إلى النَّجاشي فهو عَمرو بنُ أميَّةَ الضَّمريّ رضي الله عنه ، وكان مِن رجالِ النَّبيِّ ﷺ الذين عُرِفوا بالأمانةِ والنَّجدةِ وحُسنِ السفارة، سبقَ لهُ أن قدِمَ على النَّجاشيّ قبل ذلك، فكان الملكُ يعرفُ صدقَهُ وثباته.

ولمَّا قُرِئَت الرِّسالةُ على النَّجاشي، اهتزَّ لها قلبُهُ اهتزازَ من يعرفُ الحقَّ ساعةَ يراه؛ فوجد في ذِكرِ عيسى عليه السلام حقيقةً توافقُ ما في صدره، ولم يَجِد في كلامِ النَّبيِّ ﷺ ما يُخالِفُ العدلَ ولا العقلَ ولا ما بقي في كتبِهِ من نورٍ. فأخذ الكتابَ فوضعَهُ على عَينَيهِ تعظيمًا، ثمَّ نزل مِن سريرِ مُلكِهِ تواضعًا، وقال قولتَهُ المشهورة: «واللهِ ما زادَ عيسى ابنُ مريمَ على ما تقولونَ هذا النَّفَس!».

ثمّ كتب إلى النبيّ ﷺ يعلنُ إيمانه، وقال: «أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنك رسولُ الله صدقًا»، وكان إسلامُهُ سرًّا مخافةَ قومه.

أسلمَ النّجاشيّ، وكان أول ملكٍ يدخلُ في الإسلام. وثبت المسلمون في أرضِهِ آمنين لا يُؤذون. وانكسرت محاولةُ قريشٍ لإرجاعِ المهاجرين إليها. وصار النّجاشيُّ نُصرةً للمستضعفين، حتّى صلّى عليه النبيُّ ﷺ صلاةَ الغائب يوم مات، وعدّهُ من الأخيار.

ثانياً: إلى كسرى عظيم الفرس!

كان كِسرى أبرويز مَلِكَ فارسَ يومئذٍ، ملكًا جبارًا تربّى في حجرِ الاستعلاءِ، ونشأ على سلطانٍ يَرى فيه أنّ الأرضَ وما عليها مُلكٌ ليده، وأنّ النّاسَ خَدَمٌ لعرشه. وكان مُلكُ الفرسِ يومها من أعظمِ مُلكٍ في الدّنيا، يمدّ ظلالَهُ على البلادِ شرقًا وغربًا، وفيه من البطشِ والظُّلمِ ما تُطأطِئُ له الرّقابُ صاغرةً. وقد عرفَ التّاريخُ عنه شِدّةً لا رِقّةَ فيها، واستكبارًا يجعلُهُ لا يرى فوقه سلطانًا ولا معه ندًّا، فكان مَثلًا للجبروتِ الدّنيويّ الذي لا يعرفُ للهِ قَدرًا ولا للحقِّ وزنًا.

ولمّا قامت دولةُ الإسلامِ في المدينة، ورأى النّبيُّ ﷺ أنّ وقتَ تبليغِ دعوةِ السّماءِ قد آن، كتبَ إلى الملوكِ، ومنهم كِسرى ملكُ الفرسِ، يدعوه إلى الإسلام كما دعا غيره، ويُقيم عليه الحُجّة قبل لقاءِ الله.

وكان نصُّ رسالةِ النّبيّ ﷺ إلى كِسرى:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ.

مِن محمّد رسولِ اللهِ إلى كِسرى عظيمِ فارسَ.

سَلَامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدى، وآمَنَ باللهِ ورَسولِهِ، وأشهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأنّ محمّدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

وإنّي أدعوكَ بدعاءِ اللهِ، فإنّي أنا رسولُ اللهِ إلى النّاسِ كافّةً، لِأُنذِرَ مَن كان حيًّا، ويَحِقَّ القولُ على الكافرين.

فأسلِمْ تُسلَمْ، فإن أبيتَ فإنَّ عليك إثم المَجوس.»

وقد حمل هذه الرِّسالةَ عبدُ اللهِ بن حذافةَ السَّهميُّ رضي الله عنه ، وهو مِن أشجعِ أصحاب رسولِ الله ﷺ وأشدِّهم ثباتًا، بعثَهُ النَّبيُّ إلى قلب الفُرسِ مع علمه بما في تلك البلادِ من الخطرِ والبطش، فخرج مطيعًا، مؤيّدًا بإيمانٍ لا يَخور.

فلمَّا وصل الكتابُ إلى كِسرى، وعُرِض عليه، استشاط غضبًا، إذ لم يحتمل أن يُكتب إلى اسمه على هذا النحو، ولا أن يُؤمَر بدينٍ يخالفُ دينَ آبائه. فأخذ الرِّسالةَ بيده، ومزَّقها أمامَ مَن حوله، يُمزِّقُ الورق تمزيقَ المتكبِّر الذي يرى أنَّ دعوةَ الحقِّ إساءةٌ لعرشه، وقال في تعالٍ: يكتبُ إليَّ عبدُهُ؟!

فلمَّا بلغ ذلك النَّبيَّ ﷺ قال: اللهمَّ مَزِّقْ مُلكَهُ كما مزَّق كتابي.

فكان كما دعا؛ فلم تمضِ سنواتٌ حتَّى تصدَّعَ مُلك الفُرسِ تصدُّعًا عجيبًا، فقُتِل كِسرى على يدِ ابنه، وتتابعت الهزائمُ عليهم حتَّى سقطت دولتُهم سقوطَ الجبالِ إذا هَوَت، وانفرطت منظومتهم كالعِقدِ إذا انقطع سلكُه، وكان ذلك أوّلَ آياتِ زوالِ سلطانِ فارس إلى الأبد.

وهكذا كانت رسالةُ النَّبيِّ ﷺ إلى كِسرى آيةً من آياتِ الله:

آيةٌ في ثباتِ الدَّاعي، وآيةٌ في كِبرِ المُعانِد،

وآيةٌ في انتصار الحقِّ ولو بعد حين.

رسالةٌ مزَّقها الجبروتُ بيده، لكنَّ الدَّعوةَ التي حملتها شقَّت التَّاريخ شقًّا، وبقي أثرُها شاهدًا أنَّ كلمةَ اللهِ إذا خرجت من فمِ نبيِّهِ ﷺ لا تُغلَبُ، ولا تُبطَل، ولا يردُّها مَلِك مَهمَا عَظُم سلطانُه!

ثالثًا: إلى هرقل عظيم الرُّوم!

كان هِرقلُ مَلِكَ الرومِ يومئذٍ، صاحبَ مُلكٍ عريضٍ يمتدُّ من أنطاكية إلى نواحي القسطنطينيَّة، رجلًا ذكيًّا، متتبِّعًا لأخبار الأديان، عالمًا بما في كُتب النَّصارى من بشاراتٍ بالأنبياء. وكان جالسًا على عرشٍ راسخٍ تهابُهُ الأمم،

ومع ذلك كان في قلبه ميلٌ خفيٌ للبحث عن الحقّ، ولكن منعه كبرياءُ الفلك من أن يُصغي لصوتِ البشارة إذ لامس سمعَه.

ولمّا استقرّت دولةُ الإسلامِ في المدينة، ورأى النبيّ ﷺ أنّ الدعوة قد آن أن تخرج إلى العالم، كتب إلى الملوك، وكان من بينهم هرقلُ عظيمُ الروم.

وكان نصّ رسالةِ النبيّ ﷺ إلى هرقل:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم.

مِن محمّد عبدِ اللهِ ورسولِه، إلَى هِرقلَ عظيمِ الرومِ.

سَلَامٌ على مَنِ اتَّبعَ الهُدى.

أمّا بعدُ، فإني أدعوكَ بدِعاءِ الإسلامِ:

أسلِمْ تَسلَمْ، يُؤتِكَ اللهُ أجرَكَ مرّتين.

فإن تولّيتَ فإنّ عليكَ إثمَ الأريسيّين.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وقد حمل هذه الرّسالةَ الشّريفة دِحيةُ الكلبيّ رضي الله عنه ، لما كان معروفًا بهيئته ووسامتِه وحِكمته، فبعثه النبيّ ﷺ حتى بلغ بلاطَ هرقلَ في بيتِ المقدس، فسلّمهُ الرّسالة، فقُرئت على الملِكِ وأعاظِمِ دولته.

فلمّا قرأ هرقلُ الكتاب، ظهر عليه من الهَيبةِ ما لا يُخفى؛ فقد تبيّن له أنّ هذا الخِطاب ليس كالخطابات التي يكتبها الملوك، بل فيه نَفَسُ النّبوّةِ وهيبةُ الحقّ. فأمر بإحضارِ قومٍ من العرب ليسألهم عن نسبِ محمّد ﷺ وصفاتِه. وكان في الشام يومها رَهطٌ من قريش في تجارة، على رأسهم أبو سفيان قبل إسلامه. فأدخِلوا على هِرقل، وجعل أبو سفيان أمامَهم، ودونَهُ صاحِبهُ يضربه إن كذب، فدار بينهما الحوارُ العظيمُ الذي حفظه الزمان.

قال هرقلُ: أيُكم أقربُ نسبًا بهذا الرجلِ الذي يزعم أنه نبيٌ؟

فقال أبو سفيان: أنا أقربُهم نسبًا.

فقال هَرقلُ: ادنُ مِنّي.

ثمّ قال لأصحابه: إنّي سائلٌ هذا عن الرجل، فإن كذب فكذّبوه.

ثمّ سأل هرقلُ أبا سفيان: كيف نسبُهُ فيكم؟

فقال أبو سفيان: هو فينا ذو نسبٍ.

فقال: هل كان مِن آبائِهِ مَلِكٌ؟

فقال أبو سفيان: لا.

فقال هرقلُ: هل قال هذا القولَ أحدٌ منكم قبله؟

قال أبو سفيان: لا.

فقال هرقلُ: أكان مِن أجدادِهِ أو آبائه مَن يُتَّهَمُ بالكذب؟

قال أبو سفيان: لا.

فقال هرقلُ: أشرافُ النّاس أم ضعفاؤهم الذين يتّبعونه؟

قال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

فقال هرقلُ: يزدادون أم ينقصون؟

قال أبو سفيان: بل يزدادون.

فقال هرقلُ: هل يرتدُّ أحدٌ منهم سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخلَ فيه؟

قال أبو سفيان: لا.

فقال هرقلُ: هل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قال أبو سفيان: لا.

فقال هرقلُ: فهل يغدر؟

قال أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدّةٍ لا ندري ما هو فاعلٌ فيها.

قال أبو سفيان: إلّا أنني لم أجد كلمةً أدخل بها عيبًا إلّا هذه!

فقال هرقلُ: فهل قاتلتموه؟

قال أبو سفيان: نعم.

فقال هرقلُ: كيف كان قتالُكم له؟

قال أبو سفيان: الحربُ بيننا وبينه سِجالٌ، ينال منّا وننالُ منه.

فلمّا فرغ هرقلُ من الأسئلة، قال:

إن كان ما تقولُ حقًّا فسيملكُ موضِعَ قدميّ هاتين. وقد كنتُ أعلمُ أنّه خارجٌ، لم أكن أظنُّ أنّه منكم. ولو أنّي أعلمُ أنّي أبلُغُهُ لتجشّمتُ لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدمه.

ثمّ دعا بالكتاب، فقرأه مرةً أخرى، وازداد إعجابًا به، وأراد أن يُظهر إيمانه لقومه، فجمع بطارقته في قصره، وأغلق الأبواب، ثمّ قال لهم: يا معشرَ الرّومِ، هل لكم في الفلاحِ والرّشدِ، وأن يَثبتَ مُلككم؟ تُتابِعوا هذا النّبيّ.

فثارت الرومُ عليه ثورةً عظيمة، ففزِع هرقلُ وخاف على مُلكه، وقال لهم: إنّما أردتُ اختبارَكم، قد رأيتُ شدّةَ تمسّكِكم بدينكم.

فهدأوا ورضوا، فعاد الملِك إلى صمتِ قلبه، ولم يُعلن إسلامه وإن كان قد عَلِم الحقَّ.

أمّا النتيجةُ فقد كانت بليغة:

- بلغ هرقلُ علمًا يقينًا بصدق النّبيّ ﷺ.
- ولم يدخل في الإسلام مخافةَ ضياع مُلكه.
- وانتشر خبر الرّسالة في بلاد الروم، فكان ذلك مبدأً لزمنٍ جديدٍ من

سماع الناس بأمر الإسلام.

- وأقيمت الحجة على عظيم الروم، كما أقيمت على غيره من الملوك.

وهكذا بقي كتابُ النبيّ ﷺ إلى هرقل شاهدًا على أنّ الحقّ إذا بلغ الملوك لا يُبقي لهم عذرًا، وأنّ الكلمة التي خرجت من المدينة كانت نورًا يمشي في الأرض، يوقظ العقولَ وإن أعرضت، ويهزُّ العروش وإن قاومت، ويكتبُ للتاريخ أنّ دعوةَ النبيّ ﷺ بلغت قلوبَ الملوك كما بلغت قلوبَ الفقراء!

رابعاً: إلى المقوقس عظيم القبط!

كان المُقوقِس جُرَيْج بنُ مِيناء صاحبَ الإسكندريّة ومَلِك القبط تحت سلطان الرّوم، رجلًا حليمًا في سياسته، ليِّنَ الجانب، مُحبًا للمعرفة، لا يهجم على الأمور هجومَ الجبابرة، بل يتأنّى ويتأمّل. وكان على مِلّة النّصرانيّة، يقرأ بعض كتبهم، ويعرف ما فيها من البشارات، خصوصًا ما يتعلّق بالنّبيّ الذي بشّر به عيسى عليه السلام ، ولذلك كان قلبهُ أميلَ إلى الإنصاف من قلوب غيره من الملوك.

فلمّا استقام أمرُ الإسلام في المدينة، وأرسلَ النّبيّ ﷺ كُتُبه إلى الملوك، بعث إلى المُقوقِس كتابًا يدعوه فيه إلى الله وإلى اتّباع الحقّ قبل أن تُغلَق أبواب الفرص.

وكان نصُّ رسالة النّبيّ ﷺ إلى المُقوقِس:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

مِن محمّدٍ عبدِ اللهِ ورسولِهِ، إلَى المُقوقِسِ عظيمِ القِبطِ.

سَلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدى.

أمّا بعدُ: فإنّي أدعوكَ بدِعاءِ الإسلامِ، أسلِمْ تَسلَمْ، يُؤتِكَ اللهُ أجرَكَ مرَّتَيْنِ.

فإن تولَّيتَ فإنَّ عليكَ إثمَ القِبطِ.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا

نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله ۚ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}.

وقد حمل هذه الرسالة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه ، وهو رجل ذكيٌ لبق، صاحب لسانٍ حسنٍ، اختاره النبيُ ﷺ لما عرف عنه من فطنةٍ ولطفٍ وحكمةٍ في مخاطبة أهل الملك. فسار حتى بلغ الإسكندريّة، ودخل على المقوقس، وسلّمه الكتاب.

فلمّا قُرئ الكتابُ على المقوقس، لم يستكبر كما استكبر غيره من الملوك، بل نظر إلى حاطب نظرة المتأمّل، ثمّ دار بينهما الحوار المشهور الذي روته كتبُ السّير، وفيه شيءٌ من الأسلوب الأدبيّ، لكنّه يُمثّل ما كان في ذلك المجلس من حكمةٍ ورقّة:

قال المقوقس لحاطب: لقد بقي من النّبوّة شيءٌ يسير، وقد كنتُ أعلم أن نبيًا قد بقيَ، وكنتُ أظنّ أنه يخرج بالشام.

فقال حاطبٌ: كان هناك نبيٌ، وهو عيسى ابنُ مريم، فمن أين يكون نبيٌ في قومٍ قد كفروا به؟ بل هذا نبيٌ من العرب، بُعث في حرم، وهاجر إلى دارٍ لها حجارةٌ سوداء، يعلو فيها الصوت بالقرآن.

فقال المقوقس: إنّ لنا نبيًا ننتظره، يظهر من ناحية الشام، وهذا الذي تذكره غير الذي عندنا.

فقال حاطب: إنّ عيسى ابنَ مريم بشّر بالنبي الذي بين يديك كتابُه، وإنّا ندعوك إلى الله، فإن أسلمتَ فلك ما للمسلمين، وإن أبيتَ فإنّ عليك إثمَ القِبط.

فمال المقوقس إلى حُسن الكلام، وقال: إني أرى في صاحبكم أمرًا، وهو لا يدعو إلى رذيلةٍ ولا سوءٍ، وليس بكاهنٍ ولا مجنون، وسأنظر في أمره.

وكرِه المقوقس أن يُعلن إسلامه مخافةَ الرّوم، فإنّهم أهلُ بطشٍ وجبروت، لكنّه لم يمزّق الكتابَ ولم يُهنه كما فعل كِسرى، بل وضعه في خزانةٍ من

عاج، وقال لحاطب: قَدِمتَ مِن عندِ نبيٍّ كريم.

ثمّ كتبَ إلى النّبيِّ ﷺ كتابًا يُجِلّه فيه، واعتذر عن عدم إظهار الإسلام خوفًا من قومه، وبعث معه هدايا عظيمة، منها: مارية القِبطيّة رضي الله عنها، وأختها سيرين، ومركبٌ من الخيل، وكسوةٌ نفيسة، وبغلةٌ بيضاء كانت تُسمّى دُلدُل.

أمّا النّتيجة، فكانت لها آثارٌ جليلة:

وصلت رسالة النّبيّ ﷺ إلى عظيم مصر دون امتهانٍ، وأكرم المُقوقِس مبعوثَ الإسلام، وأسلمت مارية رضي الله عنها وحظِيَت بمنزلةٍ عظيمة، وصار موقف المُقوقِس إعلانًا غير صريحٍ بأنّه وجد الحقّ ولم يجرؤ على اتّباعه خوفًا من الرّوم، وانتشر خبر الرّسالة في أرض القِبط، فسمع النّاس بالإسلام لأوّل مرّةٍ سماعًا واسعًا.

وهكذا ظلّت رسالة النّبيّ ﷺ إلى المُقوقِس آيةً من آياتِ حِكمة الدّعوة؛ لم يُمزّقها المَلِك كما فعل كِسرى، ولم يُسلِم كما فعل النّجاشيّ، لكنّه أنصفَ، وعرَفَ، وقرّبَ، وأكرَمَ، فكان في موقفه دليلٌ على أنّ نور النّبوّة يمسّ القلوب ولو حالت بينها وبين الهداية أسوارُ المُلك.

خامساً: إلى المُنذِر بن ساوى مَلِكِ البحرين!

كان المُنذِرُ بن ساوى العبديّ مَلِكَ البحرين، واليًا عليها من قِبل الفرس، وكان رجلًا حليمًا حسنَ السّياسة، لا يُعرَف بالظُّلم، ويميلُ إلى أهل الدِّين، ويكره سفَهَ الجاهليّة. وكان أهل البحرين يومها بين مجوسيّةٍ وعبادةِ أوثانٍ، وفيهم نصارى قليلون، وكان المُنذِرُ قادرًا على الإصغاء، لا يُغلِق قلبه عن فكرةٍ إذا لاح فيها نورٌ ولا يتعجّل في ردّ القول قبل فهمه.

فلمّا استقام أمرُ الإسلام في المدينة، ورأى النّبيّ ﷺ أنّ رسالته قد بلغت أوان الانتشار، كتب إلى ملوك العرب والعجم يدعوهم إلى الله، وكان ممّن كتب إليهم المُنذِرُ بنُ ساوى.

وكان نصّ رسالة النبيّ ﷺ إلى المنذر:

«بِسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم.

مِن محمّد رسولِ اللهِ، إلى المُنذرِ بنِ ساوى.

سَلامٌ عليك.

فإنّي أحمَدُ إليكَ اللهَ الذي لا إلهَ إلا هو.

أمّا بعدُ: فإنّ مَن يُصلّي صلاتَنا، ويستقبلُ قِبلتَنا، ويأكلُ ذبيحتَنا، فذلك المُسلمُ، لهُ ما للمسلمينَ وعليهِ ما عليهم.

ومَن أبى فعليهِ الجِزيَةُ.

وإنّي كتبتُ إلى أهلِ البحرين أدعوهم إلى اللهِ، فإن أجابوا فحَسَنٌ، وإن أبَوا فعليهم الجِزيَةُ.

والسّلام.»

وقد حمل هذه الرّسالةَ العلاءُ بن الحَضرَميّ رضي الله عنه ، أحدُ بُلغاء الصّحابة، معروفٌ بحكمته وسَفتِه، اختاره النّبيّ ﷺ لما فيه من عقلٍ ورِقّةٍ وقدرةٍ على الدّخول على الملوك بلا رهبة. فسار حتّى بلغ البحرين، ودخل على المُنذِر، فسلّمه كتاب رسول الله ﷺ.

فقرأ المُنذِرُ الرّسالةَ، فأعجبته هيبةُ ألفاظها ووضوحُ حجّتِها، فمال قلبُه إلى الحقّ ميلًا. ثمّ دار بينه وبين العلاءِ حوارٌ رقيقٌ تتفجّرُ من ثناياه الحكمة:

قال المُنذِرُ: يا علاء، واللهِ لقد نظرتُ في هذا الدّين، فرأيتُه لا يأمرُ إلّا بخيرٍ ولا ينهى إلّا عن شرّ.

فقال العلاءُ رضي الله عنه : هو دينُ اللهِ الذي ارتضاه لخلقِه، أرسلَهُ نبيٌّ كريم، يدعو إلى ما يدعو إليه الأنبياء.

فقال المُنذِرُ: إنّي لأرى صاحِبَكم نبيًا، ولولا أنّي ملكٌ في قومٍ أخاف

فتنتهم لاتبعتُهُ علانيةً.

فقال العلاءُ: يكفيك أن تُقيمَ العدلَ فيما وُلّيت، وأن تُجيبَ دعوةَ الحقِّ في نفسِك، فإنَّ اللهَ يهدي من يشاء.

ثمّ قال المُنذِرُ: سأنظر في أمرِ قومي، فما كانوا عليه من خيرٍ أثبتُّه، وما كان من شرٍّ أنكرتُه؛ فإن أسلموا اتّبعتُهم، وإن أبوا رضيتُ منهم بالجزية.

فكتب المُنذِرُ إلى النبيِّ ﷺ جوابًا يقول فيه:

يا رسولَ الله، إنّي قد قرأتُ كتابَك، وفهمتُ ما دعوتَ إليه. وقد وجدتُ دينَك خيرَ الأديان، فأنا على الإسلام، ومن قبلي من النّاس.

فكانت النتيجة عظيمة:

- أسلم المُنذِرُ بنُ ساوى، وأعلن خضوعه لله.

- وأسلمتْ قبائلُ كثيرة من أهلِ البحرين، وانتشر نورُ الإسلام بينهم بسرعةٍ.

- وأمّا من أبى فقد قبل ودفع الجِزية كما أمر النّبيُّ ﷺ.

- وصارت البحرين أوّلَ أرضٍ من بلاد العرب يدخل أكثرُها في الإسلام برسالةٍ واحدة.

وهكذا كانت رسالةُ النّبيّ ﷺ إلى مَلِكِ البحرين صفحةً مشرقةً من صفحات الدعوة، لم تُواجَه بتكبّرٍ، ولم تُهَنْ كما فُعِل بكتاب كِسرى، بل وجدت قلبًا واعيًا، فحرّكت فيه نورَ الفطرة، وكانت بابًا لانتشار الإسلام في الخليج، ودليلًا على أنّ الكلمةَ إذا خرجت من فمِ النّبيّ ﷺ تفتح من القلوب ما لا تفتحه الجيوش.

سادساً: إلى هوذة بن عليّ صاحب اليمامة!

كان هَوذةُ بن عليٍّ الحَنفيّ صاحبَ اليمامة، ورئيس بني حنيفة، رجلًا له مكانةٌ وسيادة، يتّصف بالحِلم والدّهاءِ، وكان شاعرًا خطيبًا، يُعجب بنفسه،

ويرى أنه أهلٌ للملك، وكان قومه يعظّمونه تعظيمًا كبيرًا. وكان هوذةُ يميل إلى السّياسة أكثر من الميل إلى الحقّ، فيزنُ الأمور بميزان المصلحة، لا بميزان الهداية، وكانت اليمامة يومئذٍ من أعظم أقاليم الجزيرة، لها حصونٌ وزروع، وفيها قوةٌ ومَنعة، فكان صدى الكلمة يصل إلى هوذة متأخّرًا، ويصل إليها ضوء الحقّ محجوبًا بطبقاتٍ من الكبرياء.

فلمّا كتب النبيّ ﷺ إلى الملوك والأمراء بعد صُلح الحديبية، بعث إلى هوذة صاحب اليمامة يدعوه إلى الإسلام، كما دعا غيره من السّادة والملوك.

وكان نصّ رسالة النبيّ ﷺ إلى هوذة:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ.

مِن محمّدٍ رسولِ اللهِ، إلى هَوذةَ بن عليّ.

سَلامٌ على مَنِ اتَّبعَ الهُدى.

أمّا بعدُ: فاعلَمْ أنَّ ديني سيظهَرُ إلى مُنتهى الخُفِّ والحافرِ.

فأسلِمْ تَسلَمْ، وأجعَلْ لكَ ما تحتَ يديكَ.»

وقد حمل هذه الرّسالةَ سَليطُ بن عمرو العامريُّ رضي الله عنه ، رجلٌ فصيحٌ حصيفٌ، من أذكى رُسُلِ النبيّ ﷺ، اختاره لما يعرف من حُسن منطقه وثبات قلبه أمام أهل المُلك.

فلمّا دخل سَليطٌ على هَوذة، وسلّمه الكتاب، قرأه هَوذةُ طويلًا، ثمّ رفع بصره إلى المبعوث، ودار بينهما حوار:

قال هَوذةُ لسَليط: ما هذا الذي تدعون إليه؟ وما شأنُ صاحبِكم؟

فقال سَليطٌ رضي الله عنه : ندعو إلى اللهِ وحده، لا شريك له، وندعو إلى الصّدق، وإلى ترك عبادة الحجارة والطواغيت، وصاحبنا رسولُ الله، جاء بالهدى ودين الحقّ.

فقال هَوذة، وقد راودهُ حبُّ المُلك: إن أعطاني صاحبُكم بعضَ المُلك،

أسلم له، وأتبعه.

فقال سَليطٌ بوضوحٍ لا مهابة فيه: ما بهذا بعثَنا رسولُ الله، ولا هذا يُعطى لك. إنّما المُلك لله، يورّثُه من يشاءُ من عباده.

فقال هوذةُ ساخطًا: أعلم صاحبكم بما قلت.

فخرج سَليط إلى المدينة، فأخبر النبيَّ ﷺ بما قال هوذة، فقال النبيُّ ﷺ: لو سألني قِطعةً من الأرض ما فعلت. باد مُلكُه.»

أمّا تعاملُ هَوذةٍ مع الرّسالة، فلم يكن تعامل مكابرةٍ كتمزيق كسرى، ولا تعامل إنصافٍ كموقف المقوقِس، بل تعامل حسابٍ سياسيٍّ ومساومة؛ فقد أعجبه خطاب النّبيّ ﷺ، ورأى قوّته، لكنّه طمِع أن يأخذ نصيبًا من المُلك مقابل الإسلام، فامتنع، وفضل البقاء على جاهليته.

ثمّ كتب هَوذة إلى النبيّ ﷺ معتذرًا: ما أحسنَ ما تدعو إليه وتحبّب فيه! ولولا أن قومي يرون عليّ ضعفًا لاتبعتك.

لكنّه لم يُسلم، وظلّ ينتظر الأيام.

فلمّا تُوفّي النّبيّ ﷺ، وخرج مُسيلمة الكذّاب في اليمامة، أرسل إلى هَوذة يدعوه لمناصرته، فمال إليه هَوذةُ ميلًا تافهًا، ثمّ مات بعد ذلك بقليل، فانطفأ ذكره، وسقطت مكانته، وزال مُلكُه كما أخبر النّبيّ ﷺ.

وهكذا كانت رسالةُ النّبيّ ﷺ إلى هَوذةِ بن عليٍّ آيةً من آياتِ الدعوة، أقامت الحُجّة على رجلٍ فتح له الحقُّ البابَ فأبى، وبيّنت أنّ الهدايةَ لا تنفعُ من يطلب الدّنيا فوق الآخرة، وأنّ الكلمة التي خرجت من المدينة بلغت اليمامة، ولكن لم يجد قلبُ هَوذةٍ لها موضعًا غير طمعٍ قصيرٍ زال بزوال حياته.

سابعاً: إلى الحارثِ بن أبي شَمِرٍ الغسّانيّ!

كان الحارثُ بن أبي شَمِرٍ الغسّانيّ أميرَ دمشق وما حولها من بلاد الشّام، تابعًا للرّوم، وكان من أعظم ملوك العرب نفوذًا في ذلك الإقليم، مَهابًا في

قومه، شديد التعلّق بملكِ الرّوم هرقل. وكان الحارث معروفًا بالأنفة والفخر، لا يُقيم وزنًا لغير الملوك، ويرى أنّه من سادات العرب الذين لا يُخاطبون إلّا بما يليق بسلطانهم. وكانت له قلعةُ جابية المشهورة، يجلس فيها مجلس الملك، فلا يدخل عليه أحدٌ إلا أذلّهُ شدّةُ هيبته، ولا يتكلّم عنده إلّا أهل الرّأي والحكمة.

فلمّا أرسل النّبيّ ﷺ كُتبه إلى الملوك بعد صلح الحديبية، بعث كتابًا إلى الحارثِ بن أبي شمرٍ يدعوه فيه إلى الإسلام، كما دعا غيره من الملوك والأمراء.

وكان نصّ كتاب النّبيّ ﷺ إلى الحارث:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ.

مِن محمّدٍ رسولِ اللهِ، إلى الحارثِ بنِ أبي شِمرٍ.

سلامٌ على مَنِ اتّبعَ الهُدى، وآمَنَ به وصدق، وإني أدعوكَ إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يُبقي لك ملكك»!

وقد حمل هذه الرّسالةَ شجاعُ بن وَهبٍ الأسديّ رضي الله عنه ، وكان من فرسان النّبيّ ﷺ ومن أهل الجرأة والمهابة، فخرج حتّى بلغ دمشق، ودخل على الحارث في قصره، ووقف بين يديه بلا ارتجاف.

فلمّا قُرئ الكتابُ على الحارث، ظهرت على وجهه علاماتُ الغضب، واشتدّ انقباضُه، ثمّ التفت إلى شجاع، ودار بينهما الحوار الذي حفظته كُتبُ السِّيَر.

قال الحارث لشجاع: ما يقول صاحبُكم؟ يدعوني إلى دينه؟!

فقال شجاعٌ رضي الله عنه بكل ثباتٍ: هو داعٍ إلى اللهِ، يأمُرُ بالحقّ، وينهى عن الظُّلم، ويدعو إلى عبادةِ اللهِ وحدَه.

فقال الحارث مستنكِرًا: أتراني أترك مُلكي وأتْبعُه؟! وما لي إن أسلمتُ؟

فقال شجاع: لَكَ ما للمسلمين، وعليك ما عليهم.

فقال الحارث غاضبًا: بل أخبِرْ هرقل بما كتب صاحبكم. لا أقدرُ أن أخرج من طاعته.

ثمّ قال قولته التي شاع ذكرُها: لأحنقنّهُ أي لأثيرنّ غضبه، ولأثيرنّ غضبه على النّبيّ ﷺ.

فأكرم شجاعًا في الظاهر، وودّعه، ثمّ كتب إلى هرقل يخبره بمجيء رسول النّبيّ ﷺ، وبما جاء في الكتاب، ويستأذنه في الأمر. فاشتدّ غضبُ هرقل وقال لخدمه: أراد صاحبُ يثربَ أن ينزعني من مُلكي!

وأمر ألّا يُظهر الحارث شيئًا من طاعة لرسول الله ﷺ.

أمّا النّتيجة فقد كانت كما أخبر النّبيّ ﷺ؛ لم يُسلم الحارث، ولم يجب الدّعوة، وأغلق قلبه دون الهدى، وتشبّث بمُلْكِ الرّوم وتسلُّطهم.

وقيل إنّ النّبيّ ﷺ أخبر أصحابه بقوله: بادَ مُلكُه!

فلم يمضِ زمنٌ طويلٌ حتّى أكلتِ الحروبُ نفوذَ الغساسنة، وسقطت دولتهم، وتلاشى مُلْك الحارث كما يتلاشى السّراب، وكان ذلك من دلائل صِدق الإخبار.

وهكذا كانت رسالة النّبيّ ﷺ إلى الحارث صفحةً من صفحات الدّعوة التي بلغت القِلاع والقصور، فلم تُقابَل عنده بقبولٍ ولا إنصاف، لكنّها أقامت عليه الحُجّة، وأظهرت أنّ نور النّبوّة يصل إلى الملوك كما يصل إلى الضُّعفاء، وأنّ من صدّ عنه خسر الدّنيا والآخرة.

ثامناً: إلى جيفرَ وعبدِ ابني الجُلَنْدى مَلِكَيْ عُمَان!

لم تكن رسائلُ النبيّ ﷺ إلى الملوكِ استعراضَ قوّة، بل بلاغَ هدايةٍ، ولا فرضَ سلطانٍ، بل دعوةَ عدلٍ تُخيّر قبل أن تُحاصِر، وفي رسالته إلى مَلِكَي عُمان تتجلّى حكمةُ النبوّة: كلمةٌ واضحة، ووعدٌ صادق، وإنذارٌ عادل، ثم تركَ الخيار لأصحابه، فكان الإيمانُ جوابًا، والسلامُ ثمرةً، وبقاءُ المُلكِ جزاءَ مَن اختار الهُدى!

وهذا نصّ رسالة النبيّ ﷺ إليهما:

بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ، من محمّدٍ رسولِ اللهِ: إلى جيفرٍ وعبدٍ ابني الجلندى، سلامٌ على منِ اتّبعَ الهدى، أمّا بعدُ، فإنّي أدعوكما بدعايةِ الإسلامِ، أسلِما تسلَما، فإنّي رسولُ اللهِ إلى النّاسِ كافّةً، لأنذرَ من كان حيًّا ويحقَّ القولُ على الكافرين، وإنّكما إن أقررتُما بالإسلامِ وليتُكما، وإن أبيتُما فإنّ ملكَكما زائلٌ، وخيلي تطأُ ساحتَكما، وتظهرُ نبوّتي على ملكِكما. والسّلامُ على منِ اتّبعَ الهدى!

فكان جوابُ ملِكي عُمان إيمانًا بلا حربٍ، ودخولًا في الإسلامِ بلا دمٍ، وبقاءً في الملكِ بلا خديعةٍ، ليكون ذلك شاهدًا على أنّ الكلمةَ الصادقةَ إذا خرجت من قلبِ نبيٍّ فتحت القلوبَ قبل الحصونِ!

ولأنّ السّيرةَ واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدّروسِ والعِبرِ من مراسلةِ النّبيّ ﷺ للملوكِ والحكّام:

1 ـ عالَميّةُ الرّسالةِ وامتدادُ نورِها، أي إنّ الإسلامَ خرجَ من حدودِ الجزيرةِ ليخاطِبَ العالَمين، لا يَستثني أمّةً ولا يَخصّ قومًا، بل يَحمِلُ نورًا يَسعُ البشرَ جميعًا مهما اختلفَت ألسنتُهم وديارُهم.

2 ـ أنّ القوّةَ ليست بالسّيفِ، بل بالكلمةِ الصّادقةِ، فالحقُّ إذا نطقَ به القلبُ الصّادقُ كان أبلغَ من حدّ الحديدِ، وتلك الرّقاعُ اليسيرةُ التي خرجت من المدينةِ هزّت عروشَ الملوكِ لأنّها خرجت من روحٍ صادقةٍ موحّدةٍ.

3 ـ شجاعةُ الدّعوةِ وثباتُ الدّاعي، فمراسلةُ الملوكِ إعلانٌ أنّ الدّعوةَ لا تخشى سلطانًا، وأنّ صاحبَها ثابتٌ كالطّودِ، واثقٌ بأنّ اللهَ ناصرُه ولو اجتمعَت عليه قُوى الأرضِ.

4 ـ الحكمةُ في اختيارِ الرّسُلِ، فالرّسالةُ لا تُبلَغُ إلّا بلسانٍ حسَنٍ ووجهٍ صَبوحٍ وسلوكٍ رَفيعٍ، ولذلك اختيرَ لها رجالٌ يَجمعون بين الفِطنةِ والوَقارِ، ليكونوا صورةً ناطِقةً عن أخلاقِ الإسلامِ.

5 ـ أنّ الهدايةَ لا تُكرَه، بل تُعرَضُ بنُورٍ، فالرّسائلُ ناعمةٌ كالمطر، رقيقةٌ كنسيمِ الفجر، تأتي بالخيرِ وتدعوه دون جَبرٍ أو عُنف، لأنّ الإيمان إذا لم يَدخُلِ القلبَ طائعًا لم يَثبُت فيه يومًا.

6 ـ إقامةُ الحُجّةِ قبلَ المواجهةِ، فالله لا يُعاقِبُ قومًا إلّا بعد أن تقومَ عليهمُ البيّنةُ، والنبيُّ ﷺ لا يُحاربُ إلّا من سمِع الحقّ ثمّ أعرض عنه، وهذا قمّةُ العدلِ والإنصافِ.

7 ـ أنّ الفِطرَةَ تُعرِفُ الحقَّ ولو حَجَبهُ المُلك، فقد عرفَ النّجاشيُّ الحقيقةَ حين لامَسَتها روحُه، وكاد هِرقلُ يَبلُغُها لولا هَيبةُ العَرش، وفي هذا درسٌ أنّ القلبَ قد يُبصِرُ ما تُعمى عنه العُيونُ المُزدانةُ بالسُّلطانِ.

8 ـ أنّ الكِبرَ يَحجُبُ الهدى، كِسرى لم يَرفُضِ الرسالةَ لأنّها غيرُ بيّنةٍ، بل لأنّ الكِبرَ غَطّى سمعَهُ وبَصرَه، فكان سُقوطُ مُلكِهِ آيةً على أنّ الاستِعلاءَ يُطفِئُ نُورَ الهدايَةِ.

9 ـ أنّ الدّعوةَ قُوّةٌ ناعِمةٌ تُمهّدُ لِلقُوّةِ الخَشِنَةِ، فما دَخلَ المسلمونَ بَلَدًا إلّا بعدَ أنْ دَخلَتهُ الكَلِمةُ، وما فُتِحَت مَدينةٌ إلّا بعدَ أنْ فُتِحَتِ القُلوبُ، وهذا أعظَمُ فِقهٍ في إدارةِ الدّعواتِ.

10 ـ تفاوُتُ النّاس في استِقبالِ النُّورِ، منهم مَن تُشرِقُ روحُهُ مع أوّلِ كَلِمةٍ، ومِنهم مَن يَقِفُ في مُنتَصَفِ الطّريقِ، ومِنهم مَن يُعانِدُ حتّى تَنطَفِئَ في قلبِهِ آخِرُ شَمعَةٍ لِلخَيرِ.

11 ـ أنّ الدّعوةَ تَحتاجُ إلى الصّبرِ وطولِ النَّفَسِ، فلم تَظهَرْ آثارُ الرسائلِ في لَيلَةٍ، بل كانت بَذرًا يَتفَتّحُ على مَهَلٍ، وثمارًا تُقطَفُ بعدَ سِنينَ.

12 ـ القِيادَةُ النّبويّةُ بَعيدَةُ النّظَرِ، إذ لم يَحصُرِ النبيُّ ﷺ رسالَتَهُ في قَومِهِ، بل رَأى ما وراءَ البحرِ والجِبالِ، ورأى أُمّةً تَحمِلُ نُورَهُ قُرونًا بعدَه.

13 ـ أنّ الدّعوةَ مَسؤوليّةٌ لا حُدودَ لَها، فالمُؤمِنُ ليس ابنَ بيئَتِهِ وَحدَها، بل ابنُ الرّسالَةِ، يَحمِلُها إلى مَن يَعرِفُ ومَن لا يَعرِفُ، ويُسمِعُ بها البَعيدَ

والقريب.

14ـ الدعوةُ بلا عُقدةِ نقصٍ ولا عُقدةِ عظمةٍ، فالنبيُّ ﷺ حين كتب للملوك لم يكتبْ كطالبِ فضلٍ ولا كمتكبرٍ، بل كتبَ من مقامِ الرّسالةِ التي تستوي عندها التيجانُ والرؤوسُ.

15 ـ الدّولةُ التي تؤمنُ برسالتِها تجرؤُ على المبادرة، فلا تنتظرُ العالم ليأتي إليها، بل تُبادِرُه بسلامِها ونورِها، لأنّها واثقةٌ من أنّ رسالتها تحملُ ما يُغني ويهدي.

16 ـ السّياسةُ إذا انفصلَت عن الأخلاقِ تُفسِدُ، أمّا سياسةُ النبي ﷺ فكانت أخلاقًا تمشي على الأرضِ؛ لا خِداعَ فيها، ولا مَكرَ، بل صِدقٌ يُضيءُ الدّرب لِمَن أرادَ الحقَّ.

17 ـ الخِطابُ يُفصَّلُ بحسبِ عقلِ المتلقّي، فخِطابُ النّجاشيِ رَقيقٌ ليّنٌ، وخِطابُ كِسرى قويٌّ حازمٌ، وكلُّ رِسالةٍ نُسِجَتْ بما يُناسِبُ عقلَ المخاطَبِ وحالَه.

18 ـ الرّحمةُ سابِقةٌ عندَ النبيِّ ﷺ على الفتحِ، كان يُريدُ أنْ يهديَ القلوبَ قبلَ أنْ يَفتحَ المُدُنَ، ويُحرِّرَ الأرواحَ قبلَ أنْ يُحرِّرَ الأرضَ.

19 ـ المَبدأُ لا يُساوَمُ، فلم يَرضَ النبيُّ ﷺ أنْ يَمنحَ هَوذةَ شيئًا مِن المُلكِ مُقابِلَ الإسلامِ، لأنّ الحقيقةَ أعلى مِن أنْ تُشترى أو تُساوَمَ.

20 ـ سُنَنُ اللهِ تَجري على الجميعِ، فالذي يَعرِفُ الحقَّ ويتبعُه يرفعُه اللهُ، والذي يَعرِفُهُ ويعرِضُ عنهُ يَهوي كما هَوَتْ عُروشُ كِسرى والغَسانِيّينَ.

21 ـ البُعدُ الحقيقيُّ ليس بُعدَ المكانِ بل بُعدَ القلبِ، فالرسائِلُ بَلَغَتِ القُصورَ، لكنّ بَعضَ القُلوبِ كانت أبعَدَ مِن القُصورِ نَفسِها.

22 ـ الدّعوةُ واجِبةٌ في كُلِّ الظُّروفِ، فالنبيُّ ﷺ دَعا وهو مُحاصَرٌ، ودَعا وهو مُنتَصِرٌ... لأنّ البَلاغَ أكبَرُ مِن الضِّيقِ والرَّخاءِ.

23 ـ العلاقاتُ بينَ الشّعوبِ تَبدأُ بالكَلِمةِ، فحين يَصِلُ صوتُ الإسلامِ أوّلًا،

تصلُ أخلاقُه ثانيًا، ثمّ تصلُ جيوشه ثالثًا، فتكونُ الأرضُ مهيّأةً للقبول.

24 ـ الحقُّ قد لا يُقبلُ اليومَ لكنّه يُثمرُ غدًا، كَم مِن ملكٍ أعرضَ... ثمّ جاء أبناؤه وأحفادُه يفتحونَ قلوبَهم لنفسِ الحقّ الّذي رفضَهُ آباؤُهم.

25 ـ القيادةُ النّبويّةُ جمعَت بينَ الرّوحانيّةِ والسّياسة، فهي قيادةٌ ترى بالغيبِ كما ترى بالعينِ، وتجمعُ بينَ عبادةِ اللّيل وحكمة النّهار.

26 ـ الإسلامُ لا يخشى الحوار، بل يدعو إليه بثقةٍ، لأنّه يملكُ براهينَ تُنيرُ الطّريقَ لِمَن أرادَ الحقيقةَ.

27 ـ أعظمُ الانتصاراتِ ما كانَ على القلوبِ لا على المُدنِ، فإسلامُ النّجاشيّ، وهدايةُ البحرينِ، وميلُ قلوبِ الشّعوبِ قبلَ وصولِ الجيوش... كانت انتصاراتٍ لا تقلُّ شأنًا عن فتحِ مكّة!

28 ـ أنّ الدّعوةَ ليست ردَّ فعلٍ، بل فعلٌ مؤسّسٌ يقودُ المستقبلَ، فالنّبيُّ ﷺ بدأ العالَمَ بالكلمةِ قبلَ الصّدامِ، ليُثبتَ أنّ الرّسالةَ صانعةٌ للأحداثِ لا منفعلةٌ بها.

29 ـ أنّ الرّسالةَ التي تخاطبُ العقولَ تحتاجُ لِلُغةٍ تُخاطبُ الأرواحَ أيضًا، فقد جمعَت كُتبُه ﷺ بينَ الحجّةِ والنّورِ، تُقيمُ الدّليلَ وتُرقّقُ القلبَ، لأنّ الهدايةَ تُولَدُ مِن مزجِ العقلِ والرّوحِ معًا.

30 ـ أنّ الدّعوةَ إذا خرجَت مِن قلبٍ مؤمنٍ تتجاوزُ الزّمانَ، فتبقى الكلمةُ حيّةً ولو ماتَ صاحبُها، وتنتشرُ وتُثمرُ لأنّها خرجَت مِن نفسٍ صادقةٍ مخلصةٍ للهِ.

فتح خيبر!

إنَّا إذا نزلنا بساحةِ قومٍ فساءَ صباحُ المنذرين!

لم تكن خيبرُ مجرد واحةٍ مترفةٍ بالتمر والماء والحصون، بل كانت معقلَ الغدرِ الذي ما برح ينسجُ ليلًا خيوطَ الفتنة.

فمن هناك انطلق تحريضُ الأحزاب، ومن هناك خرج المالُ والسلاحُ والوعود، تجرُّ خلفها ريحَ الخيانة إلى يوم الخندق.

وبعد صُلحِ الحديبية لم تزلْ يدُ خيبر تتحركُ في الظلام، تُعِدُّ لليلٍ آخر من الغدر.

فكان خروجُ النبيِّ ﷺ إليهم دفعًا لشوكةِ الغدر، لا طمعًا في أرضٍ ولا تمرٍ.

خرج الجيشُ الإسلاميُّ يشقُّ الطريقَ بين المدينةِ وخيبر، وكان النبيُّ ﷺ بينهم كقمرٍ توسَّطَ نجومَه!

بلغوا خيبرَ ليلًا، فلمَّا انشقَّ الصبحُ وخرج أهلُ المزارعِ إلى حقولهم، رأوا الأرضَ تموجُ برايَاتِ الإيمانِ.

فصاحوا من فوق الأسوار: جاء محمدٌ والخميسُ!

فطالعهم النبيُّ ﷺ بصوتٍ كأنَّه زئيرُ أسدٍ إذا أرادَ أن يثبَ: خَرِبَتْ خيبرُ، إنَّا إذا نزلنا بساحةِ قومٍ فساءَ صباحُ المنذرين!

تحصَّنَ اليهودُ في قلاعٍ تشبهُ قممَ الجبال، ظنُّوا أنَّها مانعتهم من الله!

جمع النبيُّ ﷺ أصحابَه وقال: لأُعطِيَنَّ الرَّايَةَ غدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ!

فبات القومُ لا ينامون إلا على ظنٍّ ورجاء.

فلمَّا أشرقتِ الشمس، دعا النبيُّ ﷺ عليًّا، وكان أرمدَ العينين، فمسح عليهما، فبرأتا كضوءٍ وُلِدَ من جديدٍ.

ثم دفع إليه الراية، فارتفعت في الهواء كأنها إعلانُ نصرٍ قادم!

تتابعت الحصونُ تتساقط، وكان كلُّ حصن يرى في سقوط الذي قبله نعيًا يقتربُ من بابه، وكأنَّ الريح تكتبُ على جدرانه: انتهى زمنُ الخيانة!

فلمّا سقطت خيبرُ، لم يرفع النبيُّ ﷺ يده انتقامًا، بل رفعها صلحًا

أبقى أهل خيبر على أرضهم، على أن يكون نصفُ الثمار للمسلمين

فصار الفتحُ شاهدًا أنَّ القوة إذا لبسها العدلُ صارتْ رحمةً، وأنَّ يد النبيِّ ﷺ ما امتدت يومًا لظلم!

هكذا فُتِحت خيبرُ، لا بثأرٍ غاضبٍ، ولا بحقدٍ طامعٍ، بل بخُطى نُبوّةٍ أرادت أن تُطهِّرَ ظهرَ الدولةِ من شوكةٍ طال أذاها.

وبقي الفتحُ شاهدًا أنَّ السيفَ إذا حملَهُ نبيٌّ صار نورًا، وأنَّ العدلَ إذا مشى على قدَمَيْ رسولٍ أنبتَ السلامَ في الأرض!

تلك كانت حكايةُ خيبرٍ إذا ما رواها الإيجاز، أما التاريخُ فتفاصيلٌ ومحطاتٌ، ومواقفُ تبركُ عندها مطايا السَّرد مفصَّلاً!

لم يُظهِرْ يهودُ خيبرَ العداءَ للمسلمين حتّى نزلَ فيهم زعماءُ بني النَّضير، الّذين حزَّ في نفوسِهم إجلاؤُهم عن ديارِهم، ولم يكنِ الإجلاءُ كافيًا لكسرِ شوكتِهم، فقد غادروا المدينةَ ومعهم النساءُ، والأبناءُ، والأموالُ، وخلفَهم القِيانُ يضرِبنَ الدفوفَ والمزاميرَ بزهاءٍ وفخرٍ ما زُئي مثلُه في حيٍّ من النّاسِ في زمانِهم.

وكان من أبرزِ زعماءِ بني النضيرِ الّذين نزلوا في خيبر سلّامُ بنُ أبي الحُقيق، وكِنانةُ بنُ أبي الحُقيق، وحُيَيُّ بنُ أخطب، فلمّا نزلوا دانَ لهم أهلُها.

وكان تزعُّمُ هؤلاءِ ليهودِ خيبرَ كافيًا في جرِّها إلى الصراعِ، والتصدّي، والانتقامِ من المسلمين؛ فقد كان يدفعُهم حقدٌ دفينٌ، ورغبةٌ قويّةٌ في العودةِ إلى ديارِهم داخلَ المدينة.

وكان أول تحركٍ قويّ ما حدث في غزوة الأحزاب، حيث كان لخيبر وعلى رأسها زعماءُ بني النضير دورٌ كبيرٌ في حشد قريش والأعراب ضد المسلمين، وتسخير أموالهم في ذلك، ثم سعيهم في إقناع بني قريظة بالغدر والتعاون مع الأحزاب، بل إنهم أنفقوا أموالهم واستغلوا علاقاتهم مع يهود بني قريظة لنصرة الأحزاب وطعن المسلمين في ظهورهم، وهكذا أصبحت خيبر مصدر خطرٍ كبيرٍ على المسلمين ودولتهم النامية!

سار الجيش إلى خيبر بروحٍ إيمانيةٍ عاليةٍ، على الرّغم من علمهم بمنعة حصونِ خيبر، وشدة بأس رجالها، وعتادها الحربي. وكانوا يكبّرون ويهلّلون بأصواتٍ مرتفعةٍ، فطلب منهم النبيّ ﷺ أن يرفقوا بأنفسهم قائلاً: أيُّها النّاس، اربَعوا على أنفسكم، فإنّكم لا تدعون أصمّ، ولا غائبًا، ولكن تدعون سميعًا بصيرًا!

وكان سيرُ النّبيّ ﷺ بالجنودِ ليلًا.

وبعث النّبيُّ ﷺ عَبّادَ بنَ بِشر في سريّةٍ استطلاعيّةٍ يتلقّط أخبار العدوّ، ويستطلعُ إنْ كان هناك كمائن. فلقي في الطريقِ عينًا لليهود من أشجع. فقال: من أنت؟

قال: باغٍ أبتغي أبعرةً ضلّت لي، أنا على إثرِها.

قال عَبّاد: ألكَ علمٌ بخيبرَ؟

قال: عهدي بها حديثٌ، فيمَ تسألني عنه؟

قال: عن اليهودِ؟

قال: نعم، كان كِنانةُ بنُ أبي الحُقيقِ، وهَوْذةُ بنُ قَيس ساروا في حلفائهم من غَطَفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم تمرَ خيبرَ سنةً، فجاؤوا مُعَدِّين، مُؤيَّدين بالكُراعِ والسّلاح، يقودُهم عُتبةُ بنُ بَدرٍ، ودخلوا معهم في حصونِهم، وفيهم عشرةُ آلافِ مقاتلٍ، وهم أهلُ الحصونِ الّتي لا تُرام، وسلاحٌ وطعامٌ كثيرٌ، لو حوصِروا لسنينَ لكفاهم، وماءٌ يشربونَه في حصونِهم، ما أرى لأحدٍ

بهم طاقةٌ!

فرفعَ عبّادُ بنُ بِشرٍ السّوطَ، فضربَه ضرباتٍ، وقال: ما أنت إلا عينٌ لهم، اصدقني، وإلّا ضربتُ عنقَك!

فقال الأعرابيُّ: القومُ مرعوبونَ منكم، خائفون، وجلون؛ لما صنعتم بمن كان بيثربَ من اليهودِ. وقال لي كِنانةُ: اذهبْ معترضًا للطريقِ، فإنهم لا يَستنكرونَ مكانَك، واحزِرْهم لنا، وادنُ منهم كالسائلِ لهم ما تقوى به. ثمّ ألقِ إليهم كثرةَ عددِنا، ومَددِنا، فإنّهم لن يَدعوا سؤلَك، وعجّلِ الرّجعةَ إلينا بخبرِهم!

وعندما وصلَ جيشُ المسلمينَ إلى مشارفِ خيبرَ، قال رسولُ اللهِ ﷺ لأصحابِه: قِفوا!

ثمّ قال: اللّهمّ ربَّ السّمواتِ وما أظلَلنَ، وربَّ الأرضينَ وما أقلَلنَ، وربَّ الشّياطينِ وما أضلَلنَ، وربَّ الرّياحِ وما ذرَينَ، فإنّا نسألُك خيرَ هذهِ القريةِ، وخيرَ أهلِها، وخيرَ ما فيها، ونعوذُ بكَ من شرِّها، وشرِّ أهلِها، وشرِّ ما فيها، أقدموا باسمِ الله!

سارَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى خيبرَ ليلًا، ووصلَها ليلًا، وأمرَ الجيشَ بالنّومِ على مشارفِها، ثمّ استيقظوا مُبكّرين، وضربوا خيامَهم، ومعسكرَهم.

ولمّا أصبحَ الصّبحُ خرجتِ اليهودُ بمساحيهم ومكاتِلِهم، فلمّا رأوا جيشَ المسلمينَ قالوا: محمّدٌ واللهِ! محمّدٌ والخَميس!

فقال النبيُّ ﷺ: اللهُ أكبر! اللهُ أكبر! خَرِبَتْ خيبرُ، إنّا إذا نزلْنا بساحةِ قومٍ، فساءَ صباحُ المُنذَرين!

هربَ اليهودُ إلى حصونِهم، وحاصرَهم المسلمون، وأخذوا في فتحِ حصونِهم واحدًا تلوَ الآخرِ، وكان أوّلَ ما سقطَ من حصونِهم ناعمٌ، والصّعبُ بمنطقةِ النّطاةِ، وأبو النّزارِ بمنطقةِ الشّقِّ، وكانت هاتانِ المنطقتانِ في الشمالِ الشرقيِّ من خيبرَ، ثمّ حصنُ القَموصِ المنيعِ في منطقةِ الكتيبةِ،

وهو حصنُ ابن أبي الحُقيق، ثمّ أسقطوا حصني منطقة الوطيح والسّلالم.

وقد واجهَ المسلمونَ مقاومةً شديدةً وصعوبةً كبيرةً عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصنُ ناعِمٍ؛ الّذي استشهد تحته محمودُ بنُ مسلمةَ الأنصاريُّ، حيث ألقى عليه مِرحَبُ رَحىً من أعلى الحصن، والّذي استغرق فتحه عشرةَ أيامٍ. وعندما جَهَدَ النّاس قال رسولُ اللهِ ﷺ إنّه سيدفعُ اللّواءَ غدًا إلى رجلٍ يحبُّه اللهُ ورسولُه، ويحبُّ اللهَ ورسولَه، لا يرجعُ حتّى يُفتحَ له. فطابت نفوسُ المسلمين. فلمّا صلّى الفجرَ دعا عليَّ بنَ أبي طالبٍ، ودفعَ إليه اللّواءَ، فحملَه، فتمّ فتحُ الحصنِ على يديه.

وكان عليٌّ يشتكي من رَمَدٍ في عينيهِ عندما دعاه الرسولُ ﷺ، فبصقَ في عينيهِ ودعا له، فبرَأ.

ولقد أوصى الرسولُ ﷺ عليًا بأن يدعوَ اليهودَ إلى الإسلامِ قبل أن يداهمَهم، وقال له: فواللهِ، لأن يهديَ اللهُ بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من أن تكونَ لك حُمْرُ النَّعَمِ.

وعندما سأله عليٌّ: يا رسولَ اللهِ، على ماذا أقاتلُ النّاس؟

قال: قاتِلْهم حتّى يشهدوا أن لا إلهَ إلّا اللهُ، وأنّ محمّدًا رسولُ اللهِ، فإذا فعلوا ذلك؛ منعوا منك دماءَهم وأموالَهم إلا بحقّها، وحسابُهم على اللهِ.

وعندما حاصرَ المسلمون هذا الحصنَ برزَ لهم سيّدُه وبطلُهم مِرحَبٌ، وكان سببًا في استشهادِ عامرِ بنِ الأكوَعِ، ثمّ بارزه عليٌّ فقتلَه، ممّا أثّر سلبيًا في معنويّاتِ اليهود، ومن ثمّ هزيمتِهم.

توجّهَ المسلمونَ إلى حصنِ الصّعبِ بنِ مُعاذٍ بعد فتحِ حصنِ ناعِمٍ، وأبلى حاملُ رايتِهم الحُبابُ بنُ المُنذرِ بلاءً حسنًا، حتّى افتتحوه بعد ثلاثةِ أيّامٍ، ووجدوا فيه الكثيرَ من الطعامِ والمتاعِ يومَ كانوا في ضائقةٍ من قلّةِ الطعام. ثمّ توجّهوا بعده إلى حصنِ قلعةِ الزُّبيرِ، الّذي اجتمعَ فيه الفارّون من حصنِ ناعِمٍ، والصّعبِ، وبقيّةِ ما فُتِح من حصونِ يهودَ، فحاصروه، وقطعوا عنه مجرى الماءِ الّذي يُغذّيه، فاضطرّوهم إلى النزولِ للقتالِ، فهزموهم بعدَ

ثلاثةِ أيامٍ، وبذلك تمت السيطرةُ على آخر حصون منطقة النطاة؛ التي كان فيها أشدُّ اليهود.

ثمّ توجّهوا إلى حصونِ منطقةِ الشقِّ وبدؤوا بحصن أبي، فافتتحوه، وأفلتَ بعضُ مقاتِلته إلى حصنِ نِزارٍ، وتوجّه إليهم المسلمون فحاصروهم، ثمّ افتتحوا الحصن، وفرّ بقيّةُ أهلِ الشقِّ من حصونهم، وتجمّعوا في حصن القَموصِ المنيع، وحصنِ الوَطِيحِ، وحصنِ السّلالِمِ، فحاصرهم المسلمون لمدّةِ أربعةَ عشرَ يومًا حتّى طلبوا الصُّلح.

وبذلك سقطت سائرُ خيبرَ بيدِ المسلمين، وسارعَ أهلُ فَدَكٍ في شمالِ خيبرَ إلى طلبِ الصُّلحِ، وطلبوا منه أن يحقنَ دماءَهم، وبذلوا له الأموالَ فوافقَ على طلبِهم، فكانت فَدَكُ خالصةً لرسولِ اللهِ ﷺ لأنّه لم يُوجَف عليها بخيلٍ ولا ركاب.

وحاصرَ المسلمون وادي القُرى، وهي مجموعةُ قرى بين خيبرَ وتيماء، ليالي، ثمّ استسلمت، فغنمَ المسلمون أموالًا كثيرةً، وتركوا الأرضَ والنّخلَ بيدِ اليهودِ، وعاملَهم عليها مثلَ خيبر، وصالحت تيماءُ على مثلِ صلحِ خيبرَ ووادي القُرى!

تساقطت سائرُ الحصونِ اليهوديّةِ أمامَ قوّاتِ المسلمين، وقد بلغَ قتلى اليهودِ في معاركِ خيبرَ ثلاثةً وتسعينَ رجلًا، وسُبِيَت النّساءُ والذّراري، منهنّ صَفيّةُ بنتُ حُيَيِّ بنِ أخطَب، فأعتقَها رسولُ اللهِ ﷺ وتزوّجها.

واستُشهِدَ من المسلمين عشرونَ رجلًا.

وحدثت في غزوةِ خيبر أحداثٌ فيها عبرة، يجب التّوقف عندها:

جاءَ رجلٌ من الأعرابِ إلى النبيّ ﷺ فآمنَ به واتّبعَه، فقال: أهاجرُ معك.

فأوصى به بعضَ أصحابِه، فلمّا كانت غزوةُ خيبرَ غَنِمَ رسولُ اللهِ ﷺ شيئًا، فقَسَمَه، وقَسَمَ للأعرابيِّ، فأعطى أصحابَه ما قُسِمَ له، وكان يرعى ظهرَهم. فلمّا جاءَ؛ دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟

قالوا: قسمٌ قسَمَه لك رسولُ الله ﷺ.

فأخذه، وجاء به إلى النبيّ ﷺ، فقال: ما هذا يا رسول الله؟

قال: قَسمٌ قسَمتُه لك.

قال: ما على هذا اتَّبعتُك، ولكنِ اتَّبعتُك على أن أرمى هاهنا، وأشار إلى حلقِه، بسهمٍ فأموتَ، فأدخلَ الجنّة.

فقال له النبيّ ﷺ: إن تَصدقِ اللهَ يَصدُقك.

ثمّ نهض إلى قتالِ العدوّ، فأُتي به إلى النبيّ ﷺ وهو مقتولٌ، فقال: أهو هو؟

قالوا: نعم.

قال: صَدَقَ اللهَ فَصدَقَه.

فكفّنه النبيّ ﷺ في جُبّتِه، ثمّ قدّمه، فصلّى عليه، وكان من دعائِه له: اللهمّ هذا عبدُك خرجَ مهاجرًا في سبيلِك، قُتِلَ شهيدًا، وأنا عليه شهيدٌ!

وجاء عبدٌ أسودُ حبشيٌّ من أهلِ خيبرَ كان في غنمٍ لسيّده، فلمّا رأى أهلَ خيبرَ قد أخذوا السّلاح، سألهم: ما تريدون؟

قالوا: نُقاتلُ هذا الّذي يَزعُمُ أنّه نبيّ.

فوقعَ في نفسِه ذِكرُ النبيّ، فأقبلَ بغنمِه إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو إليه؟

قال: أدعو إلى الإسلامِ، وأن تشهدَ أن لا إلهَ إلّا الله، وأنّي رسولُ الله، وألّا تعبدَ إلّا الله.

قال: فما لي إن شهدتُ وآمنتُ بالله؟

قال: لكَ الجنّة إنْ مِتَّ على ذلك.

فأسلمَ، ثمّ قال: يا نبيّ الله، إنّ هذه الغنمَ عندي أمانةٌ.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: أخرجها من عندك وارمها بالحصباء، فإنّ الله سيؤدّي عنك أمانتك.

ففعل، فرجعتِ الغنمُ إلى سيّدِها، فعلمَ اليهوديُّ أنّ غلامه قد أسلم.

وقام رسولُ اللهِ ﷺ في النّاس، فوعظهم، وحضّهم على الجهاد. فلمّا التقى المسلمونَ واليهودُ قُتِلَ فيمَن قُتِلَ العبدُ الأسود، واحتمله المسلمون إلى معسكرِهم.

فنظرَ رسولُ اللهِ ﷺ إليه، ثمّ أقبلَ على أصحابِه، وقال: لقد أكرمَ اللهُ هذا العبدَ، وساقَه إلى خيبرَ، ولقد رأيتُ عندَ رأسِه اثنتينِ من الحورِ العينِ، ولم يُصَلِّ للهِ سَجدةً قطّ!

وكان في جيشِ المسلمينَ بخيبرَ رجلٌ لا يدعُ للمشركينَ شاذّةً ولا فاذّةً إلّا اتّبعَها يضرِبُها بسيفِه، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: أمَا إنّه من أهلِ النّار.

فقالوا: أيُّنا من أهلِ الجنّة إنْ كان هذا من أهلِ النّار؟

فقال رجلٌ: واللهِ لا يموتُ على هذه الحالِ أبدًا.

فاتّبعَه حتّى جُرِح، فاشتدّت جِراحتُه، واستعجلَ الموتَ، فوضعَ سيفَهُ بالأرضِ وذُبابَه بينَ ثدييه، ثمّ تحامَلَ عليه فقتلَ نفسَه.

فجاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: أشهدُ إنّك رسولُ الله.

قال: وما ذاك؟

فأخبرَه، فقال النبيُّ ﷺ: إنّ الرّجلَ ليعملُ بعملِ أهلِ الجنّة فيما يبدو للنّاس، وإنّه من أهلِ النّار، وإنّه ليعملُ بعملِ أهلِ النّار فيما يبدو للنّاس، وإنّه لمن أهلِ الجنّة.

وقَدِمَ جَعفرُ بنُ أبي طالِبٍ وصَحْبُه من مُهاجِري الحَبشَةِ على رسولِ اللهِ ﷺ يومَ فتحِ خيبرَ، فقبّلَهُ رسولُ اللهِ ﷺ بينَ عَينَيهِ، والتزمَه، وقال: ما أدري بأيّهما أنا أسَرُّ، بفتحِ خيبرَ، أم بقدومِ جعفر.

ولمّا فُتِحَتْ خيبر، وسكنتِ الأرضُ بعد ضجيجِ السيوف، وألقت الحربُ أوزارَها، ظنّ بعضُ القلوبِ أنّ الحسابَ قد انتهى، وأنّ العداوة وضعتْ آخر أنفاسِها... لكنّ الحِقدَ لا يعرفُ الهُدنة، ولا يُسلِّمُ بسهولة.

قُدِّمَ للنبيّ ﷺ شاةٌ مَشويّة، ظاهرُها الإكرامُ وباطنُها الغدر، أعدّتها امرأةٌ يهوديّة، وقد سألت من قبلُ عن أحبّ اللحمِ إليه ﷺ، فدلّوها على الذّراع، فوضعتِ السُّمَّ حيثُ يلتقي الحبُّ بالجوع، وحيثُ يطمئنُّ الإنسانُ إذا اطمأنّ.

أخذَ النبيُّ ﷺ لقمةً، فما إنْ مضغَها حتى قال: «إنّ هذا العظمَ ليُخبرُني أنّه مسموم».

لفظَها، ونجّا اللهُ نبيَّه، غيرَ أنّ بِشرَ بنَ البراءِ رضي الله عنه ، كان قد ابتلعَ لُقمتَه، فماتَ شهيدًا بالسُّمّ.

جيءَ بالمرأة، فلم تُنكر، ولم تُراوغ، قالت ببرودٍ يليقُ بالقلوبِ الميّتة: أردتُ أن أقتلك، فإنْ كنتَ نبيًا فلن يضرّك، وإنْ كنتَ مَلِكًا استرحنا منك!

وهنا تجلّى الفارقُ الهائلُ بين منطقِ السُّمّ ومنطقِ النبوّة؛ لم ينتقمْ ﷺ لنفسِه، ولم يَثأرْ لذاته، بل عفا عنها أوّلًا، ثمّ لمّا ماتَ بِشرٌ رضي الله عنه ، أُقيمَ الحدُّ لا انتقامًا، بل عدلًا.

وظلّ أثرُ ذلك السُّمّ يسري في جسدِه الشريف، لا كضعفٍ، بل كشهادةٍ مؤجّلة، حتى قال في مرضِ موتِه ﷺ: «ما زلتُ أجدُ من الأكلةِ التي أكلتُ بخيبر، فهذا أوانُ وجدتُ انقطاعَ أبهري».

هكذا مضى ﷺ، نبيًّا جُرِحَ ولم يَقسُ، وسُمَّ ولم يَغدر، وأوذيَ فلم يَنتقم، ليبقى درسُ خيبر خالدًا:

أنّ النبوّةَ تُواجِهُ السُّمَّ بالصِّدق، والغدرَ بالعفو، والحقدَ بالعدل.

ولأنّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروسِ المُستفادة من فتح خيبر:

1 ـ أنّ الخطرَ الفِكْريّ والأمنيّ لا يُواجهُ عند لحظته، بل عند جذوره، فخيبرُ لم تُحارَب لأنها حصونٌ، بل لأنها صارت مركزًا يُعيدُ إنتاج الخيانة، ويُموِّلها، ويُخطِّط لها، ويبحثُ لها عن شركاء. وهذا يُعلِّم أنّ علاج المشكلة يبدأ قبل انفجارها، لا بعده.

2 ـ أنّ تركَ أهلِ الغدر يُعيدون تنظيم أنفسهم، خطأٌ استراتيجيّ قاتل. ما فعله زعماءُ بني النضير في خيبر يوضِّح قاعدة: المهزومُ إذا لم تُغلق أمامه منافذُ النفوذ، عاد من بابٍ آخر أشدّ خطرًا.

3 ـ أنّ القيادة الحكيمة تلتقط لحظات الضعف السياسي وتحوِّلها إلى فرصٍ إصلاحيّة، فبعد الحديبية هدأت جبهة قريش، فاستثمرها النبيّ ﷺ لإغلاق جبهة خيبر. هذا درسٌ سياسيٌّ خالص: زمنُ الهدوء ليس للنوم، بل لترميم الثغرات.

4 ـ أنّ الحماسةَ إذا لم تُضبط تصبح عائقًا عن الرشد، حين قال ﷺ: «اِرْبَعُوا على أنْفُسِكُم»، كان يؤسّس لمبدأ: الانتصار يحتاج وعيًا لا ضوضاء، وطمأنينةً لا انفلاتًا.

5 ـ أنّ المعلومةَ الدقيقة قد تمنح النصر قبل بدء المعركة، سريّةُ عبّادِ بنِ بِشرَ، وتحقيقُه مع عينِ اليهود، تبرهن أنّ جمع المعلومات ليس تفصيلًا عسكريًا، بل هو أساس القرار. لقد انتصرت «المعلومة» قبل أنْ ينتصر «السيف».

6 ـ أنّ الخوفَ الداخلي أخطرُ من سلاحِ الخصم، اعترافُ عينِ اليهود بارتعابِ قومِه رغم كثرة طعامهم وسلاحهم، درسٌ عميق: النفسُ المهزومة لا تمنح حصنًا منعة، ولو كان مبنيًا بالحجارة.

7 ـ أنّ صلاحَ الجنود يبدأ من صلاح المبادئ التي يحملونها، لذلك لم يُباشر النبيّ ﷺ توزيع الخطط قبل إصلاح المقاصد؛ فذكّر بدعاء دخول القرية، وعلّم معنى التوكّل، وغرس الطمأنينة في القلوب.

8 ـ أنّ ترتيبَ الأولويات بين «الفكرة» و«المعركة» ضرورةٌ لا ترف، قصةُ

الأعرابي الذي جاء للنبي ﷺ يريد الهجرة، فبين له معنى الإسلام قبل أن يبيّن له دوره في القتال، تقول: هويّةُ الجنديّ أهمّ من سيفه.

9 ـ أنّ قيمةَ الإنسانِ تُقاس بوضوحِ هدفِه لا بطولِ تاريخه. الأعرابيّ الذي استشهد من أول يومٍ، وقد سبقه آخرون بسنوات، دليلٌ على أنّ اللحظة الصادقة قد تتقدّم على أعمارٍ طويلة من العمل المضطرب.

10 ـ أنّ الموتَ في الطريق الصحيح فوزٌ، وإن قلّت فيه الأعمال، قولُ النبي ﷺ عن الأعرابي: «صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ»، يعلّم أنّ الخلاصة ليست كمْ فعلْت، بل لِمَ فعلْت، وبأيّ قلبٍ فعلْت.

11 ـ أنّ الأمانةَ لا يرفعها مقامٌ ولا يُسقِطها ظرف. قصةُ العبدِ الحَبشي الذي ردّ غنمَه إلى سيّده اليهوديّ قبل دخوله الإسلام، تُظهر أنّ الأمانة امتحانٌ حقيقيّ، لا يتعلّق بالحرب ولا السّلم.

12 ـ أنّ الهِداية قد تُكتب لإنسانٍ من موقفٍ واحد إذا صحّت نيّته. ذلك العبدُ الذي لم يُصلِّ للهِ سَجدةً واحدة، ثمّ صار من أهل الجنّة، يجعلنا نفهم: اللهُ ينظر إلى صفاء القلب أكثر مما ينظر إلى طول الطريق.

13 ـ أنّ البطولةَ الظاهرة قد تخفي خللًا عميقًا في الداخل. الرجلُ الذي قاتل قتالًا شديدًا ثمّ ألقى بنفسه هاربًا من ألَمِه، درسٌ مرّ: القوّة الخارجية بلا صبرٍ داخلي قشرةٌ تلمع قبل أن تسقط.

14 ـ أنّ الإعجابَ بأداء النّاس ليس معيارًا لمعرفة حقيقتهم. قولُ النبي ﷺ: «إِنَّهُ مِن أَهْلِ النَّارِ»، يُرسّخ أنّ الأعمال تُوزَن بميزان السّماء لا بميزان التصفيق.

15 ـ أنّ إصلاح النوايا يحتاج تذكيرًا دائمًا، ولو في قلب المعركة. خطبُ النبي ﷺ لأصحابه، وتأكيده على الإخلاص، وبراءته ممّن يقاتل رياءً، تبيّن أنّ القائد لا يترك نفسًا بلا تهذيب.

16 ـ أنّ القوّة إذا لم تُؤطّر بمعيارٍ أخلاقي صارت خطرًا جديدًا، وصيّةُ

النبي ﷺ لعلي: «أدعُهم قبل أن تقاتِلهم»، تُثبت أنّ السيف لا يُرفع قبل تمام الحجّة.

17 ـ أنّ المعركةَ تبدأ بالدعوة قبل السيف، وبالحجة قبل الضربة. إلزامُ عليٍّ بعرض الإسلام قبل القتال يثبت أنّ الإسلام ليس حربًا تُفرض، بل حقٌّ يُعرَض، فإن رُفض، كان القتال إجراءً لحماية البيئة لا غايةً ذاتية.

18 ـ أنّ أخطر ما يصيب الأمم أن تعيش على «انطباعات» بدل أن تعيش على «حقائق»، اليهودُ ظنّوا أن حصونهم تمنعهم، وأنّ كثرة طعامهم تطيل صمودهم، لكنّ الخوفَ ابتلع قوّتهم ابتلاعًا.

19 ـ أنّ الصبر لا يعني الانتظار السلبي، بل يعني الثبات مع إدارة حكيمة، طول حصار بعض الحصون لم يكن دليلَ ضعف، بل دليلَ وعي: كثيرٌ من الملفات تحتاج وقتًا لتُحسم، لا اندفاعًا يُفسد النتيجة.

20 ـ أنّ الإنسان لا يُعرَف عند الرخاء، بل عند ضيق الخيارات، ولذلك ظهر معدن الصحابة الحقيقيّ عند ناعمٍ والقموص، حين اجتمع الجهدُ والجوعُ، وبقي الثبات أصلب من الحاجة.

21 ـ أنّ التقدّم خطوة صغيرة صحيحة خيرٌ من القفز خطواتٍ فوضويّة، فتحُ الحصون واحدًا بعد آخر، بدقّة ومرحليّة، درسٌ في إدارة المشاريع: ليس المهمّ السرعة، بل الإحكام.

22 ـ أنّ انتصار الفرد قد يصنع تحوّلًا جماعيًا، مبارزةُ عليٍّ لمرحب لم تكن موقفًا فرديًا، بل لحظةٌ غيّرت ميزان الصفّين.

23 ـ أنّ القائد يجب أن يُظهر قوّته حين يحتاج النّاس الثبات، ورحمته حين تهدأ الفتنة، قول النبي ﷺ: «خَرِبَتْ خَيبَرُ» كان رسالةَ قوّة، ومصالحته لهم بعد الفتح كانت رسالةَ رحمة، والقيادة مزيجٌ من الاثنين.

24 ـ أنّ إدارة الموارد بعد النصر اختبارٌ أخلاقيّ كبير، إبقاءُ اليهود على الأرض، وأخذ نصف الثمر، نموذجٌ لاقتصادٍ يحفظ المصلحة ويمنع الفوضى.

25 ـ أنّ أعظم ما في خيبر أنها علّمت الأمة كيف تُميز بين الحرب الواجبة... والحرب العابثة.

خيبر لم تكن توسعًا، ولا عدواً يُراد سحقُه، بل كانت ضرورةً لحماية المدينة.

وهذا يمنحنا ميزانًا خالدًا:

الحربُ التي تُصان بها حياة النّاس وحقوقهم... عدل.

والحربُ التي تُشعلها الأهواء... ظلم.

26 ـ أنّ الأمن لا يتحقق بإسكات الخطر، بل بمنع ظهوره من جديد، مصالحات وادي القرى وتيماء تُظهر أنّ تأمين الجبهة لا يعتمد على القوة وحدها، بل على إدارة الأطراف المتوترة إدارةً حكيمة.

27 ـ أنّ النصر الذي يُخلّف وراءه حقدًا نصرٌ ناقص، أما النصرُ الذي يخلّف استقرارًا فهو نصرٌ مكتمل؛ لأنّه ينزع بذور الفتنة من جذورها.

28 ـ أنّ القيم العسكرية لا تُغني عن القيم الإنسانية، فإحسان النبي ﷺ في المعاملة بعد الفتح كان مكمّلًا للقوّة العسكرية قبله، فالعمران لا يقوم بالسيف وحده.

29 ـ أنّ كلّ مجتمعٍ يملك «خيبره» الخاصّة به، مركزُ خطرٍ صغير، إن تُرك تمدّد... وإن أُهمل تحالف... وإن تُسامح معه تجرّأ...

والحكمة أن تُعالَج المراكز التي تُنتج الأزمة لا مظاهر الأزمة!

30 ـ أنّ خيبر تُعلّمنا أن الحرب الواجبة هي التي تُدافِع عن حقّ، لا التي تُخاض لهوى، بهذا الميزان يعرف النّاس الحروب العادلة من الحروب العبثية، وبذلك تُقاس شرعيّة السعي العسكري في كل زمان.

عُمرةُ القَضاء!

النَّبيُّ ﷺ والصَّحابةُ في مكَّة!

في المَدينةِ قامَ النَّبيُّ ﷺ، وقامت مَعهُ قُلوبٌ تَتوقُ إلى البيت العتيق توقَ الظَّمآنِ إلى أوَّلِ قَطرةٍ مِن ماءٍ. سَنةٌ كامِلةٌ مَرّت بعدَ الحُدَيبِية، سنةٌ كانت أطوَلَ مِن العُمرِ نَفسِه، لأنَّ الشَّوقَ إذا طالَ صارَ دَهراً.

خَرَجوا لا يَجُرّون وراءهُم غُبارَ حَربٍ، بل يَسوقُهم وَعدٌ سَماوِيٌّ نُقِش في أعماقِهم: أنْ يَعودوا إلى مكَّة مُعتَمِرينَ لا مُقاتِلين، وأنْ يُرِيَ اللهُ العالَمَ كُلَّهُ أنَّ السُّيوفَ لَيست الطَّريقَ الوَحيدَ إلى الفَتحِ، وأنَّ القُلوبَ العامِرَةَ باليَقينِ تَفتَحُ ما لا تَفتَحُهُ الجُيوش.

كانَ الطَّريقُ إلى مكَّة أحَدَّ مِن الشُّعورِ، وأرهَفَ مِن الذّاكرَةِ؛ تَسيرُ الإبِلُ على الرَّملِ، ويَسيرُ الحَنينُ على الأرواحِ.

كُلُّ خُطوَةٍ تَرفَعُ غُباراً يُشبِهُ دَمعاً خَفِيّاً، وكُلُّ أنينِ رَحلٍ يُذكِّرُهم بِمَرارَةِ العامِ الماضِي حين صُدّوا عن الحَرَمِ. ومعَ ذلك، كانَ الإيمانُ في صُدورِهم أقوى مِن أن يَنهَزِمَ، وأكبَرَ مِن أن يَضيقَهُ الزَّمنُ.

وحينَ لاحَت مكَّة مِن بَعيدٍ، ارتَجَفَتِ القُلوبُ ارتِجافَ طائِرٍ عادَ إلى عُشِّهِ بعدَ ضَياعٍ طَويلٍ؛

وبَدا البَيتُ الحَرامُ كأنَّهُ يَفتَحُ ذِراعَيهِ لاستِقبالِ أبناءٍ طالَ فِراقُهم، وبَدا الهَواءُ نَفسُهُ يَتَطَيَّبُ بِذِكرٍ لا يُنسَى.

دَخَلَ النَّبيُّ ﷺ وصَحبُهُ في صَمتٍ مَهيبٍ، لَيسَ صَمتَ الضَّعفِ، بل صَمتَ مَن يَعرِفُ أنَّ النَّصرَ حين يَتنَزَّلُ بلا قِتالٍ يَكونُ أبهى، وأعمَقَ، وأشَدَّ بَقاءً.

كانَت مكَّة تَنظُرُ إليهم، وكانَ التاريخُ يُصغي، وكانَتِ الكَعبةُ تَشهَدُ أنَّ القُوَّةَ لَيسَت في الحَديدِ، بل في الثَّباتِ، والصَّبرِ، ووَعدٍ لا يُخلِفُهُ اللهُ.

تِلكَ هي عُمرَةُ القَضاءِ، عِطرُ صَبرٍ امتَدَّ عاماً كامِلاً، وفَتحٌ جاءَ على هَيئَةِ

خشوع، وعودةٌ تُعلِمُ الدُّنيا أنَّ الطَّريقَ إلى الحقِّ قد يتأخر، لكنه لا يضيعُ أبداً.

وتلك حكايتُها موجزةً، فإليك التَّفاصيل:

لما رجع رسولُ اللهِ ﷺ من الحديبية، وقد كُتب بينه وبين قريش صلحٌ اشتمل على شروطٍ ثقيلةٍ في أعين طائفةٍ من الصحابة، بقي في قلوب المؤمنين يقينٌ أن ما وعد اللهُ به رسولَه سيتم لا محالة. فلمّا دخل العام الذي يلي الحديبية خرج رسولُ الله ﷺ في ألفٍ وأربعِ مئةٍ من الصحابة لعمرة القضاء، تماماً لما اشترط عليه في السنة التي مضت.

وبلغ قريشاً خبرُ خروج المسلمين، فخرج أكابرهم من البلد، ونزلوا فوق الثنيّات ينظرون من علٍ، يتفقدون حال القوم الذين أُشيع أنهم أُضعفوا بالحمّى في المدينة. فلمّا اقترب المسلمون ودخلوا المسجد، أمر رسولُ الله ﷺ أصحابه فقال: ارملوا في الثلاثةِ الأشواطِ الأُوَل!

وكان القصد أن ترى هذه الحركةُ قريشاً أن الوهن الذي تحدثوا به لا أصل له. فرمل الصحابةُ يتحركون حركة القوم الأقوياء حتّى قال بعض المشركين: هؤلاء أقوى مما بلغنا!

وفيما هم يطوفون بالبيت، كان عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ رضي الله عنه يمشي بين يدي رسولِ الله ﷺ، ينشد من شعره:

خلّوا بني الكفار عن سبيله

اليوم نضربكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله

ويذهل الخليل عن خليله

فلمّا سمع عمرُ رضي الله عنه ذلك قال لابن رواحة: يا ابنَ رواحة! بين يدي رسول الله ﷺ وفي مكانٍ محرّمٍ تقول الشعر؟!

فأراد أن ينهاه، فقال النبي ﷺ: خَلِّ عنه يا عمر، فلهي أسرعُ فيهم من نضحِ النبل!

فكانت كلمته ﷺ دليلاً على فقه مواضع الكلمة، وأن بعض الشعر في موضعه سهمٌ نافذ.

وبينما المسلمون يقيمون مناسك العمرة في الأيام الثلاثة التي نُصّ عليها في الصلح، جِيء بأمامة بنتِ حمزة رضي الله عنه ، يتنازع القوم في كفالتها!

فعليٌ يقول: ابنةُ عمي!

وزاد جعفرٌ: ابنةُ عمي، وخالتها تحتي!

وقال زيدٌ: ابنةُ أخي، وقد كان أوصاني بها!

فحكم النبي ﷺ حكماً عادلاً جامعاً فقال: الخالةُ بمنزلةِ الأم!

فقضى بها لجعفر، وأرضى القلوب كلها بكلمة واحدة.

ولما انقضت الأيام الثلاثة، بعثت قريش إلى رسولِ الله ﷺ أن يخرج عنهم، فأمر أصحابه بذلك، فخرجوا كما دخلوا، آمنين مطمئنين.

وفي طريق العودة تزوّج رسولُ الله ﷺ ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها، وكانت من خيار نساء قريش، فصار زواجه منها رباطاً آخر يصل ما بينه وبين أهل مكّة قبل الفتح الأعظم.

وهكذا تمت عمرةُ القضاء، فما كانت عمرةً فقط، بل إعلاناً لقوة المؤمنين، ودلالةً على أن الطريق الذي مُنعوا منه أمس، سيمشون فيه غداً، لأن الله إذا وعد لم يُخلف وعده، ولأن الفتح قد يسبقه صلحٌ، لكنه لا يتأخر عن قلبٍ يوقن.

ولأنّ السّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروس المُستفادةِ من عُمرةِ القَضاءِ:

1 ـ وَعْدُ اللهِ لا يَتَخَلَّفُ، عُمرَةُ القَضاءِ كانت الدليلَ الواضح على أن ما وَعَدَ اللهُ به يتحققُ ولوِ اعترضته قُوَى الأرض كلّها. فالمسلمون رأوا المنعَ بأعينهم في الحديبية، لكنّهم رأوا الإذنَ بعد عامٍ بقلوبٍ تَعرِفُ أن التأخيرَ ليس إنكاراً، بل ترتيبٌ لفتحٍ أعظم، ودَرْسٌ يَعيشُ في الوجدان.

2 ـ الصّبرُ جِسرُ الفتحِ، لم يكن العامُ بين الحديبيةِ وعمرةِ القضاءِ سنةَ رُكود، بل سنةَ إعدادٍ للنصر، تذوّق فيها المؤمنون مرارةَ الانتظار حتّى تنضجَ في نفوسهم حكمةُ الفتح. فالصبرُ لم يكن تحمّلاً سلبياً، بل تهيئةٌ للروح كي تستقبلَ الزيادةَ التي يمنحها اللهُ للصابرين.

3 ـ السِّلْمُ إذا جاءَ مِن مقامِ القوّةِ كان أبلغَ مِن السّيفِ، لقد دخل المسلمون مكّةَ آمنين، لا خائفين، وكان هذا الأمنُ هو أعظمَ رسالة. فالسّلمُ حين يَصدُر عن قوّةٍ تملك القتال لكنها تختاره هدايةً وتواضعاً، يكون أوقعَ في القلوب من ألفِ نزال. ولهذا اضطربتْ قريشٌ وهي ترى المسلمين بلا حربٍ ومع ذلك منتصرين.

4 ـ الوفاءُ بالعقودِ خُلُقُ الرجالِ، التزم النبيُّ ﷺ بالشروط كاملةً رغم قسوتها، وأظهر للأمّة أن الثباتَ على العهد ليس ضعفاً، بل قوةٌ تَنهض صاحبَها إلى مكانةٍ أخلاقيةٍ تعلو على مكانة السيف. وهكذا تعلّم المسلمون أن الوفاءَ يرفعُ صاحبَه حتّى في نظر أعدائه.

5 ـ الحكمةُ في إدارةِ الصراعِ أعظمُ مِن حماسِ السيفِ، فالحربُ تحتاجُ شجاعة، لكن السّلم يحتاجُ بصيرة. وصبرُ النبيِّ ﷺ على صلحِ الحديبية، ثمّ التزامه بموعد العمرة، كشف أن الانتصارَ الأكبر هو ضبطُ ردودِ الأفعال، واختيارُ الوقتِ المناسب للخطوةِ المناسبة، وأن الحماسةَ وحدها لا تصنعُ النصر.

6 ـ الإظهارُ المدروسُ للقوّةِ سياسةٌ مؤثّرة، حين أمر النبيُّ ﷺ أصحابَهُ بالرمل في الطواف، كان يعلم أنّ الصورةَ قد تكون أبلغَ من البيان. لقد أراد أن يرى المشركون قوّةً في مشهدٍ عباديّ، فيدركوا أنّ المسلمين لم تضعفهم

الخفي ولا الصدّ، وأن جسدَ الأمة أقوى من أن ينكسر.

7 ـ القوةُ الحقيقيةُ في الانضباط لا في العدد. لم تكن عمرةُ القضاء استعراضاً عددياً، بل درساً في الانضباط العظيم؛ صفوفٌ تسير كأنها جسدٌ واحد، لا يلتفتُ أحدٌ منهم إلى الاستفزاز، ولا يتجاوزون حدود العهد. وهذا الانضباطُ كان أقوى من أي جيشٍ يملأ الطرقات.

8 ـ العبادةُ تُهذِّبُ السياسةَ. دخل النبيُّ ﷺ مكّة عابداً قبل أن يكون قائداً، وأدّى المناسك بخشوعٍ يعلّم أنّ الروحانيةَ ليست نقيضَ السياسة، بل قوتها الخفية. فالرجلُ الذي يقف بين يدي الله بصدق، يقف أمام البشر بثباتٍ لا تُزعزعه رياحُ المصالح.

9 ـ الهويةُ الإيمانيةُ أثبتُ من الضغوطِ كلّها. رغم نظراتِ قريش الحادّة، لم يُغيّر المسلمون هيئةً ولا نُسكاً، بل أدّوا العبادة كما أمر الله. وهذا الثباتُ على الشعائر وسط العيون الراصدة يعلّم أنّ الهويةَ التي لا تصمد في لحظات الضغط ليست هوية، وأن العبادةَ في المحنة أصدقُ منها في الرخاء.

10 ـ الحكمةُ في توجيهِ الانفعالاتِ واستثمارها. موقفُ عمرَ رضي الله عنه مع عبدِ اللهِ بنِ رواحة، حين أراد أن يمنعه من قول الشعر، ثمّ قولُ النبيِّ ﷺ: «خَلِّ عنه، فَلَهِي أسرعُ فيهم من نضحِ النبل»، يكشف جانباً بديعاً من فقهِ النفس عند القائد. فليس المطلوبُ دائماً إخمادَ الانفعال أوْ إسكاتَ الكلمةِ الحارّة، بل توجيهُها في الطريق الذي يخدمُ الحق. لقد رأى عمرُ المشهدَ بعين التحفّظ، ورآه النبيُّ ﷺ بعين البصيرة؛ فعرف أن حرارةَ الشعر في تلك اللحظة أبلغُ أثراً في قلوب المشركين من وقعِ السهام، وأن الكلمةَ إذا صدرت من قلبٍ صادقٍ في موضعها، كانت سهماً نافذاً في ميدان الدعوة لا يقلّ خطراً عن السّلاح في ميدان القتال.

11 ـ المعاهداتُ ليست هزيمةً دائماً. صلحُ الحديبية بدا لبعض الصحابةِ تواضعاً، لكنه كان في الحقيقة طريقاً إلى فتح مكّة. وهكذا تعلّمت الأمةُ أنّ بعض الاتفاقيات ليست تراجعاً، بل خطوةً إلى الأمام تخفي وراءها نصراً

ينتظر وقته.

12 ـ التواضعُ في لحظة النصر يرفعُ الهيبة لا ينقصها. دخل النبيُ ﷺ مكّة متواضعاً، لا شامخاً بكِبر، فأظهر أن المنتصرَ الحق هو من يحفظُ نقاء قلبه بعد النصر. فالهيبةُ التي تصنعُها الأخلاقُ تدوم، أمّا التي يصنعُها العناد فتزولُ سريعاً.

13 ـ أن النصرَ يتدرّجُ، لم يتحقق الفتحُ دفعةً واحدة، بل على مراحل تتوالى كحلقاتٍ من النور: صدّ، ثمّ صلح، ثمّ عمرة، ثمّ فتحٌ كامل. وهذا التدرّجُ يعلّم أن الله يُديرُ الأمورَ برحمة، وأن كلّ خطوةٍ تُهيّئ لما بعدها وإن لم يره النّاس حينها.

14 ـ المشاهدُ الإيمانيةُ تُغيّرُ صورَ السياسة، لم يكن الطوافُ حول الكعبةِ فعلاً عبادياً فحسب، بل خطاباً صامتاً للعالم: هكذا يكونُ المؤمنون حين يعبدون ربّهم بصدق. تلك الصورةُ غيّرت نظرةَ قريش أكثر من الحروب، فالقلوبُ تُفتحُ أحياناً بما تراه، لا بما تُكره عليه.

15 ـ ثباتُ القلوبِ يغيّرُ مسارَ التاريخ، ما كان فتحُ مكّة ليحدث لولا ثباتُ المؤمنين في عمرةِ القضاء؛ فقد رأوا الخشوعَ والقوةَ معاً، فعرفوا أن هذا الدين لا يُقهر، وأن الرسالةَ التي تزرعُ الثبات في الأرواح لا بد أن تنتصر في النهاية.

16 ـ الوحدةُ أعظمُ سرٍّ للهيبة، لم يظهر من الصحابة خلافٌ ولا اضطراب، وكانوا في مكّة كما كانوا في المدينة: قلباً واحداً. والوحدةُ حين تُرى من العدو تتحوّلُ إلى قوةٍ سياسية وروحيةٍ لا يمكن كسرُها.

17 ـ المبادئُ تُقوّي السلطة، التزامُ النبيّ ﷺ بالعهد رفع مكانته حتّى في نظر قريش، ولو لم يعلنوا ذلك. فالعدوُّ نفسه يحترم خصماً يَثبتُ على مبادئه، ويزداد يقينُه بأن قوةَ المسلمين ليست سيفاً فحسب، بل قيماً لا تتغيّر.

18 ـ المكانُ الحرامُ يتهذّبُ فيه الطبع، رغم جراح الماضي، دخل المسلمون

مكة بقلوبٍ فيها سكينةُ المكان، لا غضب الانتقام. فالحرمُ يُطفئُ شرارةَ الغضب حتى في قلب الشجاع، ويذكّر الناس أنّ الأرض التي جعلها الله آمنة لا تُدنّسها نزعاتُ الثأر.

19 ـ العبادةُ امتحانٌ لنفسِ المؤمن، أن تطوف أمام عدوك بثبات، وأن تعبد ربّك تحت أعينٍ من يكرهك، امتحانٌ لا يثبت له إلا قلبٌ مملوءٌ باليقين. وهذا النوعُ من العبادة يرفعُ صاحبه درجاتٍ لا يصل إليها إلا من عرف قيمة الثبات.

20 ـ الرسالةُ إذا قويت، سقطتِ الحواجزُ قبل أن تسقط الجدران، عمرةُ القضاء لم تُسقط صنماً واحداً، لكنها أسقطت خوف قريش، وفتحت في قلوبهم ثغرةً دخل منها نورُ الحق. فحين تقوى الرسالة، تبدأ الهزيمةُ الحقيقيةُ للباطل قبل أن تقعَ الضربةُ الأولى!

غَزْوةُ مُؤتة!

أوّلُ مواجهةٍ معَ الإمبراطوريّات!

كانت غزوةُ مُؤتةَ من الأيّامِ الّتي شهدتْ فيها الأرضُ ميلادَ هيبةٍ جديدةٍ، كأنّ التّاريخَ انشقّ عن صفحةٍ من نورٍ ليُلقيها في قلبِ الزّمانِ. فتقومُ الدّولةُ النّبويّةُ، وهي بَعدُ في مَهدِها، كأنّها جبلٌ خرج من باطنِ الأرضِ على حينِ غفلةٍ، فيتجلّى معدنُها الصّافي، ويبدو الحقُّ فيها صغيرًا في عيونِ الخلقِ، عظيمًا في ميزانِ الخالقِ، حتّى صار قادرًا أن يُزاحمَ عروشًا طال قيامُها، ويثبُتَ في وَجهِ إمبراطوريّاتٍ خرّتْ لها الأممُ سُجدًا قرونًا.

وكان بَدءُ الأمرِ أن بَعثَ رسولُ اللهِ ﷺ الحارثَ بنَ عُميرٍ الأزديَّ، يحمِلُ رسالةً كُتِبتْ على نورٍ، ويَرفعُ دعوةً خرجَتْ من حضْرةِ النبوّةِ كما تخرجُ الأرواحُ مِن أجسادِ الطاهرينَ، رسالةُ سلامٍ لا تقِفُ عند حدودِ الأرضِ، بل تتجاوزُها إلى قلوبِ البشرِ. فإذا يدٌ غاشِمةٌ مِن الغساسِنةِ تمتدُّ إليه قتلاً، فكأنّما قتلت حُرمةَ الرسالةِ، وأطفأت سراجًا أُوقِدَ في مسجدِ السّماءِ، وكانت تلك الفِعلةُ إعلانًا بأنّ القوى الكُبرى قدِ استشعرَت أن هذا النورَ الصغيرَ آخذٌ في الامتدادِ، وأنّ الرسالةَ الّتي وُلدت في مكّةَ بدأت تُحرّكُ قلوبَ العالَمِ.

فاضطربتِ المدينةُ لِنَبأِ الحادثةِ، ولكن اضطرابَها كان اضطرابَ القلبِ الحيّ إذا مَسّهُ الألَمُ، لا اضطرابَ الضعيفِ إذا نَزلَ به الخَوفُ. وعَلِمَ الصحابةُ أنّ الجُرحَ لم يُصِبِ الحارثَ وحدَهُ، بل أصابَ حُرمةَ مقامٍ لا يَعلو عليه مقامٌ، وأنّ اليدَ التي امتدّت إلى رسولِ النبيّ ﷺ إنما امتدّت إلى ظِلّ اللهِ في أرضِهِ.

فقام النبيّ ﷺ في النّاسِ قيامًا لا يقومُهُ إلّا نبيّ، وجهُهُ يُشبهُ صفحةَ الفجرِ إذا صَدَعَ اللّيلَ، وصوتُهُ يَمشي في القلوبِ كما يَمشي القَدَرُ في الوَرَقِ، يُخبرُهم بالخبرِ، ويُعظّمُ شأنَهُ، ثمّ يَدعوهم إلى جيشٍ ليس جيشًا من الرجالِ فقط، بل جيشًا من اليقينِ، ومن العهدِ، ومن نورِ العقيدةِ. جيشًا ينهضُ ليَرُدّ عن الرسالةِ إهانةً لم يَسبقْ لها مثيلٌ، ويُعيدَ للدعوةِ هيبتَها في

عيون الأرض.

ثمّ سلّمهم الراية البيضاء، التي كانت في يد النبي ﷺ كأنها جناح من نورٍ انشقّ عن سحابةٍ، وجعل إمارتها لزيد بن حارثة، ثمّ لجعفر بن أبي طالب، ثمّ لِعبدِ الله بن رواحة؛ ثلاثةٌ لا يُختارون بالصُّدفة، بل اختارتهم السماء، كما تختار الملائكةُ مواضعَ سجودِها، رجالٌ ثبتت قلوبهم قبل أن تثبت أقدامهم، وأشرقت أرواحهم قبل أن ترتفع سيوفُهم. وكان هذا الترتيب وحدة كتابًا في الحِكمةِ، إذ علّم الأمةَ أنّ القيادة ليست جسدًا، بل روحٌ تتوارثها الأرواح، وأنّ الهدفَ يبقى ثابتًا ولو تغيّر الحاملُ واحدًا بعد واحدٍ.

ثمّ خرج الجيشُ من المدينةِ، يحمِلُ وصايا النبيّ ﷺ التي هي خلاصةُ الخلاصةِ:

ألّا تُغدِروا... ألّا تَظلِموا... ألّا تَقتُلوا امرأةً ولا وَليدًا... ألّا تمسّوا من لم يُقاتِلكم.

وصايا لو قِيلَت في مجلسٍ من مجالسِ الملوكِ لكانت دستورًا، ولو قِيلت في معركةٍ من معارِكِ الدُّنيا لكانت فرقًا بين الحقِّ والباطلِ. فكأنّ النبيّ ﷺ أراد أن يقولَ للعالَمين: "نحن لا نُقاتِلُ لِنَسودَ، بل لِنُقيمَ ميزانَ العَدلِ."

وسار الرجالُ يَشُقّون طريقَ الحِجازِ، حتّى بَلَغوا أرضَ مُؤتةَ، فارتسمَ أمامَهم مشهدٌ يَخلَعُ القلبَ: جُيوشٌ جَرّارةٌ، راياتٌ تعلوها هيبةُ الرومِ، وأصواتُ السّلاحِ كأنها زئيرُ الجبالِ. ومع ذلك لم تَضعُف في صدرٍ منهم خفقةٌ، كأنّ قلوبهم صُبّت من صخرٍ لا يَنكسِرُ، أو كأنّ جبريلَ عليه السلام مَرّ على صدورِهم فمَسَحها بِطُمأنينةٍ من عندِ اللهِ.

هناك في تلك السهولِ التي شهدت رقصةَ الرياحِ على حِرابِ الرومِ، وقف المسلمونَ وقفةً لا تُجارى، وقفوا وفي أرواحِهم نورٌ لو صُبّ في ليلِ الدُّنيا لَقَلَبَ سوادَهُ، وفي صدورِهم يقينٌ لو اقتسمته الجيوشُ لانهارَتْ صفوفُ الباطلِ قبل أن يلتقيَ السيفانِ.

وهكذا دخلت مُؤتةُ التاريخَ، لا كمعركةٍ فحسب، بل كآيةٍ من آياتِ اللهِ في

صبر المجاهدين، وكشهادةٍ أنّ الدولة الإسلامية لم تولد ضعيفة، ولا قامت على عددٍ أو عُدّةٍ، بل قامت على قلوبٍ صافية، وأرواح راضية، ونفوس إذا دُعيت إلى الله سبقت السيوف قبل أن ترتفع.

وكان سقوط زيدٍ وجعفرٍ وابن رواحة ليس سقوطًا بل صعودًا، ولا موتًا بل حياةً، وحين ارتفعت أرواحهم إلى السماء، ارتفعت الأمةُ معهم، حتى بدا وكأنّ مؤتة لم تكن معركةً بين جيشين، بل كانت لحظةً كتب الله فيها أنّ الحقّ إذا قام له رجالٌ صادقون، فلن تهزمهُ جيوشُ الأرض كلّها!

هذِهِ كانتِ الحِكايةُ بِرُؤوسِ أقلامِها، أمّا التاريخُ فلهُ تفاصيلهُ.

كانت غزوةُ مُؤتةَ أوّلَ لِقاءٍ بين المسلمينَ وقوّةٍ من قُوى الرّومِ، وسببُها أنّ رسولَ اللهِ ﷺ بَعثَ الحارثَ بنَ عُميرٍ الأزديّ بِكتابٍ إلى مَلِكِ بُصرى، فتعرّضَ له شُرَحبيلُ بنُ عمرو الغسّانيّ، وهو مِن عُمّالِ الرّومِ على تلك النّاحيةِ، فأوثقَهُ ثمّ قتلَهُ، ولم تكُنِ العربُ تفعلُ ذلك بِرُسُلِ الملوكِ، فشقَّ ذلك على النبيّ ﷺ، فندبَ النّاس إلى الخروجِ، فتجهّزوا، واجتمعَ منهم ثلاثةُ آلافٍ.

وأسندَ رسولُ اللهِ ﷺ إمارةَ الجيشِ إلى زَيدِ بنِ حارِثةَ، ثمّ قالَ: فإنْ أُصيبَ فجعفرُ بنُ أبي طالِبٍ، فإن أُصيبَ فعبدُ اللهِ بنُ رَواحةَ!

ثمّ أوصاهم فقالَ: أغزوا باسمِ اللهِ، قاتِلوا مَن كَفَرَ باللهِ، ولا تَغدِروا، ولا تَغُلّوا، ولا تَقتُلوا وَليدًا ولا امرأةً، ولا شيخًا فانِيًا، ولا تَهدِموا بناءً.

وخرجوا والنّاس يُشيّعونَهم، والنبيُّ ﷺ يَدعو لهم.

وسارَ الجيشُ حتّى نَزَلوا مَعانَ مِن أرضِ الشّامِ، فبلغهم أنّ هِرَقلَ قد نَزَلَ مآبَ في مائتي ألفٍ مِن الرّومِ ومَن تَبِعَهم مِن نَصارى العربِ، فلبثَ المسلمونَ ليلتَينِ يشاورونَ بعضَهم. وقالَ عبدُ اللهِ بنُ رَواحةَ: يا قومِ، واللهِ إنّ الّتي تكرهونَ لَهِيَ الّتي خَرَجتُم لها، وما نُقاتِلُ النّاس بعددٍ ولا عُدّةٍ، إنّما نقاتِلُهم بهذا الدّينِ الّذي أكرمَنا اللهُ به، فانطلقوا!

فمضَوا إلى مؤتة.

فلمّا التقى الجمعانِ هناك، حمل زيدٌ بالرّاية، فقاتل حتّى قُتل. ثمّ أخذها جَعفرُ بنُ أبي طالبٍ، فقاتلَ قتالًا شديدًا، فقُطعت يمينُه، فأخذ الرّاية بيساره، فقُطِعَتْ، فضمّها إلى صدرِهِ بعضُديْه حتّى استشهد. ثمّ أخذ الرّاية عبد الله بنُ رَواحةَ، فقاتلَ حتّى استشهد.

فلمّا قُتِلَ القادةُ الثّلاثةُ، اختلَفَ المسلمونَ مَن يتولّى الرّاية، فقال ثابتُ بنُ أقرمَ: يا مَعشرَ المسلمينَ، اصطَلِحوا على رجلٍ منكم!

فقالوا: أنت.

قالَ: ما أنا بفاعلٍ؛ هذا خالدُ بنُ الوليدِ، فأمِّروه!

فدفَعَها المسلمونَ إلى خالدٍ، وكانَ أعلَمَ القومِ بالحربِ، فأخذَ الرّايةَ، وجمعَ النّاس، ورتّبَ صفوفَهم، وقاتلَ قتالًا شديدًا.

ودخلَ خالدٌ في ذلك اليومِ في أشدِّ ما دخلَ فيه من القتالِ، فانكَسرَ في يدِهِ تِسعةُ أسيافٍ. ثمّ رأى أنّ بقاءَ المسلمينَ في مَوضِعِهم هَلَكةٌ، فبدّلَ الميمنةَ ميسرةً، وقدّمَ مَن كانَ وراءَهم، فظنّ الرّومُ أنّ مددًا قد جاءَ. ثمّ أخذَ بالانسحابِ المُنَظّمِ حتّى انحازَ بالنّاس سالمينَ.

وفي المدينةِ، والجيشُ ما يزالُ في أرضِ الشّامِ، صَعِدَ رسولُ اللهِ ﷺ المنبرَ، وجعلَ يُخبِرُ أصحابَه بما يجري في ساحةِ القتالِ، كأنّهُ يراهُ رأيَ العينِ. فقالَ ﷺ: أخذَ الرّايةَ زَيدٌ فأُصيبَ ورُفِعَ، ثمّ أخذَها جَعفرُ فأُصيبَ ورُفِعَ، ثمّ أخذَها ابنُ رَواحةَ فأُصيبَ ورُفِعَ!

فبكى المسلمونَ لبكاءِ النبيّ ﷺ.

ثمّ قالَ: ثمّ أخذَ الرّايةَ سَيفٌ مِن سُيوفِ اللهِ ففَتَحَ اللهُ عليه!

فلمّا قَدِمَ الجيشُ إلى المدينةِ، خرجَ النّاس يتلقّونَهم، فجعلَ بعضُهم يقولُ: يا فُرّارًا!

وهم لا يعلمون ما كانَ من شأنِ خالدٍ ومنْ معهُ.

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ليسوا بالفُرّارِ، ولكنّهُمُ الكُرّارُ إنْ شاءَ اللهُ!

ثمّ عزّى أهلَ الشهداءِ، ومسحَ رؤوسَ يتامى جعفرٍ، وقال: لقد عوّضَ جعفرَ جناحينِ يطيرُ بهما في الجنّةِ حيثُ يشاءُ!

وهكذا كانت مؤتةُ أوّلَ وقعةٍ التقى فيها المسلمونَ بالرّومِ، وأوّلَ يومٍ ظهر فيه سيفُ اللهِ المسلولُ، وكانت ممهّدةً لفتوحاتِ الشامِ واليرموكِ وما بعد ذلك مِن أيّامِ اللهِ.

ولأنّ السّيرةَ واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدّروسِ المستفادة من غزوةِ مؤتة:

1 ـ إنّ الدّولَةَ التي تُهينُ رُسُلَ غيرِها تُعلِنُ الحربَ على ذاتِها قبلَ غيرِها، فقتلُ الحارثِ بنِ عميرٍ لم يَكُنْ مجرّدَ اعتداءٍ على رجلٍ واحدٍ، بل كان هدمًا لعرفٍ دوليٍّ ثابتٍ عند العربِ والملوكِ. ومَن يَهدمْ حُرمةَ المراسلاتِ يَهدمْ آخِرَ جِسرٍ يَحولُ دونَ الحربِ، وكأنّ الغساسنةَ قالوا بفعلِهم إنّهم لا يَعترفونَ بحُرمةٍ ولا عَهدٍ، فجاءت مؤتةُ لِتُعيدَ الميزانَ إلى مَوضِعِه.

2 ـ أنّ للمبادئِ ثمنًا، وأنّ الدّولةَ التي لا تُدافِعُ عن رسالَتِها تَفقِدُ شرعيّتَها، فلم يُرسلِ النبيُّ ﷺ جيشًا انتقامًا لقتلِ رجلٍ، بل دِفاعًا عن مَقامِ الرّسالةِ الّتي جاءَ بها، ليقولَ للعالَمِ إنّ الأمّةَ التي تَسكُتُ عن إهانةِ مَبعوثِها تُهمِلُ أساسَ وُجودِها. ومن هُنا كان إرسالُ ثلاثةِ آلافٍ رسالةً صامِتةً: أنّ مبدأَ الأمّةِ أغلى مِن أرواحِها.

3 ـ إعدادُ القِيادةِ قبلَ القِتالِ جزءٌ مِن النّصرِ، فترتيبُ النبيِّ ﷺ أمراءَ الجيشِ على هذا النّحوِ كان درسًا في أنّ القِيادةَ لا تُترَكُ للصّدفةِ، وأنّ سقوطَ القائدِ الأوّلِ لا يَعني سقوطَ المعركةِ. إنّها وصيّةٌ بأنّ الجماعاتِ تَنتَصِرُ بالمَنهجِ لا بالأفرادِ.

4 ـ أنّ الحَربَ لا تُقاسُ بالعَددِ وإنّما بثَباتِ مَن يَحمِلُ الفِكرةَ، فالفَرقُ شاسِعٌ

بين جيشٍ كبيرٍ بلا رسالةٍ، وجيشٍ صغيرٍ يحملُ يقينًا. وثلاثةُ آلافٍ كانوا أمامَ قُوَّةٍ هائلةٍ، لكنَّهم لم يروا الكثرةَ إلّا امتحانًا لثباتهم.

5ـ شجاعةُ زَيدٍ وجَعفرٍ وابنِ رَواحةَ ليست بطولةً فرديَّةً، بل شاهدٌ على صِدقِ العقيدةِ، فكلٌّ منهم تقدَّمَ ليُكمِلَ رسالةَ من قبلَه، لا طلبًا لمجدٍ، بل لأنَّ الرّايةَ لا ينبغي أنْ تقعَ ما دامَ في الصّدورِ نفسٌ.

6ـ القِيادةُ الحقَّةُ لا تُطلَبُ، بل تُدفَعُ إلى صاحبِها دفْعًا، فخالدٌ لم يطلُبِ الإمْرَةَ، وإنَّما دُفِعَتْ إليهِ حينَ رأى النّاس أنَّهُ أصلحُهم للحربِ. وهذه علامةُ القائدِ الصادقِ.

7ـ الخِبرَةُ العسكَرِيَّةُ نِعمَةٌ تُساقُ لأهلِ الإيمانِ ولو كانوا حديثي عَهدٍ بالإسلامِ، فالفضلُ في مُؤتةَ لَم يَكُن لِطولِ الصُّحبةِ بقدرِ ما كان لِحكمةِ الرّأي. وقد يُؤتي اللهُ رَجلًا واحدًا مِن الفهمِ ما لا يُؤتي جَماعةً.

8ـ أنَّ المعرَكةَ لَيستْ دائمًا مَجالًا لِلقِتالِ، بل قد تكونُ مَجالًا لإنقاذِ الأُمَّةِ، فانسحابُ خالدٍ لَم يَكنْ تراجُعًا، بل حِفظًا لحياةِ الجيشِ. والبُطولةُ أحيانًا في تجنُّبِ الفَناءِ لا في الاقتحامِ.

9ـ تثبيتُ الصُّفوفِ عندَ الاضطرابِ أعظَمُ مِن تثبيتِ الرِّماحِ، فلو اضطربَ الجيشُ لحظةَ سقوطِ الأُمَراءِ لفَنيَ كلُّه. ولكنَّ الثّباتَ ساعةَ الصّدمةِ هو مِقياسُ القُوّةِ الحقيقيّةِ.

10ـ اللهُ يَرفَعُ أقوامًا بِصِدقِهِم، ولو لَم يكونوا مِن أوائلِ الدّاخلينَ في الإسلامِ، فخالدٌ كان حديثَ العهدِ بالإسلامِ، لكنَّ اللهَ رَفَعَهُ يوم مُؤتةَ فوقَ كثيرٍ ممّن سَبَقَهُ. والعِبرةُ بعمقِ الإيمانِ لا بِطولِه.

11ـ أنَّ الهَيبةَ الحقيقيَّةَ لَيسَتْ في السّيوفِ، بل في القُدرةِ على اتِّخاذِ القرارِ الصَّعبِ، فالانسحابُ المُنَظَّمُ الَّذي قامَ به خالدٌ كان أصعَبَ مِن القِتالِ نفسِهِ، لكنَّه كان الأبركَ للأُمّةِ.

12ـ أنَّ القائدَ العظيمَ يَرى ما لا يراهُ النّاس، فبدَّلَ خالدٌ مواقعَ الجيشِ

لِيزرعَ الوهمَ في صفوفِ الرّومِ، فأنقذ بذلك آلافًا من المسلمين.

13 ـ أنّ الأمّةَ تحتاجُ إلى العُيونِ اليقظةِ في الدّاخل كما تحتاجُ السّيوفَ في الخارجِ، فالنبيّ ﷺ في المدينةِ كان يُخبرُ النّاسَ وقائعَ المعركةِ حينَ تقعُ، ليُثبّتَ القلوبَ ويَجمعَ الصّفوفَ.

14 ـ النّاسُ قد يَلومونَ القادةَ قبلَ أنْ يَعرِفوا الحقيقةَ، فالذينَ استقبلوا الجيشَ بالترابِ ظنّوا أنّهم فرّوا، وما علِموا ما فعلَهُ خالدٌ ومَن معَهُ في ساحةِ الحربِ.

15 ـ كلامُ النبيّ ﷺ يَرُدُّ الأمورَ إلى نِصابِها، فلولا قولُهُ ﷺ: «بل هُمُ الكرّارُ» لظلَّ اللّومُ مُعلّقًا على الجيشِ. ويرفعُ الكَلِمُ أحيانًا ما لا يرفعهُ السّيفُ.

16 ـ أنّ البُكاءَ لا يُنافِي البُطولةَ، فالنبيّ ﷺ بَكى زيدًا وجعفرًا وابنَ رَواحةَ، ولم يَزِدهُ ذلك إلّا رِقّةً وثِقلًا في القيادةِ.

17 ـ أنّ الشّهادةَ لا تُنهي أثرَ صاحِبِها، بل تَبدَؤُهُ، فجعفرٌ ورفاقُهُ أضحَوا رموزًا للتّضحيةِ، وبقِيَ ذِكرُهُم على مدى العصورِ.

18 ـ أنّ أعظَمَ الانتصاراتِ ما كان بلا فَتحٍ أرضيّ، بل بفَتحِ المَعنى، ومُؤتةُ لم تُفتَحْ فيها مَدينةٌ، ولكنّها فَتحَت بابَ الصّراعِ مع الرّومِ، وبيّنت أنّ الأمّةَ قادرةٌ على الوقوفِ أمامَ أعتى القُوى.

19 ـ أنّ أوّلَ المواجهةِ مع الرّومِ كان امتحانًا لمعادنِ الرّجالِ، فمَن ثَبتَ يومَ مُؤتةَ ثَبتَ يومَ اليرموكِ وما بَعدَها. وكانت مُؤتةُ مِرآةً لِمستقبلِ الفُتوحِ.

20 ـ أنّ الأمّةَ التي تَصنعُ رِجالَ مُؤتةَ قادرةٌ على أنْ تَصنعَ دولتَها ولو وَقفَ العالَمُ كلُّهُ في وجهِها، فمُؤتةُ كانت شرارةَ الوعي بالقُوّةِ، ومِن بَعدِها تتابَعتِ الفُتوحُ حتّى تغيّرَ وَجهُ التّاريخِ.

غَزوةُ ذاتِ السّلاسل!

عائشةُ، ومن الرِّجالِ أبوها!

هَبّت نُذرُ الخطرِ من أقصى أطرافِ الجزيرة؛ فقد اضطربت ديارُ قضاعة عند تخومِ الشامِ، وتجمّعت بطونُها في حِلفٍ مُريبٍ، تتلمّسُ في حركةِ الرومِ ظلًّا تستندُ إليه، وتطلُّ على المدينةِ بعينٍ تحملُ ما يحملُ وجهُ اللّيلِ من غيبٍ وخفاءٍ.

وكانت الدولةُ النبويّةُ يومئذٍ تتقدّمُ في خطواتِها الأولى نحو رسمِ حدودِ وجودِها، تمسكُ بالأمنِ من أطرافِه، وتراقبُ كلَّ رعشةٍ تُثيرها القبائلُ على مقربةٍ من الشمالِ؛ فليس في تلك المرحلةِ أخطرُ من شرارةٍ قد تُشعلُ البابين معًا: بابِ العربِ، وبابِ الرومِ.

وفي هذا الجوِّ الملبّدِ، نظر النبيُّ ﷺ نظرةَ القائدِ الذي يرى ما وراءَ الآفاقِ، فبدا له أنّ الأمرَ ليس مناوشةً عابرةً، بل بوادرُ تحالفٍ إن تُرِكَ على حالِه فتح على المسلمينَ بابًا لا تُغلقه الأيامُ. فانتدب جيشًا صغيرًا لا ليثيرَ حربًا، بل ليطويَ فتيلَها قبل أن يشتعلَ، وليقطعَ الطريقَ على كلِّ عينٍ تتربّصُ بالدعوةِ من جهةِ الشمالِ.

وأمّرَ على ذلك الجيشِ عمرو بن العاص، الرجلَ الحازمَ صاحبَ البصيرةِ البعيدةِ، الذي عرف أرضَ الشامِ وخبِر قبائلَها من قبلُ، فكانت القدرةُ على قراءةِ الميدانِ إحدى عُدّته قبل وصولِه إليه. فخرج عمرو بجيشِه إلى وادٍ تُسمّيه العربُ السلاسلَ، لكثرةِ ما يُسمعُ فيه من صليلِ السّلاحِ حين تتهيّأُ القبائلُ للحربِ.

وكانت تلك الغزوةُ امتحانًا جديدًا لولادةِ الدولةِ الإسلاميّةِ في وجهِ التحدّياتِ البعيدةِ، تُثبتُ به المدينةُ أنّها حاضرةٌ للأحداثِ قبل وقوعِها، قادرةٌ على أن تُطفئَ الشرَّ في أطرافِ الأرضِ قبل أن يصلَ شررُه إلى أبوابِها، وأنّ القيادةَ النبويّةَ لا تنتظرُ الخطرَ، بل تتقدّمُ إليه!

هذهِ كانتِ الحِكايةُ بِرؤوسِ أقلامِها، أمّا التاريخُ فلهُ تفاصيلُهُ.

كانت غزوةُ ذاتِ السلاسلِ من أوائلِ السرايا التي خرجت إلى جهة الشام. وسببُها أنَّ قبائلَ قُضاعةَ تحرّكت عند أطرافِ البلقاءِ، وتجمعت بطونُها على أمرٍ يكرهونَ به المسلمينَ!

وبلغَ النبيَّ ﷺ أنَّ الرومَ يحرّضونَهم ويُمدّونَهم، فخشيَ أن يفتحَ ذلك بابًا من الشرِّ على أطرافِ المدينةِ، فدعا إلى بعثٍ يكفيهِ اللهُ به أمرَ تلك القبائلِ.

وسُمِّيت الغزوةُ ذاتُ السلاسلِ لوادٍ هناك يُقالُ له هذا الاسمُ، وقيلَ لأنَّ العربَ إذا اجتمعت للقتالِ تشدّ بعضَها إلى بعضٍ بالسلاسلِ لئلّا يفرّوا، فغلبَ الاسمُ على الموضعِ. وقيلَ نسبةً إلى ماءٍ هناك، وهذا أرجحُ الأقوالِ برأيي، وإن كانت كلّها معتبرةً!

فدعا رسولُ اللهِ ﷺ عمرو بنَ العاصِ، وكان قد أسلمَ قريبًا، فقال له: يا عمرو، إني أُريد أن أبعثك وجهًا، فيُسلّمك الله ويُغنمك، وأرغب لك من المال رغبةً صالحةً!

فقال عمرو: يا رسولَ اللهِ، ما أسلمتُ رغبةً في المالِ، وإنما أسلمتُ رغبةً في اللهِ ورسولِهِ!

فتبسّمَ النبيُّ ﷺ وقال: نِعْمَ المالُ الصالحُ للرجلِ الصالحِ!

وخرجَ عمرو في ثلاثمائة من المهاجرينَ والأنصارِ، حتّى بلغَ أرضَ السلاسلِ، فلقي من أمرِ قضاعةَ ما رأى أنه أكبرُ من أن يقوى عليهِ بمن معهُ، فبعثَ إلى النبيِّ ﷺ يستمدُّه. فأرسل النبيُّ ﷺ أبا عبيدةَ بنَ الجرّاحِ في جيشٍ من المهاجرينَ والأنصارِ، فيهم أبو بكرٍ وعمرُ، وقال له: «لا تختلفا»، يريد أبا عبيدةَ وعمرو.

فلمّا وصلَ أبو عبيدةَ إلى عمرو بنِ العاصِ لم يُرد النزولَ تحت رايتهِ، وقال له: أنتَ أميرٌ من معك، وأنا أميرٌ من معي!

فأبى عمرو وقال: إنما أنتَ رجلٌ جئتَ مددًا لي وأنا الأميرُ!

فراجعه أبو عبيدة، ثمّ سكت وقال قولته المشهورة: يا عمرو، إنما أنت أميرُ أصحابِك، وأنا أميرُ أصحابي، ولكنْ أمرني رسولُ الله ﷺ ألا أختلف معك، وقد أطعتُ!

فثبتت الإمارةُ لعمرو، وصلّى بالنّاس، واجتمع الجيشان تحت رايته.

ثمّ مضوا إلى ديارِ قضاعةَ، فحملَ عليهم عمرو، وجعلَ لهم كمائن، وسار بجيشه على تعبئةٍ، فلمّا رأت قضاعةُ كثرةَ جيشِ المسلمينَ انهزموا قبل أن يشتدّ القتالُ، وقيل: بل كان قتالٌ يسيرٌ، ثمّ كتبَ اللهُ النصرَ للمسلمين، وتفرّق جمعُ قضاعةَ، ورجعَ الجيشُ ولم يُقتل من المسلمينَ أحدٌ.

ورجعَ عمرو بنُ العاصِ إلى المدينةِ وقد سُرّ بالنصرِ وانقيادِ النّاس له، حتّى إنه سألَ النبيّ ﷺ حين جلس بين يديه: يا رسولَ اللهِ، من أحبُّ النّاس إليك؟

فقال: عائشةُ!

فقال عمرو: ومن الرّجال؟

قال: أبوها!

قال: ثمّ من؟

قال: عمرُ!

فعدّ رجالًا، فسكت عمرو، وعرفَ أنّ للنبيّ ﷺ رجالًا هم أحبُّ إليهِ منه، وإن كان عمرو صاحبَ فضلٍ.

ومن أحداثِ تلك السريّةِ أنّ عمرًا أمّ النّاس في الصّلاة وهو جُنُبٌ، وقد تيمّمَ من شدّةِ البردِ، فلمّا قدمَ على النبيّ ﷺ سأله: يا عمرو، أأممتَ أصحابَك وأنت جنبٌ؟

فقال: يا رسولَ اللهِ، ما حملني على ذلكَ إلا خوفُ البردِ، وإني سمعتُ الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾

فتبسم النبيّ ﷺ ولم يُنكر عليه، ورأى له عذره.

فكانت ذاتُ السلاسلِ غزوةً ثبتت فيها هيبةُ الدولة النبويّة عند أطراف الشامِ، وعُرف بها فضلُ عمرو، ورأى فيها النّاس حكمةَ رسول الله ﷺ في جمعِ القلوبِ، ومنع الاختلافِ، وإطفاءِ الفتنةِ قبل أن تستعر.

ولأنّ السّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدّروس المستفادة من غزوة ذات السّلاسل:

1 ـ اليقظةُ الاستباقيّةُ سرُّ بقاءِ الدولةِ، فقد كان تحرّكُ النبيِّ ﷺ قبل ظهور الخطرِ حقيقةً دليلًا على أنّ الدولةَ الناشئةَ لم تكن تنتظرُ الأحداثَ لِتتفاعلَ معها، بل كانت تسبقُها بخُطواتٍ. فإرسالُ السريّةِ إلى قُضاعةَ قبل تحالُفِهم مَع الرومِ أثبتَ أنّ القِيادةَ النبويّةَ ترى ما وراءَ اللحظةِ، وتَحمي حدودَها قبل أنْ تُمسّ.

2 ـ أنّ الوقايةَ قد تكونُ غزوةً، فما خرجَ عمرو بنُ العاصِ لِيُقاتِلَ، وإنّما لِيَمنعَ القتالَ قبل وقوعِه. وفي هذا درسٌ عظيمٌ في أنّ بعضَ المعاركِ لا يهدِفُ إلى النصرِ العسكريّ، بل إلى مَنعِ الحربِ ذاتِها، وهو نَهجٌ يدلُّ على حِكمةِ الدولةِ وقُدرةِ تقديرِها.

3 ـ القِيادةُ تُمنَحُ لأهلِ الخِبرةِ، لا لأهلِ السّبقِ وحدَهُ، فمَع أنّ عمرًا كان حديثَ الإسلامِ، إلّا أنّ النبيّ ﷺ اختارَه لِعلمِه بأرضِ الشّامِ وبِبطونِ قُضاعةَ. وهذا يُثبِتُ أنّ القِيادةَ ليست امتيازًا زمنيًا، بل مسؤوليّةٌ تُعطى لِمَن يَملِك أدواتِها.

4 ـ تكريمُ النبيِّ ﷺ لِلكفاءاتِ درسٌ في بناءِ الدولةِ، إذ لم يُقصِ النبيّ عمرًا لحداثةِ عَهدِهِ، بل قرّبَه وأمّرَه، لِيعلَمَ النّاس أنّ الدولةَ لا تُبنى على العصبيّةِ، بل على القُدرةِ. فالمعيارُ في الإسلامِ فضلٌ وخِبرةٌ وإخلاصٌ.

5 ـ أنّ الإخلاصَ يَعلو على المالِ، حينَ عرضَ النبيّ ﷺ لعمرو نَصيبًا مِن الغنيمةِ، قالَ عمرو: «ما أسلمتُ رغبةً في المالِ». فتبسّمَ النبيّ ﷺ إقرارًا له، لِيكونَ الموقفُ شاهدًا أنّ النّيّةَ أساسُ العملِ.

6 ـ أنّ القائد قد يحتاجُ إلى الاستمداد، ولا ينقُص ذلك من قدره، فقدر عمروٌ حجمَ الخطرِ فاستنجدَ، وهذا في ذاته شجاعةٌ، لأنّ القائد الحكيم يعرفُ متى يَطلُبُ العونَ، ولا يَغترُّ بنفسِه.

7 ـ طاعةُ القلوبِ أعظمُ مِن طاعةِ الأجسادِ، فحينَ قالَ النبيُّ ﷺ: «لا تختلفا»، كان يعلمُ أنّ وحدةَ عمرو وأبي عبيدةَ أهمُّ مِن عددِ جنودهم. فطاعةُ القلبِ هي السّبيلُ إلى النصرِ.

8 ـ الكِبارُ يعرفونَ متى يَتنازلونَ، وتجلّى ذلك حينَ قدّمَ أبو عبيدةَ عمرًوا، مع أنّه أسبقُ منهُ في الإسلامِ. لكنّه آثرَ طاعةَ النبيِّ ﷺ على رأيِه الشخصي، فصارَ مِثالًا للقائدِ النّاضجِ الذي يُقدّمُ الجماعةَ على النّفسِ.

9 ـ القائدُ ليس مَن يرفعُ الرّايةَ، بل مَن يرفعُ النّفوسَ، فقدرةُ عمرو على جَمعِ الجيشَينِ تحتَ رايةٍ واحدةٍ كانت دليلًا على أنّ القيادةَ الحقّةَ هي جمعُ القلوبِ قبلَ جمعِ السيوفِ.

10 ـ أنّ النصرَ لا يكونُ دائمًا بالسيفِ، فانهيارُ قُضاعةَ قبلَ اشتدادِ القتالِ يُشيرُ إلى أنّ رهبةَ الجيشِ وثباتَه قد تهزمُ العدوَّ قبلَ الالتحامِ. فالمعاركُ تُحسَمُ في القلوبِ كما تُحسَمُ في الميدانِ.

11 ـ السريّةُ إذا أُحسِنَ إدارتُها تَكفي عن جُيوشٍ كاملةٍ، فبِسريّةٍ صغيرةٍ ثبّتت الدولةُ حدودَ الشمالِ، وأرسلت للعربِ والرومِ معًا رِسالةً أنّ المدينةَ لا تُؤخَذُ على غِرّةٍ.

12ـ أنّ القائدَ قد يفتّشُ عن مكانِه الطبيعيّ دون أن يَنقِصَ ذلك من قدرِه، فقد سألَ عمروٌ النبيَّ ﷺ عن أحبِّ النّاس إليهِ، لا خُيلاءَ ولا إعجابًا، بل رغبةً في معرفةِ مراتبِ الرجالِ عند رسولِ اللهِ ﷺ ليقتديَ بهم، وليضعَ نفسَه في السُّلَّمِ الصحيحِ بينهم. فجاءَ جوابُ النبيِّ ﷺ حكيمًا، يُبيّنُ الفضائلَ دون أن يجرحَ أحدًا، ويهدي القلوبَ إلى أنّ التفاضلَ عند اللهِ بالأعمالِ والسبقِ، وأنّ كلَّ امرئٍ له مقامٌ يبلغه بما يُقدّمه لدينه. وفي هذا درسٌ للقادةِ أن يسألوا عن مراتبِ الحقِّ، لا عن مراتبِ أنفسهم، وأنّ السؤالَ إذا صَحَّ قصدُه كان بابًا

من أبوابِ التهذيبِ والرفعةِ.

13 ـ الحِكمةُ في الجوابِ تُهذِّبُ النفوسَ، فجوابُ النبيِّ ﷺ لعمرو حين سأله عن أحبِّ النّاس إليهِ كان تربيةً راقيةً تُعطي الحقيقةَ بلا جرحٍ، وتُعيدُ للقلبِ توازنَه.

14 ـ أنَّ الاجتهادَ مقبولٌ ما دامَ مَبنيًا على خوفِ اللهِ، فإمامةُ عمرو للناس وهو جُنُبٌ بعدَ التيمُّمِ كانت اجتهادًا دفعه إليه البردُ، وتبسُّمُ النبيِّ ﷺ دليلُ قبولِ ذلكَ الاجتهادِ.

15 ـ أنَّ السرايا قد تبني للدولةِ أكثرَ ممّا تبنيهِ الغزواتُ الكُبرى، فذاتُ السلاسلِ لم تكن معركةً كبيرةً، لكنها ثبّتت هيبةَ الدولةِ على حدودِ الشمالِ، ومنعت تحالفًا خطيرًا قبلَ وقوعِه، وكانت درسًا في أنَّ الضرباتِ الصغيرةَ في الوقتِ المناسبِ تَصنعُ نتائجَ عظيمةً!

فَتْحُ مكّةَ!

لا غَالِبَ إلا الله!

ثمانِي سنواتٍ مضتْ مُذ خرجَ مهاجراً تحت جنحِ الظّلام، ثماني سنواتٍ تمورُ بالأحداثِ، جراحٌ في بدرٍ، وثباتٌ في أُحُدٍ، وصمودٌ في الأحزاب، وعهودٌ في الحديبيةِ، وكلُّ ذلك كان يُمهّدُ لطريقٍ واحدٍ: الطريقِ الذي يبدأ من المدينةِ، وينتهي عند أستارِ البيتِ الحرامِ!

كان الزمانُ يومَها يَمشي على أطرافِ قدميهِ، كأنّهُ يَخشى أن يُحدِثَ جَلبةً تُفسِدُ مهابةَ اللحظةِ. والجزيرةُ كلُّها تترقّبُ خبراً تُوشِكُ أن تُضاءَ به الأرضُ بعدَ طولِ ظلامٍ؛ فليس كلُّ يومٍ تُطوَى صفحةٌ داميةٌ من صفحاتِ الجاهليّةِ، ولا كلُّ يومٍ تتهيّأُ مكّةُ لتعودَ إلى قلبِ النورِ الأوّلِ.

ومنذ خرجَ النّبيُّ ﷺ من ربوعِها مُكرهاً، والسّماءُ تُدوّنُ في السّجلّاتِ وعداً لا يُخلَفُ: أنّهُ سيعودُ إليها، لا تحت جنحِ الظلامِ كما خرجَ، بل في وَضَحِ الظّهيرة! ولن يدخلَ من بابٍ صغيرٍ كالذي خرجَ منه يومَ وقفَ فرسانُ قريشٍ ينتظرون خروجه ليسفكوا دمه، وإنما سيدخلُ من أبواب مكّةَ الأربعة!

وفي ذلك العامِ المشهودِ، بدا المشهدُ كأنّ الأرضَ تتنفّسُ الصُّبحَ، وكأنّ قريشاً تشعرُ أنّ القوّةَ التي طالما حاربتْها تعودُ اليومَ ولكن بوجهٍ آخرَ؛ وجهِ الرّحمةِ، لا وجهِ الانتقامِ.

فالفتحُ حين جاءَ، لم يأتِ على صليلِ سيوفٍ جائعةٍ، بل جاءَ على خُطى نبيٍّ كريمٍ يطوي سِجلّاتِ الماضي ليكتبَ صفحةً تُقرأُ إلى قيامِ الساعةِ.

دخلَ النّبيُّ ﷺ مكّةَ ورأسُهُ مُطأطأٌ تَواضُعاً، كأنّما النصرُ نفسُه يخجلُ من أن يُرى أمامَ تَواضُعِ صاحبِه.

ورأى النّاس جيشاً يمتدُّ كأنّهُ السّيلُ، لكنّهم رأوا في قلبِ ذلك الجيشِ قلباً واحداً لا يَحمِلُ إلّا العفوَ.

تساقطت الأصنامُ من حولِ الكعبة كما تتساقط أوراق الخريف أمام ريحٍ مُسلطة؛ لحظةٌ لو قيست فيها أعمارُ الأممِ لكانت بداية التاريخ الحقيقيّ لهذه الأمة.

وكان المشهدُ مزيجاً من خُشوعٍ وهيبةٍ وانتصارٍ لا يُشبه أيَّ انتصارٍ آخر:

مهاجرونَ يعودونَ إلى ديارٍ طُردوا منها، وأنصارٌ يَشهدون ثمار وفاءٍ تاريخيّ، وأعداءٌ يتحولونَ إلى أشبهَ بالطلّابِ في حضرةِ مُعلّمٍ كريمٍ.

ذلك اليومُ لم يكن فتحاً لمدينةٍ وحسبُ؛ بل كان فتحاً للقلوبِ قبلَ الحصونِ، وللضمائرِ قبلَ الدُّورِ، وكان إعلاناً أنَّ مملكةَ الظلامِ قد انتهى عهدُها، وأنَّ البيتَ الذي بُنيَ على التوحيدِ لن يُظلّله شِركٌ بعدَ اليومِ.

وهكذا، وقفَ التاريخُ على بابِ مكّةَ يُدوِّنُ:

أنَّ الفتحَ الأعظمَ لم يكن سيفاً يلمعُ، بل كان رحمةً تُنهمِرُ!

وأنَّ أعظمَ انتصارٍ هو ذاك الذي يَنحني فيه المنتصرُ تواضُعاً!

وتَنحني فيه القلوبُ كلُّها أمامَ نورِ اللهِ.

تلك كانتْ حكايةُ نصرِ اللهِ والفتحِ مقتضبةً إذا ما حقُّها البيان، ولكن إن لم تُسرج صهوة الكلامِ لفتحِ مكّة فلأيّ حديثٍ تُسرج؟! وإن لم يُروَ حديثُ الفتحِ مُسهباً فلا كان الإسهاب لغيره!

كان صُلحُ الحديبيةِ قد وَقَعَ بينَ النبيّ ﷺ وقُريشٍ على وضعِ الحربِ عشرَ سنين، وأنّهُ من أحبَّ أن يدخلَ في عهدِ النبيّ ﷺ دخل، ومن أحبَّ أن يدخلَ في عهدِ قُريشٍ دخل. فاختارت خُزاعةُ الدخولَ في عهدِ النبيّ ﷺ، ودخلت بنو بكرٍ، وهم أعداءُ خُزاعةَ التاريخيّون، في عهدِ قُريش.

لكنَّ العداوةَ القديمةَ بين القبيلتين لم تخمُد، حتّى جاءت ليلةٌ باغتت فيها بنو بكرٍ خُزاعةَ عند ماءِ الوَتير، يُعاونُهم رجالٌ من قُريشٍ في الظَّلام، فيهم صَفوانُ بنُ أميّةَ وعِكرمةُ بنُ أبي جهلٍ ونوفلُ بنُ مُعاويةَ.

قُتِلَ من خُزاعةَ رجالٌ، وفرَّ من استطاع الفرار حتى وصل زعيمُهم عمرو بنُ سالمٍ الخُزاعيُّ إلى المدينة، فوقف أمام رسول الله ﷺ وقال أبياته المشهورة:

يا ربِّ إنّي ناشدٌ محمّداً

حِلفَ أبينا وأبيهِ الأتلدا

فقال النبيُّ ﷺ: نُصِرتَ يا عمرو بنَ سالمٍ!

وعَلِمَ أنَّ قُريشًا قد نقضتِ العهدَ نقضًا لا شُبهةَ فيه.

وحين شاع خبرُ ما فعلته بنو بكرٍ وقُريش، دبَّ الخوفُ في نفوسِ مكّة، فأرسلت قُريشُ أبا سُفيان إلى المدينةِ يرجو تجديدَ العهدِ وزيادةَ المدّة.

دخل أبو سفيان على ابنتِه أمّ حبيبةَ رضي اللهُ عنها، فلمّا أراد الجلوسَ على فراشِ النبيّ ﷺ طوَتهُ عنه، وقالت: هو فِراشُ رسولِ الله ﷺ، وأنتَ رجلٌ نجِسٌ مُشرِكٌ!

فقال: لقد أصابكِ بعدي شرٌّ!

ثمّ خرج إلى أبي بكرٍ يسأله أن يَشفعَ له عندَ رسولِ الله ﷺ، فقال أبو بكر: ليسَ ذلك إليّ!

ثمّ قصد عُمرَ، فقال عمر: واللهِ لو لم أجد إلّا الذرَّ لَجاهدتُكم به!

ثمّ قصد عليًا، فقال: ما أجدُ لك شيئًا!

فقال: دلّني على أحدٍ أشفعُ عنده.

فقال عليٌّ: اذهب إلى النّاس فاجعَل نفسك جارًا للمسلمين!

ففعل، لكنَّ أحدًا لم يعبأ بجِواره.

فرجع إلى مكّة خائبًا، وقد عَلِم أنَّ الحربَ آتيةٌ لا محالةَ!

أمرَ رسولَ اللهِ ﷺ عائشةَ، قبلَ أن يأتيه خبرُ نقضِ الميثاقِ بثلاثةِ أيام، أن

تجهزه، ولا يعلم أحدٌ. فدخل عليها أبو بكرٍ، فقال: يا بنية، ما هذا الجهاز؟

قالت: واللهِ ما أدري.

فقال: واللهِ ما هذا زمانُ غزوِ بني الأصفر، فأين يريدُ رسولُ الله؟

قالت: واللهِ لا علمَ لي.

وفي صباحِ الثالثة جاء عمرو بنُ سالمٍ الخزاعيُّ في أربعين راكبًا، وارتجز: يا ربِّ إنِّي ناشدٌ محمَّدا.

فَعلِم النَّاس بنقضِ الميثاق، وبعدَ عمرو جاء بديلٌ ثمَّ أبو سفيان، وتأكد عند النَّاس الخبر، فأمرهم رسولُ اللهِ ﷺ بالجهاز، وأعلمهم أنَّه سائرٌ إلى مكَّة. وقال: اللهمَّ خُذِ العيونَ والأخبارَ عن قريشٍ حتَّى نبغتَها في بلادها!

وزيادةً في الإخفاءِ والتعمية، بعث رسولُ اللهِ ﷺ سريَّةً قوامُها ثمانيةُ رجالٍ تحت قيادة أبي قتادة بنِ ربعيٍّ إلى بطنِ أضم، فيما بين ذي خُشُب وذي المَرْوَة على ثلاثةِ بُرُدٍ من المدينة، ليظنَّ الظَّانُّ أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية، ولتذهبَ بذلك الأخبار. وواصلت هذه السريَّةُ سيرَها، حتَّى إذا وصلت حيثُما أُمِرَت، بلغها أنَّ رسولَ الله ﷺ خرج إلى مكَّة، فسارت إليه حتَّى لحقته.

وكتب حاطبُ بنُ أبي بَلْتَعة إلى قريش كتابًا يُخبرهم بمسيرِ رسولِ الله ﷺ إليهم، ثمَّ أعطاه امرأةً، وجعل لها جعلاً على أن تُبلِّغه قريشًا، فجعلته في قُرونِ رأسِها، ثمَّ خرجت به. وأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السَّماء بما صنع حاطبٌ، فبعث عليًا والمقداد، فقال: انطلِقا حتَّى تأتيا روضةَ خاخٍ، فإنَّ بها ظَعينةً معها كتابٌ إلى قريش!

فانطلقا تعادي بهما خيلُهما حتَّى وجدا المرأة بذلك المكان، فاستنزلاها، وقالا: معكِ كتابٌ؟

فقالت: ما معي كتاب.

ففتشا رَحلَها فلم يجدا شيئًا، فقال لها عليٌّ: أحلِفُ باللهِ، ما كَذَبَ رسولُ

اللهِ ﷺ ولا كَذَبنا، واللهِ لَتُخرِجِنّ الكتاب أو لنُجرِّدنَّك.

فلمّا رأتِ الجِدّ منه، قالت: أعْرِض.

فأعرض، فحلّت قُرونَ رأسِها، فاستخرجتِ الكتابَ منها، فدفعته إليهما. فأتيا به رسولَ اللهِ ﷺ، فإذا فيه: من حاطبِ بنِ أبي بلتعة إلى قريش يُخبرُهم بمسيرِ رسولِ الله ﷺ إليهم.

فدعا رسولُ الله ﷺ حاطبًا، فقال: ما هذا يا حاطب؟

فقال: لا تَعجَل عليّ يا رسولَ الله، واللهِ إني لَمُؤمِنٌ باللهِ ورسولِه، وما ارتددتُ ولا بدّلتُ، ولكنّي كنتُ امرأً مُلصَقًا في قريش، لستُ من أنفسِهم، ولي فيهم أهلٌ وعَشيرةٌ وولَد، وليس لي فيهم قرابةٌ يَحمُونهم، وكان من معك لهم قراباتٌ يحمونهم، فأحببتُ، إذ فاتني ذلك، أن أتخذَ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي.

فقال عمرُ بنُ الخطّاب: دَعْني يا رسولَ الله أضربْ عنقَه، فإنّه قد خانَ اللهَ ورسولَه، وقد نافق!

فقال رسولُ الله ﷺ: إنّه قد شَهِدَ بدرًا، وما يُدريك يا عمر، لعلّ اللهَ قد اطّلع على أهلِ بدرٍ فقال: اعملوا ما شِئتم فقد غفرتُ لكم!

فذَرَفَت عينا عمر، وقال: اللهُ ورسولُه أعلم.

وفي العاشرِ من رمضان غادر رسولُ الله ﷺ المدينةَ متوجِّهًا إلى مكّة، في عشرةِ آلافٍ من الصّحابة رضي الله عنهم، واستخلف على المدينة أبا رُهْمٍ الغِفاريّ.

ولمّا كان بالجُحفة أو فوقَ ذلك، لقيه عمُّه العبّاسُ بنُ عبدِ المُطّلب، وكان قد خرج بأهله وعياله مُسلمًا مُهاجرًا.

ثمّ لمّا كان رسولُ الله ﷺ بالأبواء، لقيه ابنُ عمّه أبو سفيانَ بنُ الحارث وابنُ عمّتِه عبدُ اللهِ بنُ أبي أميّة، فأعرَض عنهما، لِما كان يلقاه منهما من شدّة الأذى والهَجْو.

فقالت له أمُّ سلمةَ:

لا يَكُنْ ابنُ عمِّك وابنُ عمّتِك أشقى النّاس بك.

وقال عليٌّ لأبي سفيان بن الحارث: ائتِ رسولَ الله ﷺ من قِبَلِ وجهه، فقلْ له ما قال إخوةُ يوسفَ ليوسف: "قالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ علينا وإنْ كُنّا لَخاطِئِينَ"

فإنّه لا يرضى أن يكون أحدٌ أحسنَ منه قولًا.

ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسولُ الله ﷺ: "لا تَثْرِيبَ عليكم الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ، وَهُوَ أرْحَمُ الرّاحِمِينَ"

وواصل رسولُ اللهِ ﷺ سيرَه وهو صائم، والنّاس صيام، حتّى بلغ الكَدِيد، وهو ماءٌ بين عُسفان وقُديد، فأفطر، وأفطر النّاس معه، ثمّ واصل سيرَه حتّى نزل بمرّ الظّهران نزلَه عِشاءً، فأمر الجيش، فأوقدوا النّيران، فأوقدت عشرةُ آلافِ نار، وجعل رسولُ اللهِ ﷺ على الحرس عُمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه .

وركب العبّاس، بعد نزولِ المسلمين بمرّ الظّهران، بغلةَ رسولِ اللهِ ﷺ البيضاء، وخرج يَلتمِس، لعلّه يجد بعض الحطّابة أو أحدًا يُخبِر قريشًا، ليخرجوا يَستأمنون رسولَ اللهِ ﷺ قبل أن يدخلها.

وكان اللهُ قد عَمّى الأخبارَ عن قريش، فهم على وَجَلٍ وترَقُّب، وكان أبو سفيان يخرج يتجسّس الأخبار، فكان قد خرج هو وحكيمُ بنُ حزام وبديلُ بنُ ورقاء يتجسّسون.

قال العبّاس: واللهِ إنّي لأسيرُ عليها، أي على بغلةِ رسولِ اللهِ ﷺ، إذ سمعتُ كلامَ أبي سفيان وبديلِ بنِ ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيتُ كاللّيلة نِيرانًا قطّ، ولا عسكرًا!!

قال بديل: هذه واللهِ خُزاعة، حَمَشَتْها الحرب.

فيقول أبو سفيان: خُزاعةُ أقلُّ وأذلُّ من أن تكون هذه نيرانُها وعسكرُها.

قال العبّاس: فعرفتُ صوتَه، فقلت: أبا حنظلة؟

فعرف صوتي، فقال: أبا الفضل؟

قلتُ: نعم.

قال: ما لك؟ فِداكَ أبي وأمّي.

قلت: هذا رسولُ اللهِ ﷺ في النّاس، وَا صَباحَ قُريشٍ واللهِ.

قال: فما الحيلةُ؟ فِداكَ أبي وأمّي.

قلت: واللهِ لَئِن ظَفِرَ بك ليَضرِبَنَّ عُنقَك، فاركبْ في عَجُزِ هذه البغلةِ حتّى آتيَ بك رسولَ اللهِ ﷺ فأستأمنَه لك.

فركب خلفي، ورجع صاحباه.

قال: فجئتُ به، فكلّما مررتُ به على نارٍ من نيرانِ المسلمين، قالوا: مَن هذا؟

فإذا رأوا بغلةَ رسولِ اللهِ ﷺ وأنا عليها، قالوا: عمُّ رسولِ اللهِ ﷺ على بَغْلَتِه.

حتّى مررتُ بنارِ عمرَ بنِ الخطّاب، فقال: مَن هذا؟ وقام إليّ، فلمّا رأى أبا سفيان على عَجُزِ الدّابة، قال: أبو سفيان؟ عدوُّ الله؟ الحمدُ للهِ الذي أمكنَ منك بغيرِ عقدٍ ولا عهدٍ!

ثمّ خرج يشتدُّ نحو رسولِ اللهِ ﷺ، وركَضتُ البغلة فسبقتُه، فاقتحمتُ عن البغلة، فدخلتُ على رسولِ اللهِ ﷺ، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسولَ الله، هذا أبو سفيان، فدعني أضرِبْ عنقَه.

قلتُ: يا رسولَ الله، إنّي قد أجَرْتُه.

ثمّ جلستُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فأخذتُ برأسه، فقلت: واللهِ لا يُناجيه

اللّيلة أحدٌ دوني.

فلمّا أكثر عمرُ في شأنه، قلت: مَهلًا يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عَديّ بنِ كعبٍ ما قلتَ مثلَ هذا.

قال: مَهلًا يا عبّاس، فوالله لإسلامُك كان أحبَّ إليّ من إسلام الخطّاب لو أسلم، وما بي إلّا أنّي قد علمتُ أنّ إسلامَك كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من إسلامِ الخطّاب.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: اذهبْ به يا عبّاس إلى رَحلِك، فإذا أصبحتَ فأْتني به.

فذهبتُ به، فلمّا أصبحتُ غَدَوْتُ به إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فلمّا رآه قال: وَيحَكَ يا أبا سفيان، ألم يَأنِ لك أن تعلمَ أن لا إلهَ إلّا الله؟

قال: بأبي أنت وأمّي، ما أحلمَك وأكرمَك وأوصَلَك! لقد ظننتُ أنه لو كان مع اللهِ إلهٌ غيرُه لقد أغنى عنّي شيئًا بعدُ.

قال: وَيحَكَ يا أبا سفيان، ألم يَأنِ لك أن تعلمَ أنّي رسولُ الله؟

قال: بأبي أنت وأمّي، ما أحلمَك وأكرمَك وأوصلَك، أمّا هذه فإنّ في النفسِ حتّى الآنَ منها شيئًا.

فقال له العبّاس: وَيحَك! أسلِم، واشهد أن لا إلهَ إلّا الله، وأنّ محمّدًا رسولُ الله، قبل أن تُضرَبَ عُنقُك.

فأسلم، وشهد شهادةَ الحقّ.

قال العبّاس: يا رسولَ الله، إنّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخرَ، فاجعلْ له شيئًا.

قال: نعم. مَن دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن، ومَن أغلق عليه بابَه فهو آمن، ومَن دخل المسجدَ الحرام فهو آمن.

وفي صباحِ يومِ الأربعاء للسّابعَ عشرَ من شهرِ رمضانَ، غادر رسولُ اللهِ

ﷺ مرّ الظّهران إلى مكّة، وأمر العبّاس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطمِ الجبل حتّى تمرّ به جنودُ الله فيراها، ففعل. فمرّت القبائلُ على راياتِها، كلّما مرّت به قبيلةٌ قال: يا عبّاس، من هذه؟

فيقول: سُليم.

فيقول: ما لي ولسُليم؟

ثمّ تمرّ قبيلةٌ فيقول: يا عبّاس، من هؤلاء؟

فيقول: مُزَينة.

فيقول: ما لي ولمُزَينة؟

حتّى نَفِدَتِ القبائل، ما تمرّ به قبيلةٌ إلّا سأل العبّاس عنها، فإذا أخبره قال: ما لي ولبني فُلان؟

حتّى مرَّ به رسولُ اللهِ ﷺ في كتيبتِه الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلّا الحَدَقُ من الحديد، فقال أبو سفيان من دهشته: سبحانَ اللهِ يا عبّاس، من هؤلاء؟

قال: هذا رسولُ اللهِ ﷺ في المهاجرين والأنصار.

قال: ما لأحدٍ بهؤلاءِ قِبَلٌ ولا طاقة!

ثمّ قال: واللهِ يا أبا الفضل لقد أصبح ابنُ أخيك اليوم عظيمًا.

فقال العبّاس: يا أبا سفيان، إنها النبوّة.

قال: فنِعم إذن.

وكانت رايةُ الأنصار مع سعدِ بنِ عُبادة، فلمّا مرّ بأبي سفيان قال: اليومُ يومُ المَلْحَمَة، اليومُ تُستحَلُّ الحُرمَة، اليومَ أذلَّ اللهُ قريشًا!

فلمّا حاذى رسولُ اللهِ ﷺ أبا سفيان قال الأخير: يا رسولَ الله، ألم تَسمع ما قال سعد؟

قال: وما قال؟

فأخبره.

فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له في قريشٍ صَوْلَة.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: بل اليومَ يومٌ تُعظَّمُ فيه الكعبة، اليومَ يومٌ أعزّ الله فيه قريشًا!

ثمّ أرسل إلى سعد، فنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد.

ولمّا مرّ رسولُ اللهِ ﷺ بأبي سفيان، قال له العبّاس: النّجاءَ إلى قومك!

فأسرع أبو سفيان حتّى دخل مكّة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشرَ قريش، هذا محمّد، قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به، فمَن دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن!

فقامت إليه زوجته هند بنتُ عُتبة، فأخذت بشاربيه وقالت: اقتلوا الحَميتَ الدَّسِمَ الأحْمَشَ الساقين! قُبِّحَ من طليعةِ قوم!

فقال أبو سفيان: ويلَكم! لا يَغُرَّنَّكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به! فمَن دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن.

فقالوا ساخرين: قاتلك الله! وما تُغني عنك دارُك؟

فقال: ومن أغلقَ عليه بابَه فهو آمن، ومن دخل المسجدَ فهو آمن.

فتفرّق النّاس إلى دورهم وإلى المسجد، وبَشّوا أوباشًا لهم، قالوا: نقدّمُ هؤلاء، فإن كان لقريشٍ شيءٌ كنا معهم، وإن أُصيبوا أعطينا الذي سُئِلْنا.

فتجمّع سُفهاءُ قريشٍ وأخِفّاؤها مع عِكرمةَ بنِ أبي جهل، وصفوانَ بنِ أميّة، وسُهيلِ بنِ عمرو بالخَندمةِ ليقاتلوا المسلمين.

وكان فيهم رجلٌ من بني بَكير اسمه حَمَاسُ بنُ قيس، كان يُعِدُّ قبل ذلك

سلاحًا، فقالت له امرأته: لماذا تُعدُّ ما أرى؟

قال: لمحمَّد وأصحابه.

قالت: واللهِ ما يقومُ لمحمَّد وأصحابِه شيءٌ!

قال: إنّي واللهِ لأرجو أن أُخدِمَكِ بعضَهم.

فكان هذا الرجلُ فيمَن اجتمعوا في الخندمة.

أمّا رسولُ اللهِ ﷺ فمضى حتّى انتهى إلى ذي طُوًى، وكان يضعُ رأسَهُ تواضعًا للهِ حين رأى ما أكرمَ اللهُ به من الفتح، حتّى إنّ شعرَ لحيته ليكادُ يمسُّ واسطةَ الرَّحل، وهناك وزَّع جيشَه.

وكان خالدُ بنُ الوليد على المَجَنِّبَةِ اليُمنى، وفيها: أسلَمُ، وسُليم، وغِفار، ومُزَينة، وجُهَينة، وقبائلُ من قبائل العرب، فأمره أن يدخل مكّةَ من أسفلِها، وقال: إنْ عَرَضَ لكم أحدٌ من قريشٍ فاحصُدوه حصْدًا، حتّى تُوافوني على الصَّفا!

وكان الزُّبيرُ بنُ العوّام على المَجَنِّبَةِ اليُسرى، ومعه رايةُ رسولِ اللهِ ﷺ، فأمره أن يدخل مكّةَ من أعلاها، من كَداء، وأن يَغرِزَ رايتَه بالحَجُون، ولا يبرح حتّى يأتيه.

وكان أبو عبيدةَ على الرَّجالةِ والحُسَّر الذين لا سلاحَ معهم، فأمره أن يأخذ بطنَ الوادي حتّى يَنصِبَ لمكّةَ بين يدي رسولِ اللهِ ﷺ.

وتحرّكت كلُّ كتيبةٍ من الجيش الإسلامي على الطريق التي كُلِّفَت الدخولَ منها.

فأمّا خالدٌ وأصحابُه، فلم يلقَهم أحدٌ من المشركين إلّا أناموه، وقُتِلَ من أصحابِه من المسلمين كُرزُ بنُ جابرٍ الفِهريّ وخُنَيس بنُ خالدِ بنِ ربيعة، كانا قد شذّا عن الجيش، فسلكا طريقًا غيرَ طريقِه فقُتِلا جميعًا، وأمّا سُفهاءُ قريشٍ فلقِيَهم خالدٌ وأصحابُه بالخندمةِ، فناوَشوهم شيئًا من قتال، فأصابوا من المشركين اثني عَشَرَ رجلًا، فانهزم المشركون، وانهزم حِماسُ بنُ قيس

الذي كان يَعدُّ السّلاح لقتال المسلمين حتّى دخل بيته، فقال لامرأته: أغلقي عليّ بابي.

فقالت: وأين ما كنتَ تقول؟

وأقبل خالدٌ يجوش مكّة، حتّى وافى رسولَ اللهِ ﷺ على الصّفا.

وأمّا الزّبيرُ فتقدّم حتّى نصبَ رايةَ رسولِ اللهِ ﷺ بالحَجُون عند مسجد الفتح، وضرب له هناك قُبة، فلم يبرح حتّى جاءه رسولُ اللهِ ﷺ.

ثمّ نهض رسولُ اللهِ ﷺ، والمهاجرون والأنصارُ بين يديه وخلفه وحوله، حتّى دخل المسجد، فأقبل إلى الحَجَرِ الأسود، فاستلَمه، ثمّ طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت، وعليه ثلاثمائةٍ وستونَ صنمًا، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول:

﴿جاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الباطِلُ إنّ الباطِلَ كانَ زَهُوقًا﴾.

﴿جاءَ الحَقُّ وَما يُبدئُ الباطِلُ وَما يُعيدُ﴾.

والأصنامُ تتساقط على وجوهها.

وكان طوافُه على راحلته، ولم يكن مُحرِمًا يومئذٍ، فاقتصر على الطواف.

فلمّا أكمله دعا عثمانَ بنَ طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففُتحت، فدخلها، فرأى فيها الصُّوَر، ورأى فيها صورةَ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام يَستقسِمان بالأزلام، فقال: قاتلهم الله، واللهِ ما استقسما بها قطّ!

ورأى في الكعبة حمامةً من عيدان، فكسرها بيده، وأمر بالصور فمُحِيَت.

ثمّ أغلق عليه الباب، وعلى أسامةَ وبلالٍ، فاستقبل الجدارَ الذي يُقابل الباب، حتّى إذا كان بينه وبينه ثلاثةُ أذرعٍ وقف، ثمّ صلى هناك، ثمّ دار في البيت، وكبر في نواحيه، ووحّد الله، ثمّ فتح الباب، وقريش قد ملأتِ المسجدَ صفوفًا ينتظرون: ماذا يَصنع؟

فأخذ بعضادتي الباب، وهم تحته، فقال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صَدَقَ وعده، ونَصَرَ عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ألا كلُّ مأثرةٍ أو مالٍ أو دمٍ فهو تحت قدمَيّ هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاجّ.

ألا وقتيلُ الخطأ شِبهُ العمد، السَّوْط والعصا، ففيه الدِّيَةُ مُغلَّظة، مائةٌ من الإبل، أربعون منها في بُطونها أولادُها.

يا معشرَ قريش، إنَّ الله قد أذهبَ عنكم نَخْوَةَ الجاهليّةِ وتعظُّمها بالآباء، النّاس من آدم، وآدمُ من تُراب!

ثمَّ قال: يا معشرَ قريش، ما ترون أنّي فاعلٌ بكم؟

قالوا: خيرًا، أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم.

قال: فإنّي أقولُ لكم كما قال يوسفُ لإخوته: "لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ"

اذهبوا فأنتمُ الطُّلَقاء!

ثمَّ جلس رسولُ اللهِ ﷺ في المسجد، فقام إليه العبّاس، ومفتاح الكعبة في يدِه، فقال: يا رسولَ الله، اجمعْ لنا الحِجابة مع السّقاية، صلّى اللهُ عليك.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: أين عثمان بنُ طلحة؟

فدُعي له، فقال له: هاكَ مفتاحَك يا عثمان، اليومُ يومُ بِرٍّ ووفاء! خُذوها خالدةً تالدةً، لا يَنزِعُها منكم إلّا ظالم. يا عثمان، إنَّ الله استأمنكم على بيتِه، فكلوا ممّا يصلُ إليكم من هذا البيتِ بالمعروف!

وحانت الصّلاة، فأمر رسولُ اللهِ ﷺ بلالًا أن يَصعَد فيؤذِّن على الكعبة.

وكان أبو سفيان بنُ حرب، وعِتابُ بنُ أَسيد، والحارثُ بنُ هشام جُلوسًا بِفِناء الكعبة.

فقال عِتاب: لقد أكرمَ اللهُ أَسيدًا ألا يكونَ سَمِعَ هذا، فيسمع منه ما يُغيظُه.

فقال الحارث: أمَا واللهِ لو أعلمُ أنه حقٌ لاتّبعتُه.

فقال أبو سفيان: أمَا واللهِ لا أقولُ شيئًا، لو تكلّمتُ لأخبرتْ عني هذه الحَصباء.

فخرج عليهم النبيُ ﷺ فقال لهم: قد عَلِمتُ الذي قُلتم!

ثمّ ذَكَرَ ذلك لهم.

فقال الحارثُ وعتّاب: نشهدُ أنك رسولُ الله، واللهِ ما اطّلعَ على هذا أحدٌ كان معنا فنقول: أخبرَك.

ودخل رسولُ اللهِ ﷺ يومئذٍ دارَ أمّ هانئٍ بنتِ أبي طالب، فاغتسل وصلّى ثماني ركعاتٍ في بيتها، وكان ضُحى، فظنّها مَن ظنّها صلاةَ الضُّحى، وإنما هذه صلاةُ الفتح.

وأجارت أمُّ هانئٍ حَمَوَينِ لها، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: قد أجرْنا مَن أجرتِ يا أمَّ هانئ!

وقد كان أخوها عليُ بنُ أبي طالب أراد أن يقتلهما، فأغلقت عليهما بابَ بيتها، وسألتِ النبيَ ﷺ فأعطاها الأمانَ لهما.

وأهدر رسولُ اللهِ ﷺ يومئذٍ دماءَ تِسعةِ نفرٍ من أكابرِ المجرمين، وأمر بقتلهم وإن وُجِدوا تحت أستارِ الكعبة، وهم: عبدُ العُزّى بنُ خَطَل، وعبدُ اللهِ بنُ أبي سَرْح، وعِكرمةُ بنُ أبي جهل، والحارثُ بنُ نُفَيلِ بنِ وَهب، ومَقِيسُ بنُ صُبابَة، وهَبّارُ بنُ الأسود، وقِينَتان كانتا لابنِ خَطَلٍ تغنيان بهجاءِ النبيِ ﷺ، وسارةُ مولاةُ لبعضِ بني عبدِ المُطّلب، وهي التي وُجد معها كتابُ حاطب.

فأمّا ابنُ أبي سَرح، فجاء به عثمان إلى النبيِ ﷺ، فشفع فيه، فحَقَنَ دمَه وقَبِل إسلامَه، بعد أن أمسك عنه، رجاءَ أن يقومَ إليه بعضُ الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر، ثمّ ارتدّ ورجع إلى مكّة.

وأمّا عِكرمةُ بنُ أبي جهل، ففرّ إلى اليمن، فاستأمنت له امرأتُه، فأمنه النبيُ

ﷺ، فتبعته فرجع معها، وأسلم، وحسُن إسلامه.

وأمّا ابنُ خطَل، فكان متعلقًا بأستارِ الكعبة، فجاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فأخبره، فقال: اقتلوه! فقتلوه.

وأمّا مَقِيس بنُ ضبابة، فقتله نُمَيلةُ بنُ عبدِ الله، وكان قد أسلم قبل ذلك، ثمّ عدا على رجلٍ من الأنصار فقتله، ثمّ ارتدّ، ولحق بالمشركين.

وأمّا الحارث، فكان شديدَ الأذى لرسولِ الله ﷺ بمكة، فقتله عليّ.

وأمّا هَبّارُ بنُ الأسود، فهو الذي كان قد عرَض لزينبَ بنتِ رسولِ الله ﷺ حين هاجرت، فنخَس بها حتى سقطت على صخرةٍ وأسقطت جنينها، ففرّ هَبّارٌ يومَ مكّة، ثمّ أسلم وحَسُن إسلامه.

وأمّا القَيْنتان فقُتِلَت إحداهما، واستُؤمِنَ للأخرى فأسلمت، كما استُؤمِنَ لسارة فأسلمت.

ولمّا كان الغدُ من يومِ الفتح، قام رسولُ الله ﷺ في النّاس خطيبًا، فحمِد اللهَ، وأثنى عليه، ومَجّده بما هو أهلُه، ثمّ قال: أيها النّاس، إنّ اللهَ حرّم مكّة يومَ خلق السمواتِ والأرض، فهي حرامٌ بحرمةِ الله إلى يومِ القيامة.

فلا يَحِلُّ لامرئٍ يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ أن يَسفِكَ فيها دمًا، أو يَعضُدَ بها شجرة.

فإن أحدٌ ترَخّص لقتالِ رسولِ الله ﷺ فقولوا: إنّ اللهَ أذِنَ لرسوله ولم يأذنْ لكم.

وإنّما حلّت لي ساعةً من نهار.

وقد عادت حرمتُها اليومَ كحرمتِها بالأمس.

فليبلّغِ الشاهدُ الغائب!

ولمّا تمّ فتحُ مكّة على رسولِ الله ﷺ، وهي بلدُه ووطنُه ومولدُه، قال الأنصار فيما بينهم:

أترَونَ رسولَ اللهِ ﷺ إذا فتح اللهُ عليه أرضه وبلده أن يُقيم بها؟

وكان ﷺ يدعو على الصَّفا رافعًا يديه.

فلمَّا فرغ من دعائه قال: ماذا قُلتم؟

قالوا: لا شيء يا رسولَ الله.

فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسولُ الله ﷺ: معاذ الله، المحيا مَحياكم، والمماتُ مَماتُكم!

وحين فتح اللهُ مكّةَ على رسولِ الله ﷺ والمسلمين، تبيّن لأهلِ مكّةَ الحقّ، وعَلِموا أنّه لا سبيل إلى النجاح إلّا الإسلام، فأذعنوا له، واجتمعوا للبيعة.

فجلس رسولُ اللهِ ﷺ على الصَّفا يُبايع النّاس، وعمرُ بنُ الخطّاب أسفلَ منه يأخذ على النّاس، فبايعوه على السّمع والطاعة فيما استطاعوا.

فجاءت هندُ بنتُ عُتبة، امرأةُ أبي سفيان، مُتنكّرةً خوفًا من رسولِ الله ﷺ أن يعرِفَها، لما صنعتْ بِحمزة.

فقال رسولُ الله ﷺ: أبايِعُكُنَّ على ألّا تُشرِكْنَ بالله شيئًا!

فبايع عمرُ النساءَ على ألّا يُشرِكن باللهِ شيئًا.

فقال رسولُ الله ﷺ: ولا تَسرِقن!

فقالت هند: إنّ أبا سفيان رجلٌ شحيح، فإن أنا أصبتُ من ماله هَناتٍ؟

فقال أبو سفيان: وما أصبتِ فهو لكِ حلال.

فضحك رسولُ الله ﷺ، وعَرَفها، فقال: وإنّكِ لهند؟

قالت: نعم، فاعفُ عمّا سلَف يا نبيَّ الله، عفا اللهُ عنك.

فقال: ولا يَزْنِينَ!

فقالت: أو تَزني الحُرّة؟

فقال: ولا يقتلن أولادهن!

فقالت: ربّيناهم صِغارًا، وقتلتموهم كِبارًا، فأنتم وهم أعلم.

وكان ابنها حنظلةُ بنُ أبي سفيان قد قُتل يوم بدر، فضحك عمر حتى استلقى، فتبسم رسولُ الله ﷺ.

فقال: ولا يأتين ببهتان!

فقالت: واللهِ إنّ البهتانَ لأمرٌ قبيح، وما تأمرنا إلّا بالرُّشدِ ومكارمِ الأخلاق.

فقال: ولا يعصين في معروف.

فقالت: واللهِ ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصِيَك.

ولمّا رجعت جعلتْ تكسِرُ صنمها وتقول: كنّا منك في غرور.

ولأنّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروسِ المستفادة من فتحِ مكّة:

1 - أنّ العهودَ ميثاقُ شرفٍ، فنقضُ قريشٍ للعهد لم يكن مجرّد خطأ سياسي، بل سقوطٌ أخلاقيٌ أزال عنهم آخر ما يمكن أن يُعتذر به. وجاء الفتح ليبيّن أنّ الأمم تُمحى قيمتُها يوم تخون عهدها، وأنّ الوفاء أساسُ قيامِ المجتمعات المستقرّة.

2 - أنّ حمايةَ المظلومِ واجبٌ شرعي، فلم يترك النبيُّ ﷺ خُزاعةَ تستغيث عبثاً، بل جعل نصرتَهم واجباً دينياً وسياسياً. وفي هذا تعليمٌ بأنّ قوّةَ الدولة تُقاس بقدرتِها على نصرة المقهورين وردِّ الظُّلمِ عنهم.

3 - حكمةُ السّرّيةِ في التخطيط، إخفاءُ النبيِّ ﷺ للوجهة حتى عن بعض خاصّته كان صمّامَ أمانٍ للخطة كلّها. فالنصرُ يحتاج إلى إعدادِ الظاهرِ والباطن، وإلى ثقةٍ تامّة بأنّ السّرّ كالسيف، إنِ انكشفَ انكسَر.

4 - أنّ ضبطَ الجبهة الداخليّة جزءٌ من النصر، حادثةُ حاطبٍ لم تُهمَل، بل وُضعت في ميزانِ العدلِ والتحقيق، مع فهمٍ للنيات والظروف. فالدولةُ

الراشدة لا تُحاكمُ النّاس بالشبهات، ولا تترك الثّغراتِ مفتوحة.

5 ـ أنّ القيادةَ لا تتردد عند ساعة القرار، لمّا تبيّن نقضُ العهد، لم يتردد النبيّ ﷺ لحظةً في إعداد الجيش. فالترددُ في لحظاتِ المصير يهدمُ الجيوش قبل أن تلتقي بالسيوف.

6 ـ أنّ النصرَ يبدأ من الإيمان، كان دعاءُ النبيّ ﷺ بإخفاء الأخبار عن قريش عملاً إيمانياً بقدر ما هو عسكري. فالنصرُ هِبةٌ من السّماء قبل أن يكون خطوةً من الأرض.

7 ـ أنّ الفتحَ الحقيقيّ يسبقُه فتحُ القلوب، إسلامُ العبّاس ثمّ أبي سفيان قبل دخولِ مكّة كان إيذاناً بأنّ القلوبَ بدأت تلينُ للحق. فالهدايةُ أعظمُ من الغلبة، والفتحُ الأعظم هو فتحُ النفوس.

8 ـ أنّ الهيبةَ جزءٌ من النصر، رؤيةُ أبي سفيان للكتائب تمرّ أمامه كتلةً واحدة زرعت في قلبه اليقين بأنّ المقاومة عبث. فالهيبةُ سلاحٌ صامتٌ يُنجز ما لا تُنجزه السيوف.

9 ـ أنّ العفوَ يهزمُ قلوباً ما هزمتها السيوف، جملة اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء لم تكن إعفاءً فقط، بل نقطةَ تحوّلٍ تاريخيّة. فقد وُلدت بها أمّةٌ جديدة، وذابت بها نارُ الانتقام من صدور المهزومين.

10 ـ أنّ الفتحَ بلا قتالٍ أكرمُ من الفتح بالسّلاح، دخولُ مكّة بلا دماء تقريباً كان نصراً من طرازٍ خاص. ففيه بيانٌ أنّ الهدف ليس الهدم، بل إصلاحٌ يفتح صفحةً جديدة مع التاريخ.

11 ـ أنّ تكسيرَ الأصنامِ يبدأ بتكسير الأوهام، سقوطُ ثلاثمّائةٍ وستّين صنماً كان سقوطاً للأفكارِ التي كبّلت العقول. فالأصنامُ ليست حجارةً فقط، بل تصوّراتٌ فاسدة تحتاج شجاعةً لتحطيمها.

12 ـ أنّ الشجاعةَ ليست قتلاً، بل قدرةٌ على كظم الغيظ، العفوُ عن المؤذين مع القدرةِ على القصاص درسٌ في ضبطِ النفس. فالقوّةُ الحقيقية هي أن

تملك العقوبة ثمّ تختار الصفح.

13 ـ أنّ الكعبة لها أهلُها، إعادةُ المفتاح إلى بني شيبة رغم تغير الظروف احترامٌ للحقوقِ التاريخيّة. وجملة خالدة تالدة إعلانٌ لثباتِ العدل فوق المصالح السياسيّة.

14 ـ أنّ رفعَ بلالٍ للأذان انتصارٌ للإنسان، كان الأذانُ من فوق الكعبة لحظةَ انتصارٍ للفقراء والمقهورين. فالإسلامُ يرفعُ من قدر المرء بما يحملُه لا بما يملك.

15 ـ أنّ المجرمين الكبار لا يُعفى عنهم باسم التسامح، إهدارُ دماءِ كبار المجرمين رغم العفو العام رسالةٌ بأنّ الجرائمَ الكبرى لا تُغتفر. فالتسامحُ لا يعني الإفلاتَ من العقاب.

16 ـ أنّ الرحمةَ لا تُلغي العدل، العفوُ كان واسعاً، لكن الحدودَ بقيت كما هي. فالرحمةُ إطارٌ، والعدلُ أساس.

17 ـ أنّ اختلافَ النفوس طبيعي في الأزمات، خوفُ الأنصار من بقاء النبيّ ﷺ بمكّة لم يكن جحوداً، بل بشريّةً صادقة. فجاء الردّ النبويّ ليحتضن قلوبهم.

18 ـ أنّ القيادة تُسكنُ القلوب بكلمةٍ واحدة، قوله ﷺ المحيا محياكم أنهى حيرةً كانت تكبز في الصدور. فالكلمةُ العادلةُ تعدلُ جيشاً في أثرها.

19 ـ أنّ الحلمَ فوق الغضب منهجٌ نبوي، عفا النبيُّ ﷺ عمّن آذوه وهو قادرٌ على الانتقام. وهذا ذروةُ السموّ الأخلاقي.

20 ـ أنّ الدولة القويّة لا تُصادر التاريخ، لم ينتزع النبيُّ ﷺ السدانةَ والسقاية ليُكرِم نفسه، بل أعادها لأهلها. فالسلطةُ ليست فرصةً للغنيمة.

21 ـ أنّ الضعيفَ قد يصبح قويّاً بالإيمان، كان بلالٌ عبداً بالأمس، فإذا هو فوق الكعبة اليوم. فالإيمانُ بابُ الارتقاء الحقيقي.

22ـ أنّ زوالَ الجاهليّة يعني زوالَ العصبيّة، تحويلُ معيارِ الشرفِ إلى

التقوى بدلاً من النسب تغييرٌ جذريّ للعقل العربي.

23 ـ أنّ النجاح لا يكون إلا بوحدة الصفّ، تحرك عشرة آلاف رجل كأنهم جسدٌ واحد أعطى الفتح قوّته ورهبته. فالوحدةُ روحُ النصر.

24 ـ أنّ الدولة الإسلامية دولةُ عهودٍ لا انتقام، لم يُقتل أحدٌ لأنّه مشرك، بل فقط أصحابُ الجرائم المحدّدة. وهذا ميزانٌ يُعلي قيمة العدالة.

25 ـ أنّ المهابة ليست قسوة، بل مهابةُ الحقّ، الكتيبةُ الخضراء كانت رمزَ قوّة، لكنّها لم تكن قمعاً، بل جيشاً يفتحُ القلوب قبل الدور.

26 ـ أنّ العودةَ إلى الوطن ليست انتصاراً للمكان، لم يجعل النبيُّ ﷺ مكّة عاصمةً رغم أنّها أحبُّ البلاد إليه. فالرسالةُ فوق العاطفة.

27 ـ أنّ القيادة حين تتواضع ترتفع، دخل النبيُّ ﷺ مكّة مطأطئَ الرأس، فكان تواضعُه فتحاً آخرَ للقلوب.

28 ـ أنّ إصلاح المجتمع يبدأ بإصلاح المرأة، بيعةُ النساء كانت مشروعاً لإعادة بناء الضمير الأسريّ والاجتماعيّ.

29 ـ أنّ الإسلام مشروعُ أخلاقٍ لا مجرّد طقوس، بُنودُ البيعة كلّها أخلاقية قبل أن تكون عبادية. فالأخلاقُ روحُ الدين.

30 ـ أنّ فتح مكّة النموذجُ الخالد للفتحِ النظيف، فتحٌ لا دماءَ فيه إلا بحق، ولا إذلالَ فيه لأحد. فتحٌ يُعيدُ النّاس إلى الله قبل أن يُعيدَ الأرضَ إلى أهلها.

غَزْوَةُ حُنَينٍ!

إذْ أعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ!

في الصَّباحِ الذي أعقبَ فتحَ مكّةَ، كانتِ الجزيرةُ العربيّةُ كلُّها تُصغي لنبضِ خُطوةٍ واحدةٍ؛ خُطوةِ محمّدٍ ﷺ وهو يطوي صفحةَ الجاهليّةِ ليكتبَ مجدَ الرِّسالةِ في السُّطورِ الأخيرةِ من أرضِ الحَزمِ. وبينما انطفأت نارُ قريشٍ، كانت شرارةُ هَوازِنَ وثَقيفٍ تتّقِدُ، تأبى أن ترى سُلطانَ الإسلامِ يمتدُّ إلى ديارِها بلا نِزالٍ.

خرجت هَوازِنُ وثَقيفُ طَوعًا للقتالِ، لا دِفاعًا عن دارٍ، بل ظنًّا أنّهم قادرون على ردِّ موجةِ التّوحيدِ قبلَ أن تكتمل. جمَعوا السِّلاحَ والرِّجالَ، واصطحبوا معهم النِّساءَ والذَّراريَّ والأموالَ، ليُعلنوا أنَّ المعركةَ ليست معركةَ أرضٍ فحسب، بل معركةُ بقاءٍ لكِبرياءِ القبيلةِ.

وفي المقابلِ، كان جيشُ المسلمينَ في ذلك اليومِ أعظمَ ما كان عددًا، اثنَي عشَرَ ألفًا؛ فقال قائلٌ منهم، ونطقت به بعضُ النُّفوسِ: «لَنْ نُغْلَبَ اليومَ مِن قِلَّةٍ». لتظهرَ الفتنةُ الأولى في تاريخِ التّمكينِ: غَفلةُ النّصرِ حين يركنُ القلبُ إلى الكثرةِ، ويَنسى أنَّ النّصرَ لا يُكتبُ على أطرافِ السُّيوفِ، بل على صفحاتِ القلوبِ.

ثمّ كان الامتحانُ، فما إن دخل المسلمون وادي حُنينٍ بين الجبالِ، حتّى انطلقت عليهم السِّهامُ مِن كلِّ شِعبٍ، فارتدَّ الجيشُ في لحظةٍ خاطفةٍ، وترَكَ الغرورُ جدارًا هشًّا لا يُسنِدُ صفًّا ولا يَنصرُ حقًّا.

هنالك تقدّم النّبيُّ ﷺ وحده في قلبِ العاصفة، ظَهرُهُ إلى الأعداءِ لا يَنثني، وثباتُه كأنّه جَبَلٌ يُجاهِدُ الرِّيحَ، يُنادي في أحلَكِ اللّحظاتِ: «أنا النّبيُّ لا كَذِب، أنا ابنُ عبدِ المُطّلِب».

ففي تلك الصَّيحةِ انكسرتِ الهزيمةُ قبل أن تُنكسرَ السُّيوفُ.

فعاد الجيشُ إلى يقظتِه، وظهر أنَّ اليقينَ إذا نَهَضَ نَهَضَت معه الأرضُ

والسماء، حتى تحوّل الاضطرابُ إلى فتحٍ، وتحوّلت العبرةُ إلى عزة، وتحوّل وادي حُنينٍ من فزعٍ مُباغتٍ إلى نصرٍ مُبينٍ!

هذه كانت حِكايةُ غزوةِ حُنينٍ بعناوينها العريضة، أمّا تفاصيلها فكما يلي:

سقطت قُرَيش بالضّربةِ القاضيةِ يومَ الفتح، وكسر النّبيّ ﷺ أصنام الجاهليّةِ، وحين كان من المفترضِ أن تُذعِنَ هوازِنُ وثقيفُ ومَن معهما، وهم يرونَ أنّه لا خيرَ في دينهم، ولا آلهتِهم التي لم تستطع أن تدفعَ عن نفسها، ولا عن قُرَيش!

قامَ الجمعُ تُحرّكهُ حَمِيّةُ الجاهليّةِ، وشكّلوا جيشًا كبيرًا، وجعلوا على رأسِهِ مالكَ بنَ عوفٍ، ومضوا إلى قتالِ المسلمينَ!

سارَ مالك بنُ عوفٍ إلى حربِ المسلمين، وساقَ معَ النّاس أموالَهم ونِساءَهم وأبناءَهم، حتّى نزلَ بأوطاس، وهو وادٍ قريبٌ من حُنينٍ حيثُ دارت رَحى المعركةِ! فاجتمعَ إليه النّاس، وفيهم دُريدُ بنُ الصِّمّةِ، وهو شيخٌ كبيرٌ ليسَ فيه إلّا رأيُهُ ومعرفتُهُ بالحرب، وكان شجاعًا مُجرّبًا. فقال دُريد: بأيِّ وادٍ أنتم؟

قالوا: بأوطاس.

قال: نِعْمَ مجالُ الخيلِ، لا حَزْنٌ ضَرِسٌ، ولا سهلٌ دَهِسٌ. ما لي أسمعُ رُغاءَ البعيرِ، ونُهاقَ الحمارِ، وبكاءَ الصبيّ، وثُغاءَ الشّاءِ؟

قالوا: ساقَ مالك بنُ عوفٍ معَ النّاس نِساءَهم وأموالَهم وأبناءَهم!

فدعا مالكًا، وسأله عمّا حملهُ على ذلك، فقال: أردتُ أن أجعلَ خلفَ كلِّ رجلٍ أهلَهُ ومالَهُ ليُقاتِلَ عنهم!

فقال: راعي ضأنٍ واللهِ! وهل يَرُدُّ المُنهزِمَ شيئًا؟! إن كانت لك، لم ينفعْكَ إلّا رجلٌ بسيفِه ورُمحِه، وإن كانت عليك، فُضِحتَ في أهلِكَ ومالِكَ.

ثمّ سأل عن بعضِ البطونِ والرؤساءِ.

ثمّ قال: يا مالك، إنّك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا. ارفعْهم إلى مُمتنع بلادهم وعلياء قومهم، ثمّ ألقِ الصّبية على متون الخيلِ، فإن كانت لك لَحِقَ بك مَنْ وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزْتَ أهلك ومالَك.

ولكنْ مالِكًا رفض هذا الطلبَ، وقال: واللهِ لا أفعلُ! إنّك قد كبرْت وضاع عقلُك! واللهِ لتُطيعُنّي هوازنُ، أو لأتّكِئَنّ على هذا السّيفِ حتى يخرج من ظهري! وكرِهَ أن يكونَ لدريدٍ فيها ذِكرٌ أو رأيٌ، فقالوا: أطعناك.

فقال دريدٌ: هذا يومٌ لم أشهَدْه ولم يَفُتْني!

وجاءت إلى مالكٍ عيونٌ كان قد بعثَهم للاستكشافِ عن المسلمين، جاءت هذه العيونُ وقد تفرّقت أوصالُهم. قال: ويلَكم، ما شأنُكم؟

قالوا: رأينا رجالًا بِيضًا على خيلٍ بُلْقٍ، واللهِ ما تماسَكْنا أن أصابنا ما ترى!

ونُقِلَت الأخبارُ إلى رسولِ الله ﷺ بمسيرِ العدوّ، فبعثَ أبا حَدْرَدٍ الأسلميّ، وأمرَه أن يدخلَ في النّاس، فيقيمَ فيهم حتّى يَعلمَ علمَهم، ثمّ يأتيه بخبرِهم، ففعل.

وخرج رسولُ الله ﷺ في اثني عشرَ ألفًا من المسلمين؛ عشرةُ آلافٍ ممّن كانوا خرجوا معه لفتحِ مكّة، وألفان من أهلِ مكّة، وأكثرُهم حديثو عهدٍ بالإسلامِ. واستعارَ من صفوانَ بنِ أميّةَ مائةَ درعٍ بأداتِها، واستعمَلَ على مكّة عتّابَ بنَ أسيدٍ.

ولمّا كان عشيّةً، جاء فارسٌ، فقال: إنّي طلعتُ جبلَ كذا وكذا، فإذا أنا بهوازنَ على بَكْرَةِ أبيهم بظُعُنِهم ونَعَمِهم وشائهم!

فابتسم رسولُ الله ﷺ وقال: تلك غنيمةُ المسلمينَ غدًا إن شاءَ اللهُ!

وفي طريقِهم إلى حُنينٍ رأَوْا سِدرةً عظيمةً خضراءَ يُقالُ لها: ذاتُ أنواطٍ، كانت العربُ تُعلّقُ عليها أسلحتَهم، ويذبَحون عندَها ويعكُفون. فقال بعضُ أهلِ الجيشِ لرسولِ الله ﷺ: اجعلْ لنا ذاتَ أنواطٍ، كما لهم أنواطٌ.

فقال: اللهُ أكبرُ! قلتم، والذي نفسُ محمّدٍ بيده، كما قال قومُ موسى: اجعلْ لنا إلهًا كما لهم آلهةٌ! إنكم قومٌ تجهلون، إنّها السُننُ، لتركبُنّ سننَ من كان قبلَكم!

وقد كان بعضُهم قال: لن نُغلَبَ اليومَ من قِلّة!

وكان قد شقَّ ذلك على رسولِ الله ﷺ.

وصل الجيشُ الإسلاميُّ إلى حُنينٍ، وكان مالكُ بنُ عوفٍ قد سبقهم، فأدخلَ جيشَهُ بالليل في ذلك الوادي، وفرّقَ كُمناءَهُ في الطُرقِ والمداخلِ، والشِّعابِ والأخباءِ والمضايقِ، وأصدرَ إليهم أمرَه بأن يرشُقوا المسلمينَ أوّلَ ما طلعوا، ثمّ يشدّوا شدّةَ رجلٍ واحدٍ.

وبالسَّحَرِ عبّأ رسولُ الله ﷺ جيشَهُ، وعقدَ الألويةَ والراياتِ، وفرّقَها على النّاسِ. وفي عمايةِ الصبحِ استقبلَ المسلمون وادي حُنينٍ، وشرعوا يَنْحدِرون فيه، وهم لا يَدرون بوجودِ كُمَناءِ العدوِّ في مضايقِ هذا الوادي. فبينما هم ينحطّون إذا هم تُمطِرُ عليهم النبالُ، وإذا كتائبُ العدوِّ قد شدّتْ عليهم شدّةَ رجلٍ واحدٍ، فانشمرَ المسلمون راجعين، لا يَلْوي أحدٌ على أحدٍ، وكانت هزيمةً مُنكرةً!

وانحازَ رسولُ الله ﷺ جهةَ اليمينِ وهو يقولُ: هَلُمّوا إليّ أيُّها النّاس! أنا رسولُ اللهِ، أنا محمّد بن عبدِ اللهِ!

ولم يَبقَ معه في موقفِه إلّا عددٌ قليلٌ من المهاجرينَ وأهلِ بيتِه.

وحينئذٍ ظهرتْ شجاعةُ النبيِّ ﷺ التي لا نظيرَ لها؛ فقد طَفِقَ يَركُضُ بَغلتَه قِبَلَ الكفّارِ وهو يقولُ: أنا النبيُّ لا كَذِب، أنا ابنُ عبدِ المطّلِب!

وأخذ أبو سفيانَ بنُ الحارثِ بلِجامِ بَغلةِ النبيِّ ﷺ، والعبّاس بركابِه، يَكُفّانِها أن لا تُسرِعَ.

ثمّ نزلَ رسولُ الله ﷺ فاستنصرَ ربَّه قائلًا: اللّهمّ أنزِلْ نصرَكَ!

وأمرَ رسولُ اللهِ ﷺ عمَّهُ العبّاسَ، وكان جَهيرَ الصوتِ، أن يُنادي الصّحابةَ!

قال العبّاسُ: فقلتُ بأعلى صوتي: أينَ أصحابُ السَّمُرة؟

قال: فواللهِ لكأنَّ عَطفتَهم حينَ سَمِعوا صوتي عطفةُ البقرِ على أولادها!

فقالوا: يا لبيك، يا لبيك.

ويذهبُ الرَّجُلُ لِيَثْنِي بعيرَهُ فلا يقدِرُ عليه، فيأخذُ دِرعَهُ فيقذفُها في عُنُقِهِ، ويأخذُ سيفَهُ وتُرسَهُ، ويقتحمُ عن بعيرِه، ويُخلّي سبيلَه، فيؤمُّ الصَّوتَ، حتّى إذا اجتمعَ إليه منهم مائةٌ استقبلوا النّاس واقتتلوا.

وصُرِفَتِ الدّعوةُ إلى الأنصارِ: يا معشرَ الأنصارِ، يا معشرَ الأنصارِ، ثمَّ قُصِرَتِ الدّعوةُ في بني الحارثِ بنِ الخزرجِ، وتلاحقت كتائبُ المسلمينَ واحدةً تلوَ الأخرى ممن كانوا تركوا الموقعةَ.

وتجالدَ الفريقانِ مُجَالدةً شديدةً، ونظر رسولُ اللهِ ﷺ إلى ساحةِ القتالِ وقد استحرَّ واحتدم، فقال: الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ.

ثمَّ أخذ رسولُ اللهِ ﷺ قبضةً من ترابِ الأرضِ، فرمى بها في وجوهِ القومِ وقال: شاهتِ الوجوهُ، فما خلقَ اللهُ إنسانًا إلّا ملأَ عينيهِ ترابًا من تلك القبضةِ، فلم يَزَلْ حَدُّهم كليلًا وأمرُهم مُدبِرًا.

وما هي إلّا ساعاتٌ قلائلُ بعدَ رمي القبضةِ حتّى انهزمَ العدوُّ هزيمةً مُنكَرَةً، وقُتِلَ من ثَقيفٍ وحدَهم نحوَ السّبعينَ، وحازَ المسلمون ما كان مع العدوِّ من مالٍ وسلاحٍ وظُعنٍ.

ولمّا انهزمَ العدوُّ صارت طائفةٌ منهم إلى الطّائفِ، وطائفةٌ إلى نَخْلَةَ، وطائفةٌ إلى أوطاسَ، فأرسلَ النبيُّ ﷺ إلى أوطاسَ طائفةً من المطاردينَ يقودهم أبو عامرٍ الأشعريُّ، فتناوشَ الفريقانِ القتالَ قليلًا، ثمَّ انهزمَ جيشُ المشركينَ، وفي هذه المناوشةِ قُتِلَ القائدُ أبو عامرٍ الأشعريُّ.

وطاردت طائفةٌ أخرى من فرسانِ المسلمينَ فُلولَ المشركينَ الذين سلكوا نَخْلَةَ، فأدركتْ دُريدَ بنَ الصِّمَّةِ فقتلَهُ ربيعةُ بنُ رفيعٍ.

وأمّا معظمُ فُلولِ المشركينَ الذين لجؤوا إلى الطائف؛ فتوجه إليهم رسولُ اللهِ ﷺ بنفسِه بعد أن جمعَ الغنائم.

ولأنّ السّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمّ الدّروس المُستفادة من غزوةِ حُنين:

1 ـ الغرورُ هو الهزيمةُ قبلَ الهزيمةِ، لقد كان المسلمون يومَ حُنينٍ في ذروةِ القوّةِ، اثني عشرَ ألفًا لم يجتمع لهم مثلُها من قبلُ، لكنّ بعضَ القلوبِ تعلّقت بالكثرةِ، فكان السقوطُ سريعًا ومفاجئًا. يُعلّمنا هذا الدرس أنّ الأمانَ من مكرِ الله أخطرُ من الخوفِ من العدوّ، وأنّ الغرورَ يُطفئُ نورَ التّوفيقِ قبل أن تُرفَعَ السّيوف.

2 ـ أنّ النّصرَ لا يُكتَبُ إلّا بحضورِ القلبِ معَ اللهِ، لمّا عاد الذّكرُ إلى القلوبِ، وصحا الإيمانُ من غفلتِهِ، تبدّلَ المشهدُ من تراجعٍ مُباغتٍ إلى نهوضٍ عجيبٍ. وهكذا، لا يَنتصرُ المؤمنُ بعددٍ ولا سلاحٍ، بل بصدقِ توكّلِه، فمَن انقطع عن قوّةِ السّماء عجزَت عنه قوى الأرضِ.

3 ـ صلابةُ القيادةِ هي آخرُ الحصونِ، حين اضطربَ الصّفُّ واضطربت النّفوسُ، بقي النبيُّ ﷺ وحدَه ثابتًا، يُنادي بأعلى صوتِه: «أنا النّبيُّ لا كَذِب، أنا ابنُ عبدِ المُطّلِب» فاطمأنّ الجنودُ واستعادوا توازُنَهم. القيادةُ التي تَثبُت عند العاصفةِ هي التي تحفظُ للأمّةِ بقيّةَ الرجاءِ، وهي السّدُّ الأخيرُ قبلَ الهزيمةِ.

4 ـ الابتلاءُ بعدَ النّصرِ سُنّةٌ تربويّةٌ، جاءت حُنينُ بعدَ فتحِ مكّةَ مباشرةً، لتزرعَ في قلبِ الأمّةِ أنّ تمكينَ اللهِ ليس نهايةَ العملِ، بل بدايتُه. فالفتنةُ بعدَ النّصر أشدُّ من الفتنةِ قبلَه، إذ تريدُ النفسُ أن تستريحَ، ويأتي البلاءُ ليصنعَ جيلًا لا يغترُّ ولا يَنكسرُ.

5 ـ أنّ الجيوشَ تُهزَمُ في النّفوسِ قبلَ أن تُهزَمَ في الساحاتِ، لم يكن تراجعُ المسلمين لقلّةِ سلاحٍ، بل لضعفٍ في القلبِ حين باغتهم العدوُّ من كلّ جهةٍ. ومن هنا نتعلّمُ أنّ أوّلَ معركةٍ يجبُ أن تُحسَمَ هي معركةُ الداخلِ، فالهزيمةُ

6 ـ أنّ التوبةَ بابٌ مفتوحٌ حتى لأعدى الأعداء، هوازن وثقيف، اللتان خرجتا لمحاربتِهِ، عاد خيارُهما إلى الإسلامِ بعدَ الهزيمةِ، فصاروا جنودَ العقيدةِ بدل أن يبقَوا أعداءَها. هكذا يفتحُ اللهُ للناسِ بابًا إذا رأوا الحقَّ رأيَ العين. فلا يُغلَقُ بابُ العودةِ ما دام في القلبِ نبضٌ يَقِظٌ.

7 ـ أنّ القيادةَ الراشدةَ تُعيدُ ترتيبَ الصفوفِ قبلَ الانتقامِ، لم ينشغِلِ النبيُّ ﷺ بلَومِ المُنهَزِمين وهم ما زالوا في حمّى الصّدمةِ، بل جمَعَهم، وأعاد توجيهَهم، حتّى عادوا إلى القتالِ وانتصروا. فالقائدُ الحكيمُ لا يُحاسِبُ في لحظةِ الانهيارِ، بل يُصلحُ النّفوسَ أوّلًا، ثمّ يُقوّمُ الأخطاءَ بعد عبورِ الخطرِ.

8 ـ أنّ الشدائدَ تصنعُ رجالَها، في وسطِ الاضطرابِ برزَ الأبطالُ، وانكشفَ المعدنُ الأصيلُ من الزائفِ؛ فبانَ الشجاعُ الذي يثبتُ، والضّعيفُ الذي ينهزمُ، والمنافِقُ الذي يَفِرُّ. والشّدائدُ محكٌّ تكشفُ حقائقَ الرجالِ، وتكتبُ أسماءَهم في صحائفِ التاريخِ.

9 ـ أنّ الأمنَ مِن مكرِ اللهِ أخطرُ مِن الخوفِ مِن العدوِّ، انشغَلَ بعضُ المسلمين يومَ حُنينٍ بالنّصرِ المتوقّعِ أكثرَ من انشغالِهم باللهِ، فكان الدرسُ الإلهيُّ صارخًا: لا تأمنْ طريقَك وإن رأيتَ الفتحَ قريبًا، فإنّ لحظةَ الاطمئنانِ المفرطِ قد تكونُ أوّلَ خطوةٍ في الهاويةِ.

10 ـ أنّ اللهَ يُعلّمُ الأممَ بالهزيمةِ كما يُعلّمُها بالنّصرِ، لو انتصر المسلمون من اللّحظةِ الأولى لَما شعروا بالخطرِ، ولَما تعلّموا أنّ القوّةَ قد تتحوّلُ إلى ضَعفٍ إذا غاب عنها الإيمانُ. فكان هذا الدرسُ الخالدُ: عليك أن تُبذِلَ الأسبابَ، أمّا النّصر فبِيَدِ اللهِ وحدَه، يرفعه إن شاءَ بكلمةٍ، ويؤخّره إن شاءَ لحكمةٍ.

إلى دِيارِ ثقيف!

لمّا اسودّت سماءُ هَوازِنَ بهزيمتهم في حُنين، وتفرّقت جموعُهم كأوراقٍ ذَرّتها ريحُ النّصر بلا رحمة، تبقّى في قلبِ الزمانِ صخرةٌ صلبةٌ تُقاوِم الريح وحدَها؛ ثَقيفُ التي آثرت العنادَ على الاعترافِ بالحقّ، واختارت الاحتماء بأسوارِ الطّائف بدلَ أن تُسلّمَ للحقِّ قيادَها.

هناك، ارتفعت الطّائف كقِلاعٍ شاهقةٍ تُعاند الأقدار، تمتدُّ بحدودها فوق سفوحِ الجبال، وسيوفُها تتربّصُ بكلِّ قادمٍ من سهولِ الفتح. ظنّوا أنّ ارتفاعَهم عن الأرضِ يحميهم من سطوةِ السّماء، وأنّ من ضاقت به المعركةُ في وادي حُنين لن يبلغَ هذه الحصونَ التي نسجت خوفًا في صدرِ كلِّ محاصرٍ .

لكن جاءهم النّبيُّ ﷺ بجيشٍ يزحفُ وبقلبٍ لا يلين، يحملُ في يمينه رايةً لا تسقط، وفي يساره كتابًا لا تُغلبُ معه أمّةٌ آمنت بأنّ اللهَ معها. أقبل من وادي حُنين كالسّيلِ الذي عرف طريقه أخيرًا، لا يريد غنيمةَ حربٍ، بل يريدُ أن يهديَ مدينةً ضلَّ أهلُها فاستعلَوا بعصبيّةٍ لا تُنجي، وتمرّدٍ لا يدوم.

احتشدَتْ ثَقيف خلفَ أسوارِها العالية، تُخبّئ الهزيمةَ خلفَ أبْوابٍ من حديدٍ، وترمي سهامَ يأسِها من فوقِ أبراجٍ ما طالَتْ سموَّ الرّسالةِ يومًا. وأقبل النبيُّ ﷺ يطوقُ الطّائف كأنّ الشّمس تُحاصرُ ظلًّا يحاولُ الهربَ من ضيائها!

تبدّلت الأدوار: المحاصرُ أمسِ أصبح اليومَ مُحاصرًا، والقوةُ التي كانت تتباهى خلفَ الجدارِ باتت ترتجفُ في انتظارِ قدرِها!

تلك كانت حِكايةُ الطّائف الأخيرة قبل أن تدخلَ في دين اللهِ، ولكن في الحكاية تفاصيل، وكلُّ أمرِ التّاريخِ في التفاصيل!

بعد توزيعِ الغنائم التي غنمها المسلمون في حُنين، أقبلَ وَفدُ هَوازِنَ

مسلمًا، وسألوا رسولَ اللهِ ﷺ أن يردّ عليهم سبيهم وثروتهم!

فقالَ لهم: إنّ معي مَن ترَون، وإنّ أحبّ الحديث إليّ أصدقُه. فأبناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم أم أموالُكم؟

قالوا: ما كنّا نعدِلُ بالأحسابِ شيئًا.

فقامَ رسولُ اللهِ ﷺ في المسلمينَ، فأثنى على اللهِ بما هو أهلُه، ثمّ قال: أمّا بعدُ، فإنّ إخوانكم هؤلاءِ قد جاءوا تائبين، وإنّي قد رأيتُ أنْ أردّ إليهم سبيَهم، فمَن أحبّ أنْ يُطيبَ ذلك فليفعَل، ومَن أحبّ منكم أنْ يكونَ على حظِّه حتّى نُعطيَهُ إيّاهُ من أوّلِ مالٍ يَفيءُ اللهُ علينا فليفعَل.

فقالَ النّاس: قد طَيّبنا ذلك يا رسولَ اللهِ. فقالَ لهم: إنّا لا ندري مَن أذِنَ منكم مِمّن لم يأذن، فارجِعوا حتّى يرفَعَ إلينا عُرَفاؤكم أمرَكم.

فرجعَ النّاس فكلّمَهم عُرَفاؤهم، ثمّ عادوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ يُخبِرونَه أنّهم قد طَيّبوا وأذِنوا.

أمّا ثَقيفُ فإنّها، بعدَ أنْ تراجعت مُنهزِمةً، دخلَت حصونَها، وتهيّأت فيها لِحصارٍ طويلٍ، وعرَفَ المسلمونَ أنّ القومَ لا يزالونَ على إصرارِهم والبقاءِ على جاهليّتِهم، وأنّ الخسائرَ الّتي لحِقَت بهم لم تكسِرْ شوكتَهم ولم تُرهِق عزيمتَهم، فقرّروا السّيرَ إليهم ومُناجَزَتَهم، وللمسلمينَ خِبرةٌ قديمةٌ بهذا الأسلوبِ من القتالِ، فقد حاصَروا وحوصِروا، وعرَفوا أنجحَ طرائِقِ الهجومِ والدّفاعِ.

ونهضَ رسولُ اللهِ ﷺ بجيشِهِ حتّى اقترَبَ من الطّائف، فعسكرَ حولَها، وأخذَت ثَقيفُ من حصونِها تَقذِفُ النّبالَ، فأُصيبَ نفرٌ من المسلمينَ، واضطرّ الجيشُ أنْ يُؤخّرَ مواقِعَهُ حتّى لا تستهدِفَ لِقذائفِهم.

ويَظهَرُ أنّ النّبيّ ﷺ لم يَحرِصْ على اقتحامِ الحصونِ واستِنزالِ أهلِها قسرًا كما فعَلَ ببني إسرائيلَ، لقد أمّلَ فيهم خيرًا، وأدارَ المعركةَ حولَهم في حدودِ الأسوارِ، وكانَ هذا مبدأً في جهادِ الرّسولِ ﷺ، لا يلجأُ إلى القسوةِ إلّا

وبعدَ أن طالَ الحِصارُ عليهم، وكثرتِ الجراحُ بين الصفّين، وبقيت الحصونُ مُغلقةً ضيّقةً، وبضحايا يسيرةٍ، وظلَّ يُحاصرُهم خمس عشرة ليلةً. ثمّ بَدا له أنْ يَدَعَهم وشأنَهم، وأشارَ على المسلمين بذلك، فرغبوا أوّلًا في إطالةِ حِصارِها حتّى تُفتَحَ عليهم، ثمّ نزلوا أخيرًا على رأيه.

ورُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ استشارَ نوفَلَ بنَ مُعاوية، فقال: يا نوفل! ما ترى في المُقامِ عليهم؟

فقال: يا رسولَ الله! ثعلبٌ في جُحرٍ، إنْ أقمتَ عليهِ أخذتَه، وإنْ تركتَه لم يَضُرَّك!

فأمرَ النبيُّ ﷺ عمرَ بنَ الخطّابِ أنْ يُؤذِّنَ في النّاس بالرَّحيلِ.

فلمّا قَفَلَتْ بهم المطايا قالوا: يا رسولَ الله! أحرقَتْنا نِبالُ ثقيفٍ، فادعُ اللهَ عليهم.

فقال: اللهمّ اهدِ ثقيفًا!

ولم يَطُل بقاءُ ثقيفٍ على شِركِها، فما هي إلّا شهورٌ قلائلُ حتّى أرسلوا وَفدَهم إلى المدينةِ يُخبِرونَ النبيَّ ﷺ برَغبتِهم في الإسلامِ، وانفِساحِ قلوبِهم له.

ولمّا كانَ أهلُ مكّةَ حَدَثاءَ عَهدٍ بالإسلامِ، وفِقهُهُم في أحكامِهِ ومَرامِيهِ قليلًا، فإنّ النبيَّ ﷺ خلَّفَ فيهم مُعاذَ بنَ جَبَلٍ رضي الله عنه يُعلِّمُهم كِتابَ ربِّهم وسُنّةَ نبيِّهم.

وجَعَلَ عتّابَ بنَ أَسيدٍ رضي الله عنه أميرًا على مكّةَ، وعُمرُهُ يومئذٍ عِشرونَ سنةً.

وكانَ عتّابُ شابًّا ذكيًّا، قنوعًا، شُجاعًا، وقد تقرَّرَ له مِن مالِ المسلمينَ دِرهمٌ كُلَّ يومٍ، وهو مُرتّبُ الإمارةِ، فقرَّتْ بذلك عينُهُ، بل إنّهُ خطبَ النّاس فقال: أيُّها النّاس، أجاعَ اللهُ كَبِدَ مَن جاعَ على دِرهمٍ، فقد رَزَقَني رسولُ اللهِ

ﷺ درهمًا كلَّ يومٍ، فليسَتْ بي حاجةٌ إلى أحدٍ.

ولأنَّ السّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروس المستفادة من حصار الطّائف:

1 ـ الهدايةُ غايةُ الجهادِ قبلَ الغَلَبة، فلم يكن رسولُ الله ﷺ يطلبُ فتحًا يرفعُ به ذِكرَه، بل فتحًا يرفعُ به الضالّينَ إلى نورِ الله. ولذلك دعا لثقيف: اللهمّ اهدِ ثقيفًا، لأنَّ القلوبَ إنْ أشرقت بالإسلامِ فقد تحقّق أعظمُ النصر. وما قيمةُ أرضٍ تُفتحُ وسكّانُها يرفضون الحقَّ؟

2 ـ النّصر الحقيقيُّ ما غيّرَ القلوبَ. لقد هُزِمَتْ ثقيفُ في حُنينٍ، لكنّها لم تُقهرْ حتّى أسلمَتْ طوعًا. فالنّصرُ الذي يكتفي بالأجسادِ هشّةٌ آثارُه. أمّا النّصر الذي يبلغُ الأرواحَ فهو بقاءٌ وخُلودٌ. وما أحوجَ الدعواتِ إلى نصرةٍ تُبدّلُ المواقفَ لا إلى وثوبٍ على الحصونِ.

3 ـ الحكمةُ تُغلِقُ أبوابَ الدماء، كانَ ﷺ قادرًا على اقتحامِ الطّائف، ولكنّه قدّمَ الحكمةَ على الحِرابِ، لأنَّ الدماءَ إذا سالت بغيرِ ضرورةٍ أورثتِ الجراحَ حقدًا لا يندملُ. فالإقناعُ إذا أمكنَ، فهو خيرٌ من القهرِ، والفتحُ بالقلوبِ أهنأُ من الفتحِ بالقوّة.

4 ـ الصّبرُ جُندٌ لا يُهزَمُ. دامَ الحصارُ خمسَ عشْرةَ ليلةً، والمسلمونَ راسخونَ لا ينسحبونَ خوفًا ولا يندفعونَ تهوّرًا. إنَّ الصبرَ روحُ النّصرِ، والسُّرعةُ في المعاركِ قد تكونُ هزيمةً متنكّرةً. وما انكسَرَ قومٌ صبروا، ولا انتصرَ قومٌ تسرّعوا.

5 ـ القسوةُ ليست بطولةً، ليسَ البطلُ مَن يفتحُ الأبوابَ بالقوّة، بل مَن يعرفُ متى يَكُفُّ السيفَ عنِ الرّقابِ. لقد علّمَ النبيُّ ﷺ الجيوشَ أنَّ في العفوِ فخرًا، وفي الشدّةِ العمياءِ سُقوطًا، وأنَّ البطولةَ الحقّةَ أن تكونَ السيوفُ في أغمادِها ما دامَ في الإصلاحِ مُستندٌ.

6 ـ لكلِّ حصنٍ مفتاحٌ، حصونُ الطّائف كانت حجارةً تُقاوِمُ، لكنَّ مفتاحَها كان دعوةَ خيرٍ، وصبرًا رفيقًا، وزمنًا يُطهّرُ القلوبَ من عنادِها. فالمفاتيحُ ليست

دائمًا من حديد، ولرُبَّ بابٍ لا يفتحه سيفٌ ويفتحه حلمٌ.

7 ـ الإيمانُ أقوى من الحديد، أسوارُ الطائف ارتفعت، ورجالُها استعلوا، ولكنّ الإيمانَ حملَ الفاتحينَ إلى أبوابِها بثقةٍ لا تعرفُ الانهزام. وإذا التقى اليقينُ بالحجارةِ تهاوتِ الصخورُ وبقيَ اليقينُ.

8 ـ من قاتلَ من أجلِ الدُّنيا خسرَ، ثقيفُ خرجت غضبيّةً للقبيلة، والمسلمونَ خرجوا نُصرةً للدِّينِ، ولذا انتصروا هم، وانهزمَ أهلُ العصبيةِ. فالحربُ التي لا هدفَ فيها إلّا الهوى، هزيمتُها مؤكدةٌ ولو علا صهيلُ الخيلِ.

9 ـ الرجوعُ إلى الوراء تقدّمٌ أحياناً، حينَ رأى ﷺ أنّ طولَ الحصارِ لم يعُد يخدمُ الهدفَ دعمهُ الرأيُ الرشيدُ، فعدّلَ المسارَ فوزًا. القائدُ الحقُّ ليس مَن يتمسك برأيِهِ مكابرةً، بل مَن يُراجِعُ نفسَهُ لئلّا يضلَّ الطريقُ.

10 ـ الخوفُ آخرُ معاقلِ الكِبرِ، تساقطتْ حجارةُ الكبرياءِ مِن صدورِ ثقيفٍ رهبةً من الحقِّ، وإنْ وقفتْ أسوارُهم عاليةً. فالجبالُ تخشى مَن يجيءُ باسمِ اللهِ أكثرَ ممّا تخشاهُ مِن حاملِ السِّنانِ.

11 ـ الدعوةُ قد تؤتي ثمارَها بعد حينٍ، لم يُسلموا تحتَ الحصارِ، ولكن بعدةِ بشهورٍ؛ فكأنَّ البذورَ التي زُرِعتْ يومَ الطائف أثمرتْ هدايةً بعد أن نضجتِ الأرضُ مِن داخلها. فلا تعجلْ على النّاس، فَلِلقلوبِ أوقاتٌ تنضُجُ فيها.

12 ـ النُّصرةُ ليست دائمًا بفتحٍ عاجلٍ، خرجَ المسلمونَ مِن الطّائف دونَ اقتحامِها، ومع ذلك عادُوا بالنصرِ. فالهزيمةُ في ظاهرِ المعركةِ قد تكونُ انتصارًا في ميزانِ السَّماء، والمقياسُ ليس فَتْحَ الحصونِ بل فَتْحَ القلوبِ.

13 ـ أهلُ القرآنِ هم بُناةُ المجتمعِ، لم يُبقِ النبيُّ ﷺ الجندَ فقط، بل أبقى مُعلِّمًا يُنيرُ الدّربَ. فبناءُ الأمةِ لا يتمُّ بسيوفِها، بل بكُتبِها وعلمائِها، ومُعاذُ بنُ جبلٍ دليلٌ على أنّ الإصلاحَ يبدأُ مِنَ العقولِ.

14 ـ القيادةُ تُوزَّعُ بالكفاءةِ لا بالسّنّ، عتّابُ صاحبُ العشرينَ عامًا تولّى مكّةَ، فالعبرةُ ليست بعددِ السنين، بل بصفاءِ القلبِ وقوّةِ العقلِ. وهل تُقاسُ

القيادةُ بشيبٍ في الرأسِ أم بنورٍ في البصيرة؟

15 ـ الرّسالةُ أكبرُ من المكانِ، تركَ المسلمونَ مكّةَ بعدَ فتحها، فعرفَ النّاس أنّ الوطنَ الحقيقيَّ ليس حجارةً ولا بيوتًا، بل مبادئَ تُولدُ بها الحياةُ. المدينةُ ليست سكنًا فحسب، بل سكينة!

غَزْوَةُ تَبُوكَ!

إلى عُقْرِ دِيارِ الرُّومِ!

كانتِ الجزيرةُ يومئذٍ كالصّدرِ الذي هاجتْ فيه أنفاسُ العواصفِ؛ الإسلامُ يَمتدُّ كالنّهارِ في أرضِ العَرَبِ، وقُلوبُ الأُمَمِ حولَهُ ترتجفُ خشيةً من ضياءٍ لا يَعرفُ الانطِفاءَ.

ومِن وراءِ الرِّمالِ البعيدةِ، حيثُ تُرفرِفُ راياتُ الرُّومِ على ثُغورِ الشّامِ، كانتِ الأخبارُ تَتوالى بأنَّ عرشَ قيصرَ قدِ انزعَجَ لِما يَجري في الجَنوبِ؛ دِيانةٌ تَتنفَّسُ في القُلوبِ، وجُموعٌ تُبايِعُ على الموتِ دونَ أن تُرتدَّ خُطاها.

هُنالِكَ سَرَتْ نُذُرُ الحَربِ في الهَواءِ، وتحدَّثَتِ الرُّومُ أنْ قد حانَ الوَقتُ لإطفاءِ هذا النُّورِ قَبلَ أنْ يَملأَ الدُّنيا.

فأُبلِغَ النبيُّ ﷺ بأنَّهم جمَعوا الجُموعَ واصطَفُّوا يَستعِدّونَ للغَزوِ نحوَ مدينةِ الوَحيِ. فلم يَكُنْ أمامَ المسلمينَ إلّا أن يَحمِلوا الرِّسالةَ إلى أعدائِها قبلَ أنْ يَطرُقوا أبوابَها؛ فقد شاءَ اللهُ أنْ تكونَ كَلِمةُ الحَقِّ هي السّابِقةَ لا التّابِعةَ، والهُجوميّةَ لا المُنفعِلَةَ.

فدَعا النبيُّ ﷺ إلى النَّفيرِ العامِّ، يَومٌ مِن أيّامِ الإيمانِ العظيمِ لا يُنادَى فيهِ إلّا الصّادِقونَ. خَرابُ البُيوتِ في الهَجيرِ، والنَّفسُ عَطشى، والزّادُ قَليلٌ، والطَّريقُ طويلٌ إلى أقصى الشَّمالِ، ولكنَّ اللهَ مع مَن خَرَجَ في سبيلِهِ.

خَرَجَ جيشُ العُسرَةِ لا يَحمِلونَ الوَفرَةَ، بل يَحمِلونَ اليَقينَ، ولا يَتَّكِئونَ على كَثرَةِ المالِ والزّادِ، بل على وَعدٍ مِن السَّماءِ: أنَّ مَن سارَ تَحتَ رايةِ محمّدٍ ﷺ فلن يُضيِّعَهُ اللهُ.

وهكذا تَحرَّكَتِ المدينةُ خَلفَ نَبيِّها كالقَلبِ الذي نَبَضَ دَفعةً واحدةً نحوَ العُلا، تَنتزِعُ مِن الصَّحراءِ خُطواتِ مَجدٍ جديدٍ، وتَكتُبُ لِلتّاريخِ صَفحةً مِن نورٍ في لَهيبِ القيظِ ومَرارةِ الفَقرِ لكنَّها كانَت صَفحةَ عِزٍّ لا يَطالُهُ الغُبارُ.

فهنا تبدأ حكايةُ تبوك، آخرُ غزواتِ الرسولِ ﷺ، وأعظمُها صبرًا، وأجلاها صدقًا، وأشدُّها امتحانًا للنفوسِ والولاءِ.

من كانَ يصدّقُ أنّ العربَ الذين كانوا مجرّدَ قبائلَ متناحرةٍ، ليس لهم كيانٌ يُذكرُ، ولا أيُّ قدرةٍ على مواجهةِ الأخطارِ الخارجيةِ، سيأتي عليهم يومٌ يتوحّدونَ فيه، وتكونُ لهم دولةٌ مستقلّةٌ، ويجابهونَ أعظمَ قوةٍ في ذلك الزمانِ، ويغزونها في عقرِ دارِها؟!

إنّ ذلك لم يكنْ ليتحقّقَ إلّا في ظلّ رسالةِ الإسلامِ، والتي أصبح المسلمون من خلالها قوّةً يحسبُ لها الآخرونَ ألفَ حسابٍ، حتّى استطاعوا أنْ يعودوا إلى مكّةَ فاتحينَ خلالَ ثمانِ سنينَ من هجرتِهم، ليستقبلوا أفواجَ الناسِ التي أقبلَتْ للدّخولِ في دينِ اللهِ.

فبعدَ استقرارِ الوضعِ الداخليّ في مكّةَ، توجّهَ النبيُّ ﷺ بالنظرِ إلى الخارجِ لإكمالِ مَهَمّةِ الدّعوةِ والبلاغِ، خصوصًا وأنّ الأنباءَ كانت قد وصلَت إليهِ أنّ الرّومَ بدأتْ بحشدِ قوّاتِها لغزوِ المسلمينَ، فأرادَ النبيُّ ﷺ أنْ يبادرَهم بالخروجِ إليهم، في غزوةٍ عرفَها التاريخُ باسمِ غزوةِ تبوكَ.

وقد جاءَت تسميةُ هذه الغزوةِ من "عينِ تبوك" التي مرّ بها المسلمونَ وهم في طريقِهم إلى أرضِ الرّومِ، وسمّيَت أيضًا غزوةَ العسرةِ لِما اجتمعَ فيها من مظاهرِ الشّدّةِ والعسرةِ، حيثُ حرارةُ الجوّ، وندرةُ الماءِ، وبعدُ المكانِ، وفوقَ هذا وذاك كانَ المسلمونَ يعيشونَ حالةً من الفقرِ وضيقِ الحالِ، وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى تلك الحالِ في قولهِ تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾

ونظرًا لتلك الظّروفِ الصّعبةِ، استقرّ رأيُ النبيّ ﷺ على التّصريحِ بجهةِ الغزوِ على غيرِ عادتِهِ، وذلك لإدراكِهِ بُعدَ المسافةِ وطبيعةَ العدوّ وحجمَ إمكاناتِهِ، ممّا يُعطي الجيشَ الفرصةَ الكاملةَ لإعدادِ ما يلزمُ لهذا السّفرِ الطّويلِ، إضافةً إلى أنّ وضعَ الدّولةِ الإسلاميّةِ قد اختلفَ عن السّابقِ، حيثُ تمكّنَ المسلمونَ من السّيطرةِ على مساحاتٍ كبيرةٍ من الجزيرةِ العربيّةِ، ولم

بعدُ من الصّعب معرفةُ وجهتهم القادمة.

وهكذا أعلنَ النّبيُّ ﷺ النّفير، وحثّ النّاس على الإنفاق في سبيل الله قائلاً: «مَن جهّزَ جيشَ العسرة فلهُ الجنّة». فاستجاب الصّحابةُ لندائه، وضربوا أروعَ الأمثلةِ في البذلِ والعطاء!

فأمّا عثمانُ بن عفّان رضي الله عنه فانطلقَ مُسرعًا إلى بيته، وأخذ ألفَ دينارٍ ووضعَها بينَ يدي رسولِ اللهِ ﷺ، وتكفّلَ بثلاثمائة بعيرٍ بكامل عُدّتها. فاستبشرَ النّبيُّ ﷺ بفعلِهِ وقال: ما ضرّ عثمانُ ما عملَ بعدَ اليوم!

وحاولَ عمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه أنْ يسبقَ أبا بكرٍ رضي الله عنه، فأتى بنصفِ مالِهِ، فإذا بأبي بكرٍ رضي الله عنه يأتي بكلِّ ما عندَهُ دونَ أنْ يُبقيَ لأهلِهِ شيئًا، فقالَ عمرُ رضي الله عنه: واللهِ لا أسابقُكَ إلى شيءٍ أبدًا!

وتصدّقَ عبدُ الرّحمنِ بنُ عوفٍ رضي الله عنه بألفَي درهمٍ، إلى جانبِ ما قدّمَهُ أغنياءُ الصّحابةِ كالعبّاسِ بنِ عبدِ المطّلبِ، وطلحةَ بنِ عُبيدِ اللهِ، ومحمّدِ بنِ مَسلمةَ، وعاصمِ بنِ عديٍّ رضيَ اللهُ عنهم أجمعينَ.

وكانَ لِفقراءِ المسلمينَ نصيبٌ في الصّدقةِ، حيثُ قدّموا كلَّ ما يملكونَ معَ قِلّةِ ذاتِ اليدِ؛ فمنهم مَن أتى بِصاعٍ مِن تمرٍ، ومَن جاءَ بنصفِ صاعٍ أو أقلَّ.

ووقفَ عُلبةُ بنُ زيدٍ رضي الله عنه ينظرُ إلى جموعِ المسلمينَ وهي تتسابقُ على الإنفاقِ، والحسرةُ تملأُ فؤادَهُ لأنّهُ لم يَجِدْ ما يتصدّقُ به، فلمّا جاءَ اللّيلُ صلّى وبكى، ثمّ رفعَ يديهِ وقال: اللّهمّ إنّكَ قد أمرتَ بالجهادِ ورغّبتَ فيهِ، ثمّ لم تجعلْ عندي ما أتقوّى به معَ رسولكَ، وإنّي أتصدّقُ على كلِّ مسلمٍ بكلِّ مظلمةٍ أصابَني فيها مِن مالٍ أو جسدٍ أو عِرضٍ!

وفي الصّباحِ قالَ النّبيُّ ﷺ: أينَ المتصدّقُ هذهِ اللّيلة؟

فلم يَقُمْ أحدٌ، فأعادَها ثانيةً، فتقدّمَ عُلبةُ وأخبرَهُ الخبرَ، فقالَ ﷺ: أبشِرْ، فوالّذي نفسُ محمّدٍ بيدِهِ لقد كُتِبَتْ في الزّكاةِ المتقبّلةِ!

واستغلَّ المنافقونَ هذهِ المواقفَ المشرّفةَ للسّخريةِ مِن فُقراءِ المؤمنينَ،

والتعريضِ بنيّاتِ الأغنياء، فكشف القرآنُ خباياهم قائلًا:

{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

كما حاولوا صدّ النّاس عن الخروج، بالترهيب من لقاء العدوّ تارةً، وبالترغيبِ في القعودِ تارةً أخرى، خصوصًا وأنّ الغزوة كانت في شدّة الحرّ وطيبِ الثمر.

واجتمعَ مع النّبيّ ﷺ ثلاثونَ ألفَ مُقاتلٍ مِن المهاجرينَ والأنصارِ وغيرهم، ودفعَ باللّواءِ إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه ، وقسّمَ الجيش إلى ألويةٍ، واستخلفَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه على أهلِه، فشقَّ عليهِ أن تفوتَهُ الغزوةُ، فجاءَ يستأذِنُ النّبيّ ﷺ، فقالَ له: أمَا ترضى أن تكونَ مِنّي بِمَنزلةِ هارونَ مِن موسى؟ غيرَ أنّهُ لا نبيَّ بعدي!

وجاء الفقراءُ إلى النّبيّ ﷺ يَطلُبونَ منهُ أن يُعينَهم ليَحمِلَهم إلى الجهادِ، والنّبيّ ﷺ يعتذِرُ بأنّهُ لا يَجِدُ ما يَحمِلُهم عليهِ مِن الدّوابّ، فانصرَفوا وأعينُهم تفيضُ مِن الدّمعِ حزنًا على ما فاتَهم مِن شرفِ الجهادِ مع رسولِ اللهِ ﷺ، فخلّدَ اللهُ ذكرَهم إلى يومِ القيامةِ، وأنزلَ فيهم قولَهُ تعالى:

{لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ}

وقد كتَبَ اللهُ لهم الأجرَ كاملًا بنيّاتهم الصّادقةِ؛ لقول النّبيّ ﷺ: إنّ بالمدينةِ أقوامًا ما سِرتُم مَسيرًا ولا قطعتُم واديًا إلّا كانوا معكم؛ حبسَهُم العُذرُ!

أمّا المنافقونَ فقد تخلّفَ مُعظمُهم عن الغزوِ بادّعاءِ الأعذارِ الكاذبةِ؛ فمنهم مَن اعتذرَ بعدمِ القدرةِ على السّفرِ، ومنهم مَن اعتذرَ بقِلّةِ المتاعِ، ومنهم مَن قال: إنّ الحرَّ شديدٌ، ومنهم مَن اعتذرَ بإعجابِه بالنّساءِ! وخوفِهِ الفِتنةَ بنساءِ

فقبل النبي ﷺ أعذارهم ظاهرًا، وترك سرائرهم إلى الله، وأنزل الله آيات في سورة التوبة تفضح كذبهم وتُنذرهم بالعذاب الأليم.

وانطلق الجيش بقيادة النبي ﷺ نحو الشمال، وفي الطريق مرّوا على ديار ثمود، فسارع بعض المسلمين ليروا مساكنهم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: لا تدخلوا مساكن الّذين ظلموا أنفسهم إلّا أن تكونوا باكين؛ حذرًا أن يُصيبكم مثل ما أصابهم!

وأمرهم بالإسراع في الرّحيل، وأمر بإراقة الماء الذي أخذوه منها، وإطعام العجين للدوابّ، إلّا ما أخذ من بئر ناقة صالحٍ؛ فقد أذن فيه.

وبدأت المعاناةُ تشتدُّ بسبب نقص الماء وشدة الحرارة وقلة الرّواحل؛ حتى إنّ البعير الواحد كانَ يتناوبُ عليه جماعةٌ من الرجال، واضطرّ بعضُهم إلى أكلِ أوراقِ الشّجر، ونحر الإبل ليشربوا ما في بطونها!

فشكوا ذلك لرسولِ الله ﷺ، فدعا ربّه بنزولِ المطر، فلم يَكمل دعاءَهُ إلّا والسّماء قد انفتحت، وهطلَ الغيثُ حتى ارتووا، فكانت معجزةً تُثبّتُ القلوبَ وتُخفّفُ عن المؤمنين.

وكان أبو ذرٍّ الغِفاريُّ رضي الله عنه قد تأخّر عن الجيش، فبحث عن راحلةٍ تُمكّنهُ من اللحاقِ بهم، فلم يجد إلّا راحلةً هزيلة، فلمّا أبطأت به، وأوشك أن يتخلّفَ عن رسولِ الله ﷺ، أخذ متاعَهُ وحملَهُ على ظهرِه، وسارَ ماشياً على قدميه تحتَ لهيبِ الشّمس، حتى اقتربَ من الجيش.

ورآهُ أحدُ الصّحابةِ من بعيد، فقال: يا رسولَ الله! هذا رجلٌ يمشي على الطّريق!

فقال ﷺ: كُنْ أبا ذرّ!

فلمّا تدقّقوا فيه، قالوا: هو واللهِ أبو ذرّ!

فقال النّبيُّ ﷺ: رَحِمَ اللهُ أبا ذرّ، يمشي وحدَهُ، ويموتُ وحدَهُ، ويُبعثُ

وخذة!

وكان مِمّن تخلّف عن الغزوِ في أوّلِ الأمرِ أبو خيثمةَ الأنصاريُّ رضي الله عنه ، حيثُ غلَبَتهُ نفسُهُ فتخلّف، ودخلَ في يومٍ بستانًا له، فرأى زوجتيهِ وقد أعدّتا له الظِلالَ والماءِ البارِدَ، فاستيقظَ ضميرُهُ، وقال لنفسه: رسولُ اللهِ ﷺ في الهجيرِ والصّحراءِ، وأبو خيثمةَ في الظلّ والماءِ؟! هذا ليس عدلًا!

فأخذَ سلاحَهُ، وركبَ دابّتَهُ، ولَحِقَ بالنّبيّ ﷺ في تبوك، واعتذرَ إليهِ، فقبِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عُذرَهُ ودعا له بخيرٍ.

ولمّا وَصلَ الجيشُ إلى تبوك، لم يجدوا أثرًا لجيشِ الرّومِ أو القبائلِ المواليةِ لَهم، فبعثَ النّبيُّ ﷺ سَرِيّةً بقيادةِ خالدِ بنِ الوليدِ رضي الله عنه إلى دومةِ الجَندَلِ، فغنموا أمتعةً وأنعامًا، وأسَروا أكَدَرَ بنَ كِندةَ ملكَها، فجِيءَ بهِ إلى النّبيّ ﷺ، فصالحَهُ على الجِزيةِ، ثمّ أطلقَ سراحَهُ.

ومكثَ النّبيُّ ﷺ في تبوك عشرينَ يومًا، يستقبلُ الوُفودَ التي جاءت للمصالحةِ، ودفعِ الجزيةِ من أهلِ جَرباءَ وأذرُح وغيرِهما، وكان منهم وفدُ مَلِكِ أيلَةَ الذي بعثَ إلى النّبيّ ﷺ بهديةٍ من كِساءٍ وبَغلةٍ بيضاءَ، فقبلَها النّبيُّ ﷺ.

وبعدَ أن تحقّقَ المقصودُ من الغزوةِ، عادَ الجيشُ الإسلاميُّ إلى المدينةِ المباركةِ، فلمّا اقتربوا، خرجتِ النّساءُ والأطفالُ لاستقبالِ رسولِ اللهِ ﷺ، فدخلَ المسجدَ وصلّى رَكعتينِ شكرًا للهِ.

ثمّ جلس النّبيُّ ﷺ للنّاسِ، فجاءَهُ المُنافقونَ يعتذرونَ إليهِ، فقبِلَ أعذارَهم ظاهِرًا وأوكلَ سرائرَهم إلى اللهِ.

وجاءَهُ الثّلاثةُ الذينَ خُلّفوا عن المعركةِ:

كَعبُ بنُ مالكٍ، ومُرارَةُ بنُ الرّبيعِ، وهِلالُ بنُ أُمَيّةَ. فلم يقبلِ النّبيُّ ﷺ أعذارَهم لا لأنّهم صدقوا، وإنّما لأنه كان يتوسّم فيهم خيراً، وما ظنّ

أنهم يتخلّفون عنه، والعتب على قدر العشم! بينما قبل من المنافقين لأنّ خروجهم لا يزيد الجيش إلّا خبالاً. فنهى النّاس عن مخالطتهم والكلام معهم، حتّى ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت!

ثمّ أنزلَ اللهُ توبتَهُم في آياتٍ خالدةٍ، فبشّرهم النّبيّ ﷺ، فسجدوا لله باكينَ مِن الفرحِ، وعادوا إلى الصّفّ أنقى ممّا خرجوا!

ولأنّ السّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمّ الدّروس المستفادة من غزوةِ تبوك:

1 ـ المبادرةُ أصلُ النّصرِ، في تبوكَ علّمنا النبيُّ ﷺ أنْ لا ننتظِرَ السّهامَ حتّى تَصلَ إلينا؛ بل نَذهبَ إلى مَكامنِ الخَطرِ قَبلَ أنْ يَشتعِلَ. فالمَوجَةُ التي تُواجَهُ مِن بَدايتِها لا تَتحوّلُ إلى طوفانٍ.

2 ـ الإيمانُ يقودُ في أيّامِ العُسرةِ، في حرٍّ لا يُطاقُ، وجدبٍ شديدٍ، وقِلّةِ راحلةٍ وزادٍ؛ لَم يَتحرّكِ الجَيشُ اعتِمادًا على وَفرةٍ، بل على يَقينٍ راسِخٍ أنّ مَن خَرَجَ للهِ فاللهُ لا يُضيّعُهُ، وأنّ السّماءَ تَمدُّ مَن يَسيرُ إليها ولو لَم يَكنْ في يَدِهِ شيءٌ.

3 ـ الصّدقُ يُميّزُ الصّفوفَ، تَميّزَ الصّادقونَ بالمُضيّ معَ الرّسولِ ﷺ، بينما تَخلّفَ المُنافِقونَ بِحُجَجٍ واهيةٍ؛ فالغَزوةُ لَم تَكشِفْ قُوّةَ الإيمانِ فَحسب، بَل كَشَفَتْ ضَعفَ القُلوبِ التي تُخفي الكَسَلَ تَحتَ ثَوبِ الأعذارِ.

4 ـ مَن ضاقَت يَدُهُ وَسِعَهُ أجرُهُ، القَليلُ الذي قُدّمَ بإخلاصٍ أعظمُ عِندَ اللهِ مِن الكَثيرِ الذي قُدّمَ مُراءاةً؛ فالعَينُ الإلهيّةُ تُسجّلُ النّيّاتِ، لا عَدَدَ الدّنانيرِ.

5 ـ العطاءُ إنْ قَلَّ عددُه جَلَّ قدرُهُ، حفنةُ تَمراتٍ في تبوكَ كانت أبهى في ميزانِ السّماءِ مِن جَبلِ ذهبٍ؛ لأنّها فاضَت مِن قلبٍ آمنَ أنّ الطّريقَ إلى الجنّةِ يُمهّدُ بالتّضحيةِ مهما صَغُرَت.

6 ـ القائدُ أوّلُ السّابقينَ، لم يَقُلِ النّبيُّ ﷺ: اذهبوا، بل قال: هَلُمّوا مَعي، فالقائِدُ الذي يَسبِقُ بِجَسدِهِ يُلقِي في القُلوبِ شَجاعةً لَم تَكُن لتُعطيها ألوفُ

الخُطب.

7 ـ الخُطوةُ الأُولى هَزيمةٌ للتهديدِ، ذهبَ المسلمونَ إلى تبوكَ قبلَ أنْ يأتيهُم الخطرُ؛ فأسقطوا هيبةَ الرومِ قبلَ اللّقاءِ. فالموقفُ الصّلبُ يكسرُ العدوَّ وإنْ لَم تُرفعْ سيوفٌ.

8 ـ لا مكانَ في الصّفِّ للمتثاقِلينَ، الغربلةُ تُسقِطُ الغُبارَ ليبقى الذّهبُ وحدَهُ. وكذلكَ الصّفُّ؛ لا يَحتمِلُ المُنافِقَ ولا الكسولَ.

9 ـ النّصرةُ ليست بعددِ الجموعِ، القُوّةُ لَم تكُن في كثرةِ الزّادِ والعددِ، بل في يَقينِ الأرواحِ أنّ اللهَ مَعهم، ومَن كانَ اللهُ معه فلا يَضُرُّهُ قِلّةُ ما في يَدِهِ.

10 ـ الوُعودُ الإلهيّةُ تَسندُ القلوبَ، كانَ وعدُ اللهِ هو الزّادَ الحقيقيَّ، فخرجوا وهم يُشاهِدونَ الجنّةَ في التّعبِ نَفسِهِ؛ فمَن رأى ثوابَهُ قبلَ وُصولِهِ هانَ عليهِ ألمُ الطّريقِ.

11 ـ السّياسةُ مِن ثَوابتِ الرّسالةِ، تبوكُ لَم تكُن معركةً في السّيوفِ، بل مَعركةُ مواقِفَ ورسائِلَ: أنّ الإسلامَ ليسَ قُوّةً مُحاصَرةً، بل قُوّةٌ تُواجِهُ الخطرَ على أبوابِهِ.

12 ـ الصّراحةُ دَواءُ المُنافِقينَ، فَضَحَ القرآنُ أعذارَهُم الواهيةَ، وأبانَ ما تُخفيهِ الألسُنُ من نَوايا؛ فالحقيقةُ إذا ظَهرت، لَم تَبقَ للأقنِعةِ مساحةٌ.

13 ـ التّوبةُ بابُ الصّادقينَ، الثّلاثةُ الذينَ تَخلّفوا صَدقوا حينَ اعترفوا بالذّنبِ؛ فرفَعَهُم اللهُ إلى دَرَجاتٍ عَلِيّةٍ؛ إذ الصّدقُ مِفتاحُ الرّجوعِ إلى اللهِ بعدَ الزّللِ.

14 ـ لا فَضلَ على الجيشِ بمالٍ أو جاهٍ، فمَن بَذلَ مالَهُ لم يَمنُن بهِ؛ لأنّهُ يَعلَمُ أنّ اللهَ هو المُنعِمُ أوّلًا وآخِرًا، وأنّ الأعطِيةَ ترتَفِعُ حينَ تَنزِلُ في مَقامِ التّواضُعِ.

15 ـ الوَحدةُ قُوّةٌ، إذا اجتمَعَتِ القلوبُ استقامَتِ الطّريقُ، وصارَتِ الأمّةُ أهيَبَ مِمّن يَتفوّقُ عليها بالسّلاحِ والمالِ؛ فالوَحدةُ دِرعُ النّصرِ.

16 ـ الامتحانُ طريقُ التمكينِ، بغيرِ تبوك لم تتهذّبِ الأرواحُ، ولا تعرّف المؤمنونَ على نقاطِ قوّتِهم وضعفِهم؛ فالتمكينُ يُولَدُ من رحمِ الابتلاءِ.

17 ـ العبرةُ بنهايةِ الطريقِ، حرُّ الشمسِ ينقضي، ويبقى فرحُ الطاعةِ، فليستِ المهمّةُ كيفَ بدأتِ الرّحلةُ، بل كيفَ انتهتْ.

18 ـ في كلِّ ابتلاءٍ رسالةٌ، جاءت تبوك تذكيرًا بأنّ النصرَ إذا طالَ بلا مشقّةٍ، ربّما دَخَلَ الغرورُ إلى القلوبِ. فهنا جاءَ التّهذيبُ بَدَلَ العقوبةِ.

19 ـ النّصرُ أنْ ترجعَ أقوى ممّا خرجتَ، عادوا بلا قِتالٍ لكن بمعنوياتٍ تضاعفَتْ، ومكانةٍ عظُمَتْ في أعينِ العالَمِ. والنّصرُ أحيانًا يُكتَبُ بلا قطرةِ دَمٍ.

20 ـ مَن سارَ معَ الحقِّ وَصَلَ، لأنّ الدّربَ الذي يَبدأُ معَ محمّدٍ ﷺ لا يُفضي إلّا إلى النّورِ، ولو كانَ في حرِّ الهجيرِ، فالعاقِبةُ دائِمًا لِلمتّقينَ.

مَسجِدُ الضِّرارِ!

حقٌّ يُرادُ به باطل!

كان الفجرُ يُوشِكُ أن يَبسُطَ ضَوءَهُ على المدينةِ، حين انشقّت الأرضُ عن جُرحٍ خَفِيٍّ زرعَهُ المنافِقونَ في خاصِرَةِ المُجتمعِ المؤمِنِ. جُرحٍ لم يكُن سيفًا ولا رُمحًا، بل كان مسجدًا! نعم مسجدًا يعلو سقفُهُ بالنِّفاقِ، وتستترُ جدرانُه بالغدرِ، وتختبئُ خلفَ محرابِه نوايا السُّوءِ.

في الطّريقِ بين المدينةِ وتبوكَ، حيث يسيرُ الإيمانُ على أقدامِ الصّادقين، وقف البناءُ الجديدُ يلمعُ كخديعةٍ مُحكمةٍ. فلا مآذنَ تُزهِرُ نورًا، ولا حيطانَ تنبضُ خشوعًا، بل جدرانٌ صامتةٌ تُخفي خلفَها أصواتَ الغدرِ تُخطِّطُ لمستقبلٍ أسودَ.

أرادوه أن يكونَ شمعةً تُنيرُ لهم دروبَ الفتنةِ، ومأوى تُنسجُ فيه خيوطُ المؤامرةِ، وعلامةً تُذكي نيرانَ الشكِّ في القلوبِ. قالوا: مسجد! وهو في الحقيقةِ سهمٌ مسمومٌ موجَّهٌ إلى صدرِ الدّعوةِ، وطعنةٌ غادرةٌ في ظهرِ الجماعةِ.

لكنَّ الوحيَ لا تُخدعُه زينةُ الجدارِ ولا بهرَجُ الأحجارِ. نزلَ القرآنُ يمزِّقُ الحجابَ ويكشفُ المستورَ، فسقطَ القناعُ، وبانَ وجهُ الخيانةِ. وتحوَّلَ البناءُ من سقفٍ يُظلِّلُ الرأسَ، إلى شاهدٍ يُدينُ أصحابَه إلى يومِ الدِّينِ.

هكذا أرادَ اللهُ، أن يبقى مسجدُ الضِّرارِ درسًا خالدًا: أنَّ الخطرَ قد يختفي أحيانًا تحت قبابٍ تُشبه الطُّهرَ!

كان بالمدينةِ قبل مَقدمِ رسولِ اللهِ ﷺ إليها رجلٌ من الخزرجِ يُقالُ له: أبو عامرٍ الرّاهبُ، وكان قد تنصّرَ في الجاهليّةِ وقرأ علمَ أهلِ الكتابِ، وكان فيه عبادةٌ في الجاهليّةِ، وله شرفٌ في الخزرجِ كبيرٌ. فلمّا قَدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ مهاجرًا إلى المدينةِ، واجتمعَ المسلمونَ عليه، وصارت للإسلامِ كلمةٌ عاليةٌ، وأظهرهمُ اللهُ يومَ بدرٍ، شرِقَ اللعينُ أبو عامرٍ بريقِه، وبارزَ بالعداوةِ، وظاهرَ

بها، وخرج فارًا إلى كفار مكة من مشركي قريش، فألّبهم على حرب رسولِ الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياءِ العرب، وقدموا عام أحُد، فكان من أمرِ المسلمين ما كان، وامتحنهمُ الله، وكانت العاقبةُ للمتقين.

وكان هذا الفاسقُ قد حفر حفائرَ فيما بين الصّفين، فوقع في إحداهنّ رسولُ الله ﷺ، وأصيبَ ذلك اليوم، فجرح في وجهه، وكُسرت رباعيتُه اليُمنى السُّفلى، وشُجَّ رأسه ﷺ. وتقدّم أبو عامرٍ في أوّلِ المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نصرِه وموافقتِه، فلمّا عرفوا كلامه قالوا: لا أنعمَ اللهُ بك عينًا يا فاسقُ يا عدوَّ الله! ونالوا منه وسبّوه. فرجع وهو يقول: واللهِ لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ.

وكان رسولُ الله ﷺ قد دعاهُ إلى اللهِ قبل فرارِه، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يُسلِمَ وتمرّدَ، فدعا عليه رسولُ الله ﷺ أن يموتَ بعيدًا طريدًا، فنالته هذهِ الدعوةُ.

وذلك أنّه لمّا فرغ النّاس من أحُد، ورأى أمرَ الرسول ﷺ في ارتفاعٍ وظهورٍ، ذهب إلى هرقلَ ملكِ الرّومِ يستنصرُه على النّبي ﷺ، فوعده ومنّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعةٍ من قومه من الأنصار من أهلِ النّفاقِ والرّيبِ يعدُهم ويُمنّيهم أنّه سيقدمُ بجيشٍ يقاتل به رسولَ الله ﷺ ويغلبه ويردُّه عمّا هو فيه، وأمرهم أن يتّخذوا له معقلًا يقدمُ عليهم فيه مَن يقدمُ من عنده لأداءِ كتُبِه، ويكونُ مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك. فشرعوا في بناءِ مسجدٍ مجاورٍ لمسجدِ قُباء، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروجِ النّبيّ ﷺ إلى تبوك. وجاؤوا فسألوا رسولَ الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلّي في مسجدهم، ليحتجّوا بصلاتِه ﷺ فيه على تقريرِه وإثباتِه، وذكروا أنّهم إنّما بنوه للضُّعفاءِ منهم وأهلِ العِلّة في اللّيلة الشّاتية. فعصمَه اللهُ من الصّلاة فيه فقال: إنّا على سفرٍ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله. فلمّا قفلَ ﷺ راجعًا إلى المدينة من تبوك، ولم يَبقَ بينه وبينها إلّا يومٌ أو بعضُ يوم، نزل عليه الوحيُ بخبرِ مسجدِ الضّرار، وما اعتمده بانوه من الكفرِ والتّفريقِ بين جماعةِ المؤمنين في مسجدِهم مسجدِ قُباء الذي أُسّسَ من أوّلِ يومٍ

على التقوى. فبعث رسولُ الله ﷺ إلى ذلك المسجدِ من هدمه قبل مقدمه المدينة.

أقبل رسولُ الله ﷺ من تبوك، وكان أصحابُ مسجدِ الضِّرار قد أتوه وهو يتجهزُ إلى تبوك، فقالوا: يا رسولَ الله، إنّا قد بنينا مسجدًا لذي العِلّة والحاجةِ والليلة المطيرةِ والليلة الشاتية، وإنّا نحبُّ أن تأتينا فتصلّي لنا فيه.

فقال: إنّي على جناحِ سفرٍ وحالِ شغلٍ، ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلّينا لكم فيه. فلمّا نزل بذي أوان أتاه خبرُ المسجد، فدعا رسولُ الله ﷺ مالك بنَ الدُّخشُم أخا بني سالمِ بنِ عوف، ومَعنَ بنَ عديٍّ أخا بني العجلان، فقال: انطلقا إلى هذا المسجدِ الظالمِ أهلُه فاهدماهُ وحرّقاه. فخرجا سريعين حتّى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهطُ مالكِ بنِ الدُّخشُم، فقال مالكٌ لمعن: أنظرني حتّى أخرجَ إليك بنارٍ من أهلي. فدخل أهلَه فأخذ سعفًا من النخلِ، فأشعل فيه نارًا، ثمّ خرجا يشتدّان حتّى دخلا المسجدَ وفيه أهلُه، فحرّقاه وهدماه وتفرّقوا عنه. ونزل فيهم من القرآن: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾.

ولأنّ السِّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروس المستفادة من بناءِ مسجدِ الضِّرار:

1 ـ النِّفاقُ عدوٌّ داخليٌّ أخطرُ من العدوِّ الخارجي، فالمنافقُ يعيشُ بين المؤمنين، ويأكلُ معهم، ويُظهرُ الولاءَ ظاهراً، بينما يُضمرُ العداءَ في الخفاء، فيطعنُ الصَّفَّ من داخله، حيثُ لا يشعرُ به أحد، ولذلك كان خطرُه أشدَّ من السَّيفِ المرفوعِ مواجهةً.

2 ـ قد يتسترُ الباطلُ بلَبوسِ الحقِّ، فالشرُّ لا يأتي دائمًا بوجهٍ قبيحٍ صريحٍ، بل قد يختبئُ خلفَ شعاراتٍ براقةٍ ومساجدَ مزيّفةٍ وادعاءِ الإيمان، ولذلك يحتاجُ المرءُ إلى بصيرةٍ تميّزُ ما وراء الألفاظِ والمظاهر.

3 ـ الوحيُ هو المِعيارُ الأعلى لكشفِ الحقائق، فالعقولُ مهما بلغتْ قد تنخدعُ

أمامَ الخديعةِ المُحكمة، ولكنّ الله تعالى لا يخفى عليه شيء، فكان القرآنُ هو الحكمَ العدلَ الذي كشف سريرةَ المنافقين، وهتك سترَ افترائهم.

4 ـ لا ولاءَ في الإسلام إلّا للحقّ وأهله، فمن شابه المنافقين في طريقهم أو نواياهم، ولو نسبَ نفسه إلى الطاعة، فقد خانَ الجماعة وطعنَ الإيمان، فلا قيمةَ للّسان إذا خالفهُ الجَنانُ والعمل.

5 ـ الهدمُ قد يكونُ عبادةً، فالرسولُ ﷺ أمرَ بهدمِ مسجدٍ بُني على الفُرقة والإثمِ، لأنّ بقاءه كان سيُبقي الشرّ حيًا، فهدمُه نصرةٌ للدين، ودليلٌ أنّ الإسلامَ لا يقبلُ باجتماعِ الحقّ والباطلِ تحت سقفٍ واحد.

6 ـ الجماعةُ المؤمنةُ هي الهدفُ الأول لأهل الفتنة، فالمنافقون لم يبنوا مسجد الضِّرار للصلاة، بل لضربِ وحدةِ المسلمين، وتشتيتِ صفِّهم، وزلزلةِ ثقتهم بقيادتهم، فكان هدفُهم كسرَ الجماعةِ قبلَ كسرِ الجدران.

7 ـ العِبرةُ بالخواتيم لا بالبدايات، فالمسجدُ الذي بدا في أوّلِ أمره مكانًا للعبادة، انتهى خرابًا وحسرةً لأصحابه، وبقي عارةً شاهدًا على أنّ الأعمالَ بمقاصدِها لا بأسمائها.

8 ـ القائدُ الربانيّ لا ينخدعُ بالبهرجة، فالرسولُ ﷺ لم يستجبْ لدعوتهم رغمَ زينةِ القول، بل انتظرَ الوحيَ، لأنّ القائدَ الصّادقَ لا يحكمُ بعاطفةٍ أو استعجال، وإنّما بميزانِ الحقّ والعدل.

9 ـ قلوبُ المؤمنين مرآةٌ للحقّ، فالمؤمنُ الحقُّ يشمُّ رائحةَ الخداعِ كما يشمُّ العطرَ الزّكيّ، فلا ينخدعُ بكثرةِ السّاجدين ولا ضخامةِ البناءِ ما دامَ الشكّ يعصفُ بالنّيةِ والغاية.

10 ـ ثباتُ الحقّ يُسقِط مشاريعَ الباطل، فما قامَ على ريحٍ سقط مع أوّل نفخةٍ، ولذلك انهار مسجد الضِّرار، وبقي المسجدُ الذي أُسّس على التّقوى شامخًا، لأنّ قوةَ الحقّ ليست في حجارته بل في نور رسالته.

أبو بكر أميراً على الحجّ!

الخليفةُ القادم يتحضَّرا

في العامِ التّاسعِ للهجرةِ، كان الإسلامُ قد ارتقى ذروةَ مجده، وتكسّرتْ على صخرتِهِ آخرُ أمواجِ الوثنيّةِ المتهاويةِ! وفي تلك اللّحظة المهيبة، أراد رسولُ اللهِ ﷺ أن يُقيمَ للقيادةِ ميزانَها في الأمّةِ، وأن يُعرِّفَ القلوب بالرّجل الذي ربّاهُ على عينِه، وأغدقَ عليه من صفاءِ سريرتِه، حتى صار ثانيَ اثنين إذ هما في الغارِ... أبو بكرٍ الصّدّيقُ رضي الله عنه .

اختارَهُ النّبيُّ ﷺ أميراً على الحجّ، لا لأنّهُ أقدمُهم إسلاماً فحسبُ، ولا لأنّهُ أقربُهم إلى روحِهِ الطّاهرةِ فقط، بل لأنّهُ أعرفُهم بمنهاجِ النّبوّةِ، وأصدقُهم تقديماً للهِ ورسولِهِ على نفسِهِ وأهلِهِ ومالِهِ، ولأنّ قلبَهُ من شدّةِ الإيمانِ يكادُ يُضيءُ ولو لم تمسَسْهُ نارٌ!

خرجَ الصّدّيقُ بالنّاس إلى بيتِ اللهِ الحرامِ، يمثّلُ في هذا الموكبِ المهيبِ ظلَّ القيادةِ القادمِ، فإذا وقوفُهُ في المشاعرِ إيذانٌ بأنّهُ الأمينُ على الدّينِ بعدَ نبيِّه، واليدُ التي ستمسكُ لواءَ الإسلامِ حينَ تدمعُ العيونُ لفراقِ الحبيبِ المصطفى ﷺ.

كان الصّحابةُ ينظرونَ إليهِ في تلك الرّحلة المباركةِ نظرةً جديدةً: هذه الإمارةُ ليست مجرّدَ تكليفٍ بحجٍّ، بل هي رسالةٌ تُقرأ، وإشارةٌ لا تخفى على لبيبٍ؛ أنّ الرّجلَ الذي يَؤمُّهم في المناسكِ اليومَ، سيَؤمُّهم في الدّنيا غداً، فإذا الرّسالةُ قد استقرّتْ في القلبِ، واطمأنّتِ الأمّةُ أنّ بناءَها لن يتصدّعَ بعدَ رحيلِ نبيِّها.

في ذي الحِجّةِ من السّنةِ التّاسعة للهجرة، بعثَ رسولُ اللهِ ﷺ أبا بكرٍ الصّدّيقَ رضي الله عنه أميراً على الحجّ؛ ليقيمَ بالمسلمينَ المناسكَ.

ثمّ نزلتْ أوائلُ سورةِ «براءةَ» بنقضِ المواثيقِ ونبذِها على سواءٍ، فبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ليؤدّيَ عنهُ ذلك، وذلك

تمشّياً منه على عادةِ العربِ في عهودِ الدّماء والأموالِ. فالتقى عليٌ بأبي بكرٍ بالعَرجِ أو بضَجنانَ، فقال أبو بكرٍ: أميرٌ أو مأمورٌ؟

قال عليٌ: لا، بل مأمورٌ.

ثمّ مضيا، وأقامَ أبو بكرٍ رضي الله عنه للنّاس حجّهم، حتى إذا كان يومُ النّحرِ، قامَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه عند الجمرة، فأذّن في النّاس بالذي أمرهُ رسولُ اللهِ ﷺ. ونبذَ إلى كلّ ذي عهدٍ عهدَه، وأجّل لهم أربعة أشهرٍ، وكذلك أجّلَ أربعةَ أشهرٍ لمن لم يكنْ لهُ عهدٌ. وأمّا الذين لم ينقصوا المسلمينَ شيئاً، ولم يُظاهِروا عليهم أحداً، فأبقى عهدَهم إلى مُدّتِهم.

وبعثَ أبو بكرٍ رضي الله عنه رجالاً يُنادونَ في النّاس: ألا لا يحجّ بعد هذا العامِ مشركٌ، ولا يطوفُ بالبيتِ عُريانٌ.

وكان هذا النّداءُ بمثابةِ إعلانِ نهايةِ الوثنيّةِ في جزيرةِ العربِ، وأنّها لا تُبدئُ ولا تُعيدُ بعد هذا العامِ!

ولأنّ السّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدّروس المُستفادة من تعيين أبي بكرٍ رضي الله عنه أميراً على الحجّ:

1 ـ صناعةُ القادة قبلَ الحوادثِ، إنّ القائد لا يُصنعُ لحظةَ الشدّةِ، بل يُبنى عبر السنين، كما بنى النبيُّ ﷺ أبا بكرٍ رضي الله عنه على عينه، حتّى إذا اشتدّ عودُ الأمّةِ وآن أوانُ انتقالِ الرّاية، وجدوا في الصّدّيق قائداً جاهزاً تسطعُ فيه ملامحُ النّبوّةِ وسمتُها.

2 ـ التدرّب على الخلافة قبل وقوعها، كان حجُّ الصّدّيقِ تدريباً عمليًا للأمّة على طاعةِ من يقودها بعد رحيلِ النّبيّ ﷺ؛ فطاعةُ النّاس له في أعظم شعيرةٍ إعلانٌ بأنّ الإسلامَ لا يتوقّفُ على حياةِ فردٍ ولو كان رسولَ اللهِ ﷺ.

3 ـ الثّقةُ بالتّربيّة النّبويّة، اختيارُ النّبيّ ﷺ لأبي بكرٍ رضي الله عنه دليلُ ثقةٍ تامّةٍ بطهرِ قلبه، وصفاءِ عقله، وثباتِ خطوته؛ رسالةٌ مفادُها أنّ رجالاتِ النّبوّة لم يتشكّلوا صدفةً، بل صقلتهم تربيةٌ ربّانيّةٌ مباركة.

4ـ أنّ المنصبَ يُعطى للأتقى والأقوى في الحقّ، لم تنظر القيادةُ في الإسلام إلى الوجاهاتِ القبليّةِ أو مظاهرِ النفوذ، بل نُظر إلى صدق الصّديق، وإلى سوابقه التي لا يدانيه فيها أحدٌ من الصّحابة، فاستحقَّ الإمارة بجدارةٍ وعدل.

5ـ إعلانُ هيبةِ الإسلام في أعظم مشهدٍ تعبّدي، وقوفُ المسلمين خلف قائدٍ منهم، يحملُ رايةَ التوحيدِ في أرضٍ كانت تموجُ بالشرك، كان مشهداً مهيباً تُخبر عظمته أن الإسلامَ بلغ قمّةَ سلطانِه على القلوبِ والبلاد.

6ـ الحكمُ والقيادة عبادةٌ قبل أن تكون سياسة، الصدّيقُ رضي الله عنه لم يكن في الحجّ والياً يستعرضُ قوّته، بل عبداً يصلُ قلبه بالسّماء في كلّ خطوة؛ يرفعُ النّاس وراءه أصواتهم بالتلبية، ويرفعُ هو قلبه إلى اللهِ بتجديدِ العهدِ على الوفاء.

7ـ قطعُ صِلات الجاهلية بحسمٍ لا تردّد فيه، إعلانُ براءةٍ على مسامعِ الدّنيا بأنّه لا شركَ بعد اليوم عند بيتِ اللهِ الحرام، كان حدّاً فاصلاً بين دينٍ باقٍ ودينٍ فانٍ، وكأنّ الأمّةَ تُغلقُ آخرَ صفحةٍ من الجاهليّةِ بلا رجعة.

8ـ الإمارةُ تُظهرُ جوهرَ الرّجال، فقد كشفت هذه القيادةُ عن نورِ الصدّيقِ الذي كان في قلبه خافقاً، فظهرَ للناسِ أنّ هذا الرجلَ ليس تابعاً عظيماً فقط، بل قائداً إذا تقدّم، سكنتْ النفوسُ خلفه واطمأنّت.

9ـ القيادةُ ليست صوتاً عالياً بل قلباً يطمئنُ النّاس به، كان أبو بكرٍ رضي الله عنه هادئَ الطبعِ، لينَ الجانبِ، ومع ذلك هابتهُ النفوسُ لصفاءِ نيّتِهِ وقوّةِ يقينه؛ تعليمٌ بأنّ القائدَ الحقَّ هو من يُلهمُ الأمنَ قبل أن يُلهم الخوف.

10ـ أنّ الدينَ سيبقى ويزهو بعد رحيل النبيّ ﷺ، كان الحجُّ بقيادةِ الصدّيقِ وعداً إلهياً أن الرسالةَ لن تُطوى بانقطاعِ الوحي، وأنّ هذا الدينَ له رجالٌ يحملونه، فإذا غابَ النورُ الأولُ بقيتْ أنوارُه تتلألأ في قلوبِ ورثتِه الصّادقين.

الوُفود عندَ النَّبيِّ ﷺ!

في دِينِ اللهِ أفواجاً!

لمَّا انقشعت غشاوةُ الجاهليّةِ عن وجهِ الجزيرةِ، وتهدّمت الأصنامُ تحت أقدامِ الفاتحين، وبزغَ نورُ مكّةَ من جديدٍ بنورِ التوحيدِ، أيقنت القبائلُ أنّ الرُّشدَ قد ظهر، وأنّ صوتَ الحقِّ الذي خَفَتُوهُ دهراً عادَ يجلجلُ في السّماء! فانطلقت الرِّحالُ من كلِّ حيٍّ، تتسابقُ إلى المدينةِ كما يتسابقُ الظَّمآنُ إلى الموردِ العذبِ، يبحثون عن كلمةٍ تُصلحُ قلوبهم، وبيعةٍ تُطهِّرُ تاريخهم.

كانت بوّابةُ المدينةِ يومئذٍ تشهدُ موكباً لا ينقطع؛ رُسلٌ من الشّمالِ والجنوبِ، ومن السّهلِ والجبلِ، كلُّ وجهٍ يحملُ قصةً، وكلُّ قبيلةٍ تحملُ تاريخاً جديداً تُسلِمُهُ بين يدي رسولِ اللهِ ﷺ. ما كان ذلك قدومَ ضعفٍ يستسلمُ للقوّةِ، بل قدومَ بصيرةٍ أدركتْ أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أثبتَ كلمته، وعلّقَ الرُّشدَ بأهدابِ هذا النّبيِّ الكريم.

جلس سيّدُ الخلقِ ﷺ يستقبلُهم ببِشرِ الواثقِ المطمئنِّ، لا يرى في وجوههم إلّا إخوةً ضلُّوا الطّريقَ فاهتدوا، ولا في خطواتِهم إلّا قلوباً جاءتْ تبحثُ عن السّلامِ. فكانت مجالسُه معهم منابرَ علمٍ وهدايةٍ، فيها تُعلَّمُ العقيدةُ، وتُحفظُ الحقوقُ، وتُكتَبُ العهودُ التي أُريدَ لها أن تبقى ما بقيَ الدِّينُ.

وبين يديهِ ﷺ ولدتْ الأمّةُ الكبرى؛ أمّةٌ لا تجمعُها عصبيّةُ دمٍ، بل يجمعُها إيمانُ قلبٍ وقِبلةُ حقٍّ، حتّى سُمِّي ذلك العام عامَ الوفود؛ عامٌ انحنى فيه التاريخُ احتراماً، وارتفعَ فيه شأنُ المسلمينَ في مشارقِ الجزيرةِ ومغاربِها، وانتقلَ فيه الإسلامُ من مرحلةِ الدّعوةِ إلى مرحلةِ الحضارةِ والبناء.

بعد فتحِ مكّةَ في العامِ الثّامنِ للهجرةِ، وانتهاءِ غزوةِ تبوكٍ، وسقوطِ آخرِ المعاقلِ المقاومةِ لدولةِ الإسلامِ، وظهورِ نتائجِ الصراعِ بين الحقِّ والباطلِ، وبين التّوحيدِ والشّركِ، بادرت قبائلُ العربِ إلى الإسلامِ، وأقبلت الوفودُ

إلى النبيّ ﷺ من كلّ حدبٍ وصوبٍ، كما قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاس يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا﴾.

حتّى ازداد عددُ تلك الوفودِ في ذلك العام على السّتين وفداً، واهتمّ بعضُ العلماءِ بذكرِ تفاصيلها وإيرادِ أخبارِها كابنِ إسحاق في سيرته وابن سعدٍ في الطّبقاتِ، وهذه لمحةٌ موجزةٌ عن أهمّ تلك الوفودِ:

أ. وفدُ بني تميم:

يُعدُّ وفدُ بني تميمٍ من أبرزِ الوفودِ التي جاءتْ إلى المدينةِ في ذلك العام، وذلك لمكانتِهِ بين قبائلِ العربِ، وشمعتِهِ في مجالِ الأدبِ والخطابةِ والشّعرِ.

وكان قدومُهم إلى النّبيّ ﷺ بسببِ سَرِيّةِ عُيينةَ بن حِصنٍ رضي الله عنه إليهم، فقد أُسِرَ منهم أحدَ عشرَ رجلاً وإحدى عشرةَ امرأةً، فقدم رؤساؤهم وأشرافهم ليشفعوا في هؤلاء الأسرى.

ويحكي علماءُ السّيرةِ تفاصيلَ دخولِهم على النّبيّ ﷺ ونداءَهم له على نحوٍ منافٍ للأدبِ نزلَ على إثرِها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

كما جرى بينهم وبين المسلمين سِجالاتٌ شعريّةٌ ومعارضاتٌ خطابيّةٌ كانت في النّهايةِ سبباً في إسلامِهم وإسلامِ قومِهم بعد ذلك.

ب. وفدُ عبدِ القيسِ:

تذكرُ المصادرُ التاريخيّةُ أنّ رجلاً من بني عبدِ القيسِ يُقال له منقذُ بنُ حيانَ كان يردُ المدينةَ للتّجارةِ، فرأى النّبيّ ﷺ وأنصتَ لكلامِهِ فأعجبَهُ، فأسلمَ وحَسُنَ إسلامُهُ، ثمّ بعثَهُ النّبيّ ﷺ بكتابٍ إلى قومِهِ يدعوهم إلى الإسلامِ، فتوافدوا عليه في ذلك العامِ وسألوهُ عن الإيمانِ والأشربةِ، وكان كبيرُهم الأشجُّ الذي قال فيه النّبيّ ﷺ: إنّ فيك خِصلتينِ يحبّهما اللهُ: الحِلمُ والأناةُ!

ت. وفدُ نجران:

كان النّبيّ ﷺ قد أرسلَ إلى نصارى نجران يدعوهم إلى الإسلام، فبعثوا إليهِ بوفدٍ من أشرافِهم ليقابلوهُ، ودار النّقاش طويلاً بين أولئك النّصارى وبين رسولِ اللهِ ﷺ، ونزلت الكثيرُ من الآيات التي تجيبُ عن تساؤلاتهم.

وبعد أن رأى رسولُ اللهِ ﷺ تعنّتهم وإصرارَهم على تزوير الحقائق دعاهم إلى المباهلةِ كما أمرَهُ اللهُ تعالى في قولِه: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

فامتنعوا عن المباهلةِ خشيةَ الهلاكِ ونزولِ العذابِ، ثمّ تصالحوا مع النّبيّ ﷺ على دفعِ الخراجِ، واشترطوا أن يبعث معهم رجلاً أميناً لقبضِ المالِ، فبعث معهم أبا عبيدةَ بنَ الجراحِ رضي الله عنه ، ثمّ ما لبث الإسلامُ أن انتشر بينهم حتّى أرسلَ النّبيّ ﷺ من يأخذُ منهم صدقاتِهم.

ث. وفدُ بني حنيفةَ:

جاء وفدُ بني حنيفةَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وكانوا سبعةَ عشرَ رجلاً فيهم مُسيلمةُ الكذّابُ، فأسلموا ونزلوا في دارِ بنتِ الحارثِ المخصّصةِ للوفودِ، أمّا مُسيلمةُ فكان يطمعُ في المُلكِ والرّياسةِ، وكان يقولُ: إن جعلَ لي محمّد الأمرَ من بعدِهِ تبعتُهُ!

فلمّا سمع النبيُّ ﷺ مقالتَهُ قال له: لو سألتني هذه القطعةَ ما أعطيتُكها، ولن تعدو أمرَ اللهِ فيكَ، ولئن أدبرتَ ليعقرنّكَ اللهُ، وهذا ثابتٌ يجيبُكَ عنّي!

وكان النّبيّ ﷺ قد رأى في منامِهِ سوارَينِ من ذهبٍ فَسَرّهُ ذلك حتّى نُفِخَ فيهما فصارا تراباً فأوّلَهما بخروجِ كذّابَينِ: العَنسيّ ومُسيلمةَ.

ج. وفدُ الحِميريّينَ من أهلِ اليمنِ:

كانت لهم وفادةٌ في السّنةِ التّاسعةِ من الهجرةِ وافقت قدومَ وفدِ بني تميمٍ، وكانوا أفضلَ منهم إذ قبلوا البُشرى، وقالوا للنّبيّ ﷺ: قبلنا!

وسألوه عن أحكامِ الدين وأمورِ الخلقِ، فأجابهم ﷺ كما ورد في البخاري.

ح. وفدُ طيءٍ:

قدم وفدٌ من أعيانِ طيءٍ ومعهم سيدُهم زيدُ الخيلِ رضيَ الله عنه ، فسماه النبيُّ ﷺ زيدَ الخيرِ، وأسلموا جميعاً وحسُنَ إسلامُهم.

خ. وفدُ بني عامرٍ:

استقبلهم النبيُّ ﷺ فأعجبوا بأخلاقِهِ فأسلموا، وقال لهم: قولوا بقولِكم أو بعضِ قولِكم ولا يستجرينَّكم الشيطانُ!

وكان في الوفد عامرُ بنُ الطفيلِ الذي أراد الغدرَ بالنبيِّ ﷺ، فكفاه اللهُ شرَّهُ، فمات بعد أيامٍ بالأورامِ الخبيثةِ.

د. وفدُ بني سعدِ بنِ بكرٍ:

جاء ضِمامُ بنُ ثعلبةَ رضي الله عنه فسأل النبيَّ ﷺ أسئلةً عظيمةً عن التوحيدِ والشرائعِ، فلمَّا رجعَ إلى قومِهِ دعاهم إلى الإسلامِ فأسلموا جميعاً في يومٍ واحدٍ!

وقال ابنُ عباسٍ: ما سمعنا بوافدِ قومٍ كان أفضلَ من ضِمامٍ!

ثمَّ جاءَ قومه يُسلمون!

ذ. وفدُ المراديِّينَ:

جاء فروةُ بنُ مسيكٍ المراديُّ رضي الله عنه بقومه، وطلب الإذنَ بقتالِ من أدبرَ من قومِهِ، فأمرهُ النبيُّ ﷺ أن يدعوهم أولاً فإن أسلموا قبل منهم، ثمَّ استعملهُ على مرادٍ ومذحجٍ وزبيدٍ.

ر. وفدُ كِندةَ:

قدم الأشعثُ بنُ قيسٍ رضيَ الله عنه بقومه، وأسلموا ولزموا المدينةَ يتعلمون الدين، وسألوا عن نسبِ قريشٍ فأخبرهم النبيُّ ﷺ: نحنُ بنو النضرِ بنِ كنانةَ لا ننتفي من أبينا!

ز. وفدُ جريرِ بنِ عبدالله البجليِّ:

قدمَ من اليمنِ، وقد أثنى عليه النبيُّ ﷺ قبل قدومهِ وقال: يدخلُ عليكم من هذا الفجِّ خيرُ ذي يمنٍ!

فحمد جريرٌ اللهَ على تلك البشارة.

س. وفدُ ثقيف:

أنزلهم النبيُّ ﷺ المسجدَ لرقّةِ قلوبِهم، فطلبوا استثناءاتٍ في الزنا والخمر والربا والصّلاة!

فأبى النّبيُّ ﷺ!

فأسلموا واشترطوا أن يهدمَ ﷺ اللاتَ، واستعمل عليهم عثمانَ بنَ أبي العاصِ لحرصهِ على التفقه.

ش. وفدُ تميم الداريّ:

كان نصرانياً فأسلمَ وسُرَّ به النبيُّ ﷺ إذ شهدَ بصدقِ ما أخبرَ به ﷺ عن الدجالِ. فجاءَ ومعه وفدٌ من قومه، فأسلموا، وأكرمهم النّبيُّ ﷺ!

ولأنَّ السّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدُّروس المُستفادة من مجيء الوُفود إلى النّبيِّ ﷺ:

1 ـ قوّةُ الدّعوةِ تَظهَرُ حينَ تَملِكُ القُلوبَ لا حينَ تَقهَرُ الأبدانَ، إنَّ النّاس لَم يَأتوا إلى المدينةِ لأنَّ السّيفَ فوقَ رُؤوسِهِم، بل لأنَّ نورَ الهدايةِ اقتحَمَ صُدورَهُم، فتبدّلت عُقولُهُم وقناعاتُهُم، وقد أثبتَ الإسلامُ أنَّ أعظمَ انتصارٍ هو ذاك الذي تُحرِزُهُ الدّواخِلُ حينَ تَنقادُ القلوبُ قبلَ الأجسادِ.

2 ـ النّصرُ الحقيقيُّ أنْ تُقبِلَ الأُمَمُ على الحَقِّ طَوعاً، لقد كان صُلحُ الحُديبيةِ وفَتحُ مكّةَ محطّةً فاصلةً جعلَتِ القَبائلَ تُدرِكُ أنَّ الإسلامَ هو المُستقبَلُ فأتَت طائعةً مُكرَمةً، وترفَعُ بَيعةً لا يُصاحِبُها خَوفٌ ولا قَهرٌ، بل رغبةٌ في الدخولِ تَحتَ ظِلالِ الرّحمةِ الإلهيّةِ.

3 ـ الحِكمةُ في القِيادةِ تَكمُنُ في تَحويلِ الخُصومِ إلى إخوةٍ، استقبَلَ النّبيُّ

ﷺ مَن كانَ بالأمسِ عَدوّاً لهُ بِبِشرٍ وصَفاءٍ، فصاروا أحبَّ النّاسِ إليه، وبذلك أسقطَ الإسلامُ تراكماتِ الثأرِ والحِقدِ ليبدأَ معَ الجميعِ حياةً جديدةً عنوانُها العَفوُ والسّماحةُ.

4 ـ الإسلامُ رسالةُ بِناءٍ لا هدمٍ، لم يَكنِ الهدفُ إسقاطَ الأصنامِ وحدها، بل البِناءُ فوقَ أنقاضِها: بِناءُ العُقولِ وصناعةُ الحضارةِ ووضعُ أُسُسٍ جديدةٍ للعَلاقاتِ بينَ النّاسِ.

5 ـ العِلمُ هو أوّلُ ما تُبنى به الأُمَمُ، ما إنْ يَصِلَ الوفدُ حتّى يَشرَعَ ﷺ في تعليمِهم أصولَ الإيمانِ والصّلاةِ والزّكاةِ؛ فالتّغييرُ يبدأُ مِن داخلِ النفوسِ إلى ظاهرِ الحياةِ.

6 ـ كرامةُ الإنسانِ أساسٌ في التّعامُلِ النّبويّ، لم يُهِن وافِداً، ولم يُذكّرْهُ بخطيئِهِ القديمِ، بل رآهُ مُكرّماً مُؤهّلاً لحملِ النّورِ بعدَ أنْ لَفَظَ الظّلامَ.

7 ـ الدّولةُ التي تُحسِنُ أخلاقَها تُحسِنُ سياستَها، كانت مجالِسُ النبيّ ﷺ مع الوفودِ مدرسةَ أخلاقٍ قبلَ أنْ تكونَ منابِرَ سياسةٍ، يَزرَعُ فيها العَدلَ والوُدَّ، فيعودُ الوفدُ وهو سفيرٌ للإسلامِ في أهلِهِ.

8 ـ القُدوةُ أعظَمُ سِلاحٍ في تغييرِ الشّعوبِ، ما رأى أحدٌ رسولَ اللهِ ﷺ إلّا أحبّهُ، ولا سَمِعَهُ إلّا وثِقَ بِهِ، فكانَ خُلُقُهُ وحدَهُ دعوةً تقومُ مقامَ آلافِ الخطبِ.

9 ـ وَحدةُ الرّسالةِ أقوى مِن تَفرُّقِ العَصَبيّاتِ، تَلاشى صَوتُ التّعصُّبِ للقبيلةِ حينَ ارتفَعَت كلمةُ التّوحيدِ، وصارَ النّسبُ والإيمانُ سواءً لا يُفرِّقُ بينَ عبدٍ وسيّدٍ.

10 ـ الدّعوةُ حينَ تُحسِنُ بدايتَها تُحسِنُ نهايتَها، بدأَ الإسلامُ دعوةَ مُستضعَفينَ في مكّةَ، ثمّ جاءَ الوفودُ بعدَ الفتحِ خاضِعينَ للحقيقةِ التي ظَهَرَت لهم، وما هذا إلّا تمامُ الوَعدِ الإلهيّ بأنّ الدّينَ للهِ وأنّ الرسالةَ باقيةٌ تَهدي الضّالّينَ إلى الصّراطِ المستقيمِ.

حجّةُ الوَداع!

اليَومَ أكملتُ لكُم دينَكُم!

كانتِ الجزيرةُ العربيّةُ يومئذٍ قد لبستْ أثوابَ الهدايةِ كلَّها، وانقشعتْ عن أرواحِ أهلِها سُحُبُ الجاهليةِ إلى غيرِ رجعةٍ، وها هو نورُ الرسالةِ قد أضاءَ القلوبَ وأتمَّ اللهُ نعمتَهُ على المؤمنين. وفي ذلك العامِ الأخيرِ من عمرِ النبوّةِ، دعا رسولُ اللهِ ﷺ النّاسَ إلى حجٍّ يجتمعون فيه تحتَ رايةِ التوحيدِ، ويشهدون آخرَ مواقفِ النورِ مع معلّمِ الدّنيا طريقَ الفلاح.

خرجَ ﷺ بالصّحابةِ في موكبٍ لم تشهدِ الأرضُ له مثيلاً؛ قلوبٌ مؤمنةٌ تطيرُ شوقاً، وأعينٌ تتعلّقُ بالقدوةِ الأولى، وكأنّ القدمَ الذي تسيرُ به نبيٌّ مرسلٌ يخطُّ على الترابِ حدَّ الطريقِ إلى الجنّة. كان المشهدُ مهيباً؛ أصواتُ التلبيةِ تعلو، وجبالُ مكّةَ تردّدُ الصدى: لبّيكَ اللهمّ لبّيك! وكأنّ الكونَ كلَّهُ يشاركُ تلك الرعشةَ من الخشوعِ واليقين.

في عرفاتَ وقفَ ﷺ يخاطبُ العالمَ كلَّهُ بلسانِ الرحمةِ والعدلِ، يرسمُ للأمّةِ دستورَها الخالد: كرامةُ الإنسانِ، حرمةُ الدماءِ والأموالِ والأعراضِ، وضرورةُ التمسّكِ بكتابِ اللهِ وسنّةِ نبيّهِ، فكانت خطبتُهُ كتاباً يُتلى، وشمساً لا تغربُ، وشهادةَ إتمامِ النعمةِ وإكمالِ الدّين.

وهناك، في ذلك اليومِ الأغرّ، تردّدت الكلماتُ التي نزلت من السّماء معلنةً اكتمالَ الرسالةِ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾

فبكى لها عمرُ رضي الله عنه ، وعرفتِ القلوبُ أنّ الوداعَ قد اقتربَ، وأنّ الريحَ تحملُ آخرَ أنفاسِ النبوّةِ إلى الأفقِ البعيد!

وفي يومِ السبتِ لأربعٍ بَقِينَ من ذي القعدةِ تهيّأ النبيُّ ﷺ للرّحيلِ، فترجّلَ وادّهنَ ولبسَ إزارَهُ ورداءَهُ، وقلّدَ بدنَهُ، وانطلقَ بعدَ الظهرِ حتّى بلغَ ذا الحليفةِ قبلَ أن يصليَ العصرَ، فصلاها ركعتينِ، وباتَ هناكَ حتّى أصبحَ. فلمّا أصبحَ قالَ لأصحابِه: أتاني اللّيلةَ آتٍ من ربي، فقال: صلِّ في هذا الوادي

المبارك، وقل: عمرةٌ في حجّةٍ.

وقبلَ أن يصلي الظهرَ اغتسلَ لإحرامِه، ثمّ طيبته عائشةُ بيدها بذريرةٍ وطيبٍ فيه مسكٌ، في بدنه ورأسه، حتى كان وبيض الطيب يُرى في مفارقِه ولحيتِه، ثمّ استدامَهُ ولم يغسلْه، ثمّ لبس إزارَهُ ورداءَهُ، ثمّ صلى الظهرَ ركعتينِ، ثمّ أهلَّ بالحجّ والعمرةِ في مُصلّاهُ، وقرنَ بينهما، ثمّ خرجَ، فركبَ القصواءَ، فأهلَّ أيضًا، ثمّ أهلَّ لما استقلتْ به على البيداءِ.

ثمّ واصلَ سيرَهُ حتى قرُبَ من مكّةَ، فباتَ بِذي طُوى، ثمّ دخلَ مكّةَ بعد أن صلّى الفجرَ واغتسلَ من صباحِ يومِ الأحدِ لأربعِ ليالٍ خَلَوْنَ من ذي الحِجّةِ، وقد قضى في الطريقِ ثمانِ ليالٍ، فلمّا دخلَ المسجدَ الحرامَ طافَ بالبيتِ، وسعى بين الصفا والمروةِ، ولم يَحِلَّ، لأنّه كان قارِناً قد ساقَ معهُ الهديَ، فنزلَ بأعلى مكّةَ عند الحَجُونِ، وأقامَ هناكَ، ولم يَعُدْ إلى الطوافِ غيرِ طوافِ الحجّ.

وأمَرَ مَنْ لم يكنْ معهُ هَدْيٌ من أصحابِهِ أنْ يجعلوا إحرامَهُم عُمْرَةً، فيطوفوا بالبيتِ وبينَ الصفا والمروةِ، ثمّ يَحِلّوا حِلالاً تامّاً، فترددوا، فقالَ: لوِ استقبلتُ مِن أمري ما استدبرتُ ما أهديتُ، ولولا أنّ معيَ الهديَ لأحللتُ.

فحلَّ مَنْ لم يكنْ معهُ هديٌ، وسمعوا وأطاعوا.

وفي اليومِ الثامنِ من ذي الحِجّةِ، وهو يومُ الترويةِ، توجّهَ إلى مِنًى، فصلّى بها الظهرَ والعصرَ والمغربَ والعشاءَ والفجرَ ـ خمسَ صلواتٍ ـ ثمّ مَكَثَ قليلاً حتى طَلَعَتِ الشّمس، فأجازَ حتى أتى عَرَفَةَ، فوَجَدَ القُبّةَ قد ضُرِبَتْ لهُ بِنَمِرَةَ، فنزلَ بها، حتى إذا زالَتِ الشّمس أمرَ بالقَصواءِ، فرُحِلَتْ لهُ، فأتى بطنَ الوادي، وقد اجتمعَ حولَهُ مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ أو أربعةٌ وأربعونَ ألفاً من النّاس، فقامَ فيهم خطيباً، وألقى هذه الخُطبةَ الجامعةَ:

أيُّها النّاس، اسمعوا قولي، فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعدَ عامي هذا بهذا الموقفِ أبدًا!

إنّ دماءَكم وأموالَكم حرامٌ عليكم كحُرمةِ يومِكم هذا، في شهرِكم هذا،

في بلدِكم هذا. ألا كلُّ شيءٍ من أمرِ الجاهليةِ تحتَ قدميَّ موضوعٌ، ودماءُ الجاهليةِ موضوعةٌ، وإنَّ أولَ دمٍ أضعُ من دمائنا دمُ ابنِ ربيعةَ بنِ الحارثِ، وكان مسترضَعاً في بني سعدٍ فقتلتهُ هذيلٌ، وربا الجاهليةِ موضوعٌ، وأولُ ربا أضعُ من ربانا ربا عبّاسِ بنِ عبدِ المطلبِ، فإنَّهُ موضوعٌ كلُّه!

فاتّقوا اللهَ في النساءِ، فإنّكم أخذتموهنَّ بأمانةِ اللهِ، واستحللتُم فُروجَهنَّ بكلمةِ اللهِ، ولكم عليهنَّ ألّا يُوطِئْنَ فُرُشَكم أحداً تكرهونَهُ، فإنْ فعلنَ ذلكَ فاضربوهُنَّ ضرباً غيرَ مُبرِّحٍ، ولهنَّ عليكم رزقُهُنَّ وكِسوتُهُنَّ بالمعروفِ.

وقد تركتُ فيكم ما لن تضلّوا بعده إنِ اعتصمتُم به، كتابَ اللهِ!

أيُّها النّاس، إنّهُ لا نبيَّ بعدي، ولا أمّةَ بعدَكم، ألا فاعبدوا ربَّكم، وصلّوا خمسَكم، وصوموا شهرَكم، وأدّوا زكاةَ أموالِكُم طيبةً بها أنفسُكم، وحُجّوا بيتَ ربِّكم، وأطيعوا أولي أمرِكم، تدخلوا جنّةَ ربِّكم!

وأنتم تُسألونَ عنّي، فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهدُ أنّكَ قد بلّغتَ وأدّيتَ ونصحتَ.

فقالَ بإصبعهِ السّبّابةِ يرفعُها إلى السّماءِ، ويَنكُتُها إلى النّاسِ: اللهمَّ اشهدْ! ثلاثَ مرّاتٍ.

وكانَ الذي يصرخُ في النّاس بقولِ رسولِ اللهِ ﷺ، وهو بعَرَفةَ، رُبيعةُ بنُ أميّةَ بنِ خلفٍ.

وبعدَ أن فرغَ النبيُّ ﷺ من إلقاءِ الخُطبةِ نزلَ عليهِ قولُهُ تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

فلمّا سمعها عمرُ بكى، فقيلَ لهُ: ما يُبكيكَ؟ قالَ: إنّهُ ليسَ بعدَ الكمالِ إلّا النّقصانُ.

وبعدَ الخُطبةِ أذّنَ بلالٌ ثمَّ أقامَ، فصلّى رسولُ اللهِ ﷺ بالنّاسِ الظهرَ، ثمَّ أقامَ فصلّى العصرَ، ولم يُصلِّ بينهما شيئًا، ثمَّ ركبَ حتّى أتى الموقفَ، فجعلَ بطنَ ناقتهِ القصواءِ إلى الصَّخَراتِ، وجعلَ جبلَ المشاةِ بين يديهِ، واستقبلَ

القبلةَ، فلم يزل واقفًا حتى غربت الشمس، وذهبتِ الصُفرةُ قليلًا حتى غاب القُرصُ، وأردفَ أسامةَ، ودفعَ حتى أتى المزدلفةَ، فصلّى بها المغربَ والعشاءَ بأذانٍ واحدٍ وإقامتين، ولم يُسبّحْ بينهما شيئًا، ثمّ اضطجعَ حتى طلعَ الفجرُ، فصلّى الفجرَ حتى تبيّنَ لهُ الصبحُ بأذانٍ وإقامةٍ، ثمّ ركبَ القصواءَ حتى أتى المشعرَ الحرامَ، فاستقبلَ القبلةَ، فدعاهُ، وكبّرهُ، وهلّلهُ، ووحّدهُ، فلم يزل واقفًا حتى أسفرَ جدًا.

فدفعَ من المزدلفةِ إلى مِنى، قبلَ أن تطلعَ الشّمس، وأردفَ الفضلَ بنَ عبّاسٍ حتّى أتى بطنَ مُحَسّرٍ، فحرّكَ قليلاً، ثمّ سلكَ الطريقَ الوسطى التي تخرجُ على الجمرةِ الكُبرى، حتّى أتى الجمرةَ التي عندَ الشجرةِ - وهي الجمرةُ الكُبرى نفسُها، كانت عندَها شجرةٌ في ذلك الزمانِ، وتُسمّى بجمرةِ العقبةِ وبالجمرةِ الأولى - فرماها بسبعِ حصياتٍ، يُكبّرُ مع كلِّ حصاةٍ منها، مثلَ حصى الخذفِ، رمى من بطنِ الوادي، ثمّ انصرفَ إلى المنحرِ، فنحرَ ثلاثاً وستينَ بَدَنةً بيدِه، ثمّ أعطى عليًا فنحرَ ما غبَرَ، وهي سبعٌ وثلاثونَ بدنةً، تمامَ المائةِ، وأشركَهُ في هَدْيِه، ثمّ أمرَ من كلِّ بدنةٍ ببضعةٍ، فجُعِلَتْ في قِدرٍ، فطُبِخَت، فأكلا من لحمِها، وشربا من مَرَقِها.

ثمّ ركبَ رسولُ اللهِ ﷺ، فأفاضَ إلى البيتِ، فصلّى بمكّةَ الظهرَ، فأتى على بني عبدِ المطّلبِ يسقُونَ على زمزمَ، فقال: انزعوا بني عبدَ المطّلبِ، فلولا أن يغلبَكم النّاس على سقايتِكم لنزعتُ معكم. فناولُوهُ دلواً فشربَ منهُ.

وخطبَ النبيُّ ﷺ يومَ النّحرِ، عاشرَ ذي الحجّةِ، أيضاً حينَ ارتفعَ الضُّحى، وهو على بَغلةٍ شهباءَ، وعليٌ يعبّرُ عنهُ، والنّاس بين قائمٍ وقاعدٍ. وأعادَ في خُطبتِه هذه بعضَ ما كان ألقاهُ أمسِ، فقد روى الشيخانِ عن أبي بكرةَ قال: خطبنا النبيُّ ﷺ يومَ النحرِ، قال:

إنّ الزّمانَ قدِ استدارَ كهيئتِه يومَ خلقَ اللهُ السّماواتِ والأرضَ، السّنةُ اثنا عشرَ شهراً، منها أربعةٌ حُرُم، ثلاثٌ مُتوالياتٌ: ذو القعدةِ، وذو الحِجّةِ، والمُحرّمُ، ورجبُ مُضَرَ الذي بين جمادى وشعبانَ!

وقال: أيُّ شهرٍ هذا؟

قلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ.

فسكتَ حتّى ظننّا أنّهُ سيُسمّيهِ بغيرِ اسمِه، قال: أليس ذا الحجّة؟

قلنا: بلى.

قال: أيُّ بلدٍ هذا؟

قلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ. فسكتَ حتّى ظننّا أنّهُ سيُسمّيهِ بغيرِ اسمِه، قال: أليستِ البلدةُ؟

قلنا: بلى.

قال: فأيُّ يومٍ هذا؟

قلنا: اللهُ ورسولُهُ أعلمُ. فسكتَ حتّى ظننّا أنه سيُسمّيهِ بغيرِ اسمِه، قال: أليسَ يومَ النحرِ؟

قلنا: بلى.

قال: فإنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ كحُرمةِ يومِكم هذا، في بلدِكم هذا، في شهرِكم هذا!

وستلقونَ ربَّكم، فيسألُكم عن أعمالِكم، ألا فلا ترجِعوا بعدي ضُلّالاً، يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ!

ألا هل بلّغتُ؟

قالوا: نعم.

قال: اللهمَّ اشهدْ.

فليبلّغِ الشاهدُ الغائبَ، فربَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامعٍ!

وأقامَ أيّامَ التّشريقِ بِمِنىً يُؤدّي المناسِكَ، ويُعلّمُ الشّرائعَ، ويذكُرُ اللهَ، ويُقيمُ سُنَنَ الهدي مِن مِلّةِ إبراهيمَ، ويمحو آثارَ الشّركِ ومعالمَها.

وفي يومِ النفرِ الثاني، الثالث عشر من ذي الحجّة، نفر النبيُّ ﷺ من مِنى، فنزلَ بخَيف بني كنانةَ مِن الأبطحِ، وأقامَ هناك بقيّةَ يومه ذلك وليلته، وصلّى هناك الظهرَ والعصرَ والمغربَ والعشاء، ثمّ رقد رقدةً، ثمّ ركب إلى البيتِ، فطافَ بِهِ طواف الوداعِ.

ولأنّ السّيرة واقعٌ يُعاش، لا تاريخٌ يُقرأ، هذه هي أهمُّ الدّروس المستفادة من حجّة الوداع:

1 ـ اجتماعُ الأمةِ تحتَ رايةٍ واحدة، في حجّةِ الوداعِ توحّدت الأصوات بالتلبيةِ وتساوتِ الصفوفُ في صعيدٍ واحدٍ، لا فاصلَ بين سيدٍ وعبدٍ، ولا حاجزَ بين قويٍّ وضعيفٍ؛ فالأمّةُ التي تتوجّهُ بقلبٍ واحدٍ نحوَ قِبلةٍ واحدةٍ لا تُغلبُ، وإن اختلفت لغاتُها وأوطانُها، لأنّ اجتماعَ القلوبِ يسبقُ اجتماعَ الأبدانِ.

2 ـ خروجُه ﷺ ماشياً في المناسكِ درسُ تربيةٍ وقيادة، مشى ﷺ بين النّاس لا يعزلُه عنهم حاجبٌ ولا فارقُ مكانةٍ، فيرى الكبيرَ والصغيرَ، ويسألُ عن حاجاتِهم، ويجيبُ من استفتاه، ليؤكّدَ أنّ القيادةَ ليست ارتفاعاً فوقَ الرقابِ، بل انحناءٌ على حاجاتِ الرعيّةِ رحمةً وخدمةً ورفقاً.

3 ـ إعلانُ الحقوقِ يومَ عرفة، اختار ﷺ أعظمَ المجامعِ ليُوجّهَ أعظمَ خطابٍ للعدالةِ، يذكّرُ فيه بأنّ الإيمانَ لا يرفعُ الظلمَ طالما بقي في اليدِ حقٌّ مسلوبٌ أو دمٌ مهدورٌ أو عرضٌ منتهكٌ، وأنّ اللهَ لا يقبلُ طوافاً يجاوزُهُ ظلمٌ، ولا ركعةٌ تعلو على صرخةِ مظلومٍ.

4 ـ إبطالُ ثاراتِ الجاهلية، قطع ﷺ سلاسلَ الدمِ التي كانت تتوارثُها العربُ جيلاً بعد جيلٍ، وكأنّهُ يدفنُ التاريخَ الأسودَ بيدِ العدالةِ البيضاءِ، ليَعلمَ أنّ الدولةَ إذا لم تُنقِ قلوبَ النّاس من أحقادِهم فلن تُقيمَ حقّاً ولن تَمحو باطلاً.

5 ـ تصفيةُ المظالمِ قبل لقاءِ الله، حجّةُ الوداعِ محطةُ مراجعةٍ عظمى، يُحاسبُ فيها المؤمنُ نفسَهُ قبل أن يُحاسَبَ، ليفتحَ فيها أبوابَ الصلحِ مع العبادِ، كي يجدَ بابَ المغفرةِ مفتوحاً عند ربِّ العبادِ.

6 ـ ردّ الأماناتِ إلى أهلها قبل الرحيل، لم يترك ﷺ الدنيا إلّا وقد ترك وصيةً أخيرةً: «الأمانةُ دينٌ»؛ فمن خانها سقط من عينِ الله، ولو ملأ الأرض عباداتٍ، فصونُ الحقوقِ يكشفُ صدقَ الإيمان.

7 ـ إعلانُ إكمالِ الدين، في يومٍ تجلّت فيه السّماء على الأرض، نزلت آيةُ الكمالِ إيذاناً بانتهاءِ التشريعِ وتمامِ النعمةِ، فليس لأحدٍ أن يزيد في دين اللهِ ولا أن ينقُصَ منه شيئاً، فقد اكتملتِ الرسالةُ واستقامَ الطريقُ.

8 ـ الشهادةُ الأخيرةُ للأمة، حين رفع ﷺ صوته بالسؤال: «هل بلّغت؟» ارتفعت أصابعهم شاهدةً أنّ النبيّ قد أدّى الأمانةَ، فكأنّه يُشهدُ الأرضَ والسّماء ليحمِلوا هذا الدينَ للآتين من بعدِهم.

9 ـ التبليغُ تكليفُ كلِّ مسلم، ما كان الدينُ ليبلغَ الآفاقَ لو بقي حبيسَ مكّةَ والمدينة، بل انتشرَ على أكتافِ رجالٍ ونساءٍ تشرّفوا بأن يكونوا امتداداً لصوتِ الحقِّ الذي سمعوه في عرفات.

10 ـ المساواةُ واقعٌ لا شعار، الإحرامُ يخلعُ عن الإنسانِ رتبه وملابسَ التفاخرِ ليعيدَهُ إلى أصلِه: عبدٌ لله، بلا تمييزٍ ولا استعلاءٍ، فالتقوى وحدَها معيارُ الرفعةِ عندَ ربِّ العالمين.

11 ـ عبادةُ التلبيةِ إعلانُ الولاءِ لله، لبّوا نداءً واحداً: «لبيكَ اللهم لبيك» ليموتَ في حجورِ التوحيدِ كلُّ نداءٍ لغيرِ الله، فلا سلطانَ في القلبِ لسواه.

12 ـ التيسيرُ في المناسكِ سنّة، حين قال ﷺ مراراً «افعل ولا حرج»، كان يضعُ قاعدةً عظيمةً: الدينُ يُسرٌ، وأنّ اللهَ لم يُرِد لعبادهِ العسرَ، وأنّ الطاعاتِ طريقُها القلوبُ لا الجراحُ.

13 ـ رفعُ الحرجِ عن النّاس، إنّ الله لا يطلبُ المشقّةَ لذاتها، بل يطلبُ الطاعةَ مع الروحِ الساكنةِ؛ فمن وجدَ السعةَ فلا يُضيّق على نفسه ولا على الآخرين.

14 ـ الخطابُ النبويّ إعلانُ مسؤوليةٍ لا انتظارَ قيادةٍ، لم يرفعِ النبيُّ ﷺ في حجّةِ الوداعِ شخصاً بعينهِ لينوبَ عنه، بل جعلَ الوصيّةَ للأمّةِ جميعاً،

أن يتحمّلوا مسؤوليةَ الدين بعده، فالقائدُ هنا ليس فرداً واحداً، بل جماعةُ المؤمنين الذين ينهضون معاً بحملِ الرسالةِ، فلا ترتبطُ الهدايةُ بوجودِ شخصٍ وإن كان سيّدَ البشرية ﷺ، بل تبقى ما بقيَ القرآنُ والسنّةُ في القلوبِ والبيوتِ.

15 ـ تكريمُ المرأةِ في ختامِ الرسالةِ، وضع ﷺ عند النساءِ آخر وصاياه؛ وكأنّهُ يقولُ: إن أردتم أمةً طيبةً مباركةً، فابدؤوا بالعدلِ مع أمهاتكم وزوجاتِكم وبناتِكم.

16 ـ الحُرماتُ تُستَعلنُ في أقدسِ الأمكنةِ، في الحرمِ لا ظلمَ ولا اعتداءَ، ليبقى هذا الموطنُ نموذجاً مصغّراً للعالمِ الذي يريدهُ اللهُ لعبادهِ جميعاً.

17 ـ تنظيمُ الحشودِ عبادةٌ، الطاعةُ واجتماعُ الصفوفِ في المناسكِ درسٌ في أنّ الأممَ لا تقوى إلّا حين تنتظمُ قواها وتتوحّدُ وجهتُها.

18 ـ الحجُّ مؤتمرٌ عالميٌّ للأمةِ، تلاقتِ القبائلُ بلا حواجزِ العنصريةِ والسياسةِ لتتعلّمَ أنّ الهويةَ الإسلاميةَ أسبقُ من كلِّ هويةٍ أرضيةٍ.

19 ـ المحبةُ في الاتّباعِ والعملِ، اتباعُ خطواتِهِ ﷺ عبادةٌ، فالسنّةُ ليست أقوالاً تحفظُها القلوبُ فقط، بل أفعالاً تُمارسُ لتوقظَ القلبَ وتُحيي الروحَ.

20 ـ الإيمانُ حياةٌ كبرى، الانتقالُ بين المشاعرِ شعيرةٌ تذكرُ المؤمنَ بأنّ الحياةَ مقاماتٌ من الطاعةِ، يرتقي فيها العبدُ رتبةً بعد رتبةٍ.

21 ـ اجتماعُ القلوبِ عند عرفات، هناكَ تتجرّدُ النفوسُ من الدُّنيا، وتطلبُ الغفرانَ بصدقٍ، فمن لم يولدْ في عرفاتَ من جديدٍ، فلا جديدَ في حياته.

22 ـ القُدوةُ عملٌ لا قولٌ، كان ﷺ يمارسُ ما يأمرُ به أمامَ الأمةِ، فغرسَ في القلوبِ أنّ الخطابَ العمليَّ أصدقُ من آلافِ الخُطبِ.

23 ـ لا وصيّةَ أعظمُ من كتابِ الله، القرآنُ ليس كتاباً يُتلى فحسب، بل قانونُ حياةٍ وهدايةُ أجيالٍ، ومن أراد النجاةَ في الدُّنيا والآخرةِ فليتّخذْهُ إماماً وهادياً.

24 ـ الإيمانُ أمانٌ اجتماعيٌ، كلُّ أمرٍ قاله ﷺ في وداعِه هدفُهُ حمايةُ المجتمعِ من الفسادِ ومن الظلمِ، لتعيشَ القلوبُ في طمأنينةٍ.

25 ـ الحقوقُ تُحفظُ قبل العبادات، العبادةُ بلا خلقٍ كجسدٍ بلا روحٍ، ومن وقفَ في عرفةَ وهو ظالمٌ لنفسِهِ أو لغيرِهِ فلم يقفْ بعدُ في موضعِ العفوِ حقًّا.

26 ـ التوحيدُ هو الرسالةُ الخالدةُ، اختفتِ الأصنامُ من الحرمِ كما اختفتِ الفوارقُ من القلوبِ، وبقيَ الإلهُ الواحدُ وحدَهُ سيداً للحياةِ والكونِ.

27 ـ الإخلاصُ روحُ العبادةِ، من لم يقدّمْ اللهَ بقلبِهِ لن ينتفعَ بحركاتِ جسدِه، فالإخلاصُ نورٌ تراهُ السّماءُ ولو أخفاهُ النّاس.

28 ـ الحجُّ انتقالٌ من الدُّنيا إلى الآخرة، الإحرامُ كفنٌ رمزيٌّ، والمشاعرُ منازلُ، والوقوفُ بين يدي اللهِ استحضارٌ ليومٍ يقفُ فيه الخلقُ أجمعونَ للحساب.

29 ـ كلُّ مسلمٍ حاملُ نورٍ، ما قاله ﷺ لكلِّ من حضرَ: بلِّغوا... هو تسليمُ الرايةِ لكلِّ فردٍ: أن يُصبحَ داعيةً لخيرٍ يشعُّ في بيوتِ النّاسِ ودروبِهم.

30 ـ الوداعُ رسالةُ بقاءٍ، وقفَ ﷺ بينهم مودّعاً، لا مُستسلماً للفراقِ، بل واثقاً أنّ سنّتَه ستبقى النورَ الذي يُهتدى به، وأنّ الموتَ لا يُطفئُ ضياءَ الرسالةِ

كيفَ طابَتْ لكُمْ أنفُسُكم أن تَحثُوا التُّراب على رسُولِ الله ﷺ؟!

كانتِ المدينةُ آنذاكَ تُغفو على نورٍ واحدٍ، نورِ رجلٍ إذا ابتسم أزهرتِ الجدرانُ، وإذا غابَ خبَا في القلوبِ ضوءُ الأمانِ. كانتِ الحياةُ تدورُ حولهُ ﷺ كما يَدورُ الكوكبُ حولَ شمسِهِ؛ السّلامُ إذا مَشى، والرّحمةُ إذا تكلّم، واليقينُ إذا رفعَ طَرْفَهُ إلى السّماء.

عاشَ النّبيُّ ﷺ بعدَ حجّةِ الوداعِ أيّامًا تُشبهُ خُيوطَ الشّمسِ الأخيرةَ قبلَ المَغيبِ؛ دقائِقُ من نورٍ صافٍ تُختزنُ ما سيَبقى من هدايةٍ للأرضِ. وكانتِ المدينةُ تتنفّسُ حضورَهُ، ولا تدري أنّ هذا الحضورَ ينسحبُ رُويدًا كأنّهُ يُمهّدُ للسّماءِ أن تستردَّهُ.

وفي تلكَ الأيّامِ الأخيرةِ، بدا كأنّ الزّمانَ يَستجمعُ أنفاسَهُ في انتظارِ لحظةٍ لا يريدُ أن تأتي. كأنّ الرّيحَ تمشي على أطرافِ أجنحتِها، والمدينةُ تُخفي قلقَها خلفَ صمتٍ طويلٍ في المنازلِ والمساجدِ.

كانَ ﷺ يَمشي بينَ أصحابِهِ فلا يَدرونَ أنّهُ يُودّعُهُم. يَبتسمُ لهم، ولا يَعلمونَ أنّها ابتسامةُ الرّاحلينَ، وأنّ خَلْفَ سُكونِها جبالًا من وصايا النّبوّةِ ورَحمتِها.

وحينَ اشتدّ عليهِ الوجعُ، تحمّلَ الألمَ بصمتِ القائدِ الذي يَخشى على أمّتِهِ من الدموعِ أكثرَ من خوفِهِ عليها من السّيوفِ. فما زالَ ﷺ يَحمِلُ عنهم همَّ الدُّنيا والآخرةِ، حتّى حينَ ضاقَ الجسدُ بأوجاعِهِ، اتّسعَ القلبُ ليحمِلَ أمّةً كاملةً.

يا لِهذا المَشهدِ العظيمِ، مدينةٌ ترتجفُ دونَ أن تَفهمَ أنّ الشّمسَ تتهيّأُ للغيابِ، وأمّةٌ تقتربُ من أكبرِ امتحاناتِها: كيفَ تَعيشُ والنّبيُّ ﷺ ليسَ بينها؟

ومن ذا الذي يملك أن يحبس دمعته إذا تذكّر أنّ آخر ما فعلهﷺ أنْ كشف السّتار عن وجهه الظاهر، فرأى أصحابه مصطفين خلف إمام غيره، ثمّ ابتسم.

ابتسامةُ الرّضا، ابتسامةُ اكتمال الرّسالة، ابتسامةُ الوداع.

يا الله، ما أثقلَ الوداع إن كانَ من خاتم النبيين، الذي خُتم به نورُ السّماء على الأرض.

يا الله، كيف احتملتِ المدينةُ موتَ مَن كانتْ بهِ تحيا؟

وكيفَ لم تتشقّقِ الأرضُ من حُزنها على مَن لم تطأها قدمٌ أطهرُ منهُ؟

سلامٌ عليكَ يا رسولَ الله ما بَقِيَتِ القلوبُ تهتِفُ بالصّلاة عليك كلّ صباحٍ ومساءٍ!

كانَ فَتْحُ مكّة هو أوّلَ علاماتِ اقترابِ أجَلِ رَسولِ اللهِ ﷺ، فقد نزَلت سورةُ الفتحِ إشارةً إلى تمامِ الرّسالةِ واقترابِ الأجَلِ!

وروى البخاريُّ من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما، قال: كانَ عُمَرُ يُدخِلُني مع أشياخِ بَدرٍ، فكأنّ بعضَهم وَجَدَ في نفسِهِ، فقالَ: لِمَ تُدخِلُ هذا معَنا ولَنا أبناءٌ مثلُهُ؟!

فقالَ عُمَرُ: إنّهُ مَن قد عَلِمتُم.

فدَعاني ذاتَ يومٍ فأدخَلَني معهم، فما رُئيتُ أنّه دَعاني يومئذٍ إلّا ليُرِيَهُم.

قالَ: ما تقولونَ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

فقالَ بعضُهم: أُمِرنا أن نَحمَدَ اللهَ ونَستغفِرَهُ إذا نُصِرنا وفُتِحَ علَينا. وسَكَتَ بعضُهم فلم يَقُل شيئًا.

فقالَ لي: أكذلِكَ تقولُ يا ابنَ عبّاسٍ؟

فقلتُ: لا.

قال: فماذا تقولُ؟

قلتُ: هو أجلُ رسولِ الله ﷺ أعلمهُ له، قال: {إذا جاء نصرُ الله والفتح}

وذلك علامةُ أجلك: {فسبّح بحمد ربّك واستغفره إنّه كان توّابا}

فقال عمرُ رضي الله عنه : ما أعلمُ منها إلا ما تقولُ!

وبعد أن نزلت سورةُ الفتح كان النبيُّ ﷺ يعلم يقينًا أن أجله قد اقترب.

وروى البخاريُّ ومسلمٌ من حديث فاطمة رضي الله عنها، قالت: أسرّ لي النبيُّ ﷺ: إنّ جبريل كان يُعارضني بالقرآن كلّ سنة، وإنّه عارضني العام مرّتين، ولا أراهُ إلا حضر أجلي!

وروى أحمدُ في مسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: لما بعثهُ رسولُ الله ﷺ إلى اليمن خرج معهُ رسولُ الله ﷺ يوصيه، ومعاذُ راكبٌ، ورسولُ الله ﷺ يمشي تحت راحلته.

فلمّا فرغَ قال: يا معاذ، إنّك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلّك أن تمرّ بمسجدي هذا وقبري!

فبكى معاذٌ جزعًا لِفراقِ رسولِ الله ﷺ.

ثمّ التفتَ ﷺ فأقبلَ بوجهه نحوَ المدينة وقال: إنّ أولى النّاس بي المتّقون، مَنْ كانوا وحيثُ كانوا!

وأخرجَ الدارميُّ من حديثِ أبي مُويهبةَ مولى رسولِ الله ﷺ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: إني قد أُمِرتُ أن أستغفرَ لأهلِ البقيع، فانطلق معي.

فانطلقتُ معهُ في جوفِ اللّيل، فلمّا وقف عليهم قال: السلامُ عليكم يا أهل المقابر، ليهنكم ما أصبحتم فيهِ مما أصبح فيهِ النّاس، لو تعلمون ما نجاكمُ اللهُ منه. أقبلَتِ الفِتنُ كقِطَعِ اللّيل المظلِم، يتبعُ آخرُها أوّلَها، الآخرةُ أشرُّ من الأولى!

ثمّ أقبلَ عليَّ فقال: يا أبا مُويهبة، إني قد أُوتيتُ بمفاتيحِ خزائنِ الدُّنيا

والخُلدِ فيها ثمّ الجنّة، فَخُيِّرتُ بين ذلك وبين لقاء ربّي!

قلتُ: بأبي أنت وأمي، خُذْ مفاتيح خزائن الدُّنيا والخُلد فيها ثمّ الجنّة.

قالَ: لا واللهِ يا أبا مُوَيهبة، لقد اخترتُ لقاء ربّي!

ثمّ استغفرَ لأهلِ البقيعِ، ثمّ انصرفَ.

وأوّلُ ما بُدِئَ به رسولُ اللهِ ﷺ من مرضِهِ الذي ماتَ فيه هو الصُّداع.

أخرجَ الدّارميُّ من حديثِ عائشةَ رضي اللهُ عنها، قالت: رجع إليّ النبيُّ ﷺ ذاتَ يومٍ من جنازةٍ في البقيعِ، فوجدني وأنا أجدُ صداعًا، وأنا أقول: وا رأساه.

فقال: بل أنا يا عائشةُ، وا رأساه.

ثمّ قال: وما ضرّكِ لو مِتّ قبلي، فغسّلتكِ، وكفّنتكِ، وصلّيتُ عليكِ، ودفنتكِ؟

فقلتُ: لكأنّي بكَ واللهِ لو فعلتَ ذلك لرجعتَ إلى بيتي فأعرستَ فيه ببعضِ نسائِكَ.

فتبسّم رسولُ اللهِ ﷺ!

ثمّ بُدِئَ في وجعِهِ الذي ماتَ فيه!

وبَدأ الوجَعُ يشتدُّ على رسولِ اللهِ ﷺ شيئًا فشيئًا.

وأخرجَ ابنُ ماجه من حديثِ أبي سعيدِ الخدريِّ رضي الله عنه قال: دَخَلتُ على النبيِّ ﷺ وهو يُوعَك، فوضَعتُ يدي عليهِ فوجدتُ حرَّةً بين يديّ فوقَ اللّحاف، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ ما أشدّها عليك!

قالَ: إنّا كذلكَ يُضعَّفُ لنا البلاءُ، ويُضعَّفُ لنا الأجرُ!

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يخرجُ إلى النّاس بالرغمِ من كلِّ الوجَعِ الذي فيه.

وأخرجَ البخاريُّ والدّارمِيُّ، واللفظُ للدّارمي، من حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ

عنها قالت: قالَ النبيُّ ﷺ: صُبُّوا عليَّ سبعَ قِرَبٍ من سبعِ آبارٍ شتى، حتى أخرجَ إلى النَّاس فأعهدَ إليهم!

فأقعدناهُ في مِخضبٍ لحفصةَ، والمِخضَبُ إناءٌ تُغسلُ فيه الثياب. فصببنا عليه الماءَ صبًا، فوجدَ راحةً، فخرجَ فصعِدَ المنبر، فحمدَ الله وأثنى عليه، واستغفرَ للشهداءِ من أصحابِ أُحُدٍ ودعا لهم.

وروى البخاريُّ ومُسلمٌ من حديثِ عُقبةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه قال: صعِدَ النبيُّ ﷺ المنبرَ فقال: إني بينَ أيديكم فَرَطٌ، وأنا عليكم شهيدٌ، وإنَّ موعدَكمُ الحوضُ، وإني لأنظُرُ إليه من مقامي هذا، وإني لستُ أخشى عليكم أن تُشركوا، ولكني أخشى عليكم الدُّنيا أن تُنافِسوها!

قالَ عُقبةُ: فكانت آخِرَ نظرةٍ نظرتُها إلى رسولِ اللهِ ﷺ.

وأخرجَ البخاريُّ في لفظٍ آخر: قالَ: صعِدَ النبيُّ ﷺ المنبرَ، وكانَ آخرَ مجلسٍ جلَسَهُ، مُتعطِّفًا مِلحفةً على منكِبيهِ، قد عَصَبَ رأسَهُ بعِصابةٍ دَسِمةٍ، فحمدَ اللهَ وأثنى عليهِ ثمَّ قال: أيُّها النَّاس، إليَّ!

فثابوا إليهِ، ثمَّ قالَ: أمّا بعد: فإنَّ هذا الحيَّ من الأنصارِ يقلّونَ ويكثرُ النَّاس؛ فمن وَلِيَ شيئًا من أمةِ محمَّدٍ ﷺ فاستطاعَ أن يضرَّ فيه أحدًا أو ينفعَ فيه أحدًا، فليقبلْ من مُحسنِهم، ويتجاوَزْ عن مُسيئِهم!

وكانَ ممّا قالهُ على المِنبرِ يومئذٍ: إنَّ اللهَ خيَّرَ عبدًا بينَ الدُّنيا وبينَ ما عندَهُ، فاختارَ ذلكَ العبدُ ما عندَ اللهِ!

فبكى أبو بكرٍ رضي الله عنه ، فعجِبَ الصَّحابةُ لِبكائِهِ أن يُخبِرَ رسولُ اللهِ ﷺ عن عبدٍ خُيِّرَ!

فكانَ رسولُ اللهِ ﷺ هو المُخيَّر، وكانَ أبو بكرٍ أعلمَهم!

وفي لفظٍ للترمذيِّ قال: قالَ أبو بكرٍ: بل نفديكَ بآبائِنا وأموالِنا!

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ من أمَنِّ النَّاس عليَّ في صحبتِهِ ومالِهِ أبو بكرٍ، ولو كنتُ متخذًا خليلاً غيرَ ربي لاتخذتُ أبا بكرٍ، ولكن أخوَّةُ الإسلامِ

ومودته. لا يبقينّ في المسجدِ بابٌ إلّا سُدّ، إلّا بابَ أبي بكرٍ!

وكانَ النبيُّ ﷺ، برغمِ ما به من شدّةِ المرضِ، حريصًا على عقيدةِ هذه الأمّة.

أخرجَ مسلمٌ من حديثِ جابرٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قبل موتِهِ بثلاثةِ أيامٍ يقول: لا يموتنّ أحدُكم إلّا وهو يُحسِنُ باللهِ الظنَّ!

وروى البخاريُّ ومسلمٌ من حديثِ عائشةَ وابن عبّاس، قالا: لما نَزَلَ برسولِ اللهِ ﷺ، طَفِقَ يَطرَحُ خميصةً له على وجهِهِ، فإذا اغتمَّ بها كشفَها عن وجهِهِ، فقالَ وهو كذلك: لعنةُ اللهِ على اليهودِ والنصارى، اتّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ!

يحذِّرُ ما صَنعوا.

وكانت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها أحبَّ أزواجِ النبيِّ ﷺ إلى قلبِهِ، والمرءُ إذا نَزَلَ بهِ الوجَعُ فَزِعَ إلى حبيبِهِ، فكانَ ﷺ يرغَبُ أن يُمرَّضَ في بيتِ عائشةَ. فجعَلَ يقولُ: أينَ أنا غدًا؟ أينَ أنا غدًا؟

يريدُ يومَ عائشةَ. فأذِنَ له أزواجُهُ أن يكونَ حيثُ شاءَ.

وروى أبو داود أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بعثَ إلى النساءِ فاجتمعنَ، فقالَ: إني لا أستطيعُ أن أدورَ بينكنَّ، فإن رأيتُنَّ أن تأذَنَّ لي فأكونَ عندَ عائشةَ فعلتُنَّ!

فأذِنَّ له.

وروى مسلمٌ والبخاريُّ من حديث عائشة، قالت: كانَ النبيُّ ﷺ يَنفثُ على نفسِهِ في المرضِ الذي ماتَ فيه بالمعوِّذات، فلمّا ثَقُلَ كنتُ أنفثُ عليهِ بهنَّ، وأمسَحُ بيدِ نفسِهِ لِبركتِها.

وأخرجَ البخاريُّ من حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: قالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: يا عائشةُ، ما أزالُ أجِدُ ألمَ الطعامِ الذي أكلتُ بخيبرَ، فهذا أوانُ وجدتُ انقطاعَ أبهري من ذلك السمِّ!

روى البخاريُ ومسلمٌ من حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: دعا النبيُ ﷺ فاطمةَ ابنتَهُ في شكواهُ الذي قُبِضَ فيه، فسارَّها بشيءٍ فبكت، ثمّ دعاها فسارَّها فضحِكَت.

فسألتُها عن ذلك، فقالت: سارّني النبيُّ ﷺ أنّه يُقبضُ في وجعه الذي تُوفّيَ فيه فبكيتُ، ثمّ سارّني فأخبرني أني أوّلُ أهلِ بيتِهِ أتبعُهُ، فضحكتُ!

وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ يؤمُّ النّاس رغمَ مرضِهِ، فلمّا اشتدَّ عليهِ المرضُ ولم يَعُد يقدِرُ على الخروجِ إلى المسجد، أمرَ أبا بكرٍ رضي الله عنه أن يُصلّي مكانَهُ بالنّاس.

روى البخاريُ من حديثِ عُبيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عُتبةَ قال: دخلتُ على عائشةَ رضيَ اللهُ عنها فقلتُ: ألا تحدثيني عن مرضِ رسولِ اللهِ ﷺ؟

قالت: بلى، ثَقُلَ النبيُّ ﷺ فقال: أصلّى النّاس؟

قلنا: لا، هم ينتظرونك.

قال: ضعوا لي ماءً في المِخضب.

قالت: ففعلنا، فاغتسلَ، فذهبَ لِينُوءَ فأُغميَ عليهِ، ثمّ أفاقَ، فقال ﷺ: أصلّى النّاس؟

قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسولَ الله.

قال: ضعوا لي ماءً في المِخضب.

قالت: فقعدَ فاغتسلَ، ثمّ ذهبَ لِينُوءَ فأُغميَ عليهِ، ثمّ أفاقَ، فقال: أصلّى النّاس؟

قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسولَ الله.

فقال: ضعوا لي ماءً في المِخضب.

فقعدَ فاغتسلَ، ثمّ ذهبَ لِينُوءَ فأُغميَ عليهِ، ثمّ أفاقَ فقال: أصلّى النّاس؟

فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسولَ الله، والنّاس عكوفٌ في المسجد ينتظرون النبيّ ﷺ لصلاةِ العشاءِ الآخرة.

فأرسلَ النبيّ ﷺ إلى أبي بكرٍ بأن يصلّي بالنّاس، فأتاهُ الرسولُ فقال: إنّ رسولَ اللهِ ﷺ يأمرك أن تصلّيَ بالنّاس.

فقال أبو بكرٍ، وكان رجلًا رقيقًا: يا عمرُ صلِّ بالنّاس.

فقال له عمرُ: أنت أحقُّ بذلك.

فصلّى أبو بكرٍ تلك الأيامَ.

ثمّ إنّ النبيّ ﷺ وجدَ من نفسِه خِفّةً، فخرجَ بينَ رجلينِ، أحدهما العباسُ، لصلاةِ الظهرِ، وأبو بكرٍ يصلّي بالنّاس.

فلمّا رآهُ أبو بكرٍ ذهبَ ليتأخرَ، فأومأ إليهِ النبيُّ ﷺ ألّا يتأخر.

قال: أجلِساني إلى جنبِه.

فأجلساهُ إلى جنبِ أبي بكرٍ.

فجعلَ أبو بكرٍ يصلّي وهو يأتمُّ بصلاةِ النبيّ ﷺ، والنّاس بصلاةِ أبي بكرٍ، والنبيُّ ﷺ قاعدٌ.

قال عُبيدُ اللهِ: فدخلتُ على عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما فقُلتُ له: ألا أعرِضُ عليكَ ما حدّثتني عائشةُ عن مرضِ النبيّ ﷺ؟

قال: هاتِ.

فعرضتُ عليهِ حديثَها، فما أنكرَ منه شيئًا غيرَ أنه قال: أسمّتْ لك الرجلَ الذي كان مع العباسِ؟

قلتُ: لا.

قال: هو عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه .

وروى البخاريُّ من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: إنّ المسلمينَ

بينما هم في الفجرِ يومَ الاثنين، وأبو بكرٍ رضي الله عنه يصلّي بهم، إذ فاجأهمُ النبيُّ ﷺ قد كشفَ سترَ حجرةِ عائشةَ رضي الله عنها، فنظرَ إليهم وهم صفوفٌ، فتبسّمَ يضحك.

فنكصَ أبو بكرٍ رضي الله عنه على عقبيهِ، وظنَّ أنَّ رسول الله ﷺ يريدُ أن يخرجَ إلى الصّلاة، وهمَّ المسلمونَ أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا بالنبيِّ ﷺ حينَ رأوه.

فأشارَ بيدِهِ: أن أتمّوا.

ثمّ دخلَ الحجرةَ وأرخى السّترَ.

وروى البخاريُّ في الأدبِ المفردِ من حديثِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه عنه خرجَ من عندِ رسولِ اللهِ ﷺ في وجعِهِ الذي تُوفِّيَ به، فقال النّاس: يا أبا الحسنِ، كيفَ أصبحَ رسولُ اللهِ ﷺ؟

قال: أصبحَ بحمدِ اللهِ بارئًا.

قال: فأخذَ العبّاسُ بن عبدِ المطلبِ بيدِهِ فقال: أرأيتَكَ؟ فأنتَ واللهِ بعدَ ثلاثٍ عبدُ العصا، وإنّي واللهِ لأرى رسولَ اللهِ ﷺ سوفَ يُتوفّى في مرضِهِ هذا؛ إنّي أعرفُ وجوهَ بني عبدِ المطلبِ عند الموتِ.

فاذهبْ بنا إلى رسولِ اللهِ ﷺ فلنسألْه: فِيمَن هذا الأمرُ؟ فإن كان فينا عَلِمْنا ذلك، وإن كان في غيرِنا كلّمناهُ فأوصى بنا

فقال عليٌّ رضي الله عنه : إنّا واللهِ، إن سألناهُ فمنعَناها، لا يُعطيها النّاس بعدَه أبدًا. وإنّي واللهِ لا أسألُها رسولَ اللهِ ﷺ أبدًا!

ولما ثَقُلَ النبيُّ ﷺ جعلَ يتغشّاهُ الكَرْبُ، فقالت فاطمةُ رضيَ اللهُ عنها: وا كَرْبَ أبتاه!

فقال ﷺ: ليسَ على أبيكِ كَرْبٌ بعدَ اليوم!

روى البُخاريُّ من حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، قالتْ: دخلَ عليَّ عبدُ الرَّحمنِ بن أبي بكر وبيدِهِ السِّواكُ، وأنا مُسندةٌ رسولَ الله ﷺ، فرأيتُهُ ينظُرُ إليه، وعرَفْتُ أنَّهُ يُحبُّ السِّواكَ، فقلتُ: آخُذُهُ لكَ؟

فأشارَ برأسِهِ: أنْ نعَمْ.

فتناولتُهُ، فاشتدَّ عليه،

وقُلتُ: أُليِّنُهُ لكَ؟

فأشارَ برأسِهِ: أنْ نعَمْ.

فليَّنتُهُ، فأمَرَّهُ، وبينَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ، أو عُلبةٌ فيها ماءٌ، فجعلَ يُدخِلُ يَدَيْهِ في الماءِ، فيَمسَحُ بهما وجهَهُ، ويقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، إنَّ للموتِ سَكَراتٍ!

روى البُخاريُّ من حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، قالتْ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ وهوَ صَحيحٌ: إنَّهُ لَمْ يُقبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حتَّى يَرَى مَقعَدَهُ مِنَ الجنَّةِ، ثمَّ يُخيَّرُ.

فلمَّا نَزَلَ به، ورأسُهُ على فَخِذي، غُشِيَ عليهِ ساعةً، ثمَّ أفاقَ، فأشخَصَ بصرَهُ إلى السَّقفِ، ثمَّ قالَ:

اللهمَّ الرَّفيقَ الأعلى.

فقلتُ: إذًا لا يختارُنا، وعرَفتُ أنَّهُ الحديثُ الَّذي كانَ يُحدِّثُنا به.

قالتْ: فكانتْ تلكَ آخرَ كلمةٍ تكلَّمَ بها النبيُّ ﷺ: اللهمَّ الرَّفيقَ الأعلى.

روى أحمدُ من حديثِ عائشة رضي الله عنها، قالتْ: فبينما رأسُهُ ﷺ ذاتَ يومٍ على مِنكبي، إذ مالَ رأسُهُ نحوَ رأسي، فظنَنتُ أنَّهُ يريدُ من رأسي حاجةً، فخرجَتْ من فيه نُطفةٌ باردةٌ، فوقعتْ على ثُغرةِ نَحري، فاقشعرَّ لها جلدي، فظننتُ أنه غُشِيَ عليه، فسجَّيتُهُ ثوبًا!

وفي روايةٍ: فلمَّا خرجتْ نفسه ﷺ لم أجد ريحاً أطيبَ منها!

روى البخاريُّ من حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، قالتْ: فقَبَضَهُ اللهُ بينَ

نحري وسَحْري، أي بينَ عُنقي وصدري، وخالَطَ رِيقُهُ رِيقي!

وفي روايةِ أحمد، من حديثِ عائشة، أنّها بعد أن سجّت النبيّ ﷺ، قالت:

فجاء عمرُ والمغيرةُ بنُ شعبةَ فاستأذنا، فأذنتُ لهما، وجذبْتُ الحجاب، فنظرَ عمرُ إليه، فقال: واغُشياه! ما أشدّ غَشيَ رسولِ الله ﷺ!

ثمّ قام.

فلمّا دَنَوا من البابِ قال المغيرةُ لعمرَ: ماتَ رسولُ اللهِ ﷺ!

قال: كذبتَ، بل أنتَ رجلٌ تَخوشكَ فِتنةٌ!

إنّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يموتُ حتّى يُفنيَ اللهُ المنافقين.

وروى البخاريُّ: عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، قالتْ: إنّ أبا بكرٍ رضي الله عنه أقبلَ على فَرَسٍ من مَسكنِه بالسُّنح، حتّى نزلَ فدخلَ المسجدَ، فلم يُكلّمِ النّاس، حتّى دخلَ عليّ.

فتيمّمَ رسولَ اللهِ ﷺ وهو مُغشّى بثوبٍ حِبَرَة، فكشفَ عن وجهِه، ثمّ أكبّ عليه فقبّلَهُ وبكى، وقال: بأبي أنتَ وأمّي، واللهِ! لا يَجمعُ اللهُ عليكَ موتَتين، أمّا الموتةُ التي كُتِبت عليكَ فقد مِتّها!

وفي فتحِ الباري لابنِ حجرٍ: قالَ الزُّهريُّ: حدّثني أبو سلمةَ، عن عبدِ اللهِ بنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: أنّ أبا بكرٍ رضي الله عنه خرجَ، وعمرُ بنُ الخطّابِ رضي الله عنه يُكلّمُ النّاس، فقال لهُ: اجلسْ يا عمرُ!

فأبى عمرُ أنْ يجلسَ.

فأقبلَ النّاس إلى أبي بكرٍ وتركوا عمرَ.

فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه : أمّا بعدُ، فمَن كان منكم يعبدُ محمّدًا ﷺ فإنّ محمّدًا قد مات،

ومَن كان منكم يعبدُ اللهَ، فإنّ اللهَ حيّ لا يموتُ.

ثمّ تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...﴾.

قال ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: واللهِ! لكأنّ النّاس لم يعلموا أنّ الله أنزل هذه الآيةَ حتّى تلاها أبو بكرٍ، فتلقّاها النّاس كلُّهم منهُ، فما أسمعُ بشرًا من النّاس إلّا يتلوها.

قال سعيدُ بنُ المسيّب: فقال عمرُ رضي الله عنه : واللهِ! ما هو إلّا أنْ سمعتُ أبا بكرٍ تلاها، فعقرتُ؛ حتّى ما تُقِلُّني رِجلايَ، وحتّى أهويتُ إلى الأرضِ حين سمعتُه يقرأها، علمتُ أنّ النبيّ ﷺ قد مات.

وروى أبو داود من حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، قالتْ: لمّا أرادوا غسلَ النبيّ ﷺ، قالوا: لا ندري، أنُجرّدُ رسولَ اللهِ ﷺ من ثيابِهِ كما نجرّدُ موتانا؟ أم نغسلُهُ وعليهِ ثيابُه؟

فلمّا اختلفوا، ألقى اللهُ عليهمُ النومَ،

حتّى ما منهم رجلٌ إلّا وذقنُهُ في صدرِه.

ثمّ كلّمهم مُكلّمٌ من ناحيةِ البيتِ، لا يدرونَ مَن هو، فقال: اغسلوا النبيّ ﷺ وعليهِ ثيابُهُ.

فقاموا فغسّلوهُ وعليهِ قميصُه، يصبّون الماءَ فوقَ القميصِ، ويَدلِكونَهُ بالقميصِ!

وروى أحمدُ في مسنده من حديثِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما، قال: لمّا اجتمعَ القومُ لغُسلِ رسولِ اللهِ ﷺ، وليس في البيتِ إلّا أهلُه:

عمّهُ العبّاس بنُ عبدِ المطلب، وعليّ بنُ أبي طالب، والفضلُ بنُ العبّاس، وقُثَمُ بن العبّاس، وأسامةُ بنُ زيدِ بنِ حارثة، وصالحٌ مولاهُ.

فلمّا أجمعوا الغُسلَ، نادى من وراءِ الباب: أوسُ بنُ خَوْلي الأنصاري، وكان بَدريًا، عليّ بنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه ، فقال له: يا عليّ! نَشدْتُكَ اللهَ وحظَّنا من رسولِ اللهِ ﷺ.

فقال لهُ عليٌ: ادخل.

فدخلَ، فحضرَ غُسلَ رسولِ اللهِ ﷺ، ولم يَلِ من غُسله شيئًا.

قال ابنُ عبّاسٍ: فأسنده عليٌ إلى صدرِه، وعليه قميصُه، وكان العباسُ والفضلُ وقثمُ يُقلّبونَهُ مع عليِّ بنِ أبي طالب، وكان أسامةُ بنُ زيدٍ وصالحٌ مولاهما يَصُبّانِ الماءَ.

وجعلَ عليٌ رضي الله عنه يَغسلهُ، ولم يُرَ من رسولِ اللهِ ﷺ شيءٌ ممّا يُرى من الميّت،

وهو يقول: بأبي أنتَ وأمّي، ما أطيبَك حيًا وميّتًا!

وروى الشّيخان من حديثِ عائشة رضي الله عنها، قالت: كُفّنَ رسول اللهِ ﷺ في ثلاثةِ أثوابٍ بيضٍ سَحوليّةٍ مِنْ كُرسُفٍ، لَيسَ فيها قَميصٌ ولا عِمامةٌ.

ودُفِنَ رسولُ اللهِ ﷺ لَحدًا.

ففي مسند أحمد يروى لمّا فرغوا من غُسلِ رسولِ اللهِ ﷺ وتكفينه:

دعا العبّاسُ رضي الله عنه رجلين، فقال:

ليذهبْ أحدُكما إلى أبي عبيدةَ بنِ الجرّاحِ، وكان أبو عبيدةَ يَضْرَحُ لأهلِ مكّة، وليذهبِ الآخرُ إلى أبي طلحةَ بنِ سهلٍ الأنصاري، وكان أبو طلحةَ يَلْحَدُ لأهلِ المدينةِ.

قال: ثمّ قال العبّاسُ لهما حين سرّحَهُما:

اللهمّ خِرْ لرسولك.

قال ابنُ عبّاس: فذهبا، فلم يجدْ صاحبُ أبي عبيدةَ أبا عبيدة، ووجدَ صاحبُ أبي طلحةَ أبا طلحةَ، فجاء به، فلَحَدَ لرسولِ اللهِ ﷺ.

وصلّى النّاس على رسولِ اللهِ ﷺ أفرادًا، ليس لهم إمامٌ!

وروى ابنُ سعدٍ، وابنُ ماجه، وأبو يعلى عن ابنِ عبّاسٍ رضي اللهُ عنهما قال: لمّا فُرِغَ من جهازِ رسولِ الله ﷺ يوم الثلاثاء، وُضِعَ على سريرِه في بيتِه.

وقد كان المسلمونَ اختلَفوا في دفنه، فقال قائلٌ: ندفنه مع أصحابه بالبقيع.

وقال قائلٌ: ادفنوه في مسجدِه.

فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: ما قُبِضَ نبيٌّ إلّا دُفِنَ حيثُ يُقبَضُ.

فرفعوا فراشَ رسولِ اللهِ ﷺ الذي تُوفي عليه،

فحفروا لهُ تحتهُ.

وروى البخاريُّ من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه ، قال: فلمّا دُفِنَ رسولُ اللهِ ﷺ، مررتُ بمنزلِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها، فقالتْ:

يا أنسُ، أطابَتْ أنفسُكم أنْ تحثُوا على رسولِ اللهِ ﷺ التُرابَ؟!

وروى الترمذي، وابنُ ماجه، وأحمدُ من حديثِ أنسٍ رضي الله عنه ، قال:

لما كان اليومُ الذي دخلَ فيه رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ، أضاءَ منها كلُّ شيءٍ.

فلمّا كان اليومُ الذي ماتَ فيه، أظلمَ منها كلُّ شيءٍ.

وما نفضنا عن النبيِّ ﷺ الأيديَ، حتّى أنكرنا قلوبَنَا!

هكذا انطوى آخرُ فجرٍ أطلَّ على وجه النّبيّ الكريم ﷺ!

وهكذا أغلقتِ السّماءُ آخرَ نافذةٍ كانت تُطلُّ على الأرضِ بنورٍ يمشي عليها. سكنَ الصوتُ الذي كانتِ الكائناتُ تُصغي له، وغابَ الوجهُ الذي كانتِ الأرواحُ تستدلُّ بهِ على الحياة.

ما كان الفقدُ فقدَ جسدٍ، ولكنّهُ فقدُ روحِ الدُّنيا، وانطفاءُ السراجِ الذي ما

وقدَ إلّا ليضيءَ للبشرِ طريقَ ربّهم.

ذرفتِ المدينةُ دمعَها، وانحنى نخيلُها وجدرانُها، فساكنُها الّذي كان يملأُها أمانًا، صار يسكنُ في جوفِ الثرى، والسّماء وحدها تعلمُ قدر هذا البكاء!

أيُّ قلبٍ ذاكَ الّذي استطاعَ أنْ يهيلَ الترابَ على مَن بُعث رحمةً للعالمين؟

وأيُّ فراقٍ هذا؟

فراقٌ لم تعرفِ الأرضُ مثلَه، ولن تعرفَ.

ولكنَّ الرسالةَ لم تُدفَن، والوحيَ لم يُوارَ تحتَ الحجارةِ، ومدينتُه وإنْ فقدتْ جسدَه، فقد ورثتْ نورَهُ، واحتفظتْ بآثارِ خطاه.

رحلَ النبيُّ ﷺ... لكنْ بقيَ الإسلامُ، وبقيَ القرآنُ، وبقيتِ المحبّةُ في الصدورِ لا يمحوها موتٌ ولا يغلبُها زمانٌ.

وإنْ غابَ الجسدُ تحتَ الثرى، فالأرواحُ الطاهرةُ لا تُغيّبُها القبورُ؛ بل تسكنُ في القلبِ ما دامَ نابضًا بالشهادةِ: محمّدٌ رسولُ الله.

خاتمة:

هكذا تَنتهي صَفحاتُ هذا الكِتابِ، لكنَّ السّيرَةَ لا تَنتهي؛ فهيَ ليستْ قِصّةً تُروى، ولا أحداثًا تُبقى حَبيسَةَ الوَرَقِ والأقلامِ، بَلْ نورٌ يتدفّقُ في العُروقِ، ودَرْبٌ يَسيرُ بالقلوبِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ.

مَرَرْنا مَعًا على تاريخٍ لَيسَ كتاريخِ النّاسِ، وعلى حياةٍ لَيستْ كالحَيواتِ: مِنْ مَوْلِدِ النّورِ في مكّةَ، إلى اكتِمالِ الرّسالَةِ في المَدينَةِ؛ ثلاثٌ وعِشرونَ سَنَةً، ولكنّها غمَرَ الدّنيا كلَّها.

تَغيّرَ فيها وَجهُ العالَمِ، وانتَقَلَتِ البَشريّةُ مِنْ ظُلُماتِ الجَهلِ إلى بَصائرِ الهِدايَةِ، ومِنْ عِبادَةِ العِبادِ إلى عِبادَةِ رَبِّ العِبادِ.

عَلّمَنا رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ الإيمانَ لَيسَ كلِماتٍ تُقالُ، بَلْ عَمَلٌ وصَبرٌ وَجِهادٌ، وَرِحلَةٌ طَويلَةٌ لا تَعرِفُ التَّوقُّفَ. وَأنَّ الدُّروسَ الّتي خَلّفَها ما صُنِعَتْ لِتُحفَظَ فِي الذّاكِرَةِ فَحَسبُ، بَلْ لِتَسري فِي واقِعِنا، وَتُشَكِّلَ حَياتَنا، وَتُعيدَ بِناءَ الإنسانِ فِينا.

فَإنْ كانَ ﷺ قَدْ رَحَلَ عَنِ الأرْضِ، فَمَنهَجُهُ ما زالَ قائِمًا، وَسُنّتُهُ بَينَ أيدينا، وَرِسالَتُهُ أمانَةٌ نُحاسَبُ عَلَيها.

إنَّ السّيرَةَ، كما شَهِدْنا، واقِعٌ يُعاشُ لا تاريخٌ يُقرَأُ، وَكُلُّ فَصلٍ مِنْ حَياتِهِ ﷺ يُنادينا لِنُواصِلَ الطّريقَ: طَريقَ الصّدقِ، وَالعَدلِ، وَالرّحمَةِ، وَالنّورِ الّذي لا يَخبو.

نَسألُ اللهَ العَظيمَ أنْ يَجعَلَ لَنا فِي سيرَةِ نَبيّهِ ﷺ زادًا لا يَنفَدُ، وَأنْ يَجمَعَنا بِهِ عِندَ الحَوضِ، وَتَحتَ لِوائِهِ، وَفِي الفِردَوسِ الأعلَى.

وَالحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ، وَصَلّى اللهُ على سَيّدِنا مُحمّدٍ، وَعلى آلِهِ وَصَحبِهِ أجمَعينَ.

Kalemat

أدهم شرقاوي

هذا الكتابُ لا يُلغِي ما قبله، بل يُكمله!
نحتاجُ أنْ نتدارسَ السِّيرة في كلِّ عصرٍ، لنُنْزلَها
منزلَ الأحداث، فهي دستورُ حياة!
ولا يُغلِقُ البابَ على ما بعدهُ،
بل يفتحُهُ على مِصراعيه!
السِّيرةُ هي السِّيرةُ بأحداثها التي وقعتْ، ولكنَّها
ليستْ واحدةً إذا ما غاصتْ فيها عقولُ الرِّجال!
لم أحاولْ كتابةَ آخرِ ما يُقالُ، فالسِّيرةُ لا تنضبُ!
كلُّ ما حاولتُ فعله أنْ أنقلها من صفحة التَّاريخ
إلى واقعِ وحياةِ كلِّ واحدٍ منَّا!

WWW.KALEMAT.COM